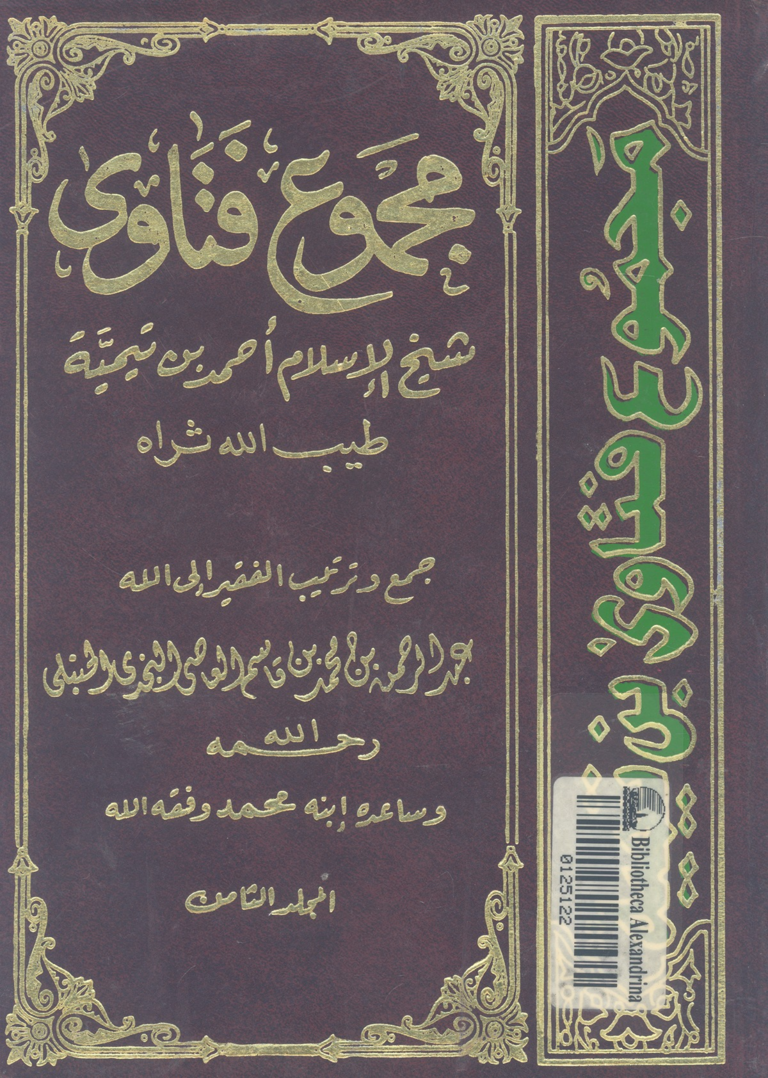
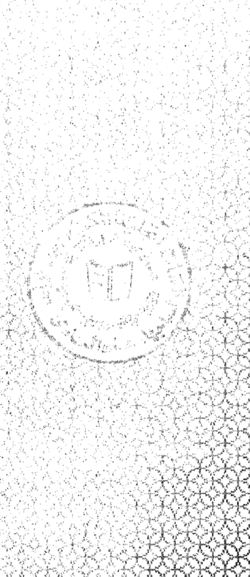
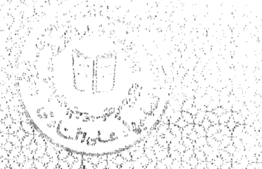

مجموع فتاوى
شيخ الإسلام أحمد بن تيمية
طيب الله ثراه
جمع وترتيب الفقير إلى الله
عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي الحنبلي
رحمه الله
وساعده ابنه محمد وفقه الله
المجلد الثامن
مجموع فتاوى ابن تيمية
Bibliotheca Alexandrina
0125122







مجموع فتاوى
شيخ الإسلام أحمد بن تيمية

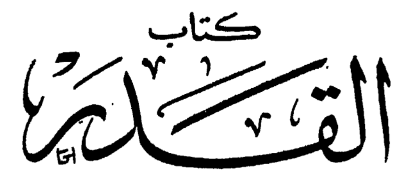
قدس الله روحه

جمع وترتيب الفقير إلى الله

عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي الحنبلي

وساعده ابنه محمد وفقهما الله

المجلد الثامن


كتاب
القدر

تنبيه

من القدر ان بعض المصححين فصل خطبة المجموع منـــه ، وقد سلمت الكتاب الاول منه إلى الطبع مرتبا مبدوءا بأرقام من أول الخطبة الى آخر ذلك الكتاب ، وايضا لا يدور فى خلد ناظر الى تلك الارقام فى مقدمـــة الابن وفقه الله لتلك الكتب والمجاميع المنقول منها او المصحح عليهـــا ان ما ليس منسوبا اليها لا يوثق به فأنا بحمد الله أخـــــذت عن ثقات ونقلت من مكتباتهم وأمثالهم مما هو من نقل السلف الصالح او منقول من كتبهم ما قد أثبتوه لشيخ الاســـلام واعتنوا به واعتمدوه وأبرزوه ونقلوا منه فى مؤلفاتهم وسرت على منهاجهم ٠ ولم أضع فى هـــــذا المجموع الا ما أعرفه لشيخ الاســـلام ، وقد أعرضت عن نزر قليل نسب اليه كمنظومة فى عقائد ، ونقل محرف لترك البداءة بقتال الكفار وقد رد عليه الشيخ سليمان ابن سحمان وأوضح تحريفاته فى عدة كراريس ٠ ورسالـــة حرفها احد اعدائه فانتدب لها علمـــاء عصره وزيفوا ما زوروه على الشيخ ولدى من رسالته عدة نسخ مخطوطة ومطبوعة وقد صححت كثيرا من هـــذا المجموع عـــلى مخطوط ومطبوع كما صححنا ما نقلناه من الشـــــام ، وبقى بخط الشيخ مجموع

ورسائل فى اثناء مجاميع أخذناها فى أفــلام وبقى مسائل فى مصر وكان الكتاب جاهزا مرتبا منذ قدمت من الشام وطلب نشره منى مرارا فتأنيت به للحصول عـــلى تلك المسائل التى اطلعت عليها ، ولمــا التزم لى بالحصول عليها أذنت فى طبعه ، وجزى الله من سعى فى ابرازه أحسن الجزاء وصلى الله عــلى محمد .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده .

قال شيخ الاسلام

احمد بن تيمية قدس الله روحه

فصل

في «قدرة الرب» عز وجل

اتفق المسلمون وسائر اهل الملل على ان الله على كل شيء قدير ، كما نطق بذلك القرآن فى مواضع كثيرة جداً . وقد بسطت الكلام فى الرد على من انكر قدرة الرب فى غير موضع ، كما قد كتبناه على « الأربعين » ، و « المحصل» وفى شرح « الاصبهانية » وغير ذلك ، وتكلمنا على ما ذكره الرازي وغيره

فى « مسألة كون الرب قادراً مختاراً » . وما وقع فيها من التقصير الكثير مما ليس هذا موضعه .

(والمقصود هنا) الـكلام بين اهل الملل الذين يصدقون الرسل فنقول: هنا مسائل :

(المسألة الأولى) : قد اخبر الله انه على كل شيء قدير ، والناس فى هذا على ثلاثة أقوال :

« طائفة » تقول هذا عام يدخل فيه الممتنع لذاته من الجمع بين الضدين وكذلك يدخل في المقدور ، كما قال ذلك طائفة منهم ابن حزم.

و « طائفة » تقول : هذا عام مخصوص يخص منه الممتنع لذاته ؛ فانه وان كان شيئاً فانه لا يدخل فى المقدور كما ذكر ذلك ابن عطية وغيره ، وكلا القولين خطأ .

(والصواب) هو القول الثالث الذي عليه عامة النظار ، وهو ان الممتنع لذاته ليس شيئاً ألبتة ، وان كانوا متنازعين فى المعدوم ، فان الممتنع لذاته لا يمكن تحققه فى الخارج . ولا يتصوره الذهن ثابتاً في الخارج ؛ ولكن يقدر اجتماعهما فى الذهن ، ثم يحكم على ذلك بأنه ممتنع فى الخارج ؛ إذ كان يمتنع تحققه فى الأعيان ، وتصوره فى الأذهان ؛ إلا على وجه التمثيل : بأن يقال : قد تجتمع

الحركة والسكون فى الشيء ، فهل يمكن فى الخارج أن يجتمع السواد والبياض فى محل واحد . كما تجتمع الحركة والسكون. فيقال : هـذا غير ممكن ، فيقدر اجتماع نظير الممكن ثم يحكم بامتناعه . وأما نفس اجتماع البياض والسواد فى محل واحد فلا يمكن ولا يعقل ، فليس بشيء لا فى الأعيان ولا فى الأذهان . فلم يدخل فى قوله : (وهو على كل شيء قدير) .

(المسألة الثانيـة) : ان المعـدوم ليس بشيء فى الخـارج عند الجمهور وهو الصواب .

وقد يطلقون ان الشيء هو الموجود .فيقال على هذا : فيلزم أن لا يكون قادراً إلا على موجود ، وما لم يخلقه لا يكون قادراً [عليه] . وهذا قول بعض اهل البدع ، قالوا : لا يكون قادراً إلا على ما اراده ؛ دون ما لم يرده ، ويحكي هذا عن تلميذ النظام . والذين قالوا : إن الشيء هـو الموجود من نظار المثبتة كالأشعري ، ومن وافقه من أتباع الأئمة : احمد وغير احمد ، كالقاضي ابي يعلى وابن الزاغوني وغيرهما . يقولون : انه قادر على الموجود ، فيقـال : ان هؤلاء اثبتوا ما لم تثبته الآية . فالآية اثبتت قدرته عـلى الموجود ، وهؤلاء قالوا : هو قادر على الموجود والمعدوم .

والتحقيق ان الشيء اسم لما يوجد فى الأعيان ، ولما يتصور فى الأذهان . فما قدره الله وعلم انه سيكون هو شيء فى التقدير والعلم والكتاب ، وان لم يكن

شيئاً فى الخارج . ومنه قوله : (انما امره اذا اراد شيئاً ان يقول له كن فيكون)
ولفظ الشيء في الآية يتناول هذا وهذا . فهوعلى كل شيء ماوجد وكل ماتصوره
الذهن موجوداً ، إن تصور ان يكون موجوداً قــدير ؛ لا يستثنى من ذلك
شيء ، ولا يزاد عليه شيء كما قال تعالى : (بلى قادرين على ان نسوي بنانه)
وقال : (قل هو القادر على ان يبعث عليــكم عذاباً من فوقــكم او من تحت
ارجلــكم) وقد ثبت فى الصحيحين : انها لما نزلت قال النبي صلى الله عليه وسلم
« اعوذ بوجهك » فلما نزل : (او يلبسكم شيعاً) الآية قال : « هاتان اهون » فهو
قادر على الأولتين وإن لم يفعلها وقال : (وأنزلنا من السماءماء بقدر فأسكناه
فى الارض وانا على ذهاب به لقادرون) .

قال المفسرون : لقادرون على ان نذهب به حتى تموتوا عطشاً ، وتهلك
مواشيكم ، وتخرب اراضيكم . ومعلوم إنه لم يذهب به ، وهذا كقوله : (افرأيتم
الماء الذي تشربون) الى قوله : (وتجعلون رزقــكم انــكم تكذبون) وهــذا
يدل على انه قادر على ما لا يفعله . فانه اخبر انه لو شاء جعل الماء اجاجا وهو لم
يفعله ، ومثل هذا : (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداهــا) . (ولو شاء ربك
لآمن من فى الارض) . (ولو شاء الله ما اقتتلوا) .فانه اخبر فى غير موضع انه
لو شاء لفعل اشياء وهو لم يفعلها ، فلو لم يكن قادراً عليهــا لــكان اذا شاءها لم
يمكن فعلها .

(المسألة الثالثــة) : انه عــلى كل شيء قدير ، فيدخــل فى ذلك

افعـال العباد وغير افعـال العباد . واكثر المعتزلة يقولون : ان افعـال العبد غير مقدورة .

(المسألة الرابعة) : انه يدخل فى ذلك افعال نفسه ، وقد نطقت النصوص بهذا ، وهذا كقوله تعالى : (اوليس الذي خلق السموات والارض بقادر على ان يخلق مثلهم) (اليس ذلك بقادر على ان يحيي الموتى) ؟ (بلى قادرين على ان نسوي بنانه) ونظائره كثيرة .

والقدرة على الأعيان جاءت فى مثل قوله : (ولقد خلقنا الانسان) (ايحسب ان لن يقدر عليه احد) وجاءت منصوصاً عليها فى الكتاب والسنة. اما الكتاب فقوله : (فاما نذهبن بك فانا منهم منتقمون) فبين انه سبحانه يقدر عليهم أنفسهم ، وهذا نص فى قدرته على الأعيان المفعولة ، وقوله : (وما انت عليهم بجبار) و (لست عليهم بمسيطر) ونحو ذلك . وهو يدل بمفهومه على ان الرب هو الجبار عليهم المسيطر ، وذلك يستلزم قدرته عليهم ، وقوله : (فظن ان لن نقدر عليه) ـ على قول الحسن وغيره من السلف ممن جعله من القدرة ـ دليل على ان الله قادر عليه وعلى امثاله ، وكذلك قول الموصي لأهله : « لئن قدر الله علي ليعذبنى عذاباً ما عذبه احداً من العالمين» . فلما حرقوه اعاده الله تعـالى وقال له : « ما حملك على ما صنعت قال : خشيتك يارب ! فغفر له » . وهوكان مخطئـاً فى قوله لئن قدر الله علي ليعذبني كما يدل عليـه الحديث ، وان الله

قــدر عليه لكــن لحشيته وإيمــانه غفــر الله له هــذا الجهــل والخطأ الذي وقــع منه .

وقد يستدل بقوله : (الم نخلقــكم من ماء مهــين) الى قوله : (فنعم القادرون) على قول من جعله من القدرة ، فانه يتناول القدرة على المخلوقين وإن كان سبحانه قادراً ايضاً على خلقه، فالقدرة على خلقه قدرة عليه ، والقدرة عليه قدرة على خلقه، وجاء ايضاً الحديث منصوصاً في مثل قول النبي صلى الله عليه وسلم لأبي مسعود لما رآه يضرب عبده « لله اقدر عليك منك على هذا » . فهذا فيه بيان قدرة الرب على عين العبد ، وانه اقدر عليه منه على عبده ، وفيه إثبات قدرة العبد .

وقد تنازع الناس في « قدرة الرب والعبد » فقالت طائفة : كلا النوعين يتناول الفعل القائم بالفاعل ، ويتناول مقدوره وهذا اصح الاقوال ، وبه نطق الكتاب والسنة، وهو ان كل نوع من القدرتين يتناول الفعل القائم بالقــادر ومقدوره المباين له ، وقد تبين بعض ما دل على ذلك في قدرة الرب . وامــا قدرة العبد : فذكر قدرته على الافعال القائمة به كثيرة ، وهــذا متفق عليه بين الناس الذين يثبتون للعبد قدرة ، مثل قوله : (فاتقوا الله ما استطعتم) ، (فصيام شهرين متتابعين فمن لم يستطع فاطعام ستين مسكيناً) . (وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلــكون انفسهم). الآية. وقول النبي صلى الله عليه وسلم : « صل قائماً ، فان لم تستطع فقاعداً ، فان لم تستطع فعلى جنبك » .

واما المباين لمحل القدرة ، فمثل قوله : (وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها ــ الى قوله ــ واخرى لم تقدروا عليها) الى (قديراً). فدل على انهم قدروا على الاول ، وهذه يمكن ان يقدروا عليها وقتاً آخر . وهذه قدرة على الاعيان. وقوله : (وغدوا على حرد قادرين ــ إلى قوله ــ عسى ربنا ان يبدلنا خيراً منها) الآية . قال ابو الفرج : وفي قوله قادرين ثلاثة اقوال .

(احدها): قادرين على جنتهم عند انفسهم ، قاله قتادة . قلت : وهو قول مجاهد وقتادة . رواه ابن ابى حاتم عنها ، قال مجاهد : قادرين فى انفسهم ، وهذا الذي ذكره البغوي : قادرين عند انفسهم على جنتهم . وثمارها لا يحول بينهم وبينها احد ، وعن قتادة قال : غدا القوم وهم يحدون الى جنتهم . قادرين على ذلك فى انفسهم .

قال ابو الفرج : و (الثانى) : قادرين على المساكين ، قاله الشعبي: اي على منعهم ، وقيل : على اعطائهم لكن البخل منعهم من الاعطاء ، والله اعلم .

و (الثالث) : غدوا وهم قادرين . اي واجدون ، قاله ابن قتيبة .

قلت: الآية وصفتهم بأنهم غدوا على حرد قادرين ، فالحرد يرجع الى القصد ، فغدوا بارادة جازمة وقدرة ، ولكن الله اعجزهم ، وقول من قال : قادرين عند انفسهم : اي ظنوا ان الامر يبقى كما كان ، ولو كان كذلك لتمت قدرتهم ، لكن سلبوا القدرة باهلاك جنتهم .

قال البغوي : الحرد في اللغة يكون بمعنى القصد والمنع والغضب . قال الحسن وقتادة وابو العالية : على جد وجهد ، وقال القرطبي ومجاهد وعكرمة : على امر مجتمع قد اسسوه بينهم . قال : وهذا على معنى القصد ؛ لأن القاصد الى الشيء جاد مجمع على الامر ، وقال ابو عبيدة والقتيبي : غدوا من انفسهم على حرد : على منع المساكين ؛ يقول : حاردت السنة إذا لم يكن لها مطر ، وحاردت الناقة علي إذا لم يكن لها لبن ؛ وقال الشعبي وسفيان : على حنق وغضب من المساكين ، وفى تفسير الوالبي : عن ابن عباس على قدرة .

قلت : الحرد فيه معنى العزم الشديد ؛ فان هذا اللفظ يقتضي هذا ،وحرد السنة والناقة لما فيه من معنى الشدة ، وكذلك الحنق والغضب فيه شدة ؛ فكان لهم عزم شديد على اخذها ، وعلى حرمان المساكين ، وغدوا بهذا العزم قادرين ليس هناك ما يعجزهم وما يمنعهم ، لكن جاءها امر من السماء فأبطل ذلك كله ، وقيل الحرد هو الغيظ والغضب والله اعلم .

ونظير هذا وهو صريح في المطلوب ان القدرة تكون على الأعيان قوله تعالى: (إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء — إلى قوله — أتاها امرنا ليلاً او نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس) الآية . وقوله : (فظن أهلها أنهم قادرون عليها) يبين أنه لولا الجائحة لكان ظنهم صادقا ، وكانوا قادرين عليها ؛ لكن لما أتاها أمر الله تبين خطأ الظن ، ولو لم يكونوا قادرين عليها لا في حال سلامتها ولا في حال عطبها ، لم يكن الله أبطل ظنهم بما أحدثه

من الاهلاك ، وهؤلاء لم يكونوا ذهبوا ليحصدوا ،بل سلبوا القدرةعليها ـ وهي القدرة التامة ـــ فانتفت لانتفاء المحل القابل ؛ لا لضعف من الفاعل ، وفى تلك قال : (على حرد قادرين) ولم يقل قادرين عند انفسهم ، فان كان كما قاله من قال عند انفسهم فالمعنى واحد ، وان اريد بكونهم قادرين اي ليس فى انفسهم ما ينافى القدرة : كالمرض والضعف ولكن بطل محل القدرة كالذى يقــدر على النقد والرزق ولاشيء عنده .

وقوله تعالى : (مثل الذين كفروا بربهم اعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد) فهم في هذه الحال لا يقدرون مما كسبوا على شيء ؛ فدل على انهم فى غير هذا يقدرون على ما كسبوا ، وكذلك غيرهم يقــدر على ما كسب ، فالمراد بالمكسوب المـال المـكسوب .

وقوله تعالى : (ضرب الله مثلا عبداً مملوكا لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سراً وجهراً) فلما ذكر فى المملوك انه لا يقدر على شيء ، ومقصوده ان الآخر ليس كذلك ، بل هو قادر على ما لا يقدر عليه هذا ، وهو إثبات الرزق الحسن مقدوراً لصاحبه ، وصاحبه قادر عليه ، وبهذا ينطق عامة العقلاء يقولون : فلان يقدر على كذا وكذا ،وفلان يقــدر على كذا وكذا ، ومقدرة هذا دون مقدرة هذا .

ومما يبين ذلك : ان الملك نائب للعباد على ما ملكهم الله اياه ، والملك مستلزم للقدرة فلا يكون مالكا الا من هو قادر على التصرف بنفسه ، او بوليه او وكيله . والعقد والمنقول مملوك لمالكه ، فدل على انه مقدور له ، وقد قال موسى : (رب إني لا املك إلا نفسي وأخي) لما كان قادرا على التصرف فى اخيه ؛ لطاعته له جعل ذلك ملكا له ، وقال تعالى : (فهم لها مالكون) وقال تعالى : (وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا لهمقرنين) اي مطيقين ، فدل على انهم صاروا مقرنين مطيقين لما سخرها لهم ، فهو معنى قوله : (فهم لها مالكون) وقد قال تعالى : (فما اسطاعوا ان يظهروه وما استطاعوا له نقبا) فدل على انهم لو نقبوا ذلك لكانوا قد استطاعوا النقب ، والنقب ليس هو حركة ايديهم ، بل هو جعل الشيء منقوباً ، فدل على ان ذلك النقب مقدور للعباد .

وايضاً فالقرآن دل على أن المفعولات الخارجة مصنوعة لهم ، وما كان مصنوعا لهم فهو مقدور بالضرورة والاتفاق ، والمنازع يقول : ليس شيء خارجا عن محل قدرتهم مصنوعا لهم،وهذا خلاف القرآن قال تعالى لنوح : (واصنع الفلك بأعيننا ووحينا) وقال (ويصنع الفلك) وقد اخبر ان الفلك مخلوقة مع كونها مصنوعة لبني آدم ، وجعلها من آياته ، فقال : (وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون) (وسخر لكم مافى الارض والفلك تجري فى البحر بأمره) (وجعل لكم من الفلك والأنعام ماتركبون) وقال:(أتعبدون ماتنحتون والله خلقكم وما تعملون)

فجعل الأصنام منحوتــة معمولة لهم ، وأخبر انه خالقهم ، وخالق معمولهم فان « ما » ههنا : بمعنى الذي ، والمراد خلق ما تعملونه من الأصنام ، وإذا كان خالقا للمعمول وفيه أثر الفعل ، دل على انــه خالق لأفعال العباد . وأما قول من قال : إن « ما » مصدرية فضعيف جداً .

وقال تعالى: (ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون) وإنما دمر مابنوه وعرشوه ، فأما الاعراض الـتى قامت بهم فتلك فنيت قبل ان يغرقوا ، وقوله : (وما كانوا يعرشون) دليل على ان العروش مفعول لهـم ، هم فعلوا العرش الذي فيه ، وهو التاليف ، ومثل قوله : (أتبنون بكل ريع آيــة تعبثون ؟) يدل على ان المبني هم بنوه ، حيث قال : أتبنون ؟ و كذلــك قوله : (وتنحتون من الجبال بيوتاً) هــو كقوله : (أتعبدون ما تنحتون) وقوله : (جابوا الصخر بالواد) دل على انهم جابوا الصخر : اي قطعوه .

ومنه قوله تعالى : (فاذا انسلخ الأشهر الحـرم فاقتلوا المشر كين) فأمر بقتلهم ، والأمر إنما يكون بمقدور العبد ، فدل على ان القتل مقدور له ، وهو الفعل الذي يفعله فى الشخص فيموت ، وهــو مثل الذبح ومنه قوله : (إلا ما ذ كيتم) وقوله : (لاتقتلوا الصيد) وقوله : (ومن قتله منــكم متعمداً فجزاء مثل ما قتل من النعم) يدل على ان الصيد مقتول للآدمي الذي قتله ، بخلاف قوله : (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم) فانــه مثل قوله : (وما رميت إذ رميت

ولكن الله رمى) فان قتلهم حصل بأمور خارجة عن قدرتهم . مثل إنزال الملائكة ، وإلقاء الرعب في قلوبهم ، وكذلك الرمي لم يكن في قدرته . ان التراب يصيب اعينهم كلهم ، ويرعب قلوبهم ، فالرمي الذي جعله الله خارجا عن قدرة العبد المعتاد هو الرمي الذي نفاه الله عنه .

قال ابو عبيد : ماظفرت انت ولا اصبت ، ولكن الله ظفرك وايدك . وقال الزجاج : مابلغ رميك كفاً من تراب ، او حصاً ان يملأ عيون ذلك الجيش الكثير ، إنما الله تولى ذلك . وذكر ابن الأنباري : مارميت قلوبهم بالرعب ، إذ رميت وجوههم بالتراب . ولهذا كان هذا امراً خارجا عن مقدوره ، فكان من آيات نبوته .

وقيل بل الرب تعالى لايقدر إلا على المخلوق المنفصل لايقوم به فعل يقدر عليه ، والعبد لايقدر إلا على مايقوم بذاته ، لايقدر على شيء منفصل عنه ، وهذا قول الاشعري ومن وافقه من اتباع الأئمة : كالقاضي ابى يعلى وابن عقيل وابن الزاغوني ، وغيرهم .

وقيل : ان العبد يقدر على هذا وهذا ، والرب لايقدر إلا على المنفصل وهو قول المعتزلة ، وقيل ان كليهما يقدر على مايقوم به دون المنفصل ، وما علمت احداً قال : كلاهما يقدر على المنفصل دون المتصل .

(المسألة الخامسة) : ان القدرة هي قدرته على الفعل ، والفعل « نوعان »:

لازم ، ومتعد ، و « النوعان » فى قوله : (وهو الذي خلق السموات والارض في ستة ايام ثم استوى على العرش) فالاستواء والاتيان والمجيء والنزول ونحو ذلك افعال لازمة ، لاتتعدى إلى مفعول ؛ بل هي قائمة بالفاعل ، والخلق و الرزق والامانة والاحياء ، والاعطاء والمنع ، والهدى والنصر ، والتنزيل ونحو ذلك ، تتعدى إلى مفعول .

والناس فى هذين النوعين على « ثلاثة اقوال » :

منهم من لايثبت فعلا قائماً بالفاعل ، لا لازما ولا متعدياً امـا اللازم فهو عنده منتف ، واما المتعدي : كالخلق ، فيقول : الخلق هو المخلوق ، او معنى غير المخلوق،وهذا قول الجهمية والمعتزلة ، ومن اتبعهم كالاشعرى ومتبعيه ، وهـذا اول قولي القاضي ابى يعلى ، وقول ابن عقيل .

وكثير من المعتزلة يقولون : الخلق هو المخـلوق ، وآخرون يقولون : هو غيره . لكن يقولون : بان الخلق له خلق آخر، كما يقوله معمر بن عباد؛ ويسمون اصحاب المعاني المتسلسلة . ومنهم من يقول : الخلق هو نفس الارادة ، كما يقوله من يقوله من بعض المعتزلة من اهل البصرة .

و « القول الثاني » : ان الفعل المتعدي قائم بنفسه دون اللازم فيقولون : الخلق قائم بنفسه ليس هو المخلوق . وهم على قولين .

منهم من جعل ذلك الفعل حادثاً ، ومنهم من يجعله قديماً فيقول التخليق والتكوين قديم ازلي .

وهؤلاء منهم من يجعل عين التخليق شيئاً واحداً هو قديم، والمخلوقين مادته ؛ ولكنه قديم ازلي ، ولا يثبتون نزولاً قائماً بنفسه ، ولا استواء ؛ لأن هذه حوادث وهذا قول : الكلابية الذين يقولون : فعله قديم مثل كلامه ، كما قال اصحاب ابن خزيمة ، وهو قول كثير من الحنفية والحنبلية والمالكية والشافعية ، ومنهم من يجعل القديم هو النوع وأفراده حادثة ، فعلى هذا القول يكون الفعل نفسه مقدوراً ، واما على قول من يجعله شيئاً معيناً فهؤلاء إن قالوا قديم تناقضوا ولزمهم ان يكون القديم المعين مقدوراً ، وان قالوا هو غير مقدور ، تناقضوا ؛ لأن الفعل يجب ان يكون مقدوراً والله اعلم .

و (القول الثالث) إثبات الفعلين : اللازم والمتعدى كما دل عليه القرآن ، فنقول : إنــه كما اخبر عن نفسه : انه خلق السموات والارض فى ستة ايام ثم استوى على العرش ، وهو قول السلف وائمة السنة ، وهو قول من يقول : إنه تقوم به الصفات الاختيارية ـــ كأصحاب ابى معاذ وزهير البابى وداود بن علي ؛ والكرامية وغيرهم من الطوائف ، وان كانت الكرامية يقولون بأن النزول والاتيان افعال تقوم به ـــ وهؤلاء يقولون : يقدر على ان يأتى ويجيء وينزل ويستوى ، ونحو ذلك من الأفعال ، كما اخبر عن نفسه ، وهذا هو الكمال .

وقد صرح ائمة هذا القول بأنه « يتحرك » كما ذكر ذلك حرب الكرماني عن اهل السنة والجماعة . وسمى منهم : احمد بن حنبل ؛ وسعيد بن منصور ، واسحاق بن ابراهيم ، وغيرهم . وكذلك ذكره عثمان بن سعيد الدارمي عن اهل السنة . وجعل نفي الحركة عن الله عز وجل من اقوال الجهمية التى أنكرها السلف ، وقال: كل حي متحرك وما لا يتحرك فليس بحي ، وقال بعضهم : إذا قال لك الجهمى : أنا كافر برب يتحرك . فقل : انا مؤمن برب يفعل ما يشاء .

وهؤلاء يقولون من جعل هذه الافعال غير ممكنة ولا مقدورة له فقد جعله دون الجماد ، فان الجماد وإن كان لا يتحرك بنفسه فهو يقبل الحركة فى الجملة . وهؤلاء يقولون : إنه تعالى لا يقبل ذلك بوجه ولا تمكنه الحركة ، والحركة والفعل صفة كمال ، كالعلم والقدرة والارادة . فالذين ينفون تلك الصفات سلبوه صفات الكمال ؛ فكذلك هؤلاء الكلابية .

واولئك « نفاة الصفات » إذا قيل لهم : لو لم يكن حياً عليماً سميعاً بصيراً متكلماً : للزم ان يكون ميتاً ـ جاهلاً ـ اصم ـ اعمى ـ اخرس ـ وهذه نقائص يجب تنزيهه عنها . فانه سبحانه قد خلق من هو حي سميع بصير متكلم عالم ؛ قادر متحرك ؛ فهو اولى بأن يكون كذلك ؛ فان كل كمال فى المخلوق المعلول فهو من كمال الخالق الذى يسمونه علة فاعلية .

و (ايضاً) فالقديم الواجب بنفسه اكمل من المحدث فيمتنع ان يختص الناقص بالكمال . قالوا : واما الجماد فلا يسمى حياً ولا ميتاً وقد ذكرنا فى غير موضع الجواب عن هذه بأجوبة :

(احدها) ان قولهم : إن الجماد لايسمى حياً ، وإنما يسمى ميتاً ما كان قابلاً للحياة : هو اصطلاح . وإلا فالقرآن قد سمى الجماد ميتاً فى غير موضع كقوله تعالى : (والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون اموات غير احياء وما يشعرون) الآية. فسمى الاصنام امواتاً وهي حجارة ،وقال: (وآية لهم الارض الميتة احييناها) .

(الوجه الثانى) : لا نسلم امتناع قبول هذه الحياة ، بل الرب تعالى قد جعل الجمادات قابلة للحياة ، ولا يمتنع قبولها لها ، فان الله تعالى قد جعل عصى موسى حية تسعى ، فدل على ان الخشب يمكن ان يكون حيواناً ، وموسى لما اغتسل جعل ثوبه على حجر ففر الحجر بثوبه ، وقد احيا الله الحوت المشوي الذى كان معه ومع فتاه ، وقد سبح الحصا والطعام ـ سبح وهو يؤكل ـ وكان حجر يسلم على النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وحن الجذع ، والجبال سبحت مع داود ، ونظائر هذا كثيرة ؛ وقد قال تعالى (وإن من شيء إلا يسبح بحمده).

(الوجه الثالث) ان يقال : هب انه لا يوصف بالموت إلا ما قبل الحياة ، فمعلوم ان ما قبل الحياة اكمل ممن لا يقبلها ؛ فالجنين فى بطن امه قبل ان ينفخ

فيه الروح اكمل من الحجر ، وقد قال تعالى : (وكنتم امواتاً فأحيا كم) فالجنين يمكن ان يصير حياً فى العادة ، ناطقاً نطقاً يسمعه الانسان السماع المعتاد . فهو اكمل من الحجر والتراب .

و (ايضاً) فيقال لهم : رب العالمين إما ان يقبل الاتصاف بالحياة والعلم ونحو ذلك . وإما ان لايقبل ، فان لم يقبل ذلك ولم يتصف به كان دون الاعمى الاصم الابكم ؛ وان قبلها ولم يتصف بها كان ما يتصف بها اكمل منه ؛ فجعلوه دون الانسان والبهائم ، وهكذا يقال لهم فى انواع الفعل القائم به : كالاتيان ؛ والمجيء ؛ والنزول ؛ وجنس الحركة، اما ان يقبل ذلك واما ان لايقبله ؛ فان لم يقبله كانت الاجسام التى تقبل الحركة ولم تتحرك اكمل منه ؛ وان قبل ذلك ولم يفعله كان ما يتحرك اكمل منه ؛ فان الحركة كمال للمتحرك ، ومعلوم ان من يمكنه ان يتحرك بنفسه اكمل ممن لا يمكنه التحرك ، وما يقبل الحركة اكمل ممن لايقبلها .

والنفاة عمدتهم انه لو قبل الحركة لم يخل منها ، ويلزم وجود حوادث لا تتناهى ؛ ثم ادعوا نفي ذلك وفي نفيه نقائص لا تتناهى ، والمثبتون لذلك يقولون : هذا هو الكمال ؛ كما قال السلف : لم يزل الله متكلماً اذا شاء، كما قال ذلك ابن المبارك ، واحمد بن حنبل وغيرهما ؛ وذكر البخارى عن نعيم بن حماد انه قال : الحي هو الفعال ، وما ليس بفعال فليس بحي . وقد عرف

بطلان قول الجهمية وغيرهم بامتناع دوام الفعل والحوادث كما قد بسط في غير هذا الموضع.

والمقصود هنا : ان هؤلاء لا يجعلونه قادراً على هذه الافعال ، وهي اصل الفعل . فلا يكون على شيء قدير — على قولهم — بل ولا على شيء . وقد قال : (وما قدروا الله حق قدره) : قال ابن عباس — فى رواية الوالبي عنه : هذه فى الكفار ، فأما من آمن ان الله على كل شيء قدير — فقد قدر الله حق قدره .

وذكروا فى قوله : (ما قدروا الله حق قدره) ماعرفوه حق معرفته ، وما عظموه حق عظمته ، وما وصفوه حق صفته ، وهذه الكلمة ذكرها الله في ثلاثة مواضع : في الرد على المعطلة ، وعلى المشركين ، وعلى من انكر انزال شيء على البشر ، فقال في الانعام : (وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ماانزل الله على بشر من شيء) وقال فى الحج : (ان الذين تدعون من دون الله — إلى قوله تعالى — وما قدروا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز) وقال فى الزمر : (ما قدروا الله حق قدره والارض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون) .

وقد ثبت فى الصحيحين من حديث ابن مسعود : « ان حبراً من اليهود قال للنبي صلى الله عليه وسلم : يا محمد ! ان الله يوم القيامة يجعل السموات على

اصبع،والارض على اصبع،والجبال والشجر على اصبع،والماء والثرى وسائر الخلق على اصبع ثم يهزهن ويقول:انا الملك قال:فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم تصديقاً لقول الحبر،ثم قرأ:(وماقدروا الله حق قدره)الآية وفي الصحيحين ايضا عن ابي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «يقبض الله الأرض يوم القيامة.ويطوي السماء بيمينه ، ثم يقول : انا الملك ، اين ملوك الارض ؟ ثم يقول: اين الجبارون؟ اين المتكبرون ؟» وكذلك في الصحيحين من حديث ابن عمر « يطوي الله السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول : انا الملك . اين الجبارون؟ اين المتكبرون ؟» وفي لفظ لمسلم قال : «يأخذ الجبار تبارك وتعالى سمواته وارضه بيديه جميعاً ، فجعل يقبضهما ويبسطهما ، ثم يقول : انا الملك ، انا الجبار ، وانا الملك ، اين الجبارون ؟ ! واين المتكبرون ؟ ! ويميل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن يمينه وعن شماله حتى نظرت الى المنبر يتحرك من اسفل شيء منه حتى انى لأقول : اساقط هو برسول الله صلى الله عليه وسلم » .

وفى السنن عن عوف بن مالك الأشجعى قال : « قمت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة فقام فقرأ سورة البقرة لايمر بآية رحمة الا وقف فسأل، ولا يمر بآية عذاب الا وقف وتعوذ ؛ قال: ثم ركع بقدر قيامه يقول في ركوعه: سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة ؛ ثم يسجد بقدر قيامه ثم قال فى سجوده : مثل ذلك ثم قام فقرأ : بآل عمران ؛ ثم قرأ سورة » رواه ابو داود والنسائى والترمذي فى الشمائل . فقال في هذا الحديث :«سبحان ذي

الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة » وهـذه الاربعة نوزع الرب فيها : كما قال : «اين الملوك ؟ ! اين الجبارون؟ ! اين المتكـبرون؟ ! » وقـال عز وجل : « العظمة ازاري : والكبرياء ردائى ؛ فمن نازعني واحداً منهما عذبته » .

ونفاة الصفات ماقدروا الله حق قدره ؛ فانه عنـدهم لا يمسك شيئاً ، ولا يقبضه ؛ ولا يطويه ؛ بل كل ذلك ممتنع عليه ؛ ولا يقدر على شيء من ذلك ؛ وهم ايضاً فى الحقيقة يقولون : ما انزل الله على بشر من شيء لوجهين :

(احدهما) : ان الانزال انما يكون من علو ؛ والله تعالى عندهم ليس فى العلو فلم ينزل منه شيء . وقد قال تعالى : (والذين آتيناهم الكتاب يعلمون انه منزل من ربك بالحق) (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) إلى غـير ذلك ، وقولهم : انه خلقه فى مخلوق ، ونزل منه باطل ؛ لأنه قال : (منزل من ربك) ولم يجيء هذا فى غير القرآن ؛ والحديد ذكر انه انزله مطلقاً ، ولم يقل منـه . وهو منزل من الجبال ، والمطر انزل من السماء والمراد انـه انزله من السحاب . وهو المزن كما ذكر ذلك فى قوله : (أأنتم انزلتموه من المزن ؟) .

و (الثانى) : انه لو كان من مخلوق لـكان صفة له وكلاما له ، فان الصفة إذا قامت بمحل عاد حكمها على ذلك المحل ؛ ولأن الله لا يتصف بالمخلوقات ، ولو اتصف بذلك لا تصف بأنـه مصوت إذا خلق الأصوات ، ومتحرك إذا خلق الحركات فى غيره ، إلى غير ذلك . إلى ان قال : فقد تبين ان الجهمية ما قدروا

الله حق قدره ، وانهم داخلون فى هذه الآية ، وانهم لم يثبتوا قدرته لا على فعل ولا على الكلام بمشيئته ، ولا على نزوله ، وعلى انزاله منه شيئاً ، فهم من ابعد الناس عن التصديق بقدرة الله ، وانه على كل شيء قدير ، واذا لم يكن قديراً لم يكن قوياً ، ويلزمهم انه لم يخلق شيئاً ، فيلزمهم الدخول فى قوله : (ضعف الطالب والمطلوب . ماقدروا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز) .

فهم ينفون حقيقة قدرته في الأزل ، وحقيقة قولهم : انه صار قادراً بعد ان لم يكن ، والقدرة التى يثبتونها لاحقيقة لها .

وهذا اصل مهم ، من تصوره عرف حقيقه الأقوال الباطلة ، وما يلزمها من اللوازم ، وعرف الحق الذي دل عليه صحيح المنقول ، وصريح المعقول ، لاسيما فى هذه الاصول التى هي اصول كل الأصول ، والضالون فيها لما ضيعوا الأصول حرموا الوصول ، وقد تبين انه كلما تحققت الحقائق واعطي النظر والاستدلال حقه من التمام كان ما دل عليه القرآن هو الحق ، وهو الموافق للمعقول الصريح الذي لم يشتبه بغيره مما يسمى معقولا ، وهو مشتبه مختلط ، كما قال مجاهد فى قوله تعالى : (ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً) قال : هم اهل البدع والشبهات ، فهم فى امور مبتدعة فى الشرع ، مشتبهة في العقل .

والصواب هو ما كان موافقا للشرع مبينا في العقل ، فان الله سبحانه اخبر ان القرآن منزل منه ، وانه تنزيل منه وانه كلامه وانه قوله وانه كفر من قال انه قول البشر واخبر : انه قول رسول كريم من الملائكة ورسول كريم

من البشر ، والرسول يتضمن المرسل، فبين ان كلا من الرسولين بلغه، لم يحدث هو منه شيئاً ، واخبر انه جعله قرآناً عربيا ، وقال : عما ينزل منه جديداً بعد نزول غيره قديما : (ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث) واخبر ان للكلام المعين وقتا معينا كما قال تعالى:(فلما اتاها نودي ياموسى) وقال : (ولقد خلقنا كم ثم صورنا كم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) .

والذين قالوا : انه « مخلوق » ليس معهم حجة إلا ما يدل على انه تكلم بمشيئته وقدرته وهذا حق لكن ضموا إلى ذلك ان ما كان بمشيئته لا يقوم بذاته . فغلطوا ولبسوا الحق بالباطل ، فضموا ما نطق به القرآن الموافق للشرع والعقل الى ما احدثوه من البدع والشبهات .

وكذلك الذين قالوا : انه « قديم » ليس معهم الا ما يدل على انه قائم بذاته ، لكن ضموا الى ذلك ان مايقوم بذاته لايكون بمشيئته وقدرته فأخطأوا في ذلك ولبسوا الحق بالباطل ، واولئك فسروا قوله : (جعلناه قرآنا عربيا) بأنه جعله بائنا عنه مخلوقا،وقالوا : جعل ـ بمعنى خلق ـ وهؤلاء قالوا : جعلناه سميناه كما فى قوله : (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا) وهذا إنما يقال: فيمن اعتقد فى الشيء صفة حقا او باطلا إذا كانت الصفة خفية فيقال : اخبر عنه بكذا وكون القرآن عربياً امر ظاهر لا يحتاج إلى الاخبار ثم كل من اخبر بأنه عربي فقد جعله عربياً بهذا الاعتبار ، والرب تعالى اختص بجعله عربيا فانه

هو الذى تكلم بهوانزله.فجعلهقرآناعربيابفعلقامبنفسه وهوتكلم به، واختاره لان يتكلم به عربيا ــ عن غير ذلك من الألسنة ــ باللسان العربى وانزله به .

ولهذا قال احمد:الجعل من اللهقديكون خلقاوقديكون غير خلق؛فالجعل فعل، والفعل قد يكون متعدياً إلى مفعول مباين له : كالخلق، وقد يكون الفعل لازما وإن كان له مفعول في اللغة كان مفعوله قائما بالفعل : مثل التكلم ؛ فان التكلم فعل يقوم بالمتكلم والكلام نفسه قائم بالمتكلم ؛ فهو سبحانه جعله قرآنا عربيا فالجعل قائم به والقرآن العربى قائم به، فان «الكلام » يتضمن شيئين :

يتضمن فعلا : هو التكلم،والحروف المنظومة والاصوات الحاصلة بذلك الفعل .ولهذا يجعل القول تارةنوعا من الفعل،وتارة قسيما للفعل، كما قدبسطت هذه الأمور في غير هذا الموضع . والله اعلم .

وقد ذكرت في غير هذا الموضع انه ما احتج احد بدليل سمعي او عقلي على باطل الا وذلك الدليل اذا اعطى حقه وميز ما يدل عليه مما لا يدل تبين انه يدل على فساد قول المبطل المحتج به ؛ وانه دليل لاهل الحق وان الأدلة الصحيحة لا يكون مدلولها الا حقا والحق لا يتناقض بل يصدق بعضه بعضاً . والله اعلم .

(المسألة السادسة) : دوام كونه قادراً فى الأزل والأبد فانه قادر ولا

يزال قادراً على ما يشاؤه بمشيئته ، فلم يزل متكلما إذا شاء وكيف شاء ، وهذا قول السلف والأئمة كابن المبارك وأحمد .

الى ان قال : وفي صحيح البخاري تعليقاً عن سعيد بن جبير ان رجلا سأل ابن عباس عن قوله : (وكان الله غفوراً رحيما) (وكان الله عزيزاً حكيما) (وكان الله سميعاً بصيراً) فكأنه كان فمضى ، فقال ابن عباس قوله : (وكان الله) (وكان الله) فانه يجل نفسه عن ذلك ، وسمى نفسه بذلك لم يجله احد غيره ، وكان اي لم يزل كذلك. رواه عبد بن حميد في تفسيره مسنداً موصولاً ورواه ابن المنذر ايضاً في تفسيره ، وهذا لفظ رواية عبد .

والمقصود هنا التنبيه على تنازع الناس في « مسألة القدرة » . وفي الحقيقة انه من لم يقل بقول السلف فانه لايثبت لله قدرة ، ولا يثبته قادراً فالجهمية ومن اتبعهم ، والمعتزلة والقدرية المجبرة والنافية : حقيقة قولهم : انه ليس قادراً وليس له الملك ، فان الملك إما ان يكون هو القدرة ؛ او المقدور ؛ او كلاهما، وعلى كل تقدير فلا بد من القدرة ؛ فمن لم يثبت له القدرة حقيقة لم يثبت له ملكا ؛ كما لايثبتون له حمداً .

إلى ان قال : و (ايضاً) فالقديم الأزلي : القيوم الصمد الواجب الوجود بنفسه الغني عن كل ما سواه ، وكل ما سواه فقير اليه ؛ احق بالكمال من الممكن المحدث المفتقر ؛ فيمتنع ان يكون هذا قادراً على الكلام والفعل ؛ والقيوم

الصمد ليس قادراً على الفعل والكلام ؛ إلى ان قال :

والمقصود هنا : انه سبحانه عدل لا يظلم ؛ وعدله احسان الى خلقه فكلما خلقه فهو احسان الى عباده ولهذا كان مستحقاً للحمد على كل حال ، ولهذا ذكر فى سورة النجم انواعاً من مقدوراته ؛ ثم قال : (فبأي آلاء ربك تتمارى) فدل على ان هذه الأنعم مثل اهلاك الأمم المكذبة للرسل ؛ فان فى ذلك من الدلالة على قدرته وحكمته ونعمته على المؤمنين ونصره للرسل؛ وتحقيق ماجاؤا به وان السعادة فى متابعتهم والشقاوة فى مخالفتهم ماهو من اعظم النعم .

وكذلك ماذكره فى سورة الرحمن وكل مخلوق هو من آلائه من وجوه: منها انه يستدل به عليه وعلى توحيده وقدرته وغير ذلك . وانه يحصل به الايمان والعلم وذكر الرب . وهذه النعمة افضل ما انعم الله به على عباده فى الدنيا ، وكل مخلوق يعين عليها ويدل عليها ، هذا مع ما فى المخلوقات من المنافع لعباده غير الاستدلال بها.فانه سبحانه يقول:(فبأي آلاء ربكما تكذبان) لما يذكر ما يذكره من الآية وقال : (فبأي آلاء ربك تتمارى) والآلاء : هي النعم ؛ والنعم كلها من آياته الدالة على نفسه المقدسة ووحدانيته ونعوته ومعاني اسمائه ، فهي آلاء آيات،وكل ما كان من آلائه فهو من آياته ، وهذا ظاهر ؛ وكذلك كل ما كان من آياته فهو من آلائه ، فانه يتضمن التعريف والهداية والدلالة على الرب تعالى . وقدرته وحكمته ورحمته ودينه . والهدى افضل النعم .

و (أيضاً) ففيها نعم ومنافع لعباده ؛ غير الاستدلال : كما في خلق الشمس والقمر والسحاب والمطر والحيوان والنبات ؛ فان هذه كلها من آياته ، وفيها نعم عظيمة على عباده غير الاستدلال ، فهي توجب الشكر لما فيهامن النعم ، وتوجب التذكر لما فيها من الدلالة . قال تعالى : (وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن اراد ان يذكر او اراد شكوراً) وقال : (تبصرة وذكرى لكل عبد منيب) فان العبد يدعوه الى عبادة الله داعي الشكر وداعي العلم ، فانه يشهد نعم الله عليه ، وذاك داع الى شكرها ؛ وقد جبلت النفوس على حب من احسن إليها ، والله تعالى هو المنعم المحسن الذي ما بالعباد من نعمة فمنه وحده ، كما في الحديث « من قال إذا اصبح : اللهم ما اصبح بي من نعمة او بأحد من خلقك فمنك وحدك لاشريك لك ، فقد ادى شكر ذلك اليوم ، ومن قال : ذلك إذا امسى فقد ادى شكر تلك الليلة » رواه ابو حاتم وابن حبان في صحيحه من حديث ابن عباس ، وفي حديث آخر « من قال : الحمد لله ربي لا أشرك به شيئاً اشهد ان لا إله إلا الله »[1] .

وقد ذم سبحانه من كفر بعد إيمانه كما قال : (قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر) الاية. فهذا في كشف الضر ، وفي النعم قال : (وتجعلون رزقكم انكم تكذبون) اي : شكركم ، وشكر مارزقكم الله ، ونصيبكم تجعلونه تكذيباً وهو الاستسقاء بالأنواء ، كما ثبت في حديث ابن عباس الصحيح قال : مطر

(١) بياض في الاصل.

الناس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم : « اصبح من الناس شاكر ومنهم كافر . قالوا : هذه رحمة الله ، وقال بعضهم : لقد صدق نوء كذا وكذا . قال : فنزلت هذه الآية (فلا اقسم بمواقع النجوم) ـ حتى بلغ ـ (وتجعلون رزقكم انكم تكذبون .) رواه مسلم .

وفي صحيح مسلم ايضاً عن ابي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما انزل من السماء من بركة إلا اصبح فريق من الناس بها كافرين ، ينزل الله الغيث فيقول : الكوكب كذا وكذا . وفى لفظ له :« بكوكب كذا وكذا » وفى الصحيحين عن زيد بن خالد الجهني قال : صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح على اثر سماء كانت من الليل ، قال : « اتدرون ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ! قال قال: أصبح من عبادي مؤمن بي و كافر ، فمن قال : مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب ، ومن قال : مطرنا بنوء كذا وكذا ، فذاك كافر بي مؤمن بالكوكب » . وهذا كثير جداً في الكتاب والسنة ، يذم سبحانه من يضيف إنعامه إلى غيره ، ويشركه به ، قال بعض السلف : هو كقولهم كانت الريح طيبة والملاح حاذقاً .

ولهذا قرن الشكر بالتوحيد ، في الفاتحة وغيرها : أولها شكر ،وأوسطها توحيد ، وفى الخطب المشروعة لا بد فيهامن تحميد وتوحيد ، وهذان هما ركن فى كل خطاب ، ثم بعد ذلك يذكر المتكلم من مقصوده ما يناسب من الأمر والنهي والترغيب والترهيب ، وغير ذلك .

وقوله : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد » ، يتضمن التوحيد والتحميد . وكذلك كان يقول عقب الصلاة : «لا إله إلا الله ولانعبد إلا إياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون » وهو سبحانه يفتتح خطابه بالحمد ويختم الأمور بالحمد ، وأول ما خلق آدم كان أول شيء انطقه به الحمد ، فانه عطس فأنطقه بقوله الحمد لله ، فقال له : يرحمك ربك يا آدم ! وكان اول ما تكلم به الحمد ، وأول ما سمعه الرحمة .

وهو يختم الامور بالحمد كقوله : (وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين) (فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين) (وآخر دعواهم ان الحمد لله رب العالمين) وهو سبحانه (له الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم واليه ترجعون) .

والتوحيد اول الدين وآخره ، فأول مادعا اليه الرسول صلى الله عليه وسلم شهادة أن لا إله إلا الله ، وقال : « أمرت ان اقاتل الناس حتى يشهدوا أن لااله الا الله » وقال لمعاذ : « إنك تأتى قوماً اهل الكتاب فليكن اول ماتدعوهم اليه : شهادة أن لا اله الا الله ، وان محمداً رسول الله » وختم الأمر بالتوحيد فقال فى الصحيح من رواية مسلم عن عثمان : « من مات وهو يعلم ان لا اله الا الله دخل الجنة » وفى الحديث الصحيح من رواية مسلم عن ابى هريرة « لقنوا موتاكم لا اله الا الله » وفى السنن من حديث معاذ « من كان آخر كلامه لا اله الا الله دخل الجنة » . وفى المسند « اني لاعلم كلمة لايقولها عبد

حين الموت الا وجد روحه لها روحا » وهي الكلمة التى عرضها على عمه عند الموت .

فهو سبحانه جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر او اراد شكورا فيتذكر الآيات المثبتة للعلم والايمان فاذا عرف آلاء الله شكره على آلائه، وكلاهما متلازمان، فالآيات والآلاء متلازمان، ما كان من الآلاء فهو من الآيات، وما كان من الآيات فهو من الآلاء، وكذلك الشكر والتذكر متلازمان، فان الشاكر إنما يشكر بحمده، وطاعته وفعل ما أمر به، وذلك انما يكون بتذكر ماتدل عليه آياته من اسمائه وممادحه ؛ ومن أمره ونهيه فيثنى عليه بالخير، ويطاع فى الأمر هذا هو الشكر ، ولابد فيها من التذكر، والتذكر اذا تذكر آياته عرف مافيها من النعمة والاحسان ، فآياته تعم المخلوقات كلها ، وهي خير ونعم وإحسان .

فكل ماخلقه سبحانه فهو نعمة على عباده ، وهو خير وهو سبحانه بيده الخير . والخير بيديه ، وفى دعاء القنوت : « ونثني عليك الخير كله » وفى دعاء الاستفتاح : « والخير بيديك والشر ليس اليك » .

وكل ماخلقه الله فله فيه حكمة كما قال : (صنع الله الذي أتقن كل شيء) وقال : (الذي أحسن كل شيء خلقه) . وهو سبحانه غني عن العالمين. « فالحكمة » تتضمن شيئين :

(احدها) : حكمة تعود اليه يحبها ويرضاها .

و (الثانى) إلى عباده هي نعمة عليهم يفرحون بها ويلتذون بها ؛ وهذا في المأمورات وفى المخلوقات .

أما فى « المأمورات » فان الطاعة هو يحبها ويرضاها ؛ ويفرح بتوبة التائب أعظم فرح يعرفه الناس ؛ فهو يفرح أعظم مما يفرح الفاقد لزاده وراحلتـه فى الارض المهلـكة إذا وجدها بعد اليأس ؛ كما انـه يغار أعظم من غيرة العباد ؛ وغيرته ان يأتى العبد ماحرم عليه ، فهو يغار إذا فعل العبد ما نهاه ، ويفرح إذا تاب ورجع الى ما أمره به والطاعة عاقبتهـا سعادة الدنيا والآخرة ؛ وذلك ممـا يفرح به العبد المطيع ؛ فكان فيما أمر به من الطاعات عاقبته حميدة تعود اليـه والى عبادهففيهاحكمة لهورحمة لعباده؛قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا هل ادلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم . تومنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالـكموانفسكمذلـكم خير لـكم إن كنتم تعلمون.يغفرلـكم ذنوبكم ويدخلـكم جنات تجري من تحتها الانهار ومساكن طيبـة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم . وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين)

ففي الجهاد عاقبة محمودة للناس فى الدنيا يحبونها: وهي النصر والفتح ؛ وفى الآخرة الجنة ؛ وفيه النجاة من النار ؛ وقد قال فى اول السورة : (ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص) فهو يحب ذلـك ؛ ففيه حكمة عائدة الى الله تعالى وفيه رحمة للعباد ؛ وهي مايصل اليهم من النعمة فيالدنيا

والآخرة ؛ هكذا سائر ما امر به ؛ وكذلك ماخلقه خلقه لحكمة تعود اليه يحبها، وخلقه لرحمة بالعباد ينتفعون بها .

والناس لما تكلموا فى « علة الخلق وحكمته » تكلم كل قوم بحسب علمهم فأصابوا وجهاً من الحق ؛ وخفي عليهم وجوه اخرى .

وهكذا عامة ما تنازع فيه الناس يكون مع هؤلاء بعض الحق ؛ وقد تركوا بعضه وكذلك مع الآخرين . ولا يشتبه على الناس الباطل المحض ؛ بل لابد ان يشاب بشيء من الحق ؛ فلهذا لايزالون مختلفين الا من رحم ربك ؛ فانهم هم الذين آمنوا بالحق كله ؛ وصدقوا كل طائفة فيما قالوه من الحق ؛ فهم جاءوا بالصدق وصدقوا به فلا يختلفون .

ولأهل الكلام هنا « ثلاثة اقوال » لثلاث طوائف مشهورة ، وقد وافق كل طائفة ناس من اصحاب الائمة الاربعة اصحاب ابي حنيفة ومالك والشافعي واحمد .

(القول الاول) : « قول من نفى الحكمة » . وقالوا هذا يفضى الى الحاجة ؛ فقالوا يفعل ما يشاء لا لحكمة ، فأثبتوا له القدرة والمشيئة ، وانه يفعل ما يشاء . وهذا تعظيم ، ونفوا الحكمة لظنهم انها تستلزم الحاجة . وهذا قول الاشعري واصحابه ، ومن وافقهم : كالقاضي ابي يعلى وابن الزاغوني والجويني ،

والباجي ونحوهم ، وهـذا القول في الاصل قول جهم بن صفوان ومن اتبعه من المجبرة .

والفلاسفة لهم قول أبعد من هذا . وهو ان ما يقع من عذاب النفوس وغير ذلك من الضرر لا يمكن دفعه . فانهم يقولون : انه موجب بذاته ، وكل ما يقع هو من لوازم ذاته . و [لو] قالوا انه موجب بمشيئته وقدرته لما يفعله لكانوا قد اصابوا . وقد قالوا ايضاً الشر يقع فى العالم مغلوباً مع الخير فى الوجود . وهذا صحيح ؛ لكن هذا يستلزم ان يكون الخالق قد خلق لحكمة معلومة تسلم ولا تعد ، والا فمع انتفاء هذين يبقى الكلام ضائعاً . ففي قول كل طائفة نوع من الحق ، ونوع من الباطل فهذه « اربعة اقوال » .

(والقول الخامس) : قول الأئمة وهو ان له حكمة فى كل ما خلق ؛ بل له فى ذلك حكمة ورحمة .

(والقول الثاني) اي من « الثلاثة » التى لأهل الكلام: انه يخلق ويأمر لحكمة تعود الى العباد ، وهو نفعهم والاحسان إليهم : فلم يخلق ، ولم يأمر الا لذلك ، وهذا قول المعتزلة وغيرهم : ثم من هؤلاء من تكلم فى تفصيل الحكمة . فأنكر القدر ؛ ووضع لربه شرعاً بالتعديل والتجويز . وهذا قول « القدرية» ومنهم من أقر بالقدر وقال : لله حكمة خفيت علينا . وهـذا قول ابن عقيل

وغيره من المثبتين للقدر ؛ فهم يوافقون المعتزلة على اثبات حكمة ترجع الى المخلوق لكن يقرون مع ذلك بالقدر .

(والقول الثالث) : قول من اثبت حكمة تعود الى الرب ؛ لكن بحسب علمه . فقالوا : خلقهم ليعبدوه ويحمدوه ويثنوا عليه ويمجدوه . وهم من خلقه لذلك وهم من وجد منه ذلك فهو مخلوق لذلك ؛ وهم المؤمنون ، ومن لم يوجد منه ذلك فليس مخلوقاً له . قالوا : وهذه حكمة مقصودة وهي واقعة . بخلاف الحكمة التى اثبتتها المعتزلة : فانهم اثبتوا حكمة هي نفع العباد ، ثم قالوا : خلق من علم انه لا ينتفع بالخلق بل يتضرر به : فتناقضوا . ونحن اثبتنا حكمة علم انها تقع فوقعت وهي معرفة عباده المؤمنين به ، وحمدهم له : وثناؤهم عليه : وتمجيدهم له ؛ وهذا واقع من المؤمنين .

قالوا : وقد يخلق من يتضرر بالخلق لنفع الآخرين ، وفعل الشر القليل لأجل الخير الكثير حكمة ، كانزال المطر لنفع العباد وإن تضمن ضرراً لبعض الناس . قالوا : وفى خلق الكفار وتعذيبهم اعتبار للمؤمنين ، وجهاد ومصالح . وهذا القول اختيار القاضي ابى حازم بن القاضي ابى يعلى ، ذكره فى كتابه «اصول الدين» الذي صنفه على كتاب محمد بن الهيصم الكرامي .

قالوا : وقوله تعالى : (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون) هو مخصوص بمن وقعت منه العبادة . وهذا قول طائفة من السلف والخلف . قالوا : والمراد

بذلك من وجدت منه العبادة ، فهو مخلوق لها ، ومن لم توجد منه فليس مخلوقاً لها ؛ وعن سعيد بن المسيب قال : ما خلقت من يعبدني الا ليعبدني ؛ وكذلك قال الضحاك والفراء وابن قتيبة — وهذا قول خاص بأهل طاعته — قال الضحاك : هي للمؤمنين ؛ وهذا قول الكرامية . كما ذكره محمد بن الهيصم . قال : ويدل عليه قوله قبل ذلك (فتول عنهم) ثم قال : (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون) اي هؤلاء المؤمنين الذين تنفعهم الذكرى .

قالوا : وهي غاية مقصودة واقعة ، فان العبادة وقعت من المؤمنين ، وهذا القول اختيار ابى بكر بن الطيب ؛ والقاضى ابى يعلى وغيرهما ممن يقول : انه لايفعل لعلة . قالوا : — واللفظ للقاضي ابى يعلى — هذا بمعنى الخصوص لا العموم ؛ لأن البله والأطفال والمجانين لايدخلون تحت الخطاب . وان كانوا من الانس . وكذلك الكفار يخرجون من هذا بدليل قوله : (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس) الآية . فمن خلق للشقاء ولجهنم لم يخلق للعبادة .

قلت : قول هؤلاء الكرامية ومن وافقهم . وان كان ارجح من قول الجهمية والمعتزلة. فيما اثبتوه من حكمة الله ؛ وقولهم فى تفسير الآية ، وان وافقوا فيه بعض السلف . فهو قول ضعيف مخالف لقول الجمهور ، ولما تدل عليه الآية . فان قصد العموم ظاهر في الآية ، وبين بياناً لا يحتمل النقيض ، اذ لو كان المراد المؤمنين فقط لم يكن فرق بينهم وبين الملائكة ؛ فان الجميع قد فعلوا ما خلقوا له

ولم يذكر الانس والجن عموماً . ولم تذكر الملائكة . مع ان الطاعة والعبادة وقعت من الملائكة دون كثير من الانس والجن .

و (ايضاً) فان سياق الآية يقتضى ان هذا ذم وتوبيخ لمن لم يعبدالله منهم لأن الله خلقه لشيء فلم يفعل ما خلق له ، ولهذا عقبها بقوله : (ما اريد منهم من رزق وما أريد ان يطعمون) فاثبات العبادة ونفى هذا يبين انه خلقهم للعبادة ، ولم يرد منهم ما يريده السادة من عبيدهم من الاعانة لهم بالرزق والاطعام ؛ ولهذا قال بعد ذلك : (فان للذين ظلموا ذنوباً) أي نصيباً (مثل ذنوب اصحابهم) أي المتقدمين من الكفار . اي نصيباً من العذاب وهذا وعيد لمن لم يعبده من الانس والجن ؛ فذكر هذا الوعيد عقيب هذه الآية من اولها الى آخرها يتضمن وعيد من لم يعبده .

وذكر عقابه لهم فى الدنيا والآخرة فقال تعالى فى اولها : (والذاريات ذروا ـ الى قوله ـ انما توعدون لصادق . وان الدين لواقع) ثم ذكر قوله : (انكم لفي قول مختلف يؤفك عنه من أفك) ثم ذكر وعيد الآخرة بقوله : (قتل الخراصون الذين هم فى غمرة ساهون،يسألون ايان يوم الدين يوم هم على النار يفتنون) ثم ذكر وعده للمؤمنين فقال : (إن المتقين فى جنات وعيون ـ الى قوله ـ وفى الارض آيات للموقنين . وفي السماء رزقكم وما توعدون . فورب السماء والارض انه لحق مثلما انكم تنطقون) ثم ذكر قصص من آمن فنفعه إيمانه ، ومن كفر فعذبه بكفره . فذكر قصة ابراهيم ولوط وقومه وعذابهم .

ثم قال : (وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الاليم . وفى موسى اذ ارسلناه الى فرعون بسلطان مبين) أي فى قصة موسى اية ايضاً . هذا قول الاكثرين، ومنهم من لم يذكر غيره كأبي الفرج . وقيل : هو عطف على قوله : (وفى الارض آيات للموقنين وفى موسى) وهو ضعيف : لان قصة فرعون وعاد هي من جنس قوم لوط ، فيها ذكر الانبياء ومن اتبعهم ومن خالفهم ، يدل بها على إثبات النبوة ، وعاقبة المطيعين والعصاة .

واما قوله : (وفى الارض) (وفى أنفسكم) فتلك آيات على الصانع جل جلاله ، وقد تقدمت ؛ ولانه لا يفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بمثل هذا الكلام الكثير ، مع ان قبله لا يصلح العطف عليه ، وهو قوله : (وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الاليم) ثم قال : (وفى عاد) ، (وفى ثمود) . ثم ذكر انه بنى السماء بأيد ، وفرش الارض ، وخلق من كل شيء زوجين لعلكم تذكرون ، فلما بين الآيات الدالة على ما يجب من الايمان وعبادته امر بذلك ، فقال : (ففروا الى الله انى لكم منه نذير مبين ، ولا تجعلوا مع الله الهاً آخر) الآية. ثم بين ان هؤلاء المكذبين من جنس من قبلهم ليتأسى الرسول والمؤمنون ويصبروا على ما ينالهم من اذى الكفار ، فقال (كذلك ما اتى الذين من قبلهم من رسول الا قالوا ساحر او مجنون اتواصوا به بل هم قوم طاغون) .

فهذا كله يتضمن امر الانس والجن بعبادته وطاعته وطاعة رسله . واستحقاق من يفعل العقوبة فى الدنيا والآخرة .فاذا قال بعد ذلك : (وماخلقت

الجن والانس إلا ليعبدون ما أُريد منهم من رزق وما اريد ان يطعمون) كان هذا مناسباً لما تقدم مؤتلفاً معه : اي هؤلاء الذين امرتهم ، إنما خلقتهم لعبادتى ما اريد منهم غير ذلك ، لا رزقاً ولا طعاماً .

فاذا قيل : لم يرد بذلك الا المؤمنين ، كان هــذا مناقضاً لما تقدم يعني فى السورة وصار هذا كالعذر لمن لا يعبده ممن ذمه الله ووبخه . وغايته يقول : انت لم تخلقني لعبادتك وطاعتك ، ولو خلقتني لها لكنت عابداً ، وانما خلقت هؤلاء فقط لعبادتك ، وانا خلقتني لأكفر بك وأشرك بك ، وأكذب رسلك، وأعبد الشيطان واطيعه ، وقد فعلت ما خلقتني له كما فعل اولئك المؤمنون ما خلقتهم له ، فلا ذنب لي ولا استحق العقوبة ؛ فهذا وأمثاله مما يلزم اصحاب هذا القول وكلام الله منزه عن هذا ، وهم انما قالوا هذا ؛ لأن الله تعالى فعال لما يريد ، قالوا فلو كان أراد منهم ان يطيعوه لجعلهم مطيعين ، كما جعل المؤمنين .

والقدرية يقولون : لم يرد من هؤلاء ولا هؤلاء الا الطاعة ؛ لكن هو لم يجعل لا هؤلاء ولا هؤلاء مطيعين؛ بل الارادة بمعنى الأمر يأمر بها الطائفتين، فهؤلاء عبدوه بأن احدثوا ارادتهم وطاعتهم، وهؤلاء عصوه بأن احدثوا ارادتهم ، ومعصيتهم .

وأولئك علموا فسادقول القدرية من جهــة ان الله خالق كل شيء وربه ومليكه . وما شاء كان وما لم يشأ لم يــكن ، فلا يكون في ملــكه الا ما شاءه ، ولا يكون فى ملــكه شيء الا بقدرته وخلقه ومشيئته . كما دل على ذلك السمع

والعقل، وهذا مذهب الصحابة قاطبة، وأئمة المسلمين وجمهورهم، وهو مذهب أهل السنة: فلأجل هذا عدل أولئك فى تفسير الآية الى الخصوص، فانهم لم يمكنهم الجمع بين الايمان بالقدر وبين ان يكون خلقهم لعبادته، فلم تقع منهم العبادة له، وقالوا: من ذرأه لجهنم لم يخلقه لعبادته، فمن قال خلق الخلق ليعبده المؤمنون منهم سلك هذا المسلك.

وأما « نفاة الحكمة »: كالأشعري واتباعه كالقاضي ابى بكر وابى يعلى وغيرهم، فهؤلاء اصلهم ان الله لا يخلق شيئا لشيء، فلم يخلق احداً لا لعبادة ولا لغيرها، وعندهم ليس فى القرآن لام كي، لكن قد يقولون فى القرآن لام العاقبة، كقوله: (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا) وكذلك يقولون فى قوله: (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس) يعنون كان عاقبة هؤلاء جهنم، وعاقبة المؤمنين العبادة من غير ان يكون الخالق قصد ان يخلقهم لا لهذا ولا لهذا، ولكن اراد خلق كل ما خلقه، لا لشيء آخر فهذا قولهم، وهو ضعيف لوجوه:

(احدها) ان لام العاقبة التى لم يقصد فيها الفعل لأجل العاقبة انما تكون من جاهل او عاجز، فالجاهل كقوله: (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا) لم يعلم فرعون بهذه العاقبة، والعاجز كقولهم: لدوا للموت، وابنوا للخراب. فانهم يعلمون هذه العاقبة؛ لكنهم عاجزون عن دفعها، والله تعالى عليم قدير، فلا يقال: ان فعله كفعل الجاهل العاجز.

(الثاني) : ان الله اراد هذه الغاية بالاتفاق . فالعبادة التي خلق الخلق لأجلها هي مرادة له بالاتفاق ، وهم يسلمون ان الله ارادها،وحيث تكون اللام للعاقبة لا يكون الفاعل أراد العاقبة ، وهؤلاء يقولون خلقهم واراد افعالهم ، واراد عقابهم عليها فكلما وقع فهو مراد له ؛ ولكنه عندهم لا يفعل مراداً لمراد أصلا لان الفعل للعلة يستلزم الحاجة . وهذا ضعيف بين الضعف . واهل الخصوص قالوا : مثل هذا الجواب .

وطائفة اخرى قالوا : هي على العموم لكن المراد بالعبادة تعبيده لهم ، وقهره لهم . ونفوذ قدرته ومشيئته فيهم . وانه اصارهم الى ما خلقهم له ، من السعادة والشقاوة ، هذا جواب زيد بن اسلم وطائفة ، وهذا القول الثاني فى تفسير الآية.

وروى ابن ابى حاتم عن ابن جريج ، عن زيد بن اسلم فى قوله : (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون) قال جبلهم على الشقاوة والسعادة وقال وهب بن منبه : جبلهم على الطاعة ، وجبلهم على المعصية، وهذا يشبه قول من قال فى تفسير قول النبي صلى الله عليه وسلم : «كل مولود يولد على الفطرة» اي على ما كتب له من سعادة وشقاوة ، كما قال ذلك طائفة منهم : ابن المبارك واحمد بن حنبل فى احدى الروايتين عنه ، وقد قيل لمالك: اهل القدر يحتجون علينا بهذا الحديث ، فقال احتجوا عليهم بآخره ، وهو قوله . « الله اعلم بما كانوا عاملين » . وهذا الجواب يصلح ان يجاب به من انكر العلم كما كان على ذلك طائفة من القدماء وهم المعروفون بالقدرية فى لغة مالك .

الى ان قال : ومن فسر هذه الآية بأن المراد (بيعبدون) هو ما جبلهم عليه ، وما قدره عليهم من السعادة والشقاوة وان ذلك هو معنى الحديث ، فان هؤلاء جعلوا معنى يعبدون بمعنى يستسلمون لمشيئتي وقدرتي .فيكونون معبدين مذللين كي يجرى عليهم حكمي ومشيئتى لا يخرجون عن قضائى وقدري، فهذا معنى صحيح فى نفسه ، وان كانت القدرية تنكره . فبانكارهم لذلك صاروا من اهل البدع ، بل الله خالق كل شيء وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وفى استعاذة النبي صلى الله عليه وسلم « اعوذ بكلمات الله التامة التى لا يجاوزها بر ولا فاجر من شر ماذرأ وبرأ واعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه وشر عباده » .

فكلماته التامة هى التى كون بها الأشيـاء كما قال تعالى . (انما أمره اذا اراد شيئاً ان يقول له كن فيكون) لا يجـاوزها بر ولا فاجر ولا يخرج احد عن القدر المقدور ولا يتجاوز ما خط له فى اللوح المسطور وهذا المعنى قد دل عليه القرآن فى غيرموضع كقوله: (ولقد ذرأنا لجهنم)الآية وقوله: (ما كانوا ليؤمنوا الا ان يشاء الله) . (الم تعلم ان الله يعلم ما فى السماء والارض ان ذلك فى كتاب ان ذلك على الله يسير) وقوله فى السحر :(وما هم بضارين به من احد إلا باذن الله) (فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام . ومـن يرد ان يضله يجعل صدره ضيقا حرجاً) ونحو ذلك .

ولكن قوله . (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون) لم يرد به هـذا المعنى الذي ذهبوا اليه وحاموا حوله ــ من ان المخلوقات كلها تحت مشيئته وقهره

وحكمه . فالمخلوقات كلها داخلة فى هذا لا يشذ منها شيء عن هذا . وقد قال تعالى : (الم اعهد اليكم يابني آدم الا تعبدوا الشيطان انه لكم عدو مبين . وان اعبدونى) الآية . وقوله: (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا) (والذين اجتنبوا الطاغوت ان يعبدوها وانابوا الى الله) (والذين اتخذوا من دونه اولياء ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى) وقال : (ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم) .

فهذا ونحوه كثير في القرآن . لم يرد بعبادة الله إلا العبادة التى أمرت بها الرسل ، وهي عبادته وحده لا شريك له ، والمشركون لا يعبدون الله ، بل يعبدون الشيطان وما يدعونه من دون الله . سواء عبدوا الملائكة او الانبياء والصالحين ، او التماثيل والأصنام المصنوعة ؛ فهؤلاء المشركون قد عبدوا غير الله تعالى ، كما اخبر الله بذلك . فكيف يقال : ان جميع الانس والجن عبدوا الله ؟ لكون قدر الله جارياً عليهم ، والفرق ظاهر بين عبادتهم اياه التى تحصل بارادتهم واختيارهم واخلاصهم الدين له وطاعة رسوله ، وبين ان يعبدهم هو وينفذ فيهم مشيئته ، وتكون عبادتهم لغيره : للشيطان وللأصنام ، من المقدور .

وهذا يشبه قول من يقول من المتأخرين : انا كافر برب يعصى ، فيجعل كلما يقع طاعة ، كما جعله هؤلاء عبادة لله تعالى ، لكونهم تحت المشيئة ، وكان بعض شيوخهم يقول عن إبليس : إن كان عصى الامر ، فقد أطاع المشيئة ، لكن هؤلاء مباحية ، يسقطون الامر .

وأما زيد بن أسلم ، ووهب بن منبه ، ونحوهم ، فحاشاهم من مثل هـذا ؛ فانهـم كانوا من أعظم الناس تعظيمـاً للأمر والنهي ، والوعد والوعيد ، ولكن قصدوا الرد على المكذبين بالقدر . القائلين : بأنه يشاء ما لا يكون ، ويكون ما لا يشاء . وهؤلاء حقيقة قولهـم : انه لا يقدر عـلى تعبيدهم ، وتصريفهم تحت مشيئته ، فأرادوا إبطـال قول هؤلاء . ونعـم ما أرادوا ! لـكن الـكلام فيما أريد بالآية .

وقول اولئك الاباحيـة يشبه قول من قال : إن العارف إذا شهد المشيئة سقط عنـه الملام . وانه إذا شهد الحـكم ـــ يعني المشيئة ـــ لم يستحسن ولم يستقبح سببه ، ونحو هذا من اقوال هؤلاء الذين تشبه اقوالهم أقوال المشركين الذين قالوا : (لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء) كما قد بسط الـكلام عليه ، وبين ان إثبات القدر السابق حق ، لـكن ذلك هو الذي يصير العبد إليه ، ليس هو الذي فطر عليه ، كما قال النبي صلى الله عليه وسـلم : « كل مولود يولد على الفطرة . فأبواه يهودانه او ينصرانه او يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء » . فقد بين النبي صلى الله عليه وسـلم بمثل ضربه ان البهيمة تولد سليمة ثم تجدع ، والجدع كان مقدراً عليها ، كذلك العبد يولد عـلى الفطرة سليمـاً ، ثم يفسد بالتهود والتنصير ، وذلك كان مكتوباً أن يكون .

وصاحب هذا القول إنما قاله ليبين ما خلقوا له ، وقد قصد هـذا طائفة

فسروا العبادة بأمر واقع عام ، وليست هي العبادة المأمور بها علـى ألسن الرسل ، ففي تفسير ابن ابي طلحة المضاف الى ابن عباس : إلا ليقروا بالعبودية طوعاً وكرهاً ، وهذه العبودية كقوله : (وله أسـلم من فى السموات والارض طوعاً وكرهاً) وقوله : (ولله يسجد من في السموات والارض طوعاً وكرهاً) وفسرت طائفة « الـكره » بأنه جريان حـكم القدر . فيكون كالقول قبـله ، والصحيح انه انقيادهم لحـكمه القدري بغير اختيارهم . كاستسلامهم عندالمصائب وانقيـادهم لما يكرهون من أحـكامه الشرعيـة ، فكل احـد لابد له من انقياده لحـكمه القدري والشرعي ، فهذا معنى صحيح . قد بسط فى غير هذا الموضع ، لـكن ليس هو العبادة .

وكذلك قال بعضهم : إلا ليخضعوا لي ويتذللوا ، قالوا : ومعنى العبادة في اللغة ـــ التذلل والانقياد ، وكل مخلوق من الجن والانس خاضع لقضـاء الله تعالى ، متذلل لمشيئته . لا يملك احد لنفسه خروجاً عما خلق .

وقد ذكر أبو الفرج قول ابن عباس هذا .قال : وبيان هذا قوله :(ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله) وهذه الآية توافق من قال : إلا ليعرفون ؛ كما سيأتى . وهؤلاء الذين أقروا بأن الله خالقهم لم يقروا بذلك كرهـاً ، بخلاف إسلامهم وخضوعهم له فانه يكون كرهاً ، وأما نفس الاقرار فهو فطري فطروا عليه ، وبذلوه طوعاً .

وقيل « قول رابع » : روى ابن ابى حاتم عن زائدة عن السدي : (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون) قال : خلقهم للعبادة ، فمن العبادة عبادة تنفع ومن العبادة عبادة لا تنفع (ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن: الله) هذا منهم عبادة وليس ينفعهم مع شركهم ، وهذا المعنى صحيح ، لكن المشرك يعبد الشيطان ، وما عدل بـه الله لا يعبد ، ولا يسمى مجرد الاقرار بالصانع عبادة لله مع الشرك بالله ، ولكن يقـال كما قال : (وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون) فايمانهم بالخالق مقرون بشركهم به ، وأما العبادة ففي الحديث « يقول الله : انا اغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً اشرك فيه غيري فأنا منه بريء ، وهو كله للذي اشرك » فعبادة المشركين وان جعلوا بعضها لله لا يقبل منها شيئاً ، بل كلها لمن اشركوه . فلا يكونون قد عبدوا الله سبحانه ، ومثل هذا قول من قال :الا ليوحدون ،فأما المؤمن فيوحده فى الشدة والرخاء ، واما الكافر فيوحده في الشدة والبلاء ، دون النعمة والرخاء ، بيانه في قوله : (فاذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين) .

وقيـل « قول خامس » : ذكره ابن ابى حاتم عـن ابن جريج . قال : ليعرفون ، قال : وروي عن قتادة ، وذكره البغوي عن مجاهد . قال : وقال مجاهد الا ليعرفون . قال : وهذا قول حسن ؛ لأنه لو لم يخلقهم لم يعرف وجوده وتوحيده ، ودليله قوله : (ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله) فيقال : هذا المعنى صحيح ؛ وكونه إنما عرف بخلقهم يقتضي أن

خلقهم شرط فى معرفتهم ، لا يقتضي ان يكون ما حصل لهـم من المعرفة هو الغاية التى خلقوا لها ، وهذا من جنس قول السدي ، فان هذا الاقرار العام هم مشركون فيــه ، كما قال : (وإذ اخـذ ربـك من بني آدم) لـكن ليس هذا هو العبادة .

فهذه « الأقوال الاربعة » : قول من عرف أن الآية عامةفأراد ان يفسرها بعبادة تعم الانس والجن ، واعتقد أنه (إن) فسرها بالعبادة المعروفــة ، وهي الطاعة لله والطاعة لرسله ، لزم أن تكون واقعة منهـم ، ولم تقـع ؛ فأراد أن يفسرها بعبادة واقعة ، وظن أنه إذا فسرها بعبادة لم تقـع لزمه قول القدرية ، وانه خلقهم لعبادته فعصوه بغير مشيئته وغير قدرته ، ففروا من قول القدرية وهم معذورون فى هذا الفرار ؟ لـكن فسرها بما لم يرد بها ، كما يصيب كثير من الناس فى الآيات التى يحتج اهل البدع بظاهرها ، كاحتجاج الرافضة بقوله : (وامسحوا برؤوسكم وارجلـكم) على مسح ظهر القدمين ، فترى المخالفـين لهم يذكرون اقوالاً ضعيفة ، هذا يقول مجروراً بالمجاورة ، كقولهم جحر ضب خرب ، ونحو هذا من الاقوال الضعيفة ، وكذلك مـا قالوه فى قوله « فحج آدم موسى » وامثال ذلك .

و « القول السادس » ـــ وإن كان ابو الفرج لم يذكر فيها الا اربعــة اقوال ـــ وهو الذي عليه جمهور المسلمين ، ان الله خلقهم لعبادته وهو فعل ما امروا به ، ولهذا يوجد المسلمون قديماً وحديثاً يحتجون بهذه الآية على هذا

المعنى حتى فيوعظهم وتذكيرهم وحكاياتهم ، كما في حكاية ابراهيم بن ادهم :مالهذا خلقت ، ولا بهذا امرت ؛ وفى حديث اسرائيلي : يا ابن آدم خلقتك لعبادتى فلا تلعب ، وتكفلت برزقك فلا تتعب ، فاطلبني تجدنى ؛ فان وجدتني وجدت كل شيء ؛ وإن فتك فاتك كل شيء ، وانا احب اليك من كل شيء ، وهـذا هو المأثور عن امير المؤمنين علي بن ابى طالب ؛ وغيره من السلف فذكروا عن علي بن ابى طالب انه قال : إلا لآمرهم ان يعبدون ، وادعوهم الى عبادتى .

قالوا : ويؤيده قوله تعالى (وما امروا إلا ليعبدوا الله مخلصين) وقوله : (وما امروا الا ليعبدوا إلهاً واحداً) وهذا اختيار الزجاج وغيره . وهذا هو المعروف عن مجاهد بالاسناد الثابت ؛ قال ابن ابي حاتم : ثنا ابو سعيد الاشج ، ثنا ابو أسامة عن شبل ، عن ابن ابي نجيح عن مجاهد (وما خلقت الجن والانس إلا ليعبـدون) لآمرهم وأنهـاهم » كذلك روي عن الربيـع بن أنس قال : « ما خلقتها إلا للعبادة » .

ويدل على هـذا مثل قوله : (ايحسب الانسان ان يترك سدى) يعنى لا يؤمر ولا ينهى ، وقوله : (قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم) اي لولا عبادتكم ، وقوله : (ما يفعل الله بعذابـكم ان شكرتم وآمنتم) وقوله : (يامعشر الجن والانس ألم يأتـكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى ، وينذرونكم لقاء يومكم هذا)؟ الى قوله:(وأهلهـا غافلون) وقوله : (الم اعهد اليـكم يا بني آدم ، الا تعبـدوا الشيطان ؟ انه لـكم عدو مبين . وان اعبدونى هـذا صراط مستقيم) الآيات .

وما بعدها . وقالت الجن لما سمعوا القرآن : (يا قومنا انا سمعنا كتاباً انزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدي الى الحق والى طريق مستقيم . يا قومنا اجيبوا داعي الله وآمنوا به) الآية . وما بعدها . وقالت الجن : (وانا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن اسلم فأولئك تحروا رشداً) الآية . ومابعدها .

وقد قال في القرآن فى غير موضع : (ياأيها الناس اعبدوا ربكم) (ياأيها الناس اتقوا ربكم) فقد امرهم بما خلقهم له وأرسل الرسل إلى الانس والجن ، ومحمد ارسل الى الثقلين ، وقرأ القرآن على الجن ، وقد روي انه لما قرأ عليهم سورة الرحمن . وجعل يقرأ : (فبأي آلاء ربكما تكذبان) يقولون : ولابشيء من آلائك ربنا نكذب فلك الحمد . فهذا هو المعنى الذي قصد بالآية قطعاً ، وهو الذي تفهمه جماهير المسلمين ، ويحتجون بالآية عليه ؛ ويعترفون بان الله خلقهم ليعبدوه ، لا ليضيعوا حقه ، وفى الصحيحين عن معاذ بن جبل ان النبي صلى الله عليه وسلم قال له: «يامعاذ ! أتدري ماحق الله على عباده ؟ قال : الله ورسوله اعلم قال : فان حق الله على عباده ان يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، أتدري ماحق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ قلت : الله ورسوله اعلم . قال : فان حقهم عليه ان لايعذبهم » . وفى المسند عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لاشريك له ، وجعل رزقى تحت ظل رمحي . وجعل الذل والصغار على من خالف امري ، ومن تشبه بقوم فهو منهم » .

ثم للناس على هذا القول قولان :

قول اهل السنة المثبتة للقدر ، وقول نفاته فصارت الاقوال فى الآية « سبعة » . وفى الحكمة « خمسة » :

فأما اهل السنة المثبتون للقدر فيقولون : قوله : (وماخلقت الجن والانس إلا ليعبدون) لا يستلزم وقوع العبادة منهم ، كما قال أصحاب هذه الاقوال المتقدمة ، ولا يستلزم نفي المقدور ان يكون فى ملكه ما لايشاء او يشاء مالا يكون ، كما قالت القدرية ، فهؤلاء يقولون : لم يقع ما خلقهم له لكونه يشاء مالا يكون ، ويكون مالا يشاء . اولئك قالوا : اذا كان مايشاء كان ، ومالم يشأ لم يكن فما لم يقع لم يشأه ، فما لم يقع من العبادة لم يشأها ، وهذا معنى صحيح ، ثم قالوا : وما خلقهم له فلا بد أن يشاء ان يخلقه ، فلما لم يشأه ان يخلق هذا لم يخلقهم له .

فالطائفتان أصل غلطهم ظنهم انما خلقهم له يشاء وقوعه ، واولئك يقولون يشاء ان يخلقه ، وهؤلاء يقولون يشاء وقوعه منهم ، بمعنى يأمرهم به ، وما عندهم ان له مشيئة فى افعال العباد غير الأمر ، وهم يعصون أمره ؛ فلهذا قالوا : يكون مالا يشاء ، ويشاء مالا يكون ، كما يقولون : يفعلون مانهاهم عنه ، ويتركون ما أمرهم به ، وهذا المعنى صحيح إذا اريد الأمر الشرعي ؛ لكن القدرية النفاة لايقولون : انه شاء إلا بمعنى امر ، فعندهم ما ليس طاعة من افعال العباد مالا

يشاءه . فانه لا يخلقــه عندهم ، وإذا لم يخلقه لم يشأه فانــه ماشاء ان يخلقه خلقه باتفاق المسلمين .

والقدرية لاتنازع في هذا، لاينازعون في انه ماشاء ان يفعله هو فعله، وأنه قادر على ان يفعل مايشاء ان يفعله ، لكن عندهم ان افعال العباد لاتدخل في خلقه، ولا في قدرته، ولا في مشيئته، ولا في مشيئته ان يفعل. لكن المشيئة المتعلقة بها بمعنى الأمر فقط. فيقولون: خلقهم لعبادته ان يفعلوها هم ، وقد امرهم بهـا ، فاذا لم يفعلوهـا كان ذلـك بمنزلة عصيان امره .

واما المثبتون للقدر فيقولون : انه ما شاء كان ومالم يشأ لم يكن، وهو سبحانه خالق كل شيء (ولو شاء لجعل الناس امة واحدة) (ولو شاء الله ما اقتتلوا) (ولو شاء ربك مافعلوه) وامثال ذلك ، فاذا خلقهم للعبادة المأمور بها ولم يفعلوهـا لم يكن قد شاء ان تكون ، اذ لو شاء ان تكون لكونها ، لكن امرهم بها ، واحب ان يفعلوهـا ، ورضى ان يفعلوهـا ، واراد ان يفعلوها ، ارادة شرعية تضمنهـا امره بالعبادة .

ومن هنـا يتبين معنى الآ يــة ، فان قوله : (وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون) يشبه قوله : (ولتـكملوا العدة ولتـكبروا الله على ماهدا كم) وقوله : (كـذلك سخرها لـكم لتكبروا الله على ماهدا كم) وقوله:(لكيلا يكون دولة بين الاغنياء منكم) وقوله : (ذلك لتعلموا ان الله يعلم مافي السموات وما في الارض

وان الله بكل شيء عليم) وقوله :(الله الذي خلق سبع سموات ومن الارض مثلهن) الآية . وكذلك قوله : (وما ارسلنا من رسول إلا ليطاع باذن الله) فهو لم يرسله الا ليطاع ، ثم قد يطاع وقد يعصى .

وكذلك ما خلقهم الا للعبادة ، ثم قد يعبدون وقد لا يعبدون . ومثل هذا كثير فى القرآن ، يبين انه فعل مافعل ليكبروه وليعدلوا ، ولايظلموا ، وليعلموا ماهو متصف به ، وغيره مما امر الله به العباد ، واحبه لهم ورضيه منهم ، وفيه سعادتهم وكما لهم وصلاحهم وفلاحهم اذا فعلوه . ثم منهم من يفعل ذلك ومنهم من لايفعله.

وهو سبحانه لم يقل انه فعل الاول ليفعل هو الثاني ، ولاليفعل بهم الثاني فلم يذكر انه خلقهم ليجعلهم هم عابدين ؛ فان ما فعله من الاسباب لما يفعله هو من الغايات يجب ان يفعله لا محالة ، ويمتنع ان يفعل امراً ليفعل امراً ثانياً ولا يفعل الأمر الثاني ، ولكن ذكر انه فعل الأول ليفعلوا هم الثاني ؛ فيكونون هم الفاعلين له فيحصل بفعلهم سعادتهم ، وما يحبه ويرضاه لهم ، فيحصل مايحبه هو وما يحبونه هم ، كما تقدم ان كل ما خلقه وامر به غايته محبوبة لله ولعباده . وفيه حكمة له ، وفيه رحمة لعباده .

فهذا الذي خلقهم له لو فعلوه لكان فيه ما يحبه وما يحبونه ، ولكن لم يفعلوه فاستحقوا مايستحقه العاصي المخالف لأمره ، التارك فعل ماخلق لأجله من

عذاب الدنيا والآخرة ، وهو سبحانه قد شاء ان تكون العبادة ممن فعلها ، فجعلهم عابدين مسلمين بمشيئته وهداه لهم ، وتحبيبه اليهم الايمان ؛ كما قال تعالى : (ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه فى قلوبكم وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان اولئك هم الراشدون) فهؤلاء [اراد] العبادة منهم خلقاً وامراً امرهم بها ؛ وخلقاً جعلهم فاعلين .

والصنف الثاني لم يشأ هو ان يخلقهم عابدين وان كان قد امرهم بالعبادة . والله سبحانه اعلم .

وسئل رحمه الله :-

عن تفصيل « الارادة » و « الاذن » و « الكتاب » و « الحكم » و« القضاء » و « التحريم » وغير ذلك ؛ مما هو ديني موافق لمحبة الله ورضاه وامره الشرعي ؛ وما هو كوني موافق لمشيئته الكونية ؟

فأجاب: الحمدلله. هذه الأمور المذكورة وهي الارادة والأذن والكتاب والحكم والقضاء والتحريم وغيرها كالأمر والبعث والارسال ينقسم فى كتاب الله الى نوعين:

(احدهما) مايتعلق بالأمور الدينية التى يحبها الله تعالى ويرضاها . ويثيب اصحابها ويدخلهم الجنة وينصرهم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة .وينصر بها العباد من اوليائه المتقين . وحزبه المفلحين وعباده الصالحين .

و (الثانى) مايتعلق بالحوادث الكونية التى قدرها الله وقضاها مما يشترك فيها المؤمن والكافر والبر والفاجر . واهل الجنة واهل النار واولياء الله وأعداؤه ، واهل طاعته الذين يحبهم ويحبونه ، ويصلى عليهم هو وملائكته ، واهل معصيته الذين يبغضهم ويمقتهم ويلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون .

فمن نظر اليها من هذا الوجه شهد الحقيقة الكونيـة الوجودية . فرأى الأشياء كلها مخلوقة لله ، مدبرة بمشيئته ، مقهورة بحكمتـه ، فما شاء الله كان وإن لم يشأ الناس ، ومالم يشأ لم يكن وإن شاء الناس لامعقب لحكمه ولاراد لأمره ورأى انه سبحانـه رب كل شيء ومليكه ، له الخلق والأمر : وكل ما سواه مربوباً له مدبر مقهور لا يملـك لنفسه ضراً ولا نفعاً ، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، بل هو عبد فقير الى الله تعالى من جميـع الجهات ، والله غني عنه ، كما انه الغني عن جميع المخلوقات ، وهـذا الشهود فى نفسه حق ، لكن « طائفـة » قصرت عنـه : وهم القدرية المجوسيـة و « طائفـة » وقفت عنـده وهم القدرية المشركية .

اما الأولون : فهم الذين زعموا ان فى المخلوقات مالا تتعلق بـه قدرة الله ومشيئته وخلقه ، كأفعال العباد ، وغلاتهم انكروا علمه القديم ، وكتابه السابق وهؤلاء هم اول من حدث من القدرية فى هذه الأمة فرد عليهم الصحابة وسلف الأمة ، وتبرؤا منهم .

واما « الطائفة الثانية » فهم شر منهم وهم طوائف من اهل السلوك والارادة والتأله والتصوف والفقر ونحوهم ، يشهدون هـذه الحقيقة ورأوا ان الله خالق المخلوقات كلها ، فهو خالق افعال العباد ومريد جميع الـكائنات ، ولم يميزوا بـعد ذلك بين ايمان وكفر ، ولا عرفان ولا نكر ، ولا حق ولا باطـل ، ولا مهتدي ولا ضال ، ولا راشد ولا غـوي ولا نبي ولا متنبيء ، ولا ولي لله و لا عدو ؛

ولا مرضي لله ولا مسخوط ؛ ولا محبوب لله ولا ممقوت ؛ ولا بين العدل والظلم ولا بين البر والعقوق ، ولا بين أعمال اهل الجنة واعمال اهل النار ، ولا بين الأبرار والفجار حيث شهدوا ما تجتمع فيه الكائنات من القضاء السابق والمشيئة النافذة والقدرة الشاملة والخلق العام ؛ فشهدوا المشترك بين المخلوقات وعموا عن الفارق بينهما ؛ وصاروا ممن يخاطب بقوله تعالى : (أفنجعل المسلمين كالمجرمين مالكم كيف تحكمون) وبقوله تعالى : (افنجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض ام نجعل المتقين كالفجار) وبقوله تعالى : (ام حسب الذين اجترحوا السيئات ان نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات)[1] .

(وتمت كلمة ربك الحسنى على بني اسرائيل بما صبروا) ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : « اعوذ بكلمات الله التامات التى لا يتجاوزهن برولا فاجر من شر ما خلق وذرأ ، وبرأ ، ومن شر ما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، ومن شر ما ذرأ فى الارض وما يخرج منها ، ومن شر فتن الليل والنهار ؛ ومن شر كل طارق الا طارقا يطرق بخير يا رحمن » فالكلمات التى لا يجاوزهن برولا فاجر ليست هي أمره ونهيه الشرعيين ، فان الفجار عصوا امره ونهيه ، بل هي التى بها يكون الكائنات . وأما الكلمات الدينية المتضمنة لأمره ونهيه الشرعيين فمثل الكتب الالهية : التوراة والانجيل والزبور والقرآن . وقال

(١) يظهر ان في الاصل سقطا

تعالى : (وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا) . وقال صلى الله عليه وسلم « واستحللتم فروجهن بكلمة الله » وأما قوله تعالى : (وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً) فانه يعم النوعين .

وأما « البعث » بالمعنى الاول ففي مثل قوله تعالى : (فاذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا اولى بأس شديد) والثاني في مثل قوله تعالى : (هو الذي بعث فى الأميين رسولاً منهم) وقوله تعالى : (ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم) وقوله تعالى : (ولقد بعثنا فى كل امة رسولا ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) .

واما « الارسال » بالمعنى الاول ففي مثل قولهتعالى : (انا ارسلناالشياطين على الكافرين تؤزهم أزا) وقوله تعالى : (وارسلنا الرياح لواقح) .

وبالمعنى الثاني : فى مثل قوله تعالى(انا ارسلنا نوحاً الى قومه) وقولهتعالى: (انا ارسلناك بالحق بشيراً ونذيراً) وقوله تعالى : (واسأل من ارسلنا من قبلك من رسلنا) وقوله تعالى : (وما ارسلنا من رسول الا ليطاع باذن الله) وقوله تعالى : (وما ارسلنا قبلك من رسول الا نوحى اليه أنه لا اله الا انا فاعبدون) وقوله تعالى : (انا ارسلنا اليكم رسولا شاهداً عليكم كما ارسلنا الى فرعون رسولا فعصى فرعون الرسول فاخذناه اخذاً وبيلا) .

سئل رحمه الله تعالى

عن أقوام يقولون : المشيئة مشيئة الله فى الماضي والمستقبل . وأقوام يقولون : المشيئة فى المستقبل لا فى الماضي . ما الصواب ؟

فأجاب : الماضي مضى بمشيئة الله ، والمستقبل لا يكون الا ان يشاء الله . فمن قال فى الماضي : إن الله خلق السموات إن شاء الله ، وأرسل محمداً ان شاء الله فقد اخطأ . ومن قال : خلق الله السموات بمشيئة الله ، وأرسل محمداً بمشيئته ونحو ذلك فقد أصاب .

ومن قال : انه يكون فى الوجود شيء بدون مشيئة الله فقد اخطأ . ومن قال : ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن فقد اصاب ، وكلما تقدم فقد كان بمشيئة الله قطعاً ؛ فالله خلق السموات بمشيئته قطعاً ، وأرسل محمداً بمشيئته قطعاً ، والانسان الموجود خلقه الله بمشيئته قطعاً ، وإن شاء الله ان يغير المخلوق من حال الى حال فهو قادر على ذلك ، فما خلقه فقد كان بمشيئته قطعاً ، وان شاء الله ان يغيره غيره بمشيئته قطعاً . والله اعلم .

ما تقول السادة أئمة المسلمين

في جماعة اختلفوا في قضاء الله وقدره: خيره وشره، منهم من يرى ان الخير من الله تعالى والشر من النفس خاصة؟ افتونا مأجورين.

فأجاب الشيخ ـــ رضي الله عنه:

مذهب اهل السنة والجماعة ان الله تعالى خالق كل شيء، وربه ومليكه لا رب غيره ولا خالق سواه، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وهو على كل شيء قدير، وبكل شيء عليم، والعبد مأمور بطاعة الله، وطاعة رسوله، منهي عن معصية الله، ومعصية رسوله؛ فان اطاع كان ذلك نعمة وان عصى كان مستحقاً للذم والعقاب، وكان لله عليه الحجة البالغة، ولا حجة لأحد على الله تعالى، وكل ذلك كائن بقضاء الله وقدره ومشيئته وقدرته: لكن يحب الطاعة ويأمر بها، ويثيب اهلها على فعلها ويكرمهم، ويبغض المعصية وينهي عنها، ويعاقب اهلها ويهينهم.

وما يصيب العبد من النعم فالله انعم بها عليه، وما يصيبه من الشر فبذنوبه

ومعاصيه ، كما قال تعالى : (وما اصابكم من مصيبة فبما كسبت ايديكم)وقال تعالى : (ما اصابك من حسنة فمن الله وما اصابك من سيئة فمن نفسك) اي ما اصابك من خصب ونصر وهدى فالله انعم به عليك ، وما اصابك من حزن وذل وشر فبذنوبك وخطاياك ، وكل الاشياء كائنة بمشيئة الله وقدرته وخلقه ، فلا بد ان يؤمن العبد بقضاء الله وقدره ، وان يوقن العبد بشرع الله وأمره .

فمن نظر الى الحقيقة القدرية وأعرض عن الأمر والنهي والوعد والوعيد كان مشابهاً للمشركين ، ومن نظر الى الأمر والنهي ، وكذب بالقضاء والقدر كان مشابهاً للمجوسيين ، ومن آمن بهذا وبهذا ، فاذا احسن حمد الله تعالى ، واذا اساء استغفر الله تعالى ، وعلم ان ذلك بقضاء الله وقدره ، فهومن المؤمنين، فان آدم — عليه السلام — لما اذنب تاب فاجتباه ربه وهداه ، وابليس اصر واحتج فلعنه الله وأقصاه ، فمن تاب كان آدمياً ومن اصر واحتج بالقدر كان ابليسياً ، فالسعداء يتبعون أباهم ، والاشقياء يتبعون عدوهم ابليس .

فنسأل الله ان يهدينا الصراط المستقيم ، صراط الذين انعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين . آمين يا رب العالمين !

سئل شيخ الاسلام

تقى الدين أبو العباس

عن الحديث الذي ورد «إن الله قبض قبضتين ، فقال : هذه للجنة ولا ابالي وهذه للنار ولا ابالي» فهل هذا الحديث صحيح؟ والله قبضها بنفسه ، أو امر أحداً من الملائكة بقبضها ؟ والحديث الآخر فى « ان الله لما خلق آدم أراه ذريته عن اليمين والشمال ، ثم قال هؤلاء الى النار ولا ابالي ، وهؤلاء الى الجنة ولا ابالي » وهذا فى الصحيح ؟.

فأجاب — رضي الله عنه — نعم ! هذا المعنى مشهور عن النبي صلى الله عليه وسلم من وجوه متعددة ، مثل مافى موطأ مالك ، وسنن ابي داود والنسائى ، وغيره عن مسلم بن يسار وفى لفظ عن نعيم بن ربيعة « ان عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية (واذ اخذ ربك من بني آدم من ظهورهم) الآية فقال عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم — وفى لفظ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عنها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان الله خلق آدم ، ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية ، فقال خلقت هؤلاء للجنة ، وبعمل اهل الجنة يعملون ، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية ، فقاله : خلقت

هؤلاء للنار وبعمل اهل النار يعملون. فقال رجل يارسول الله ! ففيم العمل؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ان الله إذا خلق الرجل للجنة استعمله بعمل اهل الجنة حتى يموت على عمل من اعمال اهل الجنة ، فيدخله به الجنة . واذا خلق الرجل للنار استعمله بعمل اهل النار حتى يموت على عمل من اعمال اهل النار، فيدخله به النار » .

وفى حديث الحكم بن سفيان عن ثابت عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله قبض قبضة فقال : إلى الجنة برحمتى وقبض قبضة فقال : الى النار ولا ابالي » وهذا الحديث ونحوه فيه فصلان .

(أحدهما) : القدر السابق ، وهو ان الله سبحانه علم اهل الجنة من أهل النار من قبل ان يعملوا الاعمال ، وهذا حق يجب الايمان به : بل قد نص الأئمة : كمالك والشافعي واحمد ، ان من جحد هذا فقد كفر ؛ بل يجب الايمان ان الله علم ما سيكون كله قبل ان يكون ، ويجب الايمان بما اخبر به من انه كتب ذلك ، واخبر به قبل ان يكون ، كما فى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « ان الله قدر مقادير الخلائق قبل ان يخلق السموات والارض بخمسين الف سنة ، وكان عرشه على الماء » وفى صحيح البخاري وغيره عن عمران بن حصين عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « كان الله ولا شيء غيره وكان عرشه على الماء ، وكتب فى الذكر كل شيء ، وخلق السموات والارض — وفي لفظ — ثم خلق السموات والارض».

وفى المسند عن العرباض بن سارية عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال: « اني عند الله مكتوب بخاتم النبيين، وان آدم لمنجدل فى طينته، وسأنبئكم باول ذلك، دعوة ابى ابراهيم، وبشرى عيسى، ورؤيا أمي، رأت حين ولدتني انه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام » وفى حديث ميسرة الحسر قلت: يارسول الله! متى كتبت نبياً؟ ــ وفى لفظ ــ متى كنت نبياً؟ قال: «وآدم بين الروح والجسد».

وفى الصحيحين عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: « حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ وهو الصادق المصدوق ــ ان خلق احدكم يجمع فى بطن أمه اربعين يوما نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث اليه الملك فيؤمر بأربع كلمات فيقال: اكتب رزقه وعمله وأجله وشقي او سعيد ثم ينفخ فيه الروح ــ قال: فوا الذي نفس بيده أو قال فوا الذي لا إله غيره ــ ان احدكم ليعمل بعمل اهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها الا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل اهل النار فيدخل النار ».

وفى الصحيحين عن علي بن ابي طالب رضي الله عنه قال: « كنا مع رسو الله صلى الله عليه وسلم ببقيع الغرقد في جنازة. فقال: ما منكم احد الا قد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة. فقالوا: يارسول الله! افلا نتكل على الكتاب وندع العمل؟ قال: اعملوا فكل ميسر لما خلق له، أما من كان من اهل السعادة فسييسر لعمل اهل السعادة، واما من كان من اهل الشقاوة

فسييسر لعمل اهل الشقاوة، ثم قرأ قوله تعالى : (فأما من اعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى . واما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى » .

وفى الصحيح ايضاً « انه قيل له : يارسول الله ! اعلم اهل الجنة من اهل النار فقال : نعم ! فقيل له : ففيم العمل ؟ قال : اعملوا فكل ميسر لما خلق له » فبين النبي صلى الله عليه وسلم ان الله علم اهل الجنة من اهل النار ، وانه كتب ذلك ونهاهم ان يتكلوا على هذا الكتاب ، ويدعوا العمل كما يفعله الملحدون. وقال : كل ميسر لما خلق له، وان اهل السعادة ميسرون لعمل اهل السعادة، واهل الشقاوة ميسرون لعمل اهل الشقاوة ، وهذا من احسن ما يكون من البيان .

وذلك ان الله سبحانه وتعالى يعلم الامور على ماهي عليه ، وهو قد جعل للاشياء اسبابا تكون بها ، فيعلم انها تكون بتلك الاسباب ، كما يعلم ان هذا يولد له بأن يطأ امرأة فيحبلها ، فلو قال هذا : إذا علم الله انه يولد لي فلا حاجة إلى الوطء كان احمق؛ لأن الله علم ان سيكون بما يقدره من الوطء ، وكذلك إذا علم ان هذا ينبت له الزرع بما يسقيه من الماء ويبذره من الحب ، فلو قال : إذا علم ان سيكون فلا حاجة الى البذر ، كان جاهلا ضالا ؛ لأن الله علم ان سيكون بذلك وكذلك اذا علم الله ان هذا يشبع بالأكل ، وهذا يروي بالشرب ، وهذا يموت بالقتل ، فلا بد من الاسباب التى علم الله ان هذه الأمور تكون بها .

وكذلك إذا علم ان هـذا يكون سعيداً فى الآخرة ، وهذا شقياً فى الآخرة قلنا : ذلك لأنه يعمل بعمل الاشقياء، فالله علم انه يشقى بهذا العمل ، فلو قيل: هو شقي ، وإن لم يعمل كان باطلاً ؛ لأن الله لايدخل النار احداً الا بذنبه كما قال تعالى : (لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم اجمعين).فأقسم انه يملؤها من ابليس واتباعه ، ومن اتبع ابليس فقد عصى الله تعالى ، ولا يعاقب الله العبد على ما علم انه يعمله حتى يعمله .

ولهذا لما سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن اطفال المشركين . « قال : الله اعلم بما كانوا عاملين » يعني ان الله يعلم مايعملون لو بلغوا . وقد روى انهم فى القيامة يبعث اليهم رسول فمن اطاعه دخل الجنة ، ومن عصاه دخل النار ، فيظهر ما علمه فيهم من الطاعة والمعصية .

وكذلك الجنة خلقها الله لأهل الايمان به وطاعته ، فمن قدر ان يكون منهم يسره للايمان والطاعة . فمن قال : انا ادخل الجنة سواء كنت مؤمناً او كافراً إذا علم انى من اهلها ، كان مفتريا على الله في ذلك ، فان الله إنما علم انه يدخلها بالايمان ، فاذا لم يكن معه ايمان ، لم يكن هذا هو الذي علم الله انه يدخل الجنة بل من لم يكن مؤمناً بل كافراً ، فان الله يعلم انه من اهل النار . لا من اهل الجنة.

ولهذا امر الناس بالدعاء والاستعانة بالله وغير ذلك من الاسباب. ومن قال: انا لا ادعو ولا اسأل اتكالا على القدر ، كان مخطئاً ايضاً ؛ لأن الله جعل الدعاء

والسؤال من الاسباب التى ينال بها مغفرته ورحمته وهداه ونصره ورزقه . واذا قدر للعبد خيراً يناله بالدعاء لم يحصل بدون الدعاء ، وما قدره الله وعلمه من احوال العباد وعواقبهم فانما قدره الله باسباب يسوق المقادير الى المواقيت ، فليس فى الدنيا والاخرة شيء الا بسبب ، والله خالق الاسباب والمسببات .

ولهذا قال بعضهم : الالتفات الى الاسباب شرك فى التوحيد ، ومحو الاسباب ان تكون اسباباً نقص فى العقل ، والاعراض عن الاسباب بالكلية قدح فى الشرع. ومجرد الاسباب لا يوجب حصول المسبب ؛ فان المطر اذا نزل وبذر الحب لم يكن ذلك [كافياً] فى حصول النبات بل لابد من ريح مربية باذن الله ، ولابد من صرف الانتفاء عنه ؛ فلا بد من تمام الشروط ، وزوال الموانع وكل ذلك بقضاء الله وقدره ، وكذلك الولد لايولد بمجرد انزال الماء فى الفرج ، بل كم من انزل ولم يولد له ؛ بل لابد من ان الله شاء خلقه فتحبل المرأة وتربيه فى الرحم ، وسائر مايتم به خلقه من الشروط وزوال الموانع .

وكذلك امر الاخرة ليس بمجرد العمل ينال الانسان السعادة، بل هي سبب ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : « انه لن يدخل احدكم الجنة بعمله قالوا : ولا انت يارسول الله ! قال : ولا انا ، الا ان يتغمدني الله برحمة منه وفضل » . وقد قال : (ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) فهذه باء السبب ، اي : بسبب اعمالكم ، والذي نفاه النبي صلى الله عليه وسلم باء المقابلة كما يقال : اشتريت هذا بهذا ، أي : ليس العمل عوضاً وثمنا كافيا فى دخول الجنة ، بل لا بد من عفو الله

وفضله ورحمتــه فبعفوه يمحوا السيئات ، وبرحمتــه يأتى بالخــيرات ، وبفضله يضاعف البركات .

وفي هذا الموسع ضل طائفتان من الناس :

«فريق» آمنوا بالقدر، وظنوا ان ذلك كاف فى حصول المقصود ، فأعرضوا عن الاسباب الشرعية ، والاعمال الصالحة ، وهــؤلاء يؤول بهم الامر الى ان يكفروا بكتب الله ورسله ، ودينه .

و (فريق) اخذوا يطلبون الجزاء من الله كما يطلبه الاجـير من المستأجر ، متكلين على حولهم وقوتهم وعملهم ، وكما يطلبه المماليك ، وهؤلاء جهال ضلال فان الله لم يأمر العباد بما امرهم به حاجة اليه ، ولانهاهم عما نهاهم عنه بخلا بــه ، ولكن أمرهم بما فيه صلاحهم ، ونهاهم عمـا فيه فسادهم ، وهو سبحانه كما قال : « ياعبادي انكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني » فالملــك إذا أمر مملوكيهبأمر أمرهم لحاجته اليهم وهم فعلوه بقوتهم الــتى لم يخلقها لهم ، فيطالبون بجزاء ذلك،والله تعالى غني عن العالمين ،فان احسنوا احسنوا لأنفسهم وإن أساؤا فلها ، لهــم ماكسبوا وعليهم ما اكتسبوا ، (من عمل صالحاً فلنفسه ومن اساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد) .

وفى الحديث الصحيح عن الله تعالى انــه قال : « ياعبادي ! اني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا ، ياعبادي ! انكم تخطئون بالليل

والنهار وأنا اغفر الذنوب جميعاً ولا ابالي ، فاستغفروني أغفر لكم، ياعبادي ! كلكم ضال الى من هديته فاستهدونى أهدكم . ياعبادي ! كلكم جائع الا من اطعمته فاستطعمونى اطعمكم،ياعبادي ! انكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولمن تبلغوا نفعي فتنفعوني ، ياعبادي ! لو ان أولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على اتقى قلب رجل منكم مازاد ذلك فى ملكي شيئا ، ياعبادي ! لو ان اولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على افجر قلب رجل منكم مانقص ذلك من ملكي شيئا ، ياعبادي! لو ان أولكم وآخركم وانسكم وجنكم اجتمعوا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل انسان منهم مسألته مانقص ذلك فى ملكي شيئا . الا كما ينقص البحر ان يغمس فيه المخيط غمسة واحدة ، ياعبادي ! انما هي أعمالكم احصيها لكم ثم أوفيكم اياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن الا نفسه » .

وهو سبحانه مع غناه عن العالمين ، خلقهم وارسل اليهم رسولا يبين لهم مايسعدهم وما يشقيهم ، ثم انه هدى عباده المؤمنين لما اختلفوا فيه من الحق باذنه فمن عليهم بالايمان والعمل الصالح فخلقه بفضله ، وارساله الرسول بفضله ، وهدايته لهم بفضله، وجميع ماينالون به الخيرات من قوامهم وغير قوامهم هي بفضله ، فكذلك الثواب والجزاء هو بفضله،وان كان اوجب ذلك على نفسه ، كما حرم على نفسه الظلم ، ووعد بذلك كما قال : (كتب ربكم على نفسه الرحمة) وقال تعالى: (وكان حقا علينا نصر المؤمنين) فهو واقع لامحالة واجب بحكم إيجابه ووعده

لأن الخلق لا يوجبون على الله شيئا . أو يحرمون عليه شيئا . بل هم أعجز من ذلك واقل من ذلك وكل نعمة منــه فضل ، وكل نقمة منه عــدل ، كما فى الحديث المتقدم « انما هي اعمالــكم احصيها لكم ثم اوفيكم اياهــا فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن الا نفسه » .

وفى الحديث الصحيــح « سيد الاسغفار ان يقول العبد:اللهم ! انت ربي لا اله الا انت ، خلقتني وانا عبدك وانا على عهدك ووعدك ، ما استطعت اعوذ بك من شر ماصنعت ، ابوء لك بنعمتك علي ، وابوء بذنبي فاغفر لي انه لايغفر الذنوب الا انت ، من قالها اذا اصبح موقنا بها فمات من ليلته دخل الجنــة » . فقوله ابوء لك بنعمتك علي وابوء بذنبي ، اعتراف بانعام الرب وذنب العبد ، كما قال بعض السلف : انى اصبح بين نعمة تنزل من الله علي وبــين ذنب يصعد مني الى الله ، فاريد ان احدث للنعمة شكراً ، وللذنب استغفاراً .

فمن اعرض عن الامر والنهي والوعد والوعيد ناظراً الى القدر فقــد ضل، ومن طلب القيام بالامر والنهي معرضا عن القدر فقــد ضل؛ بل المؤمن كما قال تعالى : (اياك نعبد واياك نستعين) فنعبده اتباعا للأمر ، ونستعينه ايماناً بالقدر وفى الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « المؤمن القوي خير واحب الى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كل خــير احرص على ماينفعك واستعن بالله ولا تعجزن، وان اصابك شيء فلا تقل : لو انى فعلت لــكان كذا وكذا ، ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل فان لو تفتح عمل الشيطان» .

فأمره النبي صلى الله عليه وسلم بشيئين : ان يحرص على ما ينفعه ، وهو امتثال الأمر.وهو العبادة ، وهو طاعة الله ورسوله ، وان يستعين بالله ، وهو يتضمن الايمان بالقدر : انه لا حول ولا قوة الا بالله ، وانه ما شاء الله كان ، ومالم يشأ لم يكن .

فمن ظن أنه يطيع الله بلا معونته ، كما يزعم القدرية والمجوسية.فقد جحد قدرة الله التامة ومشيئته النافذة ، وخلقه لكل شيء . ومن ظن انه إذا أعين على ما يريد ، ويسر له ذلك كان محموداً سواء وافق الأمر الشرعي او خالفه ، فقد جحد دين الله وكذب بكتبه ورسله ووعده ووعيده ، واستحق من غضبه وعقابه أعظم ما يستحقه الأول .

فان العبد قد يريد ما يرضاه ويحبه ويأمر به ويقرب إليه ، وقد يريد ما يبغضه الله ويكرهه ويسخطه ، وينهى عنه ويعذب صاحبه ، فكل من هذين قد يسر له ذلك، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : «كل ميسر لما خلق له امامن كان من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة.وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة) وقد قال تعالى : (من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً ، ومن أراد الآخرة وسعى لهاسعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً . كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً) وقال تعالى : (فأما

الانســان إذا ما ابتــلاه ربه فأ كرمه ونعمــه فيقول ربى ا كرمن وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن كلا) .

بين سبحانه أنه ليس كل من ابتلاه فى الدنيا يكون قد أهانه، بل هو يبتلى عبده بالسراء والضراء ، فالمؤمن يكون صباراً شكوراً ، فيكون هذا وهذا خيراً له ، كما فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا يقضى الله للمؤمــن قضاء إلا كان خيراً له ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن اصابته سراء شكر ، فـكان خيراً له ، وإن اصابته ضراء صبر فـكان خيراً له » . والمنافق هــلوع جزوع ، كما قال تعالى : (ان الانسان خلق هلوعا إذا مسه الشر جـزوعا وإذا مسه الخير منوعا إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم ـــ إلى قوله ـــ جنات مكرمون) .

ولما كان العبد ميسراً لما لا ينفعه بل يضره من معصية الله والبطر والطغيان وقد يقصد عبادة الله وطاعته والعمل الصالح فلا يتأتى له ذلك ، أمر فى كل صلاة بأن يقول : (إياك نعبد وإياك نستعين) وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يقول الله عز وجل قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفــين نصفها لي ، ونصفها لعبدي ، ولعبدي ما سأل فاذا قال : (الحمد لله رب العالمين) قال : حمدني عبدي ؛ فاذا قال : (الرحمن الرحيم) قال : اثنى علي عبــدي ، فاذا قال :(مالك يوم الدين) قال : مجدنى عبدي، فاذا قال: (إياك نعبد وإياك نستعين) قال : هذه الآية بيني وبين عبدي ، ولعبدي ما سأل ، فاذا قال: (اهدنا الصراط

المستقيم صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضـــالين) قال : فهؤلاء لعبدى ولعبدي ما سأل ». وقال بعض السلف، أنزل الله عز وجل مائة كتاب ، وأربعة كتب جمع علمها فى الكتب الأربعة : التوراة والانجيل والزبور والفرقان وجمع الأربعة فى القرآن ، وعلم القرآن في المفصل ، وعــلم المفصل فى الفاتحة ،وعلم الفاتحة في قوله : (إياك نعبد وإياك نستعين) .

فــكل عمل يعمله العبد ، ولا يكون طاعة لله وعبادة ، وعملا صــالحا فهو باطل، فان الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله وإن نال بــذلك العمل رئاسة ومالا، فغاية المترئس ان يكون كفرعون،وغاية المتمول ان يكون كقارون. وقد ذكر الله فى سورة القصص من قصة فرعون وقارون ما فيه عــبرة لأولي الألباب ، وكل عمل لا يعين الله العبد عليه فانه لا يكون ولا ينفع ، فما لا يكون به لا يكون ، وما لا يكون له لا ينفع ولا يدوم ، فلذلك أمر العبد ان يقول : (إياك نعبد وإياك نستعين) .

والعبد له في المقدور « حالان » حال قبل القدر . و « حال » بعده ، فعليه قبل المقدور ان يستعين بالله ويتوكل عليه ويدعوه، فاذا قدر المقدور بغير فعله فعليه ان يصبر عليه او يرضى به ، وان كان بفعله وهو نعمة حمد الله على ذلك، وان كان ذنباً استغفر إليه من ذلك .

وله فى المــأمور « حالان » : حال قبل الفعل وهــو العزم على الامتثال

والاستعانة بالله على ذلك . وحال بعد الفعل وهو الاستغفار من التقصير وشكر الله على ما انعم به من الخير . وقال تعالى : (فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك) أمره ان يصبر على المصائب المقدرة ويستغفر من الذنب ، وان كان استغفار كل عبد بحسبه ، فان حسنات الأبرار سيئات المقربين . وقال تعالى : (وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الأمور) وقال يوسف : (انه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين) فذكر الصبر على المصائب والتقوى بترك المعائب ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « احرص على ماينفعك واستعن بالله ولا تعجزن وان اصابك شيء فلا تقل لو اني فعلت كان كذا وكذا . ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل فان لو تفتح عمل الشيطان » .

فأمره اذا اصابته المصائب ان ينظر الى القدر . ولا يتحسر على الماضي . بل يعلم ان ما اصابه لم يكن ليخطئه . وان ما أخطأه لم يكن ليصيبه . فالنظر الى القدر عند المصائب . والاستغفار عند المعائب ؛ قال تعالى : (ما اصاب من مصيبة في الارض ولا في انفسكم الا في كتاب من قبل ان نبرأها ان ذلك على الله يسير لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم) وقال تعالى : (ما اصاب من مصيبة الا باذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه) قال علقمة : وغيره هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم انها من عند الله فيرضى ويسلم . والله سبحانه وتعالى اعلم .

وسئل

عن الباري سبحانه : هل يضل ويهدي ؟

فأجاب :

إن كل ما فى الوجود فهو مخلوق له ، خلقه بمشيئته وقدرتــه ، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وهو الذي يعطي ويمنع ، ويخفض ويرفع ، ويعز ويذل ويغنى ويفقر ، ويضل ويهدى ، ويسعد ويشقى ، ويولى الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء ، ويشرح صدر من يشاء للاسلام ، ويجعــل صدر من يشاء ضيقا كأنما يصعد فى السماء ، وهو يقلب القلوب ؛ ما من قلب من قلوب العبــاد الا وهو بين اصبعين من اصابع الرحمن ان شاء ان يقيمه اقامه ،وإن شاء ان يزيغه ازاغه ، وهو الذي حبب الى المؤمنين الايمان وزينه فى قلوبهم وكره اليهم الكفر والفسوق والعصيان ، اولئك هم الراشدون .

وهو الذي جعل المسلم مسلماً والمصلي مصلياً . قال الخليل : (ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا امة مسلمة لك) وقال : (ربى اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتى) وقال تعالى : (وجعلناهم ائمة يهدون بأمرنا لما صبروا) وقال عن آل فرعون : (وجعلناهم ائمة يدعون الى النار) وقال تعــالى : (ان الانسان خلق

هلوعاً إذا مسه الشر جزوعاً ، واذا مسه الخير منوعاً) وقال : (واصنــع الفلك بأعيننا ووحينا) وقال : (وبصنع الفلك) .

والفلك مصنوعة لبني آدم وقد اخبر الله تبارك وتعالى انه خلقهــا بقوله : (وخلقنا لهم من مثله ما يركبون) وقال : (والله جعل لــكم من بيوتكم سكناً وجعل لــكم من جلود الانعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنــكم ويوم اقامتــكم ومن اصوافها وأوبارها) الآيات . وهذه كلها مصنوعة لبني آدم .

وقال تعالى : (أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون) فمــا بمعنى « الذي » ومن جعلها مصدرية فقدغلط ، لكن إذا خلق المنحوت كما خلق المصنوع والملبوس ، والمبني دل على انه خالق كل صانع وصنعته ، وقال تعالى: (من يهدي الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً) وقال (فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد ان يضله يجعل صدره ضيقــاً حرجاً) وهو سبحانه خالق كل شيء وربه ومليكه ، وله فيما خلقه حكمة بالغة ، ونعمة سابغة ، ورحمة عامة وخاصة ، وهو لا يسأل عما يفعــل وهم يسألون ، لا لمجرد قدرته وقهره ، بل لــكمال علمه وقدرته ورحمته وحكمته .

فانه سبحانه وتعالى احكم الحاكمين ، وأرحم الراحمين ، وهو ارحم بعباده من الوالدة بولدها ، وقد احسن كل شيء خلقه . وقال تعالى : (وترى الجبــال

تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي اتقن كل شيء) وقد خلق الاشياء بأسباب ، كما قال تعـالى : (وما انزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها)وقال: (فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات)وقال تعالى : (يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام) .

سئل شيخ الاسلام رحمه الله تعالى[1]

عن حسن ارادة الله تعالى لخلق الخلق وانشاء الانام ، وهل يخلق لعلة او لغير علة ؟ فان قيل لا لعلة فهو عبث — تعالى الله عنه — وان قيل لعلة ، فان قلتم انها لم تزل ، لزم ان يكون المعلول لم يزل ، وان قلتم انها محدثة لزم ان يكون لها علة ، والتسلسل محال .

فأجاب الحمد لله رب العالمين . هذه المسألة كبيرة من اجل المسائل الكبار التى تكلم فيها الناس وأعظمها شعوباً وفروعاً ، وأكثرها شبهاً ومحارات ؛فان لها تعلقاً بصفات الله تعالى وبأسمائه وأفعاله، وأحكامه من الامر والنهي والوعد والوعيد ، وهي داخلة فى خلقه وأمره ، فكل ما فى الوجود متعلق بهذه المسألة، فان المخلوقات جميعها متعلقة بها وهي متعلقة بالخالق سبحانه ، وكذلك الشرائع كلها : الأمر والنهي والوعد والوعيد متعلقة بها، وهي متعلقة بمسائل القدر والأمر ، وبمسائل الصفات والافعال ، وهذه جوامع علوم الناس ، فعلم الفقه الذي هو الأمر والنهي متعلق بها .

---

(١) تسمي : « اقوم ما قيل في القضاء والقدر والحكمة والتعليل »

وقد تكلم الناس في « تعليل الاحكام الشرعية والأمر والنهي » كالامر بالتوحيد والصدق والعدل والصلاة والزكاة والصيام والحج ، والنهي عن الشرك والكذب والظلم والفواحش ، هل أمر بذلك لحكمة ومصلحة وعلة اقتضت ذلك ؟ أم ذلك لمحض المشيئة وصرف الارادة ؟ وهل علل الشرع بمعنى الداعي والباعث ؟ او بمعنى الأمارة والعلامة ؟ وهل يسوغ في الحكمة ان ينهى الله عن التوحيد والصدق والعدل ، ويأمر بالشرك والكذب والظلم ام لا ؟

وتكلم الناس في تنزيه الله تعالى عن الظلم هل هو منزه عنه مع قدرته عليه ام الظلم ممتنع لنفسه لا يمكن وقوعه ؟

وتكلموا في محبة الله ورضاه وغضبه وسخطه. هل هي بمعنى ارادته، او هي الثواب والعقاب المخلوق ، ام هذه صفات اخص من الارادة ؟

وتنازعوا فيما وقع في الأرض من الكفر والفسوق والعصيان ؛ هل يريده ويحبه ويرضاه كما يريد ويحب سائر ما يحدث ؟ ام هو واقع بدون قدرته ومشيئته ، وهو لا يقدر ان يهدي ضالا ولا يضل مهتدياً ؟ ام هو واقع بقدرته ومشيئته ؟ ولا يكون في ملكه ما لا يريد. وله في جميع خلقه حكمة بالغة ،وهو يبغضه ويكرهه ويمقت فاعله ،ولا يحب الفساد ولا يرضى لعباده الكفر ، ولا يريده الارادة الدينية المتضمنة لمحبته ورضاه ، وإن اراده الارادة الكونية التي تتناول ما قدره وقضاه ؟ . وفروع هذا الاصل كثيرة لا يحتمل هذا الموضع استقصاءها.

ولأجل تجاذب هــذا الاصل ووقوع الاشتبـاه فيه صار الناس فيه الى التقديرات الثلاثة المذكورة فى سؤال السائل ، وكل تقدير قال به طوائف من بنى آدم من المسلمين وغير المسلمين .

(فالتقدير الاول) هو قول من يقول خلق المخلوقات وأمر بالمأمورات لا لعلة ولا لداع ولا باعث ، بل فعل ذلك لمحض المشيئة وصرف الارادة ، وهذا قول كثير ممن يثبت القدر ، وينتسب الى السنة من اهل الكلام والفقه وغيرهم. وقد قال بهــذا طوائف من اصحـاب مالك والشافعي واحمـد وغيرهم ، وهو قول الاشعري واصحابه ، وقول كثير من « نفاة القيـاس في الفقه » الظاهرية كابن حزم وامثاله .

ومن حجة هؤلاء انه لو خلق الخلق لعلة لـكان ناقصاً بدونها مستكملاً بها؛ فانه إما ان يكون وجود تلك العلة وعدمها بالنسبة اليه سواء ، او يكون وجودها اولى به . فان كان الاول امتنع ان يفعل لأجلها، وان كان الثاني ثبت ان وجودها اولى به ، فيكون مستكملاً بها ، فيكون قبلها ناقصاً .

ومن حجتهم ما ذكره السائل من ان العــلة إن كانت قديمة وجب قدم المعلول ؛ لأن العلة الغائية وان كانت متقدمة على المعلول فى العلم والقصد ـــ كما يقال : اول الفكرة آخر العمل ، واول البغية آخر الدرك . ويقال ان العلة الغائية بها صار الفاعل فاعلاً ـــ فلا ريب انها متأخرة فى الوجود عنه ؛ فمن فعل فعلاً

لمطلوب يطلبه بذلك الفعل كان حصول المطلوب بعد الفعل ، فاذا قدر انذلك المطلوب الذي هو العلة قديماً كان الفعل قديماً بطريق الاولى .

فلو قيل : انه يفعل لعلة قديمة لزم ان لايحدث شيء من الحوادث وهو خلاف المشاهدة ، وان قيل انه فعل لعلة حادثة لزم محذوران :

(احدهما) ان يكون محلاً للحوادث ؛ فان العلة اذا كانت منفصلة عنه فان لم يعد اليه منها حكم امتنع ان يكون وجودها اولى به من عدمها ، واذا قدر انه عاد اليه منها حكم كان ذلك حادثاً فتقوم به الحوادث .

(المحذور الثاني) ان ذلك يستلزم التسلسل من وجهين (احدهما) ان تلك العلة الحادثة المطلوبة بالفعل هي ايضاً مما يحدثه الله تعالى بقدرته ومشيئته ، فان كانت لغير علة لزم العبث كما تقدم ، وان كانت لعلة عاد التقسيم فيها ، فاذا كان كل ما احدثه احدثه ، لعلة والعلة مما احدثه لزم تسلسل الحوادث(الثاني) ان تلك العلة إما ان تكون مرادة لنفسها او لعلة اخرى ، فان كانت مرادة لنفسها امتنع حدوثها لأن ما اراده الله تعالى لذاته وهو قادر عليه لا يؤخر احداثه ، وان كانت مرادة لغيرها فالقول في ذلك الغير كالقول فيها ويلزم التسلسل . فهذا ونحوه من حجج من ينفي تعليل أفعال الله تعالى وأحكامه .

(والتقدير الثاني) قول من يجعل العلة الغائية قديمة كما يجعل العلةالفاعلية

قديمة، كمايقول ذلك طوائف من المسلمين كما سيأتي بيانه، وكما يقول ذلك من يقوله من المتفلسفة القائلين بقدم العالم. وهؤلاء اصل قولهم ان المبدع للعالم علة تامة تستلزم معلولها، لا يجوز ان يتأخر عنها معلولها. وأعظم حججهم قولهم: ان جميع الامور المعتبرة فى كونه فاعلا ان كانت موجودة في الازل لزم وجود المفعول في الازل، لأن العلة التامة لايتأخر عنها معلولها. فانه لو تأخر لم تكن جميع شروط الفعل وجدت فى الازل. فانا لا نعني بالعلة التامة إلا ما يستلزم المعلول، فاذا قدر انه تخلف عنها المعلول لم تكن تامة، وان لم تكن العلة التامة — التى هي جميع الامور المعتبرة فى الفعل وهي المقتضى التام لوجود الفعل وهي جميع شروط الفعل التى يلزم من وجودها وجود الفعل ان لم يكن جميعها فى الازل — فلا بد إذا وجد المفعول بعد ذلك من تجدد سبب حادث والا لزم ترجيح احد طرفي الممكن بلا مرجح، واذا كان هناك سبب حادث فالقول فى حدوثه كالقول فى الحادث الاول، ويلزم التسلسل. قالوا فالقول بانتفاء العلة التامة المستلزمة للمفعول يوجب إما التسلسل وإما الترجيح بلا مرجح.

ثم اكثر هؤلاء يثبتون علة غائية للفعل وهي بعينها الفاعلية، ولكنهم متناقضون، فانهم يثبتون له العلة الغائية ويثبتون لفعله العلة الغائية، ويقولون مع هذا ليس له ارادة بل هو موجب بالذات، لا فاعل بالاختيار. وقولهم باطل من وجوه كثيرة.

(منها) ان يقال : هذا القول يستلزم ان لا يحدث شيء . وان كل ما حدث حدث بغير إحداث محدث . ومعلوم ان بطلان هذا ابين من بطلان التسلسل، وبطلان الترجيح بلا مرجح ، وذلك ان العلة التامة المستلزمة لمعلولها يقترن بها معلولها ولا يجوز ان يتأخر عنها شيء من معلولها . فكل ما حدث من الحوادث لا يجوز ان يحدث عن هذه العلة التامة ، وليس هناك ما تصدر عنه الممكنات سوى الواجب بنفسه الذي سماه هؤلاء علة تامة ، فاذا امتنع صدور الحوادث عنه وليس هناك ما يحدثها غيره لزم ان تحدث بلا محدث .

(وأيضاً) فلو قدر ان غيره احدثها فان كان واجباً بنفسه كان القول فيه كالقول فى الواجب الأول ، واصل قولهم : ان الواجب بنفسه علة تامة تستلزم مقارنة معلوله له ، فلا يجوز ان يصدر على قولهم عن العلة التامة حادث ، لا بواسطة ولا بغير واسطة ؛ لان تلك الواسطة ان كانت من لوازم وجوده كانت قديمة معه ، فامتنع صدور الحوادث عنها وان كانت حادثة كان القول فيها كالقول فى غيرها .

وان قدر ان المحدث للحوادث غير واجب بنفسه كان ممكناً مفتقراً الى موجب يوجب به . ثم ان قيل انه محدث كان من الحوادث ، وان قيل انه قديم كان له علة تامة مستلزمة له ، وامتنع حينئذ حدوث الحوادث عنه ، فان الممكن لا يوجد هو ولا شيء من صفاته وافعاله الا عن الواجب بنفسه : فاذا قدر حدوث الحوادث عن ممكن قديم معلول لعلة قديمة ، قيل : هل حدث فيه سبب

يقتضي الحدوث ام لا ؟ فان قيل : لم يحدث سبب لزم الترجيح بلا مرجح، وان قيل : حدث سبب لزم التسلسل كما تقدم .

(الوجه الثاني) الذي يبين بطلان قولهم ان يقال : مضمون الحجة انه إذا لم يكن ثم علة قديمة لزم التسلسل او الترجيح بلا مرجح، والتسلسل عندكم جائز . فان اصل قولهم ان هذه الحوادث متسلسلة شيئاً بعد شيء ، وان حركات الفلك توجب استعداد القوابل لأن تفيض عليها الصور الحادثة من العلة القديمة سواء قلتم : هي العقل الفعال ، او هي الواجب الذي يصدر عنه بتوسط العقول، او غير ذلك من الوسائط ، واذا كان التسلسل جائزاً عندكم لم يمتنع حدوث الحوادث عن غير علة موجبة للمعلول وان لزم التسلسل ؛ بل هذا خير في الشرع والعقل من قولكم . وذلك ان الشرع اخبر ان الله خلق السموات والأرض فى ستة أيام وهذا مما اتفق عليه أهل الملل: المسلمون واليهود والنصارى . فان قيل : إنه خلقها بسبب حادث قبل ذلك كان خيراً من قولكم انها قديمة أزلية معه فى الشرع، وكان أولى فى العقل : لأن العقل ليس فيه ما يدل على قدم هذه الأفلاك حتى يعارض الشرع ، وهذه الحجة العقلية انما تقتضي انه لا يحدث شيء الا بسبب حادث . فاذا قيل : ان السموات والأرض خلقها الله تعالى بما حدث قبل ذلك لم يكن فى حجتكم العقلية ما يبطل هذا .

(الوجه الثالث) ان يقال : حدوث حادث بعد حادث بلا نهاية إما ان يكون ممكناً في العقل او ممتنعاً ؛ فان كان ممتنعاً فى العقل لزم ان الحوادث جميعها

لها اول كما يقول ذلك من يقوله من اهل الكلام ، وبطل قولهم بقدم حركات الافلاك، وان كان ممكنا امكن ان يكون حدوث ما احدثه الله تعالى كالسموات والارض موقوفا على حوادث قبل ذلك، كما تقولون انتم فيما يحدث فى هذا العالم من الحيوان والنبات والمعادن والمطر والسحاب وغير ذلك ، فيلزم فساد حجتكم على التقديرين .

ثم يقال : اما ان تثبتوا لمبدع العالم حكمة وغاية مطلوبة ، واما ان لاتثبتوا ؛ فان لم تثبتوا بطل قولكم باثبات العلة الغائية ،وبطل ماتذكرونه من حكمة الباري تعالى فى خلق الحيوان وغير ذلك من المخلوقات ، و (ايضا) فالوجود يبطل هذا القول ؛ فان الحكمة الموجودة فى الوجود امر يفوق العد والاحصاء ، كاحداثه سبحانه لما يحدثه من نعمته ورحمته وقت حاجة الخلق اليه ، كاحداث المطر وقت الشتاء بقدر الحاجة ، واحداثه للانسان الآلات التى يحتاج اليها بقدر حاجته ، وامثال ذلك مما ليس هذا موضع بسطه ، وان اثبتم له حكمة مطلوبة — وهي باصطلاحكم العلة الغائية — لزمكم ان تثبتوا له المشيئة والارادة بالضرورة، فان القول : بان الفاعل فعل كذا لحكمة كذا بدون كونه مريداً لتلك الحكمة المطلوبة جمع بين النقيضين ؛ وهؤلاء المتفلسفة من اكثر الناس تناقضاً ولهذا يجعلون العلم هو العالم والعلم ، هو الارادة ، والارادة هي القدرة ، وامثال ذلك؛ كما قد بسط الكلام عليهم فى غير هذا الموضع .

(واما التقدير الثالث) وهو انه فعل المفعولات وأمر بالمأمورات لحكمة

محمودة ، فهذا قول اكثر الناس من المسلمين وغير المسلمين ، وقول طوائف من اصحاب ابى حنيفة والشافعي ومالك واحمد وغيرهم ، وقول طوائف من اهل الكلام من المعتزلة والكرامية والمرجئة وغيرهم ، وقول اكثر اهل الحديث والتصوف واهل التفسير وقول اكثر قدماء الفلاسفة ، وكثير من متأخريهم كابى البركات وامثاله ؛ لكن هؤلاء على اقوال :

(منهم) من قال : ان الحكمة المطلوبة مخلوقة منفصلة عنه ايضا ؛ كما يقول ذلك من يقوله من المعتزلة والشيعة ومن وافقهم ؛ وقالوا : الحكمة فى ذلك احسانه الى الخلق ؛ والحكمة فى الامر تعويض المكلفين بالثواب ؛ وقالوا ان فعل الاحسان الى الغير حسن محمود فى العقل ؛ فخلق الخلق لهذه الحكمة من غير ان يعود اليه من ذلك حكم ؛ ولا قام به فعل ولا نعت .

فقال لهم الناس : أنتم متناقضون فى هذا القول ، لان الاحسان الى الغير محمود لكونه يعود منه على فاعله حكم يحمد لاجله ؛ اما لتكميل نفسه بذلك ؛ واما لقصده الحمد والثواب بذلك ؛ واما لرقة والم يجده فى نفسه يدفع بالاحسان ذلك الالم واما للتذاذه وسروره وفرحه بالاحسان ؛ فان النفس الكريمة تفرح وتسر وتلتذ بالخير الذي يحصل منها الى غيرها ، فالاحسان الى الغير محمود ، لكون المحسن يعود اليه من فعله هذه الامور حكم يحمد لأجله ، اما اذا قدر ان وجود الاحسان وعدمه بالنسبة الى الفاعل سواء لم يعلم ان مثل هذا الفعل يحسن منه بل مثل هذا يعد عبثاً فى عقول العقلاء ، وكل من فعل فعلا ليس فيه لنفسه لذة

ولا مصلحة ولا منفعة بوجه من الوجوه لا عاجلة ولا آجلة كان عابثا ولم يكن محموداً على هذا . وانتم عللتم افعاله فراراً من العبث فوقعتم في العبث ؛ فان العبث هو الفعل الذي ليس فيه مصلحة ولا منفعة ولا فائدة تعود على الفاعل ؛ ولهذا لم يأمر الله تعالى ولا رسوله صلى الله عليه وسلم ولا احد من العقلاء احداً بالاحسان الى غيره ونفعه ونحو ذلك الا لما له في ذلك من المنفعة والمصلحة ، والا فأمر الفاعل بفعل لايعود اليه منه لذة ولا سرور ولا منفعة ولا فرح بوجه من الوجوه لافي العاجل ولا في الآجل لايستحسن من الآمر .

ونشأ من هذا الكلام نزاع بين المعتزلة وغيرهم ومن وافقهم في « مسألة التحسين ، والتقبيح العقلي » فاثبت ذلك المعتزلة وغيرهم ومن وافقهم من اصحاب ابي حنيفة ومالك والشافعي واحمد واهل الحديث وغيرهم ، وحكوا ذلك عن ابي حنيفة نفسه ، ونفى ذلك الاشعرية ومن وافقهم من اصحاب مالك والشافعي واحمد وغيرهم ، واتفق الفريقان على ان الحسن والقبح اذا فسرا بكون الفعل نافعا للفاعل ملائما له ولكونه ضاراً للفاعل منافراً له انه يمكن معرفته بالعقل ، كما يعرف بالشرع .وظن من ظن من هؤلاء ان الحسن والقبح المعلوم بالشرع خارج عن هذا ، وهذا ليس كذلك ، بل جميع الافعال التى اوجبها الله تعالى وندب اليها هي نافعة لفاعليها ومصلحة لهم . وجميع الافعال التى نها الله عنها هي ضارة لفاعليها ومفسدة في حقهم ، والحمد والثواب المترتب على طاعة الشارع نافع للفاعل ومصلحة له ، والذم والعقاب المترتب على معصيته ضار للفاعل ومفسدة له .

والمعتزلة اثبتت الحسن فى افعال الله تعالى لا بمعنى حكم يعود اليه من افعاله . ومنازعوهم لما اعتقدوا ان لاحسن ولا قبح فى الفعل الا ماعاد الى الفاعل منـه حكم نفوا ذلك ، وقالوا : القبيح في حق الله تعالى هو الممتنع لذاته . وكل مايقدر ممكنا من الافعال فهو حسن : اذ لافرق بالنسبة اليه عندهم بين مفعول ومفعول واولئك اثبتوا حسناً وقبحاً لا يعود الى الفاعل منه حكم يقوم بذاته ، اذ عنـدهم لايقوم بذاته لا وصف ولا فعل ولا غير ذلك ، وان كانوا قد يتناقضون .

ثم اخذوا يقيسون ذلك عـلى مايحسن من العبد ويقبح فجعلوا يوجبون على الله سبحانه مايوجبون على العبد ، ويحرمون عليه من جنس ما يحرمون على العبد ، ويسمون ذلك العدل والحكمة مع قصور عقلهم عن معرفة حكمته وعدله ولا يثبتون له مشيئة عامة ، ولا قدرة تامة . فلا يجعلونه (على كل شيء قدير) ولايقولون «ماشاء الله كان ومالم يشأ لم يكن» ولا يقرون بانه خالق كل شيء ويثبتون له من الظلم ما نزه نفسه عنه سبحانه . فانه قال (ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً) اي لا يخاف ان يظلم فيحمل عليه من سيئات غيره ولا يهضم من حسناته . وقال تعالى (ما يبدل القول لدي وما انا بظلام للعبيد) وقال النبي صلى الله عليه وسلم فى حديث البطاقة الذي رواه الامام احمد والترمذي وغيرهما « يجاء برجل من امتي يوم القيامة فتنشر له تسعة وتسعون سجلاً كل سجل مد البصر . فيقال له : هل تنكر من هـذا شيئاً ؟ فيقول : لا يارب . فيقال له : الك عذراً لك حسنة؟ فيقول لا يارب فيقول : بلى

ان لك عندنا حسنة ، وانه لا ظلم عليك اليوم ، قال فتخرج له بطاقة فيها اشهد ان لا اله الا الله فتوضع البطاقة فى كفة والسجلات فى كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة » . فقد اخبر النبي صلى الله عليه وسلم انه لايظلم ، بل يثاب على ما آتى به من التوحيد ، كما قال تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) .

وجمهور هؤلاء الذين يسمون أنفسهم « عدلية » يقولون : من فعل كبيرة واحدة احبطت جميع حسناته ، وخلد فى نار جهنم . فهذا الذي سماه الله ورسوله ظلما يصفون الله به مع دعواهم تنزيهه عن الظلم ، ويسمون تخصيصه من يشاء برحمته وفضله وخلقه ما خلقه لما له فيه من الحكمة البالغة ظلما . والكلام فى هذه الأمور مبسوط فى غير هذا الموضع ولكن نبهنا على مجامع اصول الناس فى هذا المقام .

وهؤلاء المعتزلة ومن وافقهم من الشيعة يوجبون على الله سبحانه ان يفعل بكل عبد ما هو الاصلح له فى دينه ، وتنازعوا فى وجوب الأصلح فى دنياه ، ومذهبهم انه لا يقدر ان يفعل مع مخلوق من المصلحة الدينية غير ما فعل، ولا يقدر ان يهدي ضالا ولا يضل مهتديا .

واما سائر الطوائف الذين يقولون بالتعليل من الفقهاء واهل الحديث والصوفية واهل الكلام كالكرامية وغيرهم والمتفلسفة ايضا فلا يوافقونهم على

هذا ؛ بل يقولون انه يفعل ما يفعل سبحانه لحكمة يعلمها سبحانه وتعالى، وقد يعلم العباد او بعض العباد من حكمته ما يطلعهم عليه وقد لا يعلمون ذلك . والأمور العامة التى يفعلها تكون لحكمة عامة ورحمة عامة ،كارسال محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فانه كما قال تعالى (وما ارسلناك الا رحمة للعالمين) فان ارساله كان من اعظم النعمة على الخلق وفيه اعظم حكمة للخالق ورحمة منه لعباده كما قال تعالى (لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من انفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة) وقال تعالى (وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله باعلم بالشاكرين) وقال (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات او قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين) وقال تعالى (الم تر الى الذين بدلوا نعمة الله كفراً) قالوا هو محمد صلى الله عليه وسلم .

فاذا قال قائل : فقد تضرر برسالته طائفة من الناس كالذين كذبوه من المشركين واهل الكتاب كان عن هذا جوابان :

(احدها) انه نفعهم بحسب الامكان ، فانه اضعف شرهم الذي كانوا يفعلونه لولا الرسالة باظهار الحجج والآيات التى زلزلت ما فى قلوبهم ، وبالجهاد والجزية التى اخافتهم واذلتهم حتى قل شرهم ، ومن قتله منهم مات قبل ان يطول عمره فى الكفر فيعظم كفره ، فكان ذلك تقليلا لشره ، والرسل صلوات الله عليهم

بعثوا بتحصيل المصالح وتكميلها ، وتعطيل المفاسد وتقليلها بحسب الامكان .

(والجواب الثاني) ان ما حصل من الضرر امر مغمور فى جنب ما حصل من النفع ، كالمطر الذي عم نفعه اذا خرب به بعض البيوت او احتبس به بعض المسافرين والمكتسبين كالقصارين ونحوهم ، وما كان نفعه ومصلحته عامة كان خيراً مقصوداً ورحمة محبوبة وان تضرر به بعض الناس . وهذا الجواب اجاب به طوائف من المسلمين واهل الكلام والفقه وغيرهم من الحنفية والحنبلية وغيرهم ومن الكرامية والصوفية ، وهو جواب كثير من المتفلسفة .

وقال هؤلاء : جميع ما يحدثه فى الوجود من الضرر فلا بد فيه من حكمة قال الله تعالى (صنع الله الذي اتقن كل شيء) وقال (الذي احسن كل شيء خلقه) والضرر الذي يحصل به حكمة مطلوبة لا يكون شراً مطلقاً ، وان كان شراً بالنسبة الى من تضرر به ؛ ولهذا لا يجيء في كلام الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم اضافة الشر وحده الى الله ؛ بل لايذكر الشر الا على احد وجوه « ثلاثة » إما ان يدخل فى عموم المخلوقات ، فانه اذا دخل فى العموم افاد عموم القدرة والمشيئة والخلق ، وتضمن ما اشتمل عليه من حكمة تتعلق بالعموم ، وإما ان يضاف الى السبب الفاعل ، وإما ان يحذف فاعله .

فالاول كقوله تعالى (الله خالق كل شيء) ونحو ذلك ، ومن هذا الباب اسماء الله المقترنة كالمعطي المانع ، والضار النافع ، المعز المذل ، الخافض الرافع ،

فلا يفرد الاسم المانع عن قرينه، ولا الضار عن قرينه ؛ لأن اقترانهما يدل على العموم ، وكل ما فى الوجود من رحمة ونفع ومصلحة فهو من فضله تعالى، ومافى الوجود من غير ذلك ، فهو من عدله . فكل نعمة منه فضل ، وكل نقمة منه عدل ، كما فى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة ، سحاء الليل والنهار ، ارايتم ما انفق منذ خلق السموات والارض ؟ فانه لم يغض ما فى يمينه ، وبيده الأخرى القسط يخفض ويرفع » فأخبر ان يده اليمنى فيها الاحسان الى الخلق ، ويده الأخرى فيها العدل والميزان الذي به يخفض ويرفع ، فخفضه ورفعه من عدله ، واحسانه الى خلقه من فضله .

واما حذف الفاعل فمثل قول الجن (وانا لا ندري اشر اريد بمن فى الأرض ام اراد بهم ربهم رشداً ؟) وقوله تعالى في سورة الفاتحة (صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) ونحو ذلك .

وإضافته الى السبب كقوله (من شر ما خلق) وقوله (فأردت ان اعيبها) مع قوله (فأراد ربك ان يبلغا اشدهما ويستخرجا كنزهما) وقوله تعالى (مااصابك من حسنة فمن الله وما اصابك من سيئة فمن نفسك) وقوله (ربنا ظلمناانفسنا) وقوله تعالى (او لما اصابتكم مصيبةقد اصبتم مثليها قلتم انى هذا ؟ قل هو من عند انفسكم) وامثال ذلك .

ولهذا ليس من اسماء الله الحسنى اسم يتضمن الشر ، وانما يذكر الشر في مفعولاته ، كقوله (نبيء عبادي اني انا الغفور الرحيم . وان عذابي هو العذاب الاليم) وقوله (ان ربك لسريع العقـاب وانه لغفور رحيم) وقوله (اعلموا ان الله شديد العقاب وانه لغفور رحيم) ، وقوله (ان بطش ربك لشديد . انه هو يبديء ويعيد . وهو الغفور الودود) فبين سبحانه ان بطشه شديد ، وانه هو الغفور الودود .

واسم « المنتقم » ليس من اسماء الله الحسنى الثابتة عن النبي صلى الله عليـه وسلم وانما جاء في القرآن مقيداً كقوله تعالى (انا من المجرمـين منتقمون) وقوله (ان الله عزيز ذو انتقام) والحديث الذي في عدد الاسماء الحسنى الذى يذكر فيه المنتقم فذكر في سياقه « البر التواب المنتقم العفو الرؤوف » ليس هو عنـد اهل المعرفة بالحديث من كلام النبي صلى الله عليه سلم ، بل هذا ذكره الوليـد ابن مسلم عن سعيد بن عبد العزيز او عن بعض شيوخه ؛ ولهذ لم يروه احد من اهل الكتب المشهورة الا الترمذى ، رواه عن طريق الوليد بن مسلم بسياق ورواه غيره باختلاف فى الاسماء ، وفى ترتيبها : يبـين انه ليس من كلام النبي صلى الله عليه وسلم. وسائر من روى هذا الحديث عن ابى هريرة ثم عن الاعرج ثم عن ابى الزناد لم يذكروا اعيان الاسماء ؛ بل ذكروا قوله صلى الله عليـه وسلم « ان لله تسعة وتسعين اسما مائة الا واحـداً من احصاها دخل الجنة » وهكذا اخرجه اهل الصحيح كالبخارى ومسلم وغيرها ، ولكن روي عدد الاسماء من

طريق اخرى من حديث محمد بن سيرين عن ابى هريرة ورواه ابن ماجه واسناده ضعيف يعلم اهل الحديث انه ليس من كلام النبي صلى الله عليه وسلم، وليس فى عدد الاسماء الحسنى عن النبي صلى الله عليه وسلم الا هذان الحديثان كلاهما مروي من طريق ابى هريرة وهذا مبسوط فى موضعه.

والمقصود هنا التنبيه على اصول تنفع فى معرفة هذه المسألة فان نفوس بني آدم لايزال يحوك فيها من هذه المسألة امر عظيم.

واذا علم العبد من حيث الجملة ان لله فيما خلقه وما امر به حكمة عظيمة كفاه هذا، ثم كلما ازداد علما وايمانا ظهر له من حكمة الله ورحمته مايبهر عقله، ويبين له تصديق ما اخبر الله به في كتابه حيث قال (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق) فانه صلى الله عليه وسلم قال فى الحديث الصحيح « لله ارحم بعباده من الوالدة بولدها » وفى الصحيحين عنه انه قال: « ان الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة انزل منها رحمة واحدة، فبها يتراحم الخلق حتى ان الدابة لترفع حافرها عن ولدها من تلك الرحمة، واحتبس عنده تسعا وتسعين رحمة، فاذا كان يوم القيامة جمع هذه الى تلك فرحم بها عباده » او كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثم هؤلاء الجمهور من المسلمين وغيرهم كأئمة المذاهب الاربعة وغيرهم من السلف والعلماء الذين يثبتون حكمته فلا ينفونها – كما نفاها الاشعرية ونحوهم

الذين لم يثبتوا الا ارادة بلا حكمة،ومشيئة بلا رحمة ولامحبة ولا رضى . وجعلوا جميع المخلوقات بالنسبةاليه سواء لايفرقون بين الارادة والمحبة والرضى.بل ماوقع من الكفر والفسوق والعصيان قالوا:انه يحبه ويرضاه كما يريده،واذاقالوا الا يحبه ولا يرضاه ديناقالوا إنه لا يريده ديناً ومالم يقع من الايمان والتقوى فانه لايحبه ولا يرضاه عندهم كما لا يريده . وقد قال تعالى (اذ يبيتون مالا يرضى من القول) فأخبر انه لا يرضاه . مع انه قدره وقضاه — لايوافقون المعتزلة على انكار قدرة الله تعالى وعموم خلقه ومشيئته وقدرته ، ولا يشبهونه بخلقه فيما يوجب ويحرم ، كما فعل هؤلاء، ولا يسلبونه ماوصف به نفسه من صفاته وافعاله ، بل اثبتوا له ما اثبته لنفسه من الصفات والافعال ، ونزهوه عما نزه عنه نفسه من الصفات والافعال ، وقالوا ان الله خالق كل شيء ومليكه،وماشاء كان ومالم يشأ لم يكن،وهو على كل شيء قدير. وهو يحب المحسنين والمتقين والمقسطين ، ويرضى عن السابقين الاولين من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان ولا يحب الفساد ولا يرضى لعباده الكفر ولا يرضى بالقول المخالف لامر الله ورسوله .

وقالوا : مع انه خالق كل شيء وربه ومليكه فقد فرق بين المخلوقات اعيانها وافعالها ، كما قال تعالى : (افنجعل المسلمين كالمجرمين) وكما قال : (ام حسب الذين اجترحوا السيئات ان نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ؟ ساء ما يحكمون) وقال تعالى : (ام نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الارض ؟ ام نجعل المتقين كالفجار ؟) . وقال تعالى :

(وما يستوي الاعمى والبصير ولا الظلمات ولاالنور ولا الظل ولاالحرور وما يستوي الاحياء ولا الاموات) وامثال ذلك مما يبين الفرق بين المخلوقات ، وانقسام الخلق الى شقي وسعيد كما قال تعالى: (هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن) وقال تعالى : (فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة) وقال تعالى : (يدخل من يشاء فى رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليماً) وقال تعالى : (ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون فاما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة يحبرون واما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الاخرة فاولئك فى العذاب محضرون) ونظائر هذا فى القرآن كثيرة .

وينبغي ان يعلم ان هذا المقام زل فيه طوائف من اهل الكلام والتصوف وصاروا فيه الى ماهو شر من قول المعتزلة ونحوهم من القدرية ، فان هؤلاء يعظمون الامر والنهي والوعد والوعيد وطاعة الله ورسوله ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، لكن ضلوا فى القدر ، واعتقدوا انهم اذا اثبتوا مشيئة عامة وقدرة شاملة وخلقاً متناولا لكل شيء لزم من ذلك القدح فى عدل الرب وحكمته ، وغلطوا فى ذلك .

فقابل هؤلاء قوم من العلماء والعباد واهل الكلام والتصوف ، فأثبتوا القدر وآمنوا بأن الله رب كل شيء ومليكه . وانه ماشاء كان ومالم يشأ لم يكن ، وانه خالق كل شيء وربه ومليكه ، وهذا حسن وصواب ؛ لكنهم قصروا في الامر والنهي والوعد والوعيد ، وافرطوا حتى خرج غلاتهم الى الالحاد ، فصاروا من جنس المشركين الذين قالوا (لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا

من شيء). فأولئك القدرية وان كانوا يشبهون المجوس من حيث أنهم أثبتوا فاعلا لما اعتقدوه شراً غير الله سبحانه ، فهؤلاء شابهوا المشركين الذين قالوا: (لو شاء الله ما اشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء) فالمشركون شر من المجوس . فان المجوس يقرون بالجزية باتفاق المسلمين ، وقد ذهب بعض العلماء الى حل نسائهم وطعامهم . واما المشركون فاتفقت الأمة على تحريم نكاح نسائهم وطعامهم . ومذهب الشافعي واحمد فى المشهور عنه وغيرهما انهم لايقرون بالجزية ، وجمهور العلماء على ان مشركي العرب لايقرون الجزية وان اقرت المجوس ؛ فان النبي صلى الله عليه وسلم لم يقبل الجزية من احد من المشركين؛ بل قال « امرت ان أقاتل الناس حتى يشهدوا ان لا إله إلا الله وانى رسول الله ؛ فاذا قالوها عصموا مني دماءهم واموالهم الا بحقها وحسابهم على الله عز وجل» .

والمقصود هنا ان من اثبت القدر واحتج به على ابطال الامر والنهي فهو شر ممن أثبت الامر والنهي ولم يثبت القدر ، وهذا متفق عليه بين المسلمين وغيرهم من اهل الملل بل بين جميع الخلق ، فان من احتج بالقدر وشهود الربوبية العامة لجميع المخلوقات، ولم يفرق بين المأمور والمحظور ، والمؤمنين والكفار ، وأهل الطاعة وأهل المعصية ، لم يؤمن بأحد من الرسل ولا بشيء من الكتب ، وكان عنده آدم وابليس سواء ، ونوح وقومه سواء ، وموسى وفرعون سواء، والسابقون الاولون وكفار مكة سواء .

وهذا الضلال قد كثر في كثير من اهل التصوف والزهد والعبادة ، لاسيما

اذا قرنوا به توحيد أهل الكلام المثبتين للقدر والمشيئة من غير اثبات المحبة والبغض والرضى والسخط، الذين يقولون: « التوحيد » هو توحيد الربوبية. و « الألهية » عندهم هي القدرة على الاختراع، ولا يعرفون توحيد الالهية. ولا يعلمون ان الاله هو المألوه المعبود، وان مجرد الاقرار بأن الله رب كل شيء لا يكون توحيداً حتى يشهد أن لا إله إلا الله. كما قال تعالى: (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون). قال عكرمة: تسألهم من خلق السموات والارض فيقولون الله، وهم يعبدون غيره، وهؤلاء يدعون التحقيق والفناء في التوحيد، ويقولون ان هذا نهاية المعرفة. وان العارف إذا صار في هذا المقام لا يستحسن حسنة ولا يستقبح سيئة لشهوده الربوبية العامة والقيومية الشاملة. وهذا الموضع وقع فيه من الشيوخ الكبار من شاء الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وهؤلاء غاية توحيدهم هو توحيد المشركين الذين كانوا يعبدون الأصنام الذين قال الله عنهم: (قل لمن الأرض ومن فيها ان كنتم تعلمون، سيقولون لله قل أفلا تذكرون. قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم. سيقولون لله، قل أفلا تتقون. قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون. سيقولون لله، قل فأنى تسحرون). وقال تعالى (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون، الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له ان الله بكل

شيء عليم . ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل اكثرهم لا يعقلون) ، وقال تعالى (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لايعلمون) . وقال تعالى:(ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون) وقال تعالى : (قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والابصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر ؟ فسيقولون الله . فقل أفلا تتقون . فذلكم الله ربكم الحق ، فماذا بعد الحق إلا الضلال فانى تصرفون . كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا انهم لايؤمنون . قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده ؟ قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده ، فأنى تؤفكون . قل هل من شركائكم من يهدي الى الحق ؟ قل الله يهدى للحق أفمن يهدي الى الحق احق ان يتبع امن لا يهدى الا ان يهدي ؟ فما لكم كيف تحكمون) وقال تعالى:(أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا بهحدائق ذات بهجة ما كان لكم ان تنبتوا شجرها ؟ أإله مع الله ؟ بل هم قوم يعدلون . أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها انهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً أاله مع الله ؟ بل اكثرهم لا يعلمون . امن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض ؟ أاله مع الله ؟ قليلاً ماتذكرون . امن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته ؟ أاله مع الله ؟ تعالى الله عما يشركون . امن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض ؟ أاله مع الله ؟ قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين) .

فان هؤلاء المشركين كانوا مقرين بان الله خالق السموات والأرض وخالقهم وبيده ملكوت كل شيء . بل كانوا مقرين بالقدر ايضاً . فان العرب كانوا يثبتون القدر فى الجاهلية ، وهو معروف عنهم فى النظم والنثر . ومع هذا فلما لم يكونوا يعبدون الله وحده لا شريك له ، بل عبدوا غيره كانوا مشركين شراً من اليهود والنصارى . فمن كان غاية توحيده وتحقيقه هو هذا التوحيد كان غاية توحيده توحيد المشركين .

وهذا المقام مقام وأي مقام ! ! ! زلت فيه اقدام ، وضلت فيه افهام . وبدل فيه دين المسلمين ، والتبس فيه اهل التوحيد بعباد الاصنام ، على كثير ممن يدعون نهاية التوحيد والتحقيق والمعرفة والكلام .

ومعلوم عند كل من يؤمن بالله ورسوله ان المعتزلة والشيعة القدرية المثبتين للامر والنهي والوعد والوعيد خير ممن يسوي بين المؤمن والكافر . والبر والفاجر ، والنبي الصادق ، والمتنبيء الكاذب ، واولياء الله واعدائه ، ويجعل هذا غاية التحقيق ، ونهاية التوحيد . وهؤلاء يدخلون في مسمى « القدرية » الذين ذمهم السلف ، بل هم احق بالذم من المعتزلة ونحوهم ، كما قال ابو بكر الخلال فى « كتاب السنة » : الرد على القدرية . وقولهم ان الله اجبر العباد على المعاصي ، وذكر عن المروذي قال قات لأبي عبد الله : رجل يقول ان الله اجبر العباد . فقال : هكذا لا تقول . وأنكر ذلك . رقال (يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء) وذكر عن المروذي ان رجلاً قال ان الله لم يجبر العباد على المعاصي ،

فرد عليه آخر فقال ان الله جبر العباد ، اراد بذلك اثبات القدر . فسألوا عن ذلك احمد بن حنبل فأنكر عليهما جميعاً على الذي قال جبر ، وعلى الذي قال لم يجبر حتى تاب،وامر ان يقال : ـــ (يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء) .

وذكر عن عبد الرحمن بن مهدي قال أنكر سفيان الثوري « جبر » وقال ان الله جبل العباد . قال المروذي اراد قول النبي صلى الله عليه وسلم لأشج عبد القيس : يعني قوله « ان فيك لخلقين يحبهما الله : الحلم والاناءة » فقال : اخلقين تخلقت بهما ام خلقين جبلت عليهما ؟ فقال « بل خلقين جبلت عليهما » فقال : الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما .

وذكر عن ابي إسحاق الفزاري قال قال الاوزاعي : اتاني رجلان فسألاني عن القدر فأحببت ان آتيك بهما تسمع كلامهما وتجيبهما : قلت رحمك الله انت اولى بالجواب ، قال : فأتاني الاوزاعي ومعه الرجلان فقال تكلما ، فقالا :قدم علينا ناس من اهل القدر ، فنازعونا في القدر ونازعناهم فيه ، حتى بلغ بنا وبهم الى ان قلنا : ان الله جبرنا على ما نهانا عنه ، وحال بيننا وبين ما امرنا به ، ورزقنا ما حرم علينا . فقلت : ياهؤلاء! ان الذين اتوكم بما اتوكم به قد ابتدعوا بدعة واحدثوا حدثاً ، واني اراكم قد خرجتم من البدعة الى مثل ما خرجوا اليه . فقال : اصبت واحسنت يا ابا إسحاق!!.

وذكر عن بقية بن الوليد قال ؛ سألت الزبيدي والاوزاعي عن «الجبر»

فقال الزبيدي امر الله اعظم وقدرته اعظم من ان يجبر او يعضل . ولكن يقضي ويقدر ويخلق ويجبل عبده على ما احب . وقـال الاوزاعي : ما اعرف للجبر اصلاً من القرآن والسنة فأهاب ان اقول ذلك ولكن القضـاء والقدر والخلق والجبل ، فهذا يعرف في القرآن والحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد قال مطرف بن الشخير: لم نوكل الى القدر،واليه نصير . وقال ضمرة ابن ربيعة : لم نؤمر ان نتكل على القدر، واليه نصير .

وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مامنكم من احد الا وقد علم مقعده من الجنة ومقعده من النار » قالوا يا رسول الله ! افـلا ندع العمل ونتكل على الكتاب ؟ فقال : « لا ، اعملوا فـكل ميسر لمـا خلق له». وهذا باب واسع .

والمقصود هنا ان الخلال وغيره من اهل العلم ادخلوا القائلـين بالجبر في مسمى «القدرية » وان كانوا لا يحتجون بالقدر على المعاصي، فـكيف بمن يحتج به على المعاصي ؟ ومعلوم انه يدخل فى ذم من ذم الله من القدرية من يحتـج به على اسقاط الامر والنهي اعظم مما يدخل فيه المنـكر له ؛ فان ضلال هذا اعظم ولهذا قرنت القدرية بالمرجئة فى كلام غير واحد من السلف . وروي فى ذلك حديث مرفوع ؛ لان كلا من هـاتين البدعتين تفسد الامر والنهي والوعد والوعيد ؛ فالارجاء يضعف الايمـان بالوعيد، ويهون امر الفرائض والمحـارم ،

والقدري ان احتج به كان عوناً للمرجيء ، وان كذب به كان هو والمرجيء قد تقابلا . هذا يبالغ في التشديد حتى لا يجعل العبد يستعين بالله على فعل ما امر به وترك ما نهى عنه ، وهذا يبالغ فى الناحية الاخرى .

ومن المعلوم ان الله تعالى ارسل الرسل وانزل الكتب لتصدق الرسل فيما اخبرت . وتطاع فيما امرت ، كما قال تعالى : (وما ارسلنا من رسول الا ليطاع باذن الله) وقال تعالى (من يطع الرسول فقد اطاع الله) والايمان بالقدر من تمام ذلك . فمن اثبت القدر وجعل ذلك معارضاً للامر فقد اذهب الاصل .

ومعلوم ان من اسقط الامر والنهي الذي بعث الله به رسله فهو كافر باتفاق المسلمين واليهود والنصارى ؛ بل هؤلاء قولهم متناقض لا يمكن احداً منهم ان يعيش به ، ولاتقوم به مصلحة احد من الخلق . ولا يتعاشر عليه اثنان ؛ فان القدر ان كان حجة فهو حجة لكل احد ، والا فليس حجة لاحد . فاذا قدر ان الرجل ظلمه ظالم او شتمه شاتم او اخذ ماله او افسد اهله او غيرذلك فمتى لامه او ذمه او طلب عقوبته ابطل الاحتجاج بالقدر . ومن ادعى ان العارف اذا شهد القدر سقط عنه الامر كان هذا الكلام من الكفر الذي لا يرضاه لا اليهود ولا النصارى . بل ذلك ممتنع فى العقل محال فى الشرع ؛ فان الجائع يفرق بين الخبز والتراب . والعطشان يفرق بين الماء والسراب ، فيحب ما يشبعه ويرويه ؛ دون ما لاينفعه ، والجميع مخلوق لله تعالى . فالحي — وان

كان من كان ـــ لابد ان يفرق بـين ماينفعه وينعمه ويسره ، وبـين ما يضره ويشقيه ويؤلمه . وهذا حقيقة الامر والنهي فان الله تعالى امر العباد بمـا ينفعهم ونهاهم عما يضرهم .

والناس فى الشرع والقدر على « اربعة انواع » فشر الخلق من يحتج بالقدر لنفسه ولا يراه حجة لغيره . يستند اليه فى الذنوب والمعائب ، ولا يطمئن اليه في المصائب ، كما قال بعض العلماء : انت عندالطاعة قدري وعند المعصيةجبري ، اي مذهب وافق هواك تمذهبت به . وبازاء هؤلاء خير الخلق الذين يصبرون على المصائب ويستغفرون من المعائب ، كما قال تعالى: (فاصبر ان وعد الله حق واستغفر لذنبك) وقالى تعالى :(ما اصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى انفسكم الا فى كتاب من قبـل ان نبرأها ان ذلك عـلى الله يسير .لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم) وقال تعالى (ما اصـاب من مصيبة الا باذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه) قال بعض السلف :هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم انها من عند الله فيرضى ويسلم . قال تعالى (والذين اذا فعلوا فاحشة او ظلموا انفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم . ومن يغفر الذنوب الا الله ؟ ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون) .

وقد ذكر الله تعالى عن آدم عليه السلام انه لما فعل ما فعل قال (ربنـا ظلمنا انفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) وعن ابليس انه قال (فبما اغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ولاغوينهم اجمعين) فمن تاب اشبه

اباه آدم ، ومن اصر واحتج بالقدر اشبه ابليس . والحديث الذي في الصحيحين فى احتجاج آدم وموسى عليهما السلام لما قال له موسى : « انت آدم ابو البشر خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وعلمك اسماء كل شيء ، لماذا اخرجتنا ونفسك من الجنة ؟ فقال له آدم : انت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وبكلامه ، وخط لك التوراة بيده ، فبكم وجدت مكتوباً علي قبل ان اخلق (وعصى آدم ربه فغوى ؟) قال : بكذا وكذا سنة ، قال فحج آدم موسى » . وهذا الحديث فى الصحيحين من حديث ابى هريرة وقد روي باسناد جيد من حديث عمر رضي الله عنه .

فآدم عليه السلام انما حج موسى لان موسى لامه على ما فعل لاجل ما حصل لهم من المصيبة بسبب اكله من الشجرة ، لم يكن لومه له لاجل حق الله فى الذنب . فان آدم كان قد تاب من الذنب كما قال تعالى (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه) وقال تعالى (ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى) وموسى — ومن هو دون موسى — عليه السلام يعلم انه بعد التوبة والمغفرة لا يبقى ملام على الذنب ، وآدم أعلم بالله من ان يحتج بالقدر على الذنب ، وموسى عليه السلام أعلم بالله تعالى من ان يقبل هذه الحجة ، فان هذه لو كانت حجة على الذنب لكانت حجة لابليس عدو آدم ، وحجة لفرعون عدو موسى ، وحجة لكل كافر وفاجر ، وبطل امر الله ونهيه : بل انما كان القدر حجة لآدم على موسى لأنه لام غيره لأجل المصيبة التى حصلت له بفعل ذلك ، وتلك المصيبة كانت مكتوبة عليه .

وقد قال تعالى : (ما اصاب من مصيبة الا باذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه).وقال انس : خدمت النبي صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لي:اف قط ، ولا قال لشيء فعلته : لم فعلته ؟ ولا لشيء لم افعله : لم لا فعلته ؟ وكان بعض اهله إذا عاتبني على شيء يقول « دعوه فلو قضي شيء لكان » وفى الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت « ما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده خادماً ولا امرأة ولا دابة ولا شيئاً قط الا ان يجاهد في سبيل الله ، ولا نيل منه شيء قط فانتقم لنفسه الا ان تنتهك محارم الله ، فاذا انتهكت محارم الله لم يقم لغضبه شيء حتى ينتقم لله » . وقد قال صلى الله عليه وسلم : « لو ان فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » . ففي امر الله ونهيه يسارع الى الطاعة، ويقيم الحدود على من تعدى حدود الله ، ولا تأخذه فى الله لومة لائم ، وإذا آذاه مؤذ او قصر مقصر فى حقه عفا عنه ولم يؤاخذه نظراً الى القدر .

فهذا سبيل الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن اولئك رفيقاً . وهذا واجب فيما قدر من المصائب بغير فعل آدمي كالمصائب السماوية ، او بفعل لا سبيل فيه الى العقوبة كفعل آدم عليه السلام فانه لا سبيل الى لومه شرعا ـــ لأجل التوبة ـــ ولا قدراً ؛ لأجل القضاء والقدر . واما إذا ظلم رجل رجلاً فله ان يستوفى مظلمته على وجه العدل ، وإن عفا عنه كان افضل له ، كما قال تعالى (والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له) .

واما « الصنف الثالث » فهم الذين لاينظرون الى القدر لا فى المعائب ولا فى المصائب التى هي من افعال العباد . بـل يضيفون ذلك كله الى العبد ، وإذا اساؤا استغفروا . وهذا حسن ؛ لكن إذا اصابتهم مصيبة بفعل العبد لم ينظروا الى القدر الذي مضى به عليهم ، ولا يقولون لمن قصر فى حقهم دعوه فلو قضي شيء لـكان ، لا سيما وقد تكون تلك المصيبة بسبب ذنوبهم فلا ينظرون اليهـا وقد قال تعالى (أولما اصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم انى هذا ؟ قل هو من عند انفسكم) وقال تعالى (وما اصابكم من مصيبة فبما كسبت ايديكم) وقال تعالى (وإن تصبهم سيئة بما قدمت ايديهم فان الانسان كفور) .

ومن هذا قوله تعالى (أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك . قل كل من عند الله فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً . ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك) . فان هذه الآية تنازع فيها كثير من مثبتى القدر ونفاته : هؤلاء يقولون الأفعال كلهـا من الله لقوله تعالى : (قل كل من عند الله) . وهؤلاء يقولون : الحسنة من الله والسيئة من نفسك لقوله (ما أصابك من حسنة فمن الله وما اصابك من سيئة فمن نفسك).

وقد يجيبهم الاولون بقراءة مكذوبة (فمن نفسك ؟) بالفتح عـلى معنى الاستفهام، وربما قدر بعضهم تقديراً : اي أفمن نفسك ؟ وربما قدر بعضهم القول فى قوله تعالى : (ما أصابك) فيقولون : تقدير الآية (فمال هؤلاء القوم لايكادون

يفقهون حديثاً) يقولون.فيحرفون لفظ القرآن ومعناه ، ويجعلون ما هو من قول الله ــ قول الصدق ــ من قول المنافقين الذين أنكر الله قولهم ، ويضمرون فى القرآن ما لا دليل على ثبوته بل سياق الكلام ينفيه ؛ فكل من هاتين الطائفتين جاهلة بمعنى القرآن وبحقيقة المذهب الذي تنصره .

واما القرآن فالمراد منه هنا بالحسنات والسيئات النعم والمصائب؛ ليس المراد الطاعات والمعاصي . وهذا كقوله تعالى : (ان تمسسكم حسنة تسؤهم وان تصبكم سيئة يفرحوا بها . وان تصبروا وتتقوا لايضركم كيدهم شيئاً) وكقوله : (ان تصبك حسنة تسؤهم وان تصبك مصيبة يقولوا قد اخذنا امرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون قال لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا هو مولانا) الآية . ومنه قوله تعالى : (وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون) كما قال تعالى : (ونبلوكم بالشر والخير فتنة والينا ترجعون) اي بالنعم والمصائب .

وهذا بخلاف قوله (من جاء بالحسنة فله عشر امثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الا مثلها) وامثال ذلك ، فان المراد بها الطاعة والمعصية ، وفى كل موضع ما يبين المراد باللفظ ، فليس في القرآن العزيز بحمد الله تعالى إشكال؛ بل هو مبين.وذلك انه إذا قال : (ما اصابك) وما (مسك) ونحو ذلك ، كان من فعل غيرك بك كما قال (ما اصابك من حسنة فمن الله ، وما اصابك من سيئة فمن نفسك) وكما قال تعالى (ان تصبك حسنة تسؤهم) وقال تعالى (وان تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم) .

واذا قال (من جاء بالحسنة) كانت من فعله ، لأنه هو الجائي بهـا ، فهذا يكون فيما فعله العبد لا فيما فعل به . وسياق الآية يبين ذلك . فانه ذكر هذا فى سياق الحض على الجهاد وذم المتخلفين عنـه فقال تعالى (يا ايهـا الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات او انفروا جميعاً . وان منكم لمن ليبطئن فان اصابتكم مصيبة قال قد انعم الله علي اذ لم اكن معهم شهيداً . ولـئن اصابـكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينـه مودة ، ياليتني كنت معهـم فأفوز فوزاً عظيما) .

فأمر سبحانه بالجهاد وذم المثبطين ، وذكر ما يصيب المؤمنـين تارة من من المصيبة فيه ، وتارة من فضل الله فيه ، كما اصابهم يوم احـد مصيبة فقال : (او لما اصابتكم مصيبة قد اصبتم مثليها قلتم انى هذا ؟ قل هو من عند انفسكم). واصابهم يوم بدر فضل من الله بنصره لهم وتأييده كما قال تعالى: (ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة) ثم انه سبحانه قال : (فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ، ومن يقاتـل فى سبيل الله فيقتل او يغلب فسوف نؤتيـه اجراً عظيما ومالـكم لاتقاتلون فى سبيل الله والمستضعفـين من الرجال والنساء والولدان ــ إلى قوله ــ اينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة وان تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله ، وان تصبهم سيئـة يقولوا هذه من عندك) فهذا من كلام الكفار والمنافقين ، إذا اصابهم نصر وغـيره من النعم قالوا هذا من عند الله ، وان اصابهم ذل وخوف وغير ذلك من المصائب قالوا:

هذا من عند محمد بسبب الدين الذي جاء به . فان الكفار يضيفون ما اصابهم من المصائب الى فعل اهل الايمان .

وقد ذكر نظير ذلك فى قصة موسى وفرعون.قال تعالى: (ولقد اخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون . فاذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وان تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله) . ونظيره قوله تعالى : في سورة يس (قالوا ربنا يعلم انا اليكم لمرسلون . وما علينا إلا البلاغ المبين . قالوا انا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب اليم) فأخبر الله تعالى ان الكفار كانوا يتطيرون بالمؤمنين فاذا اصابهم بلاء جعلوه بسبب اهل الايمان . وما اصابهم من الخير جعلوه لهم من الله عز وجل فقال تعالى (فمال هؤلاء القوم لايكادون يفقهون حديثا) والله تعالى نزل احسن الحديث ، فلو فهموا القرآن لعلموا ان الله امرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر ، امر بالخير ونهى عن الشر ، فليس فيما بعث الله به رسله ما يكون سبباً للشر ، بل الشر حصل بذنوب العباد ، فقال تعالى (ما اصابك من حسنة فمن الله) اي ما اصابك من نصر ورزق وعافية فمن الله نعمة انعمها عليك،وان كانت بسبب اعمالك الصالحة،فهو الذي هداك وأعانك ويسرك لليسرى ، ومن عليك بالايمان وزينه فى قلبك وكره اليك الكفر والفسوق والعصيان .

وفى آخر الحديث الصحيح الالهي حديث ابي ذر عن النبى صلى الله عليه وسلم فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى « يا عبادي انما هي اعمالكم احصيها لكم

ثم اوفيكم اياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن الا نفسه » وفى الحديث الصحيح « سيد الاستغفار ان يقول العبد : اللهم انت ربى لا إله الا انت خلقتني وانا عبدك وانا على عهدك ووعدك ما استطعت ، اعوذ بك من شر ماصنعت ، ابوء لك بنعمتك علي ، وابوء بذنبي .فاغفر لي انه لايغفر الذنوب الا انت . من قالها اذا اصبح موقناً بها فمات من يومه ذلك دخل الجنة ، ومن قالها إذا أمسى موقنا بهافمات من ليلته دخل الجنة ».

ثم قال تعالى (وما اصابك من سيئة) من ذل وخوف وهزيمة كما اصابهم يوم احد (فمن نفسك) أي بذنوبك وخطاياك ، وان كان ذلك مكتوبا مقدراً عليك ، فان القدر ليس حجة لأحد .لا على الله ولا على خلقه ، ولو جاز لأحد ان يحتج بالقدر على مايفعله من السيئات لم يعاقب ظالم، ولم يقاتل مشرك، ولم يقم حد، ولم يكف أحد عن ظلم احد ، وهذا من الفساد فى الدين والدنيا المعلوم ضرورة فساده للعالم بصريح المعقول ، المطابق لما جاء به الرسول .

فالقدر يؤمن به ولا يحتج به ، فمن لم يؤمن بالقدر ضارع المجوس، ومن احتج به ضارع المشركين ، ومن أقر بالامر والقدر وطعن فى عدل الله وحكمته كان شبيها بابليس ، فان الله ذكر عنه انه طعن في حكمته وعارضه برأيه وهواه ، وانه قال (فبما اغويتني لأزينن لهم فى الارض) .

وقد ذكر طائفةمن اهل الكتاب وبعض المصنفين فى المقالات كالشهرستانى

انه ناظر الملائكة فى ذلك معارضاً لله تعالى في خلقـه وامره ؛ لكن هذه المناظرة بين ابليس والملائكة التى ذكرها الشهرستانى فى اول المقالات ونقلهـا عن بعض اهل الكتاب ليس لها اسناد يعتمد عليه ، ولو وجدناها فى كتب اهل الكتاب لم يجز ان نصدقها لمجرد ذلـك، فان النبى صلى الله عليه وسلم ثبت عنه فى الصحيح انه قال « إذا حدثكم اهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم ، فاما ان يحدثوكم بحق فتكذبونه واما ان يحدثوكم بباطل فتصدقونه » .

ويشبه ــ والله اعلم ــ ان تكون تلك المناظرة من وضـع بعض المكذبين بالقدر إما من اهل الكتاب وإما من المسلمين . والشهرستانى نقلهـا من كتب المقالات ، والمصنفون في المقالات ينقلون كثيراً من المقالات من كتب المعتزلة كما نقل الاشعري وغـيره مانقله فى المقالات من كتب المعتزلة ، فانهم من اكثر الطوائف واولها تصنيفاً فى هذا الباب ، ولهذا توجد المقالات منقولة بعباراتهم فوضعوا هذه المناظرة على لسان ابليس ، كما رأينا كثيراً منهم يضع كتابا او قصيدة على لسان بعض اليهود او غيرهم ، ومقصودهم بذلك الرد عـلى المثبتين للقدر ، يقولون ان حجة الله على خلقه لاتتم إلا بالتكذيب بالقدر ؛ كما وضعوا في مثالب ابن كلاب انه كان نصرانيا، لأنه اثبت الصفات، وعندهم من أثبت الصفات فقد اشبه النصارى وتلقى امثال هذه الحكايات بالقبول من المنتسبين الى السنة ممن لم يعرف حقيقة امرها .

والمقصود هنا ان الآية الكريمة حجة على هؤلاء ، وهؤلاء : حجـة على من يحتج بالقدر فان الله تعالى اخبر انه عذبهم بذنوبهم ، فـلو كانت حجتهم مقبولة

لم يعذبهم بذنوبهم ، وحجة على من كذب بالقدر ، فانه سبحانه اخبر ان الحسنة من الله وان السيئة من نفس العبد ، والقدرية متفقون على ان العبد هو المحدث للمعصية كما هو المحدث للطاعة ، والله عندهم ما احدث لا هذا ولا هذا ؛ بل امر بهذا ونهى عن هذا .

وليس عندهم لله نعمة أنعمها على عباده المؤمنين فى الدين الا وقد أنعم بمثلها على الكفار ، فعندهم ان علي بن ابى طالب رضى الله عنه وأبا لهب مستويان فى نعمة الله الدينية ، إذ كل منهما أرسل اليه الرسول واقدر على الفعل وأزيحت علته ، لكن هذا فعل الايمان بنفسه من غير ان يخصه بنعمة آمن بها ، وهذا فعل الكفر بنفسه من غير ان يفضل الله عليه ذلك المؤمن ولا خصه بنعمة آمن لأجلها وعندهم ان الله حبب الايمان الى الكفار كأبي لهب وامثاله ، كما حببه الى المؤمنين كعلي رضي الله عنه وأمثاله ، وزينه فى قلوب الطائفتين ، وكره الكفر والفسوق والعصيان الى الطائفتين سواء ، لكن هؤلاء كرهوا ما كرهه الله اليهم بغير نعمة خصهم بها وهؤلاء لم يكرهوا ما كرهه الله اليهم .

ومن توهم عنهم او من نقل عنهم ان الطاعة من الله والمعصية من العبد فهو جاهل بمذهبهم ؛ فان هذا لم يقله احد من علماء القدرية ولا يمكن ان يقوله ، فان اصل قولهم ان فعل العبد للطاعة كفعله للمعصية ، كلاهما فعله بقدرة تحصل له من غير ان يخصه الله بارادة خلقها فيه ، ولا قوة جعلها فيه تختص بأحدهما ، فاذا احتجوا بهذه الآية على مذهبهم كانوا جاهلين بمذهبهم وكانت الآية حجة عليهم

لا لهم ؛ لانه تعالى قال : (قل كل من عند الله) وعندهم ليس الحسنات المفعولة ولا السيئات المفعولة من عند الله بل كلاهما من العبد . وقوله تعالى (ما اصابك من حسنة فمن الله وما اصابك من سيئة فمن نفسك) مخالف لقولهم ، فان عندهم الحسنة المفعولة والسيئة المفعولة من العبد لا من الله سبحانه .

وكذلك من احتج من مثبتة القدر بالآية على اثباته اذا احتج بقوله تعالى (قل كل من عند الله) كان مخطئا : فان الله ذكر هذه الآية رداً على من يقول الحسنة من الله والسيئة من العبد ، ولم يقل احد من طوائف الناس ؛ ان الحسنة المفعولة من الله والسيئة المفعولة من العبد .

وأيضاً فان نفس فعل العبد وان قال اهل الاثبات: ان الله خلقه، وهو مخلوق له ومفعول له ؛ فانهم لا ينكرون ان العبد هو المتحرك بالأفعال ، وبه قامت ، ومنه نشأت ، وان كان الله خلقها .

وايضا فان قوله بعد هذا (ما اصابك من حسنة فمن الله وما اصابك من سيئة فمن نفسك) يمتنع ان يفسر بالطاعة والمعصية؛ فان اهل الاثبات لا يقولون: ان الله خالق إحداهما دون الأخرى : بل يقولون ان الله خالق لجميع الافعال وكل الحوادث .

ومما ينبغي ان يعلم ان مذهب سلف الأمة ــ مع قولهم : الله خالق كل

شيء وربه ومليكه ، وانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وانه على كل شيء قدير وانه هو الذي خلق العبد هلوعا ، اذا مسه الشر جزوعا ، واذا مسه الخير منوعا ونحو ذلك — ان العبد فاعل حقيقة وله مشيئة وقدرة ، قال تعالى : (لمن شاء منكم ان يستقيم . وما تشاءون الا ان يشاء الله رب العالمين) وقال تعالى (ان هذه تذكرة فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا. وما تشاءون الا ان يشاء الله) وقال تعالى : (كلا انه تذكرة فمن شاء ذكره . وما يذكرون الا ان يشاء الله هو اهل التقوى واهل المغفرة) .

وهذا الموضع اضطرب فيه الخائضون فى القدر ، فقالت المعتزلة ونحوهم من النفاة : الكفر والفسوق والعصيان افعال قبيحة ، والله منزه عن فعل القبيح باتفاق المسلمين فلا تكون فعلا له .

وقال من رد عليهم من المائلين الى الجبر بل هي فعله وليست أفعالا للعباد بل هي كسب للعبد : وقالوا : ان قدرة العبد لا تأثير لها فى حدوث مقدورها ولا فى صفة من صفاتها ، وان الله اجرى العادة بخلق مقدورها مقارنا لها ، فيكون الفعل خلقا من الله ابداعا واحداثاً ، وكسبا من العبد لوقوعه مقارناً لقدرته ، وقالوا : ان العبد ليس محدثاً لافعاله ولا موجداً لها ، ومع هذا فقد يقولون : انا لا نقول بالجبر المحض ، بل نثبت للعبد قدرة حادثة والجبري المحض الذي لا يثبت للعبد قدرة .

وأخذوا يفرقون بين الكسب الذي اثبتوه وبين الخلق ، فقالوا: الكسب عبارة عن اقتران المقدور بالقدرة الحادثة ، والخلق هو المقدور بالقدرة القديمة ، وقالو : ايضا الكسب هو الفعل القائم بمحل القدرة عليه والخلق هو الفعل الخارج عن محل القدرة عليه .

فقال لهم الناس : هذا لا يوجب فرقا بين كون العبد كسب وبين كونه فعل واوجد واحدث وصنع وعمل ونحو ذلك؛ فان فعله واحداثه وعمله وصنعه هو ايضا مقدور بالقدرة الحادثة وهو قائم فى محل القدرة الحادثة .

و (ايضاً) فهذا فرق لا حقيقة له ، فان كون المقدور فى محل القدرة او خارجاً عن محلها لا يعود الى نفس تأثير القدرة فيه : وهو مبني على « اصلين » ان الله لا يقدر على فعل يقوم بنفسه ، وان خلقه للعالم هو نفس العالم ، واكثر العقلاء من المسلمين وغيرهم على خلاف ذلك .

و (الثاني)ان قدرة العبد لا يكون مقدورها الافي محل وجودها ولايكون شيء من مقدورها خارجا عن محلها . وفى ذلك نزاع طويل ليس هذا موضعه .

و (ايضاً) فاذا فسر التأثير بمجرد الاقتران فلا فرق بين ان يكون الفارق في المحل او خارجا عن المحل .

و (ايضاً) قال لهم المنازعون : من المستقر فى فطر الناس ان من فعل

العدل فهو عادل ، ومن فعل الظلم فهو ظالم . ومن فعل الكذب فهو كاذب . فاذا لم يكن العبد فاعلا لكذبه وظلمه وعدله بل الله فاعل ذلك لزم ان يكون هو المتصف بالكذب والظلم . قالوا : وهذا كما قلتم انتم وسائر الصفاتية : من المستقر فى فطر الناس ان من قام به العلم فهو عالم . ومن قامت به القدرة فهو قادر ، ومن قامت به الحركة فهو متحرك ومن قام به التكلم فهو متكلم . ومن قامت به الارادة فهو مريد . وقلتم اذا كان الكلام مخلوقا كان كلاما للمحل الذي خلقه فيه كسائر الصفات ، فهذه القاعدة المطردة فيمن قامت به الصفات نظيرها أيضا من فعل الافعال .

وقالوا ايضا : القرآن مملوء بذكر اضافة هذه الافعال الى العباد كقوله تعالى: (جزاء بما كنتم تعملون) وقوله : (اعملوا ما شئتم) وقوله : (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم) وقوله : (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات) وامثال ذلك.

وقالوا (ايضاً) ان الشرع والعقل متفقان على ان العبد يحمد ويذم على فعله ويكون حسنة له او سيئة ، فلو لم يكن الا فعل غيره لكان ذلك الغير هو المحمود المذموم عليها .

وفى « المسألة » كلام ليس هذا موضع بسطه لكن ننبه على نكت نافعة فى هذا الموضع المشكل ، فنقول :

قول القائل : هذا فعل هذا ، وفعل هذا : لفظ فيه اجمال ؛ فانه تارة يراد بالفعل نفس الفعل، وتارة يراد به مسمى المصدر . فيقول فعلت هذا افعله فعلاً، وعملت هذا اعمله عملاً ، فاذا اريد بالعمل نفس الفعل الذي هو مسمى المصدر كصلاة الانسان وصيامه ونحو ذلك فالعمل هنا هو المعمول، وقد اتحـد هنا مسمى المصدر والفعل ؛ وإذا اريد بذلك ما يحصل بعمله كنساجة الثوب وبناء الدار ونحو ذلك ، فالعمل هنا غير المعمول . قال تعالى (يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفـان كالجواب وقدور راسيات) فجعل هـذه المصنوعات معمولة للجن . ومن هذا الباب قوله تعالى (والله خلقكم وما تعملون) فانه فى اصح القولين (ما) بمعنى الذي . والمراد به ما تنحتونه من الأصنام كما قال تعالى (أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون) اي والله خلقكم وخلق الاصنام التي تنحتونها . ومنه حديث حذيفـة عن النبي صلى الله عليه وسلم « ان الله خالق كل صانع وصنعته » ؛ لكن قد يستدل بالآية على ان الله خلق افعال العباد من وجه آخر ، فيقال : إذا كان خالقاً لما يعملونه من المنحوتات لزم ان يكون هو الخالق للتأليف الذي احدثوه فيها، فانها انمـا صارت اوثاناً بذلك التأليف وإلا فهي بدون ذلك ليست معمولة لهم ، وإذا كان خالقاً للتأليف كان خالقاً لأفعالهم.

والمقصود أن لفظ « الفعل » و « العمل » و« الصنع » أنواع ، وذلك كلفظ البناء والخياطة والنجارة تقع على نفس مسمى المصدر، وعلى المفعول. وكذلك لفظ « التلاوة » و « القراءة » و « الـكلام » و « القول » يقع على نفس مسمى

المصدر ، وعلى ما يحصل بذلك من نفس القول والكلام ، فيراد بالتلاوة والقراءة نفس القرآن المقروء المتلو ؛ كما يراد بها مسمى المصدر .

والمقصود هنا ان القائل إذا قال هذه التصرفات فعل الله او فعل العبد ؛ فان اراد بذلك انها فعل الله بمعنى المصدر فهذا باطل باتفاق المسلمين وبصريح العقل ، ولكن من قال هي فعل الله واراد به انها مفعولة مخلوقة لله كسائر المخلوقات [فهذا حق] .

ثم من هؤلاء من قال انه ليس لله فعل يقوم به فلا فرق عنده بين فعله ومفعوله وخلقه ومخلوقه .

وأما الجمهور الذين يفرقون بين هذا وهذا فيقولون هذه مخلوقة لله مفعولة لله ليست هي نفس فعله ، وأما العبد فهي فعله القائم به ، وهي ايضاً مفعولة له إذا اريد بالفعل المفعول ؛ فمن لم يفرق في حق الرب تعالى بين الفعل والمفعول إذاً قال انها فعل الله تعالى وليس لمسمى فعل الله عنده معنيان ، وحينئذ فلا تكون فعلاً للعبد ولا مفعولة له بطريق الأولى ، وبعض هؤلاء قال هي فعل للرب وللعبد فأثبت مفعولا بين فاعلين .

وأكثر المعتزلة يوافقون هؤلاء على ان فعل الرب تعالى لا يكون إلا بمعنى مفعوله . مع انهم يفرقون فى العبد بين الفعل والمفعول ؛ فلهذا عظم النزاع

واشكلت المسألة على الطائفتين وحاروا فيها .

وأما من قال : خلق الرب تعالى لمخلوقاته ليس هو نفس مخلوقاته قال : ان افعال العباد مخلوقة كسائر المخلوقات ، ومفعولة للرب كسائر المفعولات ، ولم يقل: انها نفس فعل الرب وخلقه ، بل قال انها نفس فعل العبد . وعلى هذا تزول الشبهة ؛ فانه يقال الكذب والظلم ونحو ذلك من القبائح يتصف بها من كانت فعلاً له ، كما يفعلها العبد ، وتقوم به ، ولا يتصف بها من كانت مخلوقة له إذا كان قد جعلها صفة لغيره ، كما انه سبحانه لا يتصف بما خلقه فى غيره من الطعوم والألوان والروائح والاشكال والمقادير والحركات وغير ذلك ؛ فاذا كان قد خلق لون الانسان لم يكن هو المتلون به ، وإذا خلق رائحة منتنة او طعماً مراً او صورة قبيحة ونحو ذلك مما هو مكروه مذموم مستقبح لم يكن هو متصفاً بهذه المخلوقات القبيحة المذمومة المكروهة والافعال القبيحة . ومعنى قبحها كونها ضارة لفاعلها ، وسبباً لذمه وعقابه ، وجالبة لألمه وعذابه . وهذا امر يعود على الفاعل الذي قامت به؛ لاعلى الخالق الذي خلقها فعلاً لغيره .

ثم على قول الجمهور الذين يقولون له حكمة فيما خلقه فى العالم مما هو مستقبح وضار ومؤذ يقولون : له فيما خلقه من هذه الأفعال القبيحة الضارة لفاعلها حكمة عظيمة؛ كما له حكمة عظيمة فيما خلقه من الامراض والغموم. ومن يقول : لاتعلل أفعاله لا بعلل لا هذا ولا هذا .

يوضح ذلك ان الله تعالى إذا خلق في الانسان عمى ومرضاً وجوعاً وعطشاً ووصباً ونصباً ونحو ذلك كان العبد هو المريض الجائع العطشان المتألم، فضرر هذه المخلوقات وما فيها من الاذى والكراهة عاد إليه ولا يعود الى الله تعالى شيء من ذلك، فكذلك ما خلق فيه من كذب وظلم وكفر ونحو ذلك هي امور ضارة مكروهة مؤذية. وهذا معنى كونها سيئات وقبائح، اي انها تسوء صاحبها وتضره، وقد تسوء أيضاً غيره وتضره. كما ان مرضه ونتن ريحه ونحو ذلك قد يسوء غيره ويضره.

يبين ذلك ان القدرية سلموا أن الله قد يخلق فى العبد كفراً وفسوقاً على سبيل الجزاء كما فى قوله تعالى: (ونقلب افئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به اول مرة)، وقوله (فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً) وقوله (فلما زاغوا ازاغ الله قلوبهم).

ثم انه من المعلوم ان هذه المخلوقات تكون فعلاً للعبد وكسباً له يجزى عليها ويستحق الذم عليها والعقاب وهي مخلوقة لله تعالى، فالقول عند اهل الاثبات فيما يخلقه من اعمال العباد ابتداء كالقول فيما يخلقه جزاء من هذا الوجه، وإن افترقا من وجه آخر، وهم لا يمكنهم ان يفرقوا بينهما بفرق يعود إلى كون هذا فعلا لله دون هذا، وهذا فعلا للعبد دون هذا: ولكن يقولون ان هذا يحسن من الله تعالى لكونه جزاء للعبد، وذلك لا يحسن منه لكونه ابتداء للعبد

بما يضره وهم يقولون لايحسن منه ان يضر الحيوان إلا بجرم سابق، او عوض لاحق .

واما اهل الاثبات للقدر فمن لم يعلل منهم لا يفرق بين مخلوق ومخلوق. واما القائلون بالحكمة وهم الجمهور فيقولون:لله تعالى فيما يخلقه من أذى الحيوان حكم عظيمة كما له حكم في غير هذا ، ونحن لانحصر حكمته فى الثواب والعوض فان هذا قياس لله تعالى على الواحد من الناس وتمثيل لحكمة الله وعدله بحكمة الواحد من الناس وعدله .

و«المعتزلة»مشبهة في الافعال معطلة فى الصفات، ومن اصولهم الفاسدة أنهم يصفون الله بما يخلقه فى العالم ، إذ ليس عندهم صفة لله قائمة به ولا فعل قائم به فيسمونه به ، ويصفونه بما يخلقه فى العالم : مثل قولهم : هو متكلم بكلام يخلقه في غيره ومريد بارادة يحدثها لا فى محل ، وقولهم : ان رضاه وغضبه وحبه وبغضه هو نفس المخلوق الذي يخلقه من الثواب والعقاب ، وقولهم : انه لو كان خالقاً لظلم العبد وكذبه لكان هو الظالم الكاذب ؛ وامثال ذلك من الاقوال التى إذا تدبرها العاقل علم فسادها بالضرورة . ولهذا اشتد نكير السلف والأئمةعليهم، لاسيما لما اظهروا القول بأن القرآن مخلوق ، وعلم السلف ان هذا فى الحقيقة هو إنكار لكلام الله تعالى ، وانه لو كان كلامه هو مايخلقه للزم ان يكون كل كلام مخلوق كلاما له ، فيكون انطاقه للجلود يوم القيامة ، وانطاقه للجبال والحصى بالتسبيح.وشهادة الايدي والأرجل ونحو ذلك كلاما له ، وإذا كان خالقاً لكل

شيء كان كل كلام موجود كلامه وهـذا قول الحلوليـة من الجهمية كصاحب الفصوص وامثاله ولهذا يقولون :

وكل كلام فى الوجود كلامه   سواء علينـا نثره ونظامه

وقد علم بصريح المعقول ان الله تعالى اذا خلق صفة فى محل كانت صفـة لذلك المحل ، فاذا خلق حركة فى محل كان ذلك المحل هو المتحرك بها ؛ وإذا خلق لوناً او ريحا فى جسم كان هو المتلون المتروح بذلك . وإذا خلق علماً او قدرة او حياة في محل كان ذلك المحل هو العالم القادر الحي . فكذلك إذا خلـق ارادة وحبا وبغضاً فى محل كان هو المريد المحب المبغض ، وإذا خلق فعلا لعبد كان العبد هو الفاعـل ، فاذا خلق له كذبا وظلما وكفراً كان العبـد هو الكاذب الظالم الكافر ، وان خلق له صـلاة وصوماً وحجـاً كان العبـد هو المصلي الصائم الحاج .

والله تعالى لايوصف بشيء من مخلوقاته ، بل صفاته قائمة بذاته ، وهـذا مطرد على أصول السلف وجمهور المسلمين من اهل السنة وغيرهم ، ويقولون ان خلق الله للسموات والارض ليس هو نفس السموات والارض ؛ بل الخلق غير المخلوق، لاسيما مذهب السلف والأئمة واهل السنة الذين وافقـوهم على اثبات صفات الله وأفعاله . فان المعتزلة ومن وافقهم من الجهمية والقدرية نقضوا هذا الاصل على من لم يقل ان الخلق غير المخلوق كالاشعري ومن وافقـه ، فقالوا :

إذا قلتم ان الصفة إذا قامت بمحل عاد حكمها على ذلك المحل دون غيره ــ كما ذكرتم في الحركة والعلم والقدرة وسائر الاعراض ـ انتقض ذلك عليكم بالعدل والاحسان وغيرهما من أفعال الله تعالى. فانه يسمى عادلا بعدل خلقه فى غيره محسناً باحسان خلقه فى غيره ، فكذا يسمى متكلما بكلام خلقه فى غيره .

والجمهور من اهل السنة وغيرهم يجيبون بالتزام هذا الاصل ويقولون انما كان عادلا بالعدل الذي قام بنفسه، ومحسنا بالاحسان الذي قام بنفسه . واما المخلوق الذي حصل للعبد فهو اثر ذلك ، كما انه رحمن رحيم بالرحمة التى هي صفته ، وأما مايخلقه من الرحمة فهو أثر تلك الرحمة ، واسم الصفة يقع تارة على الصفة التى هي مسمى المصدر ويقع تارة على متعلقها الذي هو مسمى المفعول ، كلفظ « الخلق » يقع تارة على الفعل وعلى المخلوق أخرى ، والرحمة تقع على هذا وهذا ، وكذلك الأمر يقع على أمره الذي هو مصدر أمر يأمر أمراً ، ويقع على المفعول تارة كقوله تعالى (وكان أمر الله قدراً مقدوراً) وكذلك لفظ « العلم » يقع على المعلوم و « القدرة » تقع على المقدور ونظائر هذا متعددة .
وقد استدل الامام احمد وغيره من أئمة السنة في جملة ما استدلوا على ان كلام الله غير مخلوق بقوله عليه السلام « اعوذ بكلمات الله التامات » ونحو ذلك ، وقالوا الاستعاذة لا تحصل بالمخلوق ، ونظير هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم « اللهم انى أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وبك منك » .

ومن تدبر هذا الباب ونحوه وجد أهل البدع والضلال لا يستطيلون على فريق من المنتسبين الى السنة والهدى إلا بما دخلوا فيه من نوع بدعة اخرى وضلال آخر . لا سيما اذا وافقوهم على ذلك فيحتجون عليهم بما وافقوهم عليه من من ذلك ، ويطلبون لوازمه ، حتى يخرجوهم من الدين إن استطاعوا خروج الشعرة من العجين . كما فعلت القرامطة الباطنية والفلاسفة وأمثالهم بفريق فريق من طوائف المسلمين .

و « المعتزلة » استطالوا على «الاشعرية» ونحوهم من المثبتين للصفات والقدر بما وافقوهم عليه من نفي الافعال القائمة بالله تعالى فنقضوا بذلك اصلهم الذي استدلوا به عليهم فى ان كلام الله غير مخلوق ، وان الكلام وغيره من الأمور إذا خلق بمحل عاد حكمه على ذلك المحل . واستطالوا عليهم بذلك فى « مسألة القدر » واضطروهم إلى ان جعلوا نفس ما يفعله العبد من القبيح فعلا لله رب العالمين دون العبد ، ثم اثبتوا كسبا لاحقيقة له ؛ فانه لايعقل من حيث تعلق القدرة بالمقدور فرق بين الكسب والفعل ؛ ولهذا صار الناس يسخرون بمن قال هذا ويقولون : ثلاثة اشياء لاحقيقة لها : طفرة النظام ، واحوال ابى هاشم ، وكسب الاشعري .

واضطروهم الى ان فسروا تأثير القدرة فى المقدور بمجرد الاقتران العادي ، والاقتران العادي يقع بين كل ملزوم ولازمه ، ويقع بين المقدور والقدرة ، فليس جعل هذا مؤثراً فى هذا بأولى من العكس ، ويقع بين المعلول وعلته

المنفصلة عنه مع ان قدرة العباد عنده لاتتجاوز محلها . ولهذا فر القاضي ابو بكر الى قول ، وابو اسحق الاسفرائيني الى قول . وابو المعالي الجويني الى قول : لما رأوا مافى هـذا القول من التناقض . والكلام على هـذا مبسوط فى موضعه والمقصود هنا التنبيه .

ومن النكت فى هـذا الباب ان لفظ « التأثير » ولفظ « الجبر » ولفظ « الرزق » ونحو ذلك الفاظ مجملة ، فاذا قال القائل : هل قدرة العبد مؤثرة في فى مقدورها ام لا ؟ قيل له اولا : لفظ القدرة يتناول نوعين :

(احدهما) القدرة الشرعية المصححة للفعل التى هي مناط الامر والنهي .

(والثاني) القدرة القدرية الموجبة للفعل التى هي مقارنة للمقدور لايتأخر عنها . فالاولى هي المذكورة فى قوله تعالى (ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا) فان هـذه الاستطاعة لو كانت هي المقارنة للفعل لم يجب حج البيت إلا على من حج ، فلا يكون من لم يحجج عاصياً بترك الحج ، سواء كان له زاد وراحلة وهو قادر على الحج او لم يكن . وكذلك قول النبى صلى الله عليه وسلم لعمران بن حصين « صل قائما فان لم تستطع فقاعداً فان لم تستطع فعلى جنب » وكذا قوله تعالى (فاتقوا الله ما استطعتم) وقوله صلى الله عليه وسلم « إذا امرتكم بأمر فاتتوا منه مااستطعتم » لو اراد استطاعة لاتكون الا مع الفعل لـكان قد قال فافعلوا منه ماتفعلون . فلا يكون من لم يفعل شيئا عاصيا

له، وهذه الاستطاعة المذكورة فى كتب الفقه ولسان العموم .

والناس متنازعون فى مسمى الاستطاعة والقدرة ،فنهم من لايثبت استطاعة إلا هذه، ويقولون الاستطاعة لابد ان تكون قبل الفعل ومنهم من لايثبت استطاعة إلا ماقارن الفعل وتجد كثيراً من الفقهاء يتناقضون؛ فاذا خاضوا مع من يقول من المتكلمين — المثبتين للقدر — ان الاستطاعة لا تكون الا مع الفعل وافقوهم على ذلك ، وإذا خاضوا فى الفقه أثبتوا الاستطاعة المتقدمة التى هي مناط الامر والنهي .

وعلى هذا تتفرع « مسألة تكليف مالا يطاق »، فان الطاقة هي الاستطاعة، وهي لفظ مجمل : فالاستطاعة الشرعية التى هي مناط الامر والنهي لم يكلف الله احداً شيئاً بدونها ، فلا يكلف مالا يطاق بهذا التفسير ، وأما الطاقة التى لا تكون الا مقارنة للفعل فجميع الامر والنهي تكليف مالا يطاق بهذا الاعتبار ، فان هذه ليست مشروطة فى شيء من الأمر والنهي باتفاق المسلمين .

وكذا تنازعهم فى العبد هل هو قادر على خلاف المعلوم ، فاذا اريد بالقدرة القدرة الشرعية التى هي مناط الأمر والنهي كالاستطاعة المذكورة في قوله تعالى (فاتقوا الله مااستطعتم) فكل من أمره الله ونهاه فهو مستطيع بهذا الاعتبار وان علم انه لايطيعه. وان اريد بالقدرة «القدرية» التى لاتكون إلا مقارنة للمفعول فمن علم أنه لايفعل الفعل لم تكن هذه القدرة ثابتة له .

ومن هذا الباب تنازع الناس فى«الأمر،والارادة» هـل يأمر بما لا يريد او لا يأمر إلا بما يريد ؛ فان الارادة لفظ فيه اجمال، يراد بالارادة الارادة الكونية الشاملة لجميع الحوادث كقول المسلمين: ماشاء الله كان ومالم يشأ لم يكن. وكقوله تعالى (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد فى السماء) وقول نوح عليه السلام (ولا ينفعكم نصحي ان اردت أن انصح لكم ان كان الله يريد ان يغويكم) ولا ريب ان الله يأمر العباد بما لا يريده بهذا التفسير والمعنى، كما قال تعالى(ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها) فدل على انه لم يؤت كل نفس هداها مع انه قد امر كل نفس بهداها، وكما اتفق العلماء على ان من حلف بالله ليقضين دين غريمه غداً ان شاء الله، او ليردن وديعته او غصبه، او ليصلين الظهر او العصر ان شاء الله، أو ليصومن رمضان ان شاء الله، ونحو ذلك مما امره الله به، فانه إذا لم يفعل المحلوف عليه لا يحنث مع ان الله أمره به لقوله : ان شاء الله، فعلم ان الله لم يشأه مع أمره به .

وأما الارادة الدينية فهي بمعنى المحبة والرضى، وهي ملازمة للأمر كقوله تعالى (يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم) ومنه قول المسلمين : هـذا يفعل شيئاً لا يريده الله، إذا كان يفعل بعض الفواحش، أي انه لا يحبه ولا يرضاه، بل ينهى عنه ويكرهه .

وكذلك لفظ « الجبر » فيه اجمال يراد به اكراه الفاعل على الفعل بدون

رضاه .كما يقال : ان الأب يجبر المرأة على النكاح ، والله تعالى اجل واعظم من ان يكون مجبراً بهذا التفسير فانه يخلق للعبد الرضا، والاختيار بما يفعله ، وليس ذلك جبراً بهذا الاعتبار ، ويراد بالجبر خلق مافى النفوس من الاعتقادات والارادات كقول محمد بن كعب القرظي : الجبار الذي جبر العباد على ما اراد وكما في الدعاء المأثور عن علي رضي الله عنه « جبار القلوب على فطراتها : شقيها وسعيدها » والجبر ثابت بهذا التفسير.

فلما كان لفظ الجبر مجملا نهى الأئمة الاعلام عن اطلاق اثباته او نفيه .

وكذلك لفظ « الرزق » فيه إجمال ، فقد يراد بلفظ الرزق ما اباحه او ملكه فلا يدخل الحرام في مسمى هذا الرزق كما في قوله تعالى : (ومما رزقناهم ينفقون) وقوله تعالى : (انفقوا مما رزقناكم من قبل ان يأتي احدكم الموت) وقوله (ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سراً وجهراً) وامثال ذلك. وقد يراد بالرزق ماينتفع به الحيوان وإن لم يكن هناك إباحة ولا تمليك ، فيدخل فيه الحرام ، كما فى .قوله تعالى : (وما من دابة فى الارض إلا على الله رزقها) وقوله عليه السلام فى الصحيح : « فيكتب رزقه وعمله واجله وشقي او سعيد » .

ولما كان لفظ الجبر والرزق ونحوهما فيها اجمال منع الأئمة من اطلاق ذلك نفياً او اثباتاً كما تقدم عن الاوزاعي وابي اسحاق الفزاري وغيرهما من الأئمة .

وكذا لفظ « التأثير » فيه اجمال فان القدرة مع مقدورها كالسبب مع المسبب ، والعلة مع المعلول ، والشرط مع المشروط ، فان اريد بالقدرة القدرة الشرعية المصححة للفعل المتقدمة عليه فتلك شرط للفعل وسبب من اسبابه ، وعلة ناقصة له . وان اريد بالقدرة القدرة المقارنة للفعل المستلزمة له فتلك علة للفعل وسبب تام، ومعلوم انه ليس في المخلوقات شيء هو وحده علة تامة وسبب تام للحوادث بمعنى ان وجوده مستلزم لوجود الحوادث . بل ليس هذا إلا مشيئة الله تعالى خاصة فما شاء الله كان ومالم يشأ لم يكن .

واما الاسباب المخلوقة كالنار فى الاحراق ، والشمس فى الأشراق ، والطعام والشراب فى الاشباع والارواء ونحو ذلك فجميع هذه الامور سبب لايكون الحادث به وحده ، بل لابد من ان ينضم اليه سبب آخر ،ومع هذا فلها موانع تمنعها عن الاثر ، فكل سبب فهو موقوف على وجود الشروط وانتفاء الموانع وليس فى المخلوقات واحد يصدر عنه وحده شيء .

وهذا مما يبين لك خطأ المتفلسفة الذين قالوا : الواحد لايصدر عنه إلا واحد ، واعتبروا ذلك بالآثار الطبيعية كالمسخن والمبرد ونحو ذلك . فان هذا غلط ، فان التسخين لايكون الا بشيئين (احدهما) فاعل كالنار (والثانى) قابل كالجسم القابل للسخونة والاحتراق ، والا فالنار إذا وقعت على السمندل والياقوت لم تحرقه ، وكذلك الشمس فان شعاعها مشروط بالجسم المقابل للشمس الذي ينعكس عليه الشعاع . وله موانع من السحاب والسقوف وغير

ذلك ، فهذا الواحد الذي قدروه فى انفسهم لاوجود له فى الخارج ، وقد بسط هذا فى غير هذا الموضع .

فان الواحد العقلي الذي يثبته الفلاسفة كالوجود المجرد عن الصفات ، وكالعقول المجردة ، وكالكليات التى يدعون تركب الانواع منها ، وكالمادة والصورة العقليين وأمثال ذلك لاوجود لها فى الخارج بل إنما توجد فى الاذهان لا فى الاعيان ،وهي اشد بعداً عن الوجود من الجوهر الفرد الذي يثبته من يثبته من اهل الكلام ،فان هذا الواحد لاحقيقة له فى الخارج، وكذلك الجوهر كما قد بسط فى موضعه .

والمقصود هنا ان التأثير إذا فسر بوجود شرط الحادث او سبب يتوقف حدوث الحادث به على سبب آخر وانتفاء موانع — وكل ذلك بخلق الله تعالى — فهذا حق ، وتأثير قدرة العبد فى مقدورها ثابت بهذا الاعتبار . وان فسر التأثير بأن المؤثر مستقل بالاثر من غير مشارك معاون ولا معاوق مانع فليس شيء من المخلوقات مؤثراً ، بل الله وحده خالق كل شيء لا شريك له ولا ند له فما شاء الله كان ومالم يشأ لم يكن (مايفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده) (قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الارض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير . ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) (قل أرأيتم ما تدعون من دون الله ، إن ارادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره ؟ او ارادنى برحمة هل هن

ممسكات رحمته ؟ قـل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون) ونظائر هـذا فى القرآن كثيرة .

فاذا عرف مافى لفظ « التأثير » من الاجمـال والاشتراك ارتفعت الشبهة وعرف العدل المتوسط بين الطائفتـين . فمن قال : ان المؤمن والـكافر سواء فيما انعم الله عليهما من الاسباب المقتضية للايمان ، وان المؤمن لم يخصه الله بقدرة ولا ارادة آمن بها ، وان العبد إذا فعل لم تحدث له معونـة من الله وارادة لم تكن قبل الفعل : فقوله معلوم الفساد . وقيـل لهؤلاء : فعل العبد من جمـلة الحوادث والممكنات ، فكل مابـه يعلم ان الله تعالى احـدث غيره يعلم به ان الله احدثه . فكون العبد فاعلا بعد ان لم يكن امر ممكن حادث فان امكن صدور هـذا الممكن الحادث بدون محدث واجب يحدثه ويرجح وجوده عـلى عدمه امكن ذلك فى غيره ، فانتقض دليل اثبات الصانع .

ولا ريب ان كثيراً من متكلمة الاثبات القائلـين بالقدر سلموا للمعتزلة ان القادر المختار يمكنه ترجيـح احد مقدوريه عـلى الاخر بلا مرجح ، وقالوا فى « مسألة إحداث العالم » ان القادر المختار او الارادة القديمة التى نسبتها الى جميع الحوادث والازمنـة نسبة واحـدة رجحت أنواعا من الممكنات فى الوقت الذي رجحته بلا حدوث سبب اقتضى الرجحان ، وادعوا أن القـادر المختار يمكنـه الترجيـح بلا مرجح، او الارادة القديمة ترجح بلا مرجح آخر ، فاعترض عليهم هناك من نازعهم من أهل الملل والفلاسفة القائلـين بأن الله يحدث الحوادث

بأفعال تقوم بنفسه ، وان الله خلق السموات والأرض وما بينهـا فى ستة ايام .
والقائلين بقدم العـالم قالوا : هـذا الذي قلتموه معلوم الفساد بالضرورة ، وتجويز هذا يقتضي حدوث الحوادث بلا سبب . والترجيح بلا مرجح ، وذلك يسد باب إثبات الصانع .

ثم ان هؤلاء المثبتين للقدر احتجوا بهذه الحجة على نفاة القدر ، وقالوا : حدوث فعل العبد بعد ان لم يكن لابد له من محدث مرجح تام غير العبد ، فان ما كان من العبد فهو محدث ايضا ، وعند وجود ذلك المحدث المرجح التام يجب وجود فعل العبد ، وهذا الذي قالوه حق وهو حجة قاطعة على القدرية والمعتزلة؛ لكنهم نقضوه وتناقضوا فيه فى فعل الرب تبارك وتعالى ، وادعوا هناك ان البديهة فرقت بين فعل القادر وبين الموجب بالذات ، فان كان هذا الفرق صحيحاً بطلت حجتهم على المعتزلة ولم يبطل قول القدريـة ، وان كان باطلا بطل قولهـم في إحداث الله وفعله للعالم ، وهـذا هو الباطل فى نفس الامر ، فان القول بأن الممكن لايترجح وجوده على عدمه إلا بمرجح تام امر معلوم بالفطرة الضرورية لا يمكن القدح فيه ، وهو عام لاتخصيص فيه ، فالفرق المذكور باطل ، وذلك يبطل قولهم بأن خلق العـالم هو العالم ، وانه حدث بعد ان لم يكن بغـير سبب حادث .

ومن قال ان قدرة العبد وغيرها من الاسباب التى خلـق الله تعالى بها المخلوقات ليست أسباباً ، أو أن وجودها كعدمها ، وليس هناك إلا مجرد اقتران

عادي كاقتران الدليل بالمدلول ، فقد جحد مافي خلق الله وشرعه من الاسباب والحكم والعلل ، ولم يجعل في العين قوة تمتاز بها عن الخد تبصر بها ، ولا فى القلب قوة يمتاز بها عن الرجل يعقل بها ، ولا فى النار قوة تمتاز بها عن التراب تحرق بها ، وهؤلاء ينكرون مافى الاجسام المطبوعة من الطبائع والغرائز .

قال بعض الفضلاء : تكلم قوم من الناس فى ابطال الاسباب والقوى والطبائع فأضحكوا العقلاء على عقولهم .

ثم إن هؤلاء يقولون لاينبغي للانسان أن يقول أنه شبع بالخبز وروى بالماء بل يقول شبعت عنده ورويت عنده؛ فان الله يخلق الشبع والري ونحو ذلك من الحوادث عندهذه المقترنات بها عادة؛ لا بها . وهذا خلاف الكتاب والسنة فان الله تعالى يقول : (وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات) الآية ، وقال تعالى (وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة) وقال تعالى (قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم) وقال (قل هل تربصون بنا إلا احدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا) وقال (ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد) وقال تعالى (وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء) وقال تعالى (الم تر ان الله انزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً الوانها) وقال تعالى (هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه

تسيمون . ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات)
وقال تعالى (ان الله لايستحي أن يضرب مثلا ـــ إلى قوله ـــ يضل به كثيراً
ويهدي به كثيراً) وقال (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدي به الله من
اتبع رضوانه سبل السلام) ومثل هذا فى القرآن كثير . وكذلك فى الحديث عن
النبي صلى الله عليه وسلم كقوله « لايموتن أحد منكم؛ إلا آذنتموني به حتى أصلي
عليه فان الله جاعل بصلاتي عليه بركة ورحمة » . وقال صلى الله عليه وسلم « ان
هذه القبور مملوءة على أهلها ظلمة وإن الله جاعل بصلاتي عليهم نوراً » ومثل
هذا كثير .

ونظير هؤلاء الذين أبطلوا الاسباب المقدرة فى خلق الله من أبطل
الاسباب المشروعة في أمر الله ؛ كالذين يظنون أن ما يحصل بالدعاء والاعمال
الصالحة وغير ذلك من الخيرات إن كان مقدراً حصل بدون ذلك ؛ وإن لم
يكن مقدراً لم يحصل بذلك . وهؤلاء كالذين قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم :
أفلا ندع العمل ونتكل على الكتاب ؟ فقال « لا اعملوا فكل ميسر
لما خلق له » .

وفى السنن أنه قيل : يارسول الله ؛ أرأيت أدوية نتداوى بها ؛ ورقى
نسترقى بها ؛ ونقاة نتقيها ؛ هل ترد من قدر الله شيئاً ؟ فقال « هي من قدر
الله » ولهذا قال من قال من العلماء : الالتفات إلى الاسباب شرك فى التوحيد

ومحو الاسباب أن تكون أسبابا تغيير فى وجه العقل ؛ والاعراض عن الاسباب بالكلية قدح في الشرع .

والله سبحانه خلق الاسباب والمسببات ؛ وجعل هذا سبباً لهذا ، فاذا قال القائل إن كان هذا مقدراً حصل بدون السبب وإلالم يحصل ؛ جوابه أنه مقدر بالسبب وليس مقدراً بدون السبب ؛ كما قال النبى صلى الله عليه وسلم « ان الله خلق للجنة أهلا خلقهم لها وهم فى اصلاب آبائهم ؛ وخلق للنار أهلا خلقهم لها وهم فى أصلاب آبائهم » وقال صلى الله عليه وسلم : « اعملوا فكل ميسر لما خلق له اما من كان من اهل السعادة فسييسر لعمل اهل السعادة . وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل اهل الشقاوة » .

وفى الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق «إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل اليه الملك فيؤمر بأربع كلمات ، فيقال اكتب رزقه وعمله وأجله وشقي اوسعيد ، ثم ينفخ فيه الروح. قال ، فو الذي نفسي بيده ان احدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى مايكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وان احدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها » .

فبين صلى الله عليه وسلم أن هذا يدخل الجنة بالعمل الذى يعمله ويختم له به ، وهذا يدخل النار بالعمل الذي يعمله ويختم له به ، كما قال صلى الله عليه وسلم « انما الاعمال بالخواتيم » وذلك لأن جميع الحسنات تحبط بالردة ، وجميع السيئات تغفر بالتوبة ، ونظير ذلك من صام ثم افطر قبل الغروب او صلى وأحدث عمداً قبل كمال الصلاة بطل عمله .

وبالجملة فالذي عليه سلف الأمة وأئمتها مابعث الله به رسله وأنزل كتبه فيؤمنون بخلق الله وامره بقدره وشرعه بحكمه الكوني وحكمه الديني وارادته الكونية والدينية ، كما قال فى الآية الاولى (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد ان يضله يجعل صدره ضيقاً حرجا كانما يصعد فى السماء) وقال نوح عليه السلام (ولا ينفعكم نصحي ان أردت ان انصح لكم إن كان الله يريد ان يغويكم) وقال تعالى فى الارادة الدينية (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) وقال (يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم) وقال (مايريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم).

وهم مع اقرارهم بان الله خالق كل شيء وربه ومليكه ، وانه خلق الاشياء بقدرته ومشيئته يقرون بانه لا إله إلا هو ، لا يستحق العبادة غيره ، ويطيعونه ويطيعون رسله ، ويحبونه ويرجونه ويخشونه، ويتكلون عليه، وينيبون اليه ، ويوالون أولياءه ، ويعادون اعداءه ويقرون بمحبته لما امر به ولعباده المؤمنين

ورضاه بذلك ، وبغضه لما نهى عنه ، وللكافرين وسخطه لذلك ومقته له،ويقرون بما استفاض عن النبي صلى الله عليه وسلم من « ان الله اشد فرحا بتوبة عبده التائب من رجل اضل راحلته بارض دوية مهلكة عليها طعامه وشرابه فطلبها فلم يجدها ، فقال تحت شجرة ، فلما استيقظ إذا بدابته عليها طعامه وشرابه . فالله اشد فرحا بتوبة عبده من هذا براحلته » .

فهو إلههم الذي يعبدونه وربهم الذي يسألونه كما قال تعالى : (الحمد لله رب العالمين — الى قوله — إياك نعبد وإياك نستعين) فهو المعبود المستعان . والعبادة تجمع كمال الحب مع كمال الذل . فهم يحبونه اعظم مما يحب كل محب محبوبه كما قال تعالى : (ومن الناس من يتخذ من دون الله انداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا اشد حباً لله) وكل ما يحبونه سواه فانما يحبونه لأجله ، كما فى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان : من كان الله ورسوله احب إليه مما سواهما ، ومن كان يحب المرء لا يحبه الا لله : ومن كان يكره ان يرجع فى الكفر بعد اذ انقذه الله منه كما يكره ان يلقى في النار » وفي الترمذي وغيره « اوثق عرى الايمان الحب فى الله والبغض فى الله ، ومن احب لله وابغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الايمان » .

وهو سبحانه يحب عباده المؤمنين ، وكمال الحب هو الخلة التى جعلها الله لابراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم . فان الله اتخذ ابراهيم خليلاً . واستفاض

عن النبي صلى الله عليه وسلم في الصحيح من غير وجه انه قال « ان الله اتخذني خليلاً كما اتخذ ابراهيم خليلاً » وقال « لو كنت متخذاً من اهل الارض خليلاً لاتخذت ابا بكر خليلاً ولكن صاحبكم خليل الله » يعني نفسه ولهذا اتفق سلف الامة وائمتها وسائر اهل السنة واهل المعرفة ان الله نفسه يحب ويحب .

وانكرت الجهمية ومن اتبعهم محبته . واول من انكر ذلك الجعد بن درهم، شيخ الجهم بن صفوان ، فضحى به خالد بن عبدالله القسري بواسط وقال: أيها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم فاني مضح بالجعد بن درهم ، إنه زعم ان الله لم يتخذ ابراهيم خليلاً ، ولم يكلم موسى تكليماً ، تعالى الله عما يقول الجعد علوا كبيراً . ثم نزل فذبحه .

وهذا اصل ملة ابراهيم الذي جعله الله اماماً للناس قال تعالى (وإذا ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فاتمهن قال اني جاعلك للناس اماماً) وقال (ومن احسن ديناً ممن اسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفاً واتخذ الله ابراهيم خليلاً) .

ومن قال : إن المراد بمحبة الله محبة التقرب إليه فقوله متناقض ؛ فان محبة التقرب إليه تبع لمحبته . فمن احب الله نفسه احب التقرب إليه ومن كان لا يحبه نفسه امتنع ان يحب التقرب إليه . واما من كان لايطيعه ولا يمتثل امره الا لأجل غرض آخر فهو في الحقيقة انما يحب ذلك الغرض الذي عمل لأجله وقد

جعل طاعة الله وسيلة إليه ، وقد ثبت فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال « إذا دخل اهل الجنة الجنة نادى مناد : يا اهل الجنة ان لكم عند الله موعداً يريد ان ينجزكموه ،فيقولون ما هو ؟ الم يبيض وجوهنا ؟ ويثقل موازيننا؟ ويدخلنا الجنة ؟ ويجرنا من النار ؟ فيكشف الحجاب فينظرون إليه ، فما اعطاهم شيئاً احب إليهم من النظر إليه ، وهو الزيادة » .

فاخبر ان النظر إليه احب اليهم من كل ما يتنعمون به ، ومحبة النظر اليه تبع لمحبته ، فانما احبوا النظر اليه لمحبتهم اياه ، ومامن مؤمن الا ويجد فى قلبه محبة الله،وطمأنينة بذكره وتنعماً بمعرفته،ولذة وسروراً بذكره ومناجاته . وذلك يقوى ويضعف ويزيد وينقص بحسب ايمان الخلق . فكل من كان ايمانه اكمل كان تنعمه بهذا اكمل . ولهذا قال صلى الله عليه وسلم فى الحديث الذي رواه احمد وغيره : « حبب الي من دنياكم النساء والطيب ــ ثم قال ــ وجعلت قرة عيني فى الصلاة » وكان صلى الله عليه وسلم يقول « ارحنا بالصلاة يا بلال » وهذا مبسوط فى غير هذا الموضع .

والمقصود هنا ان عباده المؤمنين يحبونه وهو يحبهم سبحانه وتعالى ،وحبهم له بحسب فعلهم لما يحبه كما في صحيح البخاري عن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « يقول الله تعالى من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة ، وما تقرب الي عبدي بمثل اداء ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب الي بالنوافل حتى احبه ، فاذا احببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر

به ، ويده التي يبطش بها · ورجله التي يمشي بها · فبي يسمع ، وبي يبصر .وبي يبطش ، وبي يمشي ، ولئن سألني لاعطينه . ولئن استعاذني لاعيذنه . وما ترددت عن شيء انا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن ، يكره الموت واكره مساءته ولا بدله منه » .

فقد بين ان العبد اذا تقرب الى الله بما يحبه من النوافل بعد الفرائض احبه الله ، فحب الله لعبده بحسب فعل العبد لما يحبه الله . وما يحبه الله من عبادته وطاعته فهو تبع لحب نفسه ، وحب ذلك هو سبب حب عباده المؤمنين،فكان حبه للمؤمنين تبعاً لحب نفسه .

فالمؤمنون وإن كانوا يحمدون ربهم ويثنون عليه فهم لا يحصون ثناء عليه بل هو كما اثنى على نفسه كما فى الحديث الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم انه كان يقول : « اللهم انى اعوذ برضاك من سخطك .وبمعافاتك من عقوبتك . وبك منك، لا احصي ثناء عليك ، انت كما اثنيت على نفسك » وقد ثبت عنه فى الصحيح انه قال « لا احد احب إليه المدح من الله ، من اجل ذلك مدح نفسه » . وقال له الاسود بن سريع : انى حمدت ربى بمحامد فقال « ان ربك يحب الحمد »، فهو يحب حمد العباد له وحمده لنفسه اعظم من حمد العباد له،ويحب ثناءهم عليه وثناؤه على نفسه اعظم من ثنائهم عليه . وكذلك حبه لنفسه وتعظيمه لنفسه . فهو سبحانه اعلم بنفسه من كل احد، وهو الموصوف بصفات الكمال التى لاتبلغها عقول الخلائق ، فالعظمة ازاره والكبرياء رداؤه . وفى الصحيح عن النبي صلى

الله عليه وسلم انه قرأ على المنبر (وما قدروا الله حق قدره والارض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه) . قال « يقبض الله الارض ويطوي السموات بيمينه ثم يهزهن ، ثم يقول : انا الملك ، انا القدوس ، انا السلام ، انا المؤمن ، انا المهيمن ، انا الذي بدأت الدنيا ولم تك شيئاً ، انا الذي اعيدها » وفي رواية « يمجد الرب نفسه سبحانه » ، فهو يحمد نفسه ويثني عليها ، ويمجد نفسه سبحانه وتعالى ، وهو الغنى بنفسه لا يحتاج الى احد غيره ، بل كل ما سواه فقير اليه (يسأله من في السموات والارض كل يوم هو فى شان) وهو الاحد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً احد .

فاذا فرح بتوبة التائب واحب من تقرب إليه بالنوافل ورضي عن السابقين الاولين ونحو ذلك لم يجز ان يقال : هو مفتقر فى ذلك الى غيره ولا مستكمل بسواه ، فانه هو الذي خلق هؤلاء وهو الذي هداهم واعانهم حتى فعلوا ما يحبه ويرضاه ويفرح به .

فهذه المحبوبات لم تحصل الا بقدرته ومشيئته وخلقه ، فله الملك لا شريك له ، وله الحمد فى الاولى والآخرة ، وله الحكم وإليه ترجعون .

فهذا ونحوه يحتج به الجمهور الذين يثبتون لافعاله حكمة تتعلق به يحبها ويرضاها ويفعل لأجلها .

قالوا : وقول القائل : إن هذا يقتضي انه مستكمل بغيره فيكون ناقصاً قبل ذلك عنه اجوبة .

(احدها) ان هـذا منقوض بنفس ما يفعـله من المفعولات ، فما كان جواباً فى المفعولات كان جوابـاً عن هذا ، ونحن لانعقل فى الشاهد فاعلاً الا مستكملاً بفعله .

(الثانى) انهم قالوا : كما له ان يكون لايزال قادراً على الفعل بحكمة ، فلو قدر كونه غير قادر على ذلك لـكان ناقصاً .

(الثالث) قول القائل : إنه مستكمل بغيره باطل ؛ فان ذلك إنمـا حصل بقدرتـه ومشيئته لا شريك له في ذلك فـلم يكن فى ذلك محتاجـاً الى غيره ، وإذا قيـل كمل بفعله الذي لا يحتاج فيه الى غيره كان كما لو قيل كمـل بصفاته او كمل بذاته .

(الرابع) قول القائل : كان قبل ذلك ناقصاً إن اراد به عدم ما تجدد فلا نسلم ان عدمه قبل الوقت الذي اقتضت الحـكمة وجوده فيه يكون نقصاً ، وإن أراد بكونه ناقصاً معنى غير ذلك فهو ممنوع ، بل يقال عدم الشيء فى الوقت الذي لم تقتض الحـكمة وجوده فيه من الـكمال ، كما ان وجوده فى وقت اقتضاء الحـكمة وجوده فيه كمال . فليس عدم كل شيء نقصاً ، بل عدم ما يصلح وجوده

هو النقص ، كما ان وجود مالا يصلح وجوده نقص ، فتبين ان وجود هذه الامور حين اقتضت الحكمة عدمها هو النقص ، لا ان عدمها هو النقص . ولهذا كان الرب تعالى موصوفاً بالصفات الثبوتية المتضمنة لكماله وموصوفاً بالصفات السلبية المستلزمة لكماله أيضاً . فكان عدم ما ينفي عنه هو من الكمال كما ان وجود ما يستحق ثبوته من الكمال . وإذا عقل مثل هذا فى الصفات فكذلك فى الافعال ونحوها ، وليس كل زيادة يقدرها الذهن من الكمال ، بل كثير من الزيادات تكون نقصاً فى كمال المزيد ، كما يعقل مثل ذلك فى كثير من الموجودات . والانسان قد يكون وجود اشياء في حقه فى وقت نقصاً وعيباً ، وفى وقت آخر كمالا ومدحاً فى حقه ؛ كما يكون فى وقت مضرة له وفي وقت منفعة له .

(الخامس) انا اذا قدرنا من يقدر على إحداث الحوادث لحكمة ومن لا يقدر على ذلك كان معلوماً ببديهة العقل ان القادر على ذلك اكمل ، مع ان الحوادث لا يمكن وجودها إلا حوادث لا تكون قديمة ، وإذا كانت القدرة على ذلك اكمل وهذا المقدور لا يكون إلا حادثاً كان وجوده هو الكمال ، وعدمه قبل ذلك من تمام الكمال ، إذ عدم الممتنع الذى هو شرط فى وجود الكمال من الكمال .

ثم هم هنا ثلاث فرق (فرقة) تقول إرادته وحبه ورضاه ونحو هذا قديم ، ولم يزل راضياً عمن علم انه يموت مؤمناً ، ولم يزل ساخطاً على من علم انه يموت

كافراً ، كما يقول ذلك من يقوله من الكلابية واهل الحديث والفقهاء والصوفية فهؤلاء لا يلزمهم التسلسل لأجل حلول الحوادث ؛ لكن يعارضهم الاكثرون الذين ينازعونهم فى الحكمة المحبوبة ، كما ينازعونهم فى الارادة ؛ فانهم قالوا لهم : إذا كانت الارادة قديمة لم تزل ونسبتها الى جميع الازمنة والحوادث سواء فاختصاص زمان دون زمان بالحدوث ومفعول دون مفعول تخصيص بلا مخصص .

قال اولئك : الارادة من شأنها ان تخصص . قال لهم المعارضون : من شأنها جنس التخصيص . واما تخصيص هذا المعين على هذا المعين فليس من لوازم الارادة بل لابد من سبب يوجب اختصاص احدهما بالارادة دون الآخر. والانسان يجد من نفسه انه يخصص بارادته ، ولكنه يعلم انه لا يريد هذا دون هذا إلا لسبب اقتضى التخصيص ، وإلا فلو تساوى ما يمكن إرادته من جميع الوجوه امتنع تخصيص الارادة لواحد من ذلك دون امثاله ، فان هذا ترجيح بلا مرجح . ومتى جوز هذا انسد باب إثبات الصانع ، قالوا : ومن تدبر هذا وأمعن النظر فيه علمه حقيقة ، وانما ينازع فيه من يقلد قولاً قاله غيره من غير اعتبار لحقيقته .

وهكذا يقول لهم الجمهور: إذا كان الله تعالى راضياً فى ازله ومحباً وفرحا بما يحدثه قبل ان يحدثه، فاذا احدثه هل حصل باحداثه حكمة يحبها ويرضاها ويفرح بها او لم يحصل إلا ما كان فى الازل ؟ فان قلتم لم يحصل إلا ما كان فى

الازل . قيل ذاك كان حاصلاً بدون ما احدثه من المفعولات ، فامتنع ان تكون المفعولات فعلت لكي يحصل [ذاك] ؛ فقولكم كما تضمن ان المفعولات تحدث بلا سبب يحدثه الله تعالى يتضمن انه يفعلها بلا حكمة يحبها ويرضاها ، قالوا : فقولكم يتضمن نفي ارادته المقارنة ومحبته وحكمته التى لا يحصل الفعل إلا بها .

(والفرقة الثانية) قالوا : ان الحكمة المتعلقة به تحصل بمشيئته وقدرته كما يحصل الفعل بمشيئته وقدرته. قالوا وان قام ذلك بذاته فهو كقيام سائر ما اخبر به من صفاته وأفعاله بذاته . والمعتزلة تنفي قيام الصفات والأفعال به وتسمى الصفات اعراضاً والأفعال حوادث ، ويقولون لاتقوم بهالأعراض ولا الحوادث، فيتوهم من لم يعرف حقيقة قولهم انهم ينزهون الله تعالى عن النقائص والعيوب والآفات . ولا ريب ان الله يجب تنزيهه عن كل عيب ونقص وآفة ، فانه القدوس السلام الصمد السيد الكامل فى كل نعت من نعوت الكمال كمالا يدرك الخلق حقيقته ، منزه عن كل نقص تنزيهاً لا يدرك الخلق كماله . وكل كمال ثبت لموجود من غير استلزام نقص فالخالق تعالى احق به وأكمل فيه منه . وكل نقص ينزه عنه مخلوق فالخالق احق بتنزيهه عنه وأولى ببراءته منه .

روينا من طريق غير واحد كعثمان بن سعيد الدارمي وأبي جعفر الطبري وأبي بكر البيهقي وغيرهم فى تفسير علي بن ابى طلحة عن ابن عباس فى قوله تعالى (الصمد) قال : السيد الذي قد كمل فى سؤدده ، والشريف الذي قد كمل

فى شرفه ، والعظيم الذي قد كمل فى عظمته ، والحكيم الذي قد كمل في حكمته، والغني الذي قد كمل فى غناه ، والجبار الذي قد كمل فى جبروته ، والعالم الذى قد كمل فى علمه ، والحليم الذى قد كمل في حلمه ، وهو الذى قد كمل فى انواع الشرف والسؤدد ، وهو الله عز وجل ، هذه صفة لاتنبغي الا له ليس له كفؤ وليس كمثله شيء ، سبحانه الواحد القهار .

وهذا التفسير ثابت عن عبد الله بن ابى صالح عن معاوية بن صالح عن علي بن ابى طلحة الوالبي، لكن يقال:انه لم يسمع التفسير من ابن عباس ، ولكن مثل هذا الكلام ثابت عن السلف ، وروى عن سعيد بن جبير انه قال:الصمد الكامل فى صفاته وأفعاله . وثبت عن ابى وائل شقيق بن سلمة انه قال :الصمد السيد الذى انتهى سؤدده .

وهذه الأقوال وما أشبهها لا تنافى ماقاله كثير من السلف كسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير ومجاهد والحسن والسدى والضحاك وغيرهم من ان الصمد هو الذى لا جوف له ، وهذا منقول عن ابن مسعود وعن عبد الله بن بريدة عن أبيه موقوفاً او مرفوعاً ، فان كلا القولين حق كما بسط الكلام على ذلك في غير هذا الموضع .

ولفظ « الأعراض في اللغة » قد يفهم منه مايعرض للانسان من الأمراض ونحوها ، وكذلك لفظ « الحوادث،والمحدثات» قد يفهم مايحدثه الانسان من

الأفعال المذمومة والبدع التى ليست مشروعة، او ما يحدث للانسان من الأمراض ونحو ذلك. والله سبحانه وتعالى يجب تنزيهه عما هو فوق ذلك مما فيه نوع نقص فكيف تنزيهه عن هذه الأمور؟ ولكن لم يكن مقصود المعتزلة بقولهم هو منزه عن الأعراض والحوادث الانفي صفاته وافعاله، فعندهم لايقوم به علم ولا قدرة ولا مشيئة ولا رحمة ولا حب ولا رضى ولا فرح ولا خلق ولا احسان ولا عدل ولا اتيان ولا مجيء ولا نزول ولا استواء ولا غير ذلك من صفاته وأفعاله.

وجماهير المسلمين يخالفونهم فى ذلك، ومن الطوائف من ينازعهم فى الصفات دون الأفعال، ومنهم من ينازعهم فى بعض الصفات دون بعض، ومن الناس من ينازعهم فى الفعل القديم ويقول إن فعله قديم وان كان المفعول محدثاً؛ كما يقول فى نظير ذلك من يقوله في الارادة. وبسط هذه الأقوال وذكر قائليها وأدلتهم مذكور فى غير هذا الموضع.

والمقصود هنا التنبيه على مجامع اجوبة الناس عن السؤال المذكور

وهذا الفريق الثانى إذا قال لهم الناس: إذا اثبتم حكمة حدثت بعد ان لم تكن لزمكم التسلسل، قالوا: القول فى حدوث هذه الحكمة كالقول فى حدوث سائر ما احدثه من المفعولات. ونحن نخاطب من يسلم لنا انه احدث المحدثات بعد ان لم تكن، فاذا قلنا إنه احدثها بحكمة حادثة لم يكن له ان

يقول هــذا يستلزم التسلسل ، بل نقول له : القول فى حدوث الحـكمة كالقـول فى حدوث المفعــول المتعقب للحـكمة فمـا كان جوابك عن هذا كان جوابنا عن هذا .

فلما خصم الفريق الثاني الفريق الأول قال لهم الفريق الثالث ـــ من ائمة الحديث والفقهاء والصوفيةواهل الـكلام ـــ هذهحجة جدلية الزامية،ولمنشفوا الغليل بهذا الجواب ، وليس معكم من الأدلة الشرعية ولا العقلية ما ينفى هــذا التسلسل ، بلالتسلسل نوعان، والدور نوعان .

(احدهما) التسلسل في العلل والمعلولات فهذا ممتنع وفاقاً .

و (الثانى) التسلسل فى الشروط والآ ثار فهذا فى جوازه قولانمعروفان للسلمين وغيرهم . وطوائف من اهل الـكلام والحديث والفلسفة يجوزون هذا ومن هؤلاء السلف والأئمة الذين يقولون لم يزلاللهمتكلماً إذا شاء ، وأنه لميزل يقوم به ما يتعلق بمشيئته وقدرته من الأفعال وغيرها .

وبين هؤلاء ان ما استدل به منازعوهم على نفي التسلسل فىالآ ثار وامتناع وجود ما لايتناهى فى الماضي ادلة ضعيفة ،كدليل المطابقة بين الجملتين مع زيادة احداها ، وكدليل الشفع والوتر ونحو ذلك من الأدلة التى بين هؤلاء فسادها ونقضوها عليهـم بالحوادث فى المستقبل ، وبعقود الاعـداد، وبمعلومات الله مـع

مقدوراته وغير ذلك مما قد بسط فى موضعه .

والدور « نوعان » : فالدور القبلي السبقي ممتنع : وهو ان لا يوجد هذا الا بعد هـذا ولا يوجد هـذا الا بعد هـذا وهذا دور العلل ، واما الدور المعي الاقترانى وهو انه لا يكون هـذا الا مع هذا ولا يكون هذا الا مع هذا فهذا هو الدور فى الشروط وما اشبهها من المتضايفات والمتلازمات ، ومثل هذا جائز .

فهذه مجامع اجوبة الناس عن هذا السؤال . وهي عدة أقوال (الأول) قول من لا يعلل لا أفعاله ولا احكامه . و(الثانى) قول من يعلل ذلك بأمور مباينة له منفصلة عنه من جملة مفعولاته. و(الثالث) قول من يعلل ذلك بأمور قائمة به قديمة . و (الرابع) قول من يعلل ذلك بامور قائمة به متعلقة بقدرته ومشيئته لكن يقول جنسها حادث . و (الخامس) قول من يعلل ذلك بامور متعلقة بمشيئته وقدرته.فان كان الفعل المقتضى للحكمة حادث النوع كانت الحكمة كذلك وان قدر انه قام به كلام او فعل متعلق بمشيئته وانه لم يزل كذلك كانت الحكمة كذلك ، فيكون النوع قديماً وان كانت آحاده حادثه .

ويمكن الجواب عن السؤال بتقسيم حاصر ، بأن يقال : لا ريب ان الله عز وجل يحدث مفعولات لم تكن ، فاما ان تكون الافعال المحدثة يجب ان يكون لها ابتداء ويجوز ان تكون غير متناهية فى الابتداء كما هي غير متناهية فى

الانتهاء ، فان وجب ان يكون لها ابتداء امكن حدوث الحوادث بدون تسلسلها. فاذا قال القائل: لو فعل لعلة محدثة لـكان القول فى حدوث تلك العلة كالقول فى حدوث معلولها ويلزم التسلسل كان جوابه على هذا التقدير ان الحوادث يجب ان يكون لهـا ابتداء ، واذا فعل الفعل لحـكمة محدثة كان الفعل وحكمته محدثين ، ولا يجب ان يكون للعلة المحدثة علة محدثة الا اذا جاز ان لايكون للحوادث ابتداء ، فاما اذا جاز ان يكون لها ابتداء بطل هذا السؤال ، فكيف اذا وجب ان يكون لها ابتداء .

وان قيل: يجوز ان تكون الحوادث غير متناهية فى الابتداء ، كما انهـا غير متناهية فى الانتهاء عند المسلمين وسائر اهل الملل وجمهور الخلق . ولم ينازع فى ذلك الا بعض اهل البدع : الذين يقولون بفناء الجنة والنار كما يقوله الجهم بن صفوان ، او بفناء حركات اهل الجنة ، كما يقوله ابو الهذيل ، فان هذين اوجبا ان يكون لجنس الحوادث انتهاء كما يجب ان يكون لها عندهم ابتداء. واكثر الذين وافقوهم على وجوب الابتداء خالفوهم فى الانتهاء وقالوا لها ابتداء وليس لها انتهاء. و (الطائفة الثالثة) قالت ليس لها ابتداء ولا انتهاء . والاقوال الثلاثة معروفة فى طوائف المسلمين .

والمقصود هنا: ان الجواب يحصل على التقديرين ؛ فمن جوز أن لا يكون لها نهاية فى الابتداء جوز تسلسل الحوادث ، وقال : هـذا تسلسل فى الآثار والشروط ؛ لا تسلسل فى العلل والمؤثرات، والممتنع انما هو الثاني دون الأول ،

وقال : إنه لايقوم دليل على امتناع الثاني كما يقول ذلك طوائف من متقدمي أهل الكلام ومتأخريهم ومتقدمي اهل الحديث ومتأخريهم . ومن اوجب ان يكون لها ابتداء . قال فى حدوث العلة ما يقوله فى حدوث المفعول اذ لا فرق بينهما في هذا المعنى .

ومن الأجوبة الحاصرة أن يقال : خلق الله إما أن يجوز تعليله او لا ، فان لم يجز تعليله كان هذا هو التقرير الأول . وعلى هذا التقدير فلا يسمى هذا عبثاً ، واذا سماه المسمي عبثاً لم تكن تسميته عبثاً قدحا فيما تحقق ، فانا نتكلم على تقدير امتناع التعليل ، وإذا كان التعليل ممتنعاً وجب القول به . ولو سماه المسمي بأي شيء سماه ، وإن جاز تعليله فلا يخلو إما ان يجوز تعليله بعلة حادثة وإما أن لا يجوز ؛ فان قيل لا يجوز ذلك لزم كون العلة قديمة ، وامتنع على هذا التقدير قدم المعلول ؛ فانا نتكلم على تقدير جواز تعليل المفعول الحادث بعلة قديمة ، وان قيل : يجوز تعليله بعلة حادثة أمكن القول بذلك .

ثم إما ان يقال : يجوز تعليل الحوادث بعلة متناهية للفاعل لئلا يلزم ان يقوم به شيء حادث يجب ان يقوم به لحكمة ، وإن كانت مقدورة مرادة له ، فان قيل بالاول لزم كون العلة الحادثة منفصلة عنه ، ولزم على هذا كون الفاعل يحدث الحوادث بعد أن لم تكن لعلة حادثة بغيره من غير حدوث سبب يوجب اول الحوادث ، ولا قيام حادث بالمحدث . وان قيل : بل لا يجوز ان

يحدث الحوادث لغير معنى يعود اليه ، بل يجب ان يقوم به ما هو السبب والحكمة في حدوث الحوادث فانه يجب القول بذلك .

ثم إما ان يقال : هـذا يستلزم التسلسل او لا يستلزمـه ، فان قيل : لا يستلزمه لم يكن التسلسل لازماً فاندفع المحذور ، وان قيل ان التسلسل لازم لم يكن التسلسل على هذا التقدير محذوراً ؛ لان التقدير انه يجوز تعليل أفعاله بعلة حادثة ، وان ذلك يستلزم التسلسل .

ومن المعـلوم ان الامر الجائز لا يستلزم ممتنعـاً ؛ فانه لو استلزم ممتنعاً لـكان ممتنعاً بغيره ، وإن كان جائزاً بنفسه ، والتقدير انه جائز جوازاً مطلقاً لا امتناع فيه . وما كان جائزاً جوازاً مطلقاً لا امتناع فيه لم يلزمه ما يمتنع ثبوته، فيكون التسلسـل على هذا التقدير غير ممتنع .

فهذا جواب عن السؤال من غير التزام قول بعينه ، بـل نبين انه ليس فى نفس الأمر محذور ، ولـكن السؤال مبني عـلى ست مقدمات لزوم العبث ، وانه منتف ، ولزوم قدم المفعول ، وانه منتف ، ولزوم التسلسل ، وانه منتف .

فصاحب القول الأول يقول : لا أسلم انه يلزم العبث ٠ وصاحب القول الثاني يقول : لا أسلم انه يلزم قدم المفعول ، وصاحب القول الثالث يقول :

لا أسلم انه يلزم التسلسل ، او يقول لا أسلم ان التسلسل فى الآثار ممتنع .فهذه اربع ممانعات لا بد منها . ويمتنع ان تكون كلها فاسدة، بل لا بد من صحة واحد منها وايها صح اندفع به السؤال وهو المقصود . وذلك لان القسمة العقلية تحصر الاقسام فيما ذكر فمن توجه عنده احد الاقسام قال به ، ونحن قد بسطنا الكلام على اصول هذه المسألة ولوازمها واقوال الناس فيها فى غير هذا الموضع .

والمقصود هنا الذب عن مجموع المسلمين ، فان هذا السؤال مما اورده على الناس القائلون بقدم العالم ، وقدذكرنا عنه اجوبة متعددة فيما كتبناه فى جواب شبهة القائلين بقدم العالم .

ومن جملة اجوبتهم ان يقال : هذا السؤال ليس مختصاً بحدوث العالم ، بل هو وارد فى كل ما يحدث فى الوجود من الحوادث ، والحدوث مشهود محسوس متفق عليه بين العقلاء . فكل ما يورده المورد على حدوث خلق السموات والأرض يورد عليه نظيره فى الحوادث المشهودة .

وقد نبهنا على جنس ما تحتج به كل طائفة من الطوائف فى هذا المقام ، لكن استقصاء الكلام فى ذلك لا تسعه هذه الأوراق ، ولا يحتمله هذا المقام .

ومن فهم ما كتب انفتح له الكلام فى هذا الباب وامكنه ان يحصل تمام الكلام فى جنس هذه المسائل . فان الكلام فيها بالتدريج مقاماً بعد مقام هو الذي يحصل به المقصود ، وإلا فاذا هجم على القلب الجزم بمقالات لم يحكم ادلتها وطرقها ، والجواب عما يعارضها كان الى دفعها والتكذيب بها اقرب منه الى التصديق بها . فلهذا يجب ان يكون الخطاب في المسائل المشكلة بطريق ذكر دليل كل قول ، ومعارضة الآخر له . حتى يتبين الحق بطريقه لمن يريد الله هدايته ، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل ، والله سبحانه أعلم واحكم . والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم .

وسئل

هل اراد الله ـــ تعالى ـــ المعصية من خلقه ام لا ؟

فأجاب : لفظ « الارادة » مجمل له معنيـان : فيقصد به المشيئة لمـا خلقه ، ويقصد به المحبة والرضا لما امر به .

فان كان مقصود السائل : انه احب المعاصي ورضيها وامر بها فلم يردها بهذا المعنى ، فان الله لا يحب الفساد ، ولا يرضى لعبـاده الكفر ، ولا يأمر بالفحشاء ، بل قال لما نهى عنه : (كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً) . وإن اراد انها من جملة ما شاءه وخلقه فالله خالق كل شيء ، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، ولا يكون في الوجود الا ما شاء .

وقد ذكر الله فى موضع انه يريدها ، وفى موضع انه لايريدها ، والمراد بالأول انه شاءها خلقاً ، وبالثاني انه لايحبها ولا يرضاها امراً ، كما قال تعـالى : (فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد ان يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً) وقال نوح : (ولا ينفعكم نصحى إن اردت ان انصح لـكم إن كان الله يريد ان يغويكم هو ربكم) وقال فى الثانى : (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم

العسر) وقال تعالى : (يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم . والله يريد ان يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات ان تميلوا ميلاً عظيماً . يريد الله ان يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفاً) وقال : (ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج . ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم) وقال : (انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيراً) .

سئل الشيخ الامام العلامة

ابو العباس احمد بن تيمية رضي الله عنه :

عن قول علي رضي الله عنه : لا يرجون عبد إلا ربه : ولا يخافن الا ذنبه ، ما معنى ذلك ؟

فأجاب : الحمد لله ـ هذا الكلام يؤثر عن امير المؤمنين علي بن ابى طالب ـ رضي الله عنه ـ وهو من احسن الكلام، وأبلغه وأتمه؛ فان الرجاء يكون للخير ، والخوف يكون من الشر ، والعبد إنما يصيبه الشر بذنوبه ، كما قال تعالى : (وما اصابكم من مصيبة فبما كسبت ايديكم ويعفو عن كثير) وقال تعالى : (اينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة . وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ما اصابك من حسنة فمن الله وما اصابك من سيئة فمن نفسك) .

فان كثيراً من الناس يظن ان المراد بالحسنات والسيئات فى هذه الآية الطاعات والمعاصي .

ثم « المثبتة للقدر » يحتجون بقوله : (كل من عند الله) فيعارضهم قوله: (ما اصابك من حسنة فمن الله وما اصـــابك من سيئة فمن نفسك) . و « نفاة القدر » يحتجون بهذه الثانية مع غلطهم فى ذلك ؛ فان مذهبهم : ان العبد يخلق جميع اعماله ، ويعارضهم قوله : (كل من عند الله) .

وإنما غلط كلا الفريقين ؛ لما تقدم من ظنهم ان الحسنات والسيئات هي الطاعات والمعاصي ، وإنما الحسنات والسيئات فى هذه الآية النعم والمصائب ، كما في قوله تعالى : (وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون) وقوله تعـــالى : (فاذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه) وقوله تعالى : (إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها) وقوله تعالى : (وقهم السيئات) ونحو ذلك . وهذا كثير .

وهذه الآية ذم الله بها المنافقين الذين ينكلون عما امر الله به من الجهاد وغيره ، فاذا نالهم رزق ونصر وعافية قالوا : (هذا من عند الله) وإن نالهم فقر وذل ومرض قالوا : (هذا من عندك) ـــ يا محمد ـــ بسبب الدين الذي امرتنا به ، كما قال قوم فرعون لموسى : وذكر الله ذلك عنهم بقوله تعالى : (فاذا جاءتهم الحسنة قالوا: لناهذه وان تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه) وكما قال الكفار لرسل عيسى : (انا تطيرنا بكم).

فالكفار والمنافقون اذا اصابتهم المصائب بذنوبهم تطيروا بالمؤمنين ، فبين

الله سبحانه ان الحسنة من الله ينعم بها عليهم ، وأن السيئة انما تصيبهم بذنوبهم ولهذا قال تعالى : (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم . وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) فأخبر انه لايعذب مستغفراً ؛ لأن الاستغفار يمحو الذنب الذي هو سبب العذاب ، فيندفع العذاب ، كما في سنن ابي داود وابن ماجه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « من اكثر الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً ، ومن كل ضيق مخرجاً ، ورزقه من حيث لا يحتسب » وقد قال تعالى: (أن لا تعبدوا الا الله انني لكم منه نذير وبشير ، وان استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يمتعكم متاعاً حسناً الى اجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله) .

فبين أن من وحده واستغفره متعه متاعاً حسناً الى اجل مسمى ، ومن عمل بعد ذلك خيراً زاده من فضله ، وفي الحديث : « يقول الشيطان : اهلكت الناس بالذنوب . واهلكوني بلا اله الا الله ، والاستغفار . فلما رأيت ذلك بثثت فيهم الأهواء فهم يذنبون ولا يتوبون ؛ لأنهم يحسبون انهم يحسنون صنعاً » .

ولهذا قال تعالى : (فاخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا) اي فهلا اذ جاءهم بأسنا تضرعوا ، فحقهم عند مجيء البأس التضرع ، وقال تعالى : (ولقد اخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون) قال عمر بن عبد العزيز : ما نزل بلاء الا بذنب ، ولا رفع الا بتوبة ، ولهذا قال تعالى : (الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم

فاخشوهم فزادهم ايماناً . وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم . انما ذلكم الشيطان يخوف اولياءه فلا تخافوهم وخافون ان كنتم مؤمنين) .

فنهى المؤمنين عن خوف اولياء الشيطان ، وامرهم بخوفه ، وخوفه يوجب فعل ما امر به ، وترك مانهى عنه ، والاستغفار من الذنوب ، وحينئذ يندفع البلاء وينتصر على الاعداء ، فلهذا قال علي رضي الله عنه : لايخافن عبد إلا ذنبه . وان سلط عليه مخلوق فما سلط عليه إلا بذنوبه ، فليخف الله وليتب من ذنوبه التي ناله بها ما ناله ، كما فى الأثر « يقول الله : أنا الله مالك الملوك ، قلوب الملوك ونواصيهم بيدي ، من اطاعني جعلتهم عليه رحمة ، ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة ، فلا تشتغلوا بسب الملوك ، وأطيعوني أعطف قلوبهم عليكم ».

واما قوله : لايرجون عبد الا ربه . فان الراجي يطلب حصول الخير ودفع الشر ، ولا يأتى بالحسنات الا الله ، ولا يذهب السيئات الا الله (وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو ، وان يردك بخير فلا راد لفضله) (مايفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده) والرجاء مقرون بالتوكل ، فان المتوكل يطلب ما رجاه من حصول المنفعة ودفع المضرة ، والتوكل لايجوز الا على الله ، كما قال تعالى : (وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين) وقال : (وعلى الله فليتوكل المتوكلون) وقال تعالى : (ان

ينصركم الله فلا غالب لكم وان يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون) وقال تعالى : (ولو انهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا : حسبنا الله ، سيؤتينا الله من فضله ورسوله انا الى الله راغبون) وقال تعالى : (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا . وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل) .

فهؤلاء قالوا : حسبنا الله ، أي كافينا الله فى دفع البلاء ، واولئك امروا ان يقولوا : حسبنا فى جلب النعماء ، فهو سبحانه كاف عبــده فى ازالة الشر وفى انالة الخير ، أليس الله بكاف عبده ، ومن توكل على غير الله ورجاه خذل من جهته وحرم ، (مثل الذين اتخذوا من دون الله اولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت) . (واتخذوا من دون الله آلهــة ليكونوا لهم عزاً . كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً) (ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أوتهوى به الريح في مكان سحيق) (لاتجعل مع الله الها آخر فتقعد مذموما مخذولا) . وقال الخليل: (فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه ، واشكروا له اليه ترجعون) .

فمن عمل لغير الله رجاء ان ينتفع بما عمل له ، كانت صفقته خاسرة ، قال الله تعالى : (والذين كفروا اعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب) وقال تعالى : (مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف لا يقدرون

مما كسبوا على شيء) وقال تعالى : (وقدمنا الى ما عملوا من عمـل فجعلناه هباءاً منثوراً) وقال تعالى : (كل شيء هلك الا وجهه) كما قيل فى تفسيرهـا كل عمل باطل الا ما اريد بـه وجهه ، فمن عمل لغير الله ورجاه بطـل سعيه ، والراجي يكون راجياً تارة بعمل يعمله لمن يرجوه ، وتارة باعتماد قلبه عليـه والتجائه اليه وسؤاله ، فذاك نوع من العبادة له ، وهذا نوع من الاستعانة به ، وقد قال تعالى : (اياك نعبد واياك نستعين) وقال : (فاعبده وتوكل عليـه) وقال : (قل هو ربي لا إله إلا هو عليه توكلت واليه متاب).

ومما يوضح ذلك ان كل خير ونعمة تنال العبد فانما هي من الله ، وكل شر ومصيبة تندفع عنه او تكشف عنه ، فانمـا يمنعها الله ؛ وانمـا يكشفها الله ، واذا جرى ما جرى من اسبابها على يد خلقه ، فالله سبحانه هو خالق الاسباب كلهـا سواء كانت الاسباب حركة حي باختياره وقصده ، كما يحدثه تعالى بحركة الملائكة والجن والانس والبهائم ، او حركة جماد بمـا جعل الله فيه من الطبع ، او بقاسر يقسره كحركة الرياح والمياه ونحو ذلك ، فالله خالق ذلك كله ، فانه لاحول ولا قوة الا به ، وما شاء كان ومالم يشأ لم يكن ، فالرجاء يجب ان يكون كله للرب والتوكل عليه والدعاء له ، فانه ان شاء ذلك وبسره كان وتيسر ، ولو لم يشأ الناس ، وان لم يشأه ولم يبسره لم يكن ؛ وان شاءه الناس .

وهذا واجب لو كان شيء من الاسباب مستقلا بالمطلوب ، فـانه لو قدر مستقلا بالمطلوب ـــ وانمـا يكون بمشيئة الله وتيسيره ـــ لـكان الواجب ان

لا يرجى الا الله ، ولا يتوكل الا عليه ، ولا يسأل الا هو ، ولا يستعان الا به ، ولا يستغاث الا هو ، فله الحمد واليه المشتكي ، وهو المستعان ، وهو المستغاث ، ولا حول ولا قوة الا بـه ، فكيف وليس شيء من الاسباب مستقلا بمطلوب ، بل لابد من انضام اسباب اخر اليه ، ولا بد ايضا من صرف الموانع والمعارضات عنه ، حتى يحصل المقصود .

فكل سبب فله شريك وله ضد . فان لم يعاونه شريكه ولم يصرف عنه ضده لم يحصل سببه ، فالمطر وحده لا ينبت النبات الا بما ينضم اليـه من الهواء والتراب وغـير ذلك ، ثم الزرع لايتم حتى تصرف عنـه الافـات المفسدة له ، والطعام والشراب لايغذى الا بما جعل فى البدن من الاعضاء والقوى ، ومجموع ذلك لايفيد ان لم تصرف المفسدات ، والمخـلوق الذي يعطيك او ينصرك فهو ـــ مع ان الله يخلق فيه الارادة والقوة والفعل ـــ فلا يتم مايفعله الا باسباب كثيرة خارجة عن قدرته تعاونه على مطلوبـه ، ولو كان ملـكا مطاعا،ولا بد ان يصرف عن الاسباب المعاونة مايعارضها ويمانعها ، فـلا يتم المطلوب الا بوجود المقتضى وعـدم المانع ، وكل سبب معـين فانما هـو جزء مـن المقتضى ، فليس فى الوجود شيء واحد هو مقتضيا ، وان سمي مقتضياً وسمي سائر مايعينه شروطا ، فهذا نزاع لفظي . وحينئذ فيقال : لابد من وجود المقتضى والشروط ، وانتفاء الموانع ، واما ان يكون في المخلوقات عـلة تامـة تستلزم معلولها ، فهذا باطل .

ومن عرف هـذا حق المعرفـة انفتح له باب توحيـد الله ، وعلم انه لا يستحق لأن يدعى غيره فضلا عن ان يعبد غيره ، ولا يتوكل على غـيره ولا يرجى غيره ، وهذا مبرهن بالشرع والعقل ، ولا فرق فى ذلـك بين الاسباب العلوية والسفلية ، وافعال الملائكة والأنبياء والمؤمنين وشفاعتهم وغـير ذلك من الاسباب ، فان من توكل في الشفاعـة او الدعاء على ملك او نبى أو رجل صالح أو نحو ذلك قيل له : هذا أيضا سبب من الأسباب فهذا الشافع والداعي لايفعل ذلك إلا بمشيئة الله وقدرته ، بل شفاعة أهل طاعته لا تكون إلا لمن يرضاه . كما قال تعالى : (ولا يشفعون الا لمن ارتضى) .

فليس احد يشفع عنده إلا باذنه الاذن القدري الكونى ، فان شفاعته من جهة أفعال العباد لا تكون الا بمشيئته وقدرته ، فليس كالمخلوق الذي يشفـع اليه شافع تكون شفاعته بغير حول المشفوع اليه وقوته ، بل هو سبحانه خالق شفاعة الشافع كسائر التحولات ، ولا حول ولا قـوة الا به ، و « الحول » يتضمن التحول من حال الى حال بحركة أو ارادة أو غير ذلك ، فالشافع لا حول له فى الشفاعة ولا غيرها الا به ، ثم أهل طاعته الذين تقبل شفاعتهم لايشفعون الا لمن ارتضى فلا يطلبون منه ما لا يحب أن يطلب منه ، بل الملائكة الذين هم ملائكته كما قال فيهم : (وقالوا اتخذوا الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بامره يعملون يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم ولا يشفعون الا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون) .

والصادر عنهم اما قول واما عمل ، فالقول لايسبقونه بـه بل لايقولون حتى يقول ، ولايشفعون الا لمن ارتضى، وعلينا ان نكون معه ومع رسله هكذا ، فلا نقول فى الدين حتى يقول ، ولا نتقدم بين يدي الله ورسوله ولا نعبده الا بما امر ، وأعلى من هذا ان لا نعمل الا بما امر ، فلا تكون اعمالنـا الا واجبة أو مستحبة ، واذا كان هكذا في مثل هـذه الأسباب فكيف بمن تو كل او رجا اسبابا غير هذه من الكواكب او غـيرها ، او من افعال الآدميين من الملوك والرؤساء والأصحاب والأصدقـاء والمماليك والا تباع وغير ذلك ؟ !

ومما ينبغي ان يعلم : ماقاله طائفة من العلماء . قالوا : الالتفات الى الاسباب شرك فى التوحيد . ومحو الأسباب ان تكون اسبابا نقص في العقل والاعراض عن الأسباب بالكلية قدح فى الشرع ، وانمـا التوكل والرجاء معنى يتألف من موجب التوحيد والعقل والشرع.

وبيان ذلك : ان الالتفات الى السبب هـو اعتماد القلب عليه ورجاؤه والاستناد اليه ، وليس فى المخلوقات ما يستحق هـذا ، لأنه ليس مستقلا ، ولا بد له من شركاء واضداد ، ومع هذا كلـه فان لم يسخره مسبب الأسباب لم يسخر ، وهذا مما يبين ان الله رب كل شيء ومليكه ، وان السموات والأرض وما بينهما والأفلاك وما حوته لها خالق مدبر غيرها ، وذلك ان كل ما يصدر عن فلك او كوكب او ملك او غير ذلك فانك تجده ليس مستقلا باحداث شيء

من الحـوادث ، بل لابـد من مشارك ومعـاون وهو مع ذلـك له معارضات وممانعات .

ومن اعظم ذلك « الفلك الآطلس التاسع » الذي يظن كثير من المتفلسفة الالهيين والمنجمين وغيرهم ان حركته هي السبب فى حدوث الحوادث كلهـا ، واليها انتهى علمهم بأسباب الحوادث.ثم هم اما ان يجعلوه معلولا لواجب الوجود بتوسط عقل او نفس او بغـير توسط ذلك ، وامـا ان ينكروا ان يكون معلولا ويجعلونه واجب الوجود بنفسه ، فقولهم هذا من اعظـم الأقوال فساداً ، وان كانوا مع ذكائهم لايهتدون لذلك ، ولا يهتدي كثير من الناس للرد عليهم في ذلك .

وكل من نظر الى السماء علم أن حركته ليست هي السبب فى جميع الحركات العلوية ، فان كثيراً مايقال : إنه بحركته المشرقية يتحرك كل مافيه من الأفلاك من المشرق إلى المغرب ؛ لكن مع هذا لـكل فلك حركة اخرى تخصه ـــ تخالف هذه الحركة ـــ فلـك الثوابت وفلك الشمس والقمر وغـيرهما من الخنس الجوارى الكنس ، وهذه الحركات المختلفة ليست عن تلك الحركة ـ تخالفها ـ ولا افلاكها معلولة عن ذلك الفلك التاسع .

فلو قدر ان الحوادث تكون بحركة الكواكب ، وما يحدث من الأشكال المختلفة بالتثليث والتربيع والتسديس والقران ، وغير ذلك ، فمن المعلوم ان تلك

الأشكال المختلفة ليست معلولة عن حركة التاسع ، بل حركة التاسع جزء السبب كما ان حركة كل فلك جزء السبب ، والشكل الفلكي حادث عن مجموع الحركتين ، او الحركات المختلفة ؛ فاذا قدر ان التسعة اقترنت فلها سبع حركات بل أكثر من ذلك — عندهم — بحسب الأفلاك الاخر الزوائد المستدل عليها بالحركات المختلفة ، كالأفلاك البدرية ، وغيرها مما تكون به استقامة الكواكب ورجوعها ، وغير ذلك من حركاته ، وإذا كان كذلك فمن جعل حركة التاسع هي السبب فى جميع الحوادث كان قوله مخالفاً لما هو معلوم عند هؤلاء الفلاسفة والمنجمين ، وعند كل عاقل ، ثم إذا قدر [انها سبب] حركة جميع الأفلاك فليست مستقلة باحداث شيء من السحب والرعود والبروق والأمطار والنبات وأحوال الحيوان والمعدن ؛ لأن حركات هذه الأجسام ليست كلها عن حركات الأفلاك ، بل فيها قوى وأسباب توجب لها حركات اخر ، كما فى كل فلك مبتدأ حركة ليست عن الفلك الآخر .

والحركات كلها: إما « طبيعية » وإما « ارادية » وإما « قسرية » ، فالقسرية تابعة للقاسر ، والطبيعية هي التى لا إحساس للمتحرك بها كحركة التراب إلى أسفل ، والارادية هي التى للمتحرك بها حس كحركة الحيوان ، فما كان من هذه متحركا بطبع فيه أو ارادة ، فمبدأ حركته منه ، وما كان مقسوراً فقاسره من المخلوقات إنما يقسره لما فيه من الاستعداد لقبول قسره ، وذلك معنى ليس

من القاسر، فحركات الأفلاك إذا اجتمعت ليست مستقلة بتحريك هذه الأجسام، وان جاز ان تكون جزءاً للسبب، كما نشهد ان الشمس جزء سبب فى نمو بعض الأجسام ورطوبتها ويبسها ونحو ذلك، ثم بتقدير ان تكون أسبابا فلها موانع ومعارضات؛ إذ ما من سبب يقدر إلا وله مانع إرادي أو طبيعي، او غير ذلك كالدعاء والصدقة والأعمال الصالحة، فانها من اعظم الاسباب فى دفع البلاء النازل من السماء، ولهذا امرنا بذلك عند الكسوف وغيره من الآيات السماوية التى تكون سبباً للعذاب. كما قال النبى صلى الله عليه وسلم: «ان الشمس والقمر لا ينكسفان لموت احد ولا لحياته. ولكنهما آيتان من آيات الله يخوف بهما عباده، فاذا رأيتم ذلك فافزعوا الى الصلاة»، وامر صلى الله عليه وسلم عند الكسوف بالصلاة والذكر والاستغفار والصدقة والعتاقة.

واذا عرف ان كل واحد من الموجودات المشهودة، اذا نظرت اليها — واحداً واحداً — من الفلك التاسع وغيره وجدته غير مستقل باحداث شيء اصلا؛ بل لابد للحوادث من اسباب اخر، وان كان هو جزء سبب، ولها معارضات اخر علم بذلك انه ليس فى هذه الأمور مايجوز ان يقال هو المحدث للحوادث المشهودة، فضلا عن ان يقال هو المبدع للأجسام المتحركة حركة تخالف حركته، وتدفع موجبها؛ فان الشيء لايوجب مايضاده ويخالفه. واذا كان فى الأجسام المتحركة مايخالف مقتضاه موجب الفلك — التاسع ومقتضاه —

ويضاده امتنع أن يكون أحدهما علة الآخر ، لأن المعلول لايضاد علته ، كما لايجوز ان يكون فاعلا لها ، كما ان الشيء لا يكون ضداً لنفسه ولا فاعلا لنفسه ، فان مضادته لنفسه توجب ان يكون وجوده تابعاً لوجوده ، فيكون موجوداً معدوما،وفعله لنفسه مع كون العلة متقدمة على المعلول يوجب ان تكون نفسه موجودة معدومة .

ومن المعلوم ان « الفلك التاسع » اذا لم تكن الحوادث والحركات التى عن قوى الأجسام منه ، وانما منه حركة عرضية لها ، فان لا تكون نفس الأجسام وقواها منه اولى واحرى، ويعلم بذلك ان المحرك للأفلاك وغيرها من الأجسام المشهودة والمبدع لهذه الأجسام بسبب آخر رب غيرها ، هو الذي ابدعها على صورها المختلفة وحركها بالحركات المختلفة ، وهو المطلوب .

ثم هذه الكواكب اذا كانت جزء السبب من بعض الحوادث فانما تكون جزء السبب فى حال دون حال ، فانها فى حال ظهورها على وجه الارض يظهر نورها واثرها،فاذا افلت انقطع نورها واثرها ، فلا تبقى حينئذ سبباً ولاجزءاً من السبب ، ولهذا قال الخليل صلى الله عليه وسلم : (لا أحب الآفلين) فانها في حال افولها قد انقطع اثرها عنا بالكلية ، فلم تبق شبهة يستند اليها المتعلق بها ، والرب الذي يدعى ويسأل ويرجى ويتوكل عليه لا بد ان يكون قيوماً يقيم العبد في جميع الاوقات والأحوال كما قال : (وتوكل على الحي الذي لا يموت) وقال : (الله لا إله إلا هو الحي القيوم) فهذا وغيره من انواع

النظر، والاعتبار يوجب ان العبد لا يرجو إلا الله ولا يتوكل إلا عليه.

واما كونه لا يخاف إلا ذنبه فلما علم من انه لا تصيبه مصيبة الا بذنوبه ، وهذا يعلم بآيات الآفاق والأنفس ، وبما اخبر فى كتابه كما هو مبسوط فى غير هذا الموضع ، وبينا سر ذلك بما لا يحتمله هذا الموضع .

وهذا تحقيق ما ثبت فى الحديث الصحيح الالهي حديث ابى ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه انه قال : « ياعبادي ! انما هي اعمالكم احصيها لكم ثم اوفيكم اياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غيرذلك فلا يلومن الا نفسه » فبين ان كل ما يجده العبد من الخير فليحمد الله عليه ، فان الله هو الذي انعم به وان ما يجده من الشر فلا يلومن فيه الا نفسه .

وفى الصحيح ايضاً عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « سيد الاستغفار ان يقول العبد : اللهم انت ربى لا اله الآ انت خلقتني وانا عبدك ، وانا على عهدك ووعدك ما استطعت . اعوذ بك من شر ماصنعت ، ابوء لك بنعمتك علي ، وابوء بذنبي فاغفر لي ، انه لا يغفر الذنوب الا انت » فقوله : « ابوء لك بنعمتك علي » اعتراف واقرار بالنعمة ، وقوله : « وابوء بذنبى » اقرار بالذنب ، ولهذا قال ؛ من قال من السلف : اني اصبح بين نعمة وذنب ، فأريد ان احدث للنعمة شكراً ، وللذنب استغفاراً ، لكن الشكر يكون بعد النعمة ، والتوكل والرجاء يكون قبل النعمة ، كما قال الخليل : (فابتغوا عند الله

الرزق واعبدوه واشكروا له) وفي خطبة النبي صلى الله عليه وسلم : « الحمد لله نستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور انفسنا ومن سيئات اعمالنا» فجمع بين حمده والاستعانة به والاستغفار له ، فقد تبين ان الالتفات الى الاسباب شرك في التوحيد ، وهو ظلم وجهل ، وهذه حال من دعا غير الله وتوكل عليه .

واما قولهم : محو الاسباب ان تكون اسبابا : نقص في العقل ، فهو كذلك وهو طعن في الشرع ايضاً ، فان كثيراً من اهل الكلام انكروا الأسباب بالكلية وجعلوا وجودها كعدمها ، كما ان اولئك الطبعيين جعلوها عللاً مقتضية ، وكما ان المعتزلة فرقوا بين افعال الحيوان وغيرها ، والأقول الثلاثة باطلة ؛ فان الله يقول (وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته حتى اذا اقلت سحابا ثقالاً سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات) وقال تعالى : (وما انزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها) وقال تعالى : (يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام) وقال تعالى:(يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً) وامثال ذلك. فمن قال يفعل عندها لا بها فقد خالف لفظ القرآن مع ان الحس والعقل يشهد انها اسباب ، ويعلم الفرق بين الجبهة وبين العين في اختصاص احدها بقوة ليست في الآخر ، وبين الخبز والحصى في ان احدهما يحصل به الغذاء دون الآخر .

واما قولهم الاعراض عن الاسباب بالكلية قدح في الشرع ، بل هو ايضاً قدح في العقل ، فان افعال العباد من اقوى الاسباب لما نيط بها ، فمن جعل

الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الارض او يجعل المتقين كالفجار، فهو من اعظم الناس جهلا واشدهم كفراً ، بل ما امر الله به من العبادات والدعوات والعلوم والاعمال من اعظم الأسباب ، فيما نيط بها من العبادات ، وكذلك ما نهى عنه من الكفر والفسوق والعصيان هي من اعظم الاسباب لما علق بها من الشقاوات .

ومع هذا فقد قال خير الخلق : « انه لن يدخل احد منكم الجنة بعمله قالوا : ولا انت يارسول الله ؟ ! قال : ولا انا ، الا ان يتغمدني الله برحمة منه وفضل » ولما قال لهم : « ما منكم من احد الا وقد علم مقعده من الجنة ومقعده من النار — قالوا : يارسول الله ! افلا نتكل على الكتاب وندع العمل ، قال: لا ! اعملوا فكل ميسر لما خلق له اما من كان من اهل السعادة فسييسر لعمل اهل السعادة واما من كان من اهل الشقاوة فسييسر لعمل اهل الشقاوة » .

وكذلك الدعاء والتوكل من اعظم الاسباب لما جعله الله سبباً له فمن قال : ما قدر لي فهو يحصل لي دعوت او لم ادع ، وتوكلت او لم اتوكل ، فهو بمنزلة من يقول : ما قسم لي من السعادة والشقاوة فهو يحصل لي آمنت او لم أؤمن، واطعت ام عصيت ، ومعلوم ان هذا ضلال وكفر ؛ وان كان الاول ليس مثل هذا في الضلال ، اذ ليس تعليق المقاصد بالدعاء والتوكل كتعليق سعادة الآخرة بالايمان ، لكن لا ريب ان ما جعل الله الدعاء سبباً له فهو بمنزلة ما جعل العمل

الصالح سبباً له ، وهو قادر على ان يفعله سبحانه بدون هذا السبب، وقد يفعله بسبب آخر .

وكذلك من ترك الاسباب المشروعة المأمور بها امر إيجاب اوامر استحباب من جلب المنافع او دفع المضار قادح فى الشرع خارج عن العقل ، ومن هنا غلطوا فى ترك الاسباب المأمور بها ، وظنوا ان هذا من تمام التوكل، والتوكل مقرون بالعبادة فى قوله : (فاعبده وتوكل عليه) والعبادة فعل المـأمور ، فمن ترك العبادة المأمور بها ، وتوكل لم يكن احسن حالاً ممن عبده ولم يتوكل عليه بل كلاهما عاص لله تارك لبعض ما امر به .

والتوكل يتناول التوكل عليه ليعينه على فعل ما امر ، والتوكل عليه ليعطيه ما لا يقدر العبد عليه ، فالاستعانة تكون على الأعمال ، واما التوكل فأعم من ذلك ويكون التوكل عليه لجلب المنفعة ودفع المضرة، قال تعالى : (ولو انهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله . وقالوا : حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله انا إلى الله راغبون) وقال تعالى : (الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً ، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) .

فمن لم يفعل ما أمر به لم يكن مستعيناً بالله عـلى ذلك ، فيكون قد ترك العبادة والاستعانة عليها بترك التوكل فى هـذا الموضع ايضاً ، وآخر يتوكل بلا فعل مأمور وهذا هو العجز المذموم . كما فى سنن أبي داود ان رجلين اختصما

إلى النبي صلى الله عليه وسلم فحكم على احدهما فقال المقضي عليه : حسبي الله ونعم الوكيل ـ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله يلوم على العجز ، ولكن عليك بالكيس ، فان غلبك أمر فقل حسبي الله ونعم الوكيل » وفي صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « المؤمن القوي خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير،احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولاتعجزن وان اصابك شيء فلا تقل : لو انى فعلت كذا لكان كذا ، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل، فان « لو » تفتح عمل الشيطان » .

فان الانسان ليس مأموراً ان ينظر إلى القدر عند ما يؤمر به من الأفعال ولكن عندما يجري عليه من المصائب التى لا حيلة له فى دفعها ، فما أصابك بفعل الآدميين او بغير فعلهم ، اصبر عليه وارض وسلم ، قال تعالى : (ما أصاب من مصيبة إلا باذن الله ، ومن يؤمن بالله يهد قلبه) قال بعض السلف ـ إما ابن مسعود وإما علقمة ـ : هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم انها من عند الله فيرضى ويسلم .

ولهذا قال آدم لموسى : اتلومني على أمر قدره الله علي قبل ان اخلق بأربعين سنة فحج آدم موسى ؛ لأن موسى قال له : لماذا اخرجتنا ونفسك من الجنة ، فلامه على المصيبة التى حصلت بسبب فعله ، لا لأجل كونها ذنباً ،ولهذا احتج عليه آدم بالقدر ، واما كونه لأجل الذنب كما يظنه طوائف من الناس فليس مراداً بالحديث ؛ لأن آدم عليه السلام كان قد تاب من الذنب ،

والتائب من الذنب كمن لا ذنب له ، ولا يجوز لوم التائب باتفاق الناس .

و«ايضاً» فان آدم احتج بالقدر ، وليس لأحد ان يحتج بالقدر على الذنب باتفاق المسلمين ، وسائر اهل الملل ، وسائر العقلاء ؛ فان هذا لو كان مقبولاً لأمكن كل احد ان يفعل ما يخطر له من قتل النفوس واخذ الأموال وسائر انواع الفساد فى الأرض ويحتج بالقدر . ونفس المحتج بالقدر اذا اعتدى عليه واحتج المعتدى بالقدر لم يقبل منه ، بل يتناقض ، وتناقض القول يدل على فساده ؛ فالاحتجاج بالقدر معلوم الفساد فى بداية العقول .

ومن ظن ان الايمان بالقدر ان الله خالق افعال العباد كما يظنه المباحية المشركية ، الذين يقرون بالقدر دون الأمر ، والقدرية المجوسية الذين يقرون بالأمر دون القدر ، او ظن ان التكليف مع ذلك غير معقول ، ولكن الشارع اطيع فيه لمحض المشيئة الالهية ، وان الله يفعل ، وجعل ذلك حجة له فى الأفعال لم يتضمن اسباباً مناسبة للأمر والنهي ، بل انكر ما اشتملت عليه الشريعة من المصالح والمحاسن والمقاصد التى للعباد فى المعاش والمعاد ، وجعل ذلك الشرع مجرد اضافة من غير ان يكون من العلة والمعلول مناسبة وملاءمة ، وانكر ان تكون الأفعال على وجوه لأجلها كانت حسنة مأموراً بها ، وكانت سيئة منهياً عنها احتجاجاً على ذلك بالقدر ، وانه مع كون الرب هو الخالق يمتنع هذا كله

فهو مخطيء ضال يعلم فساد قوله بالضرورة ، وبما اتفق عليه العقلاء مع دلالة الكتاب والسنة والاجماع على فساد قوله .

فان عامة بني آدم يؤمنون بالقدر ، ويقولون : انه لا بد من عقوبة المعتدين حتى المجانين والبهائم ، يؤدبون لكف عدوانهم ، وان كانت افعالهم مقدرة وبعفو كل الآدميين عن عدوانهم ، وان كانت افعالهم مقدرة فالعبد عليه ان يصبر ، وينبغي له ان يرضى بما قدر من المصائب ويستغفر من الذنوب والمعائب ، ولا يحتج لها بالقدر ويشكر ما قدر الله له من النعم والمواهب ، فيجمع بين الشكر والصبر واستغفار والايمان بالقدر والشرع . والله اعلم .

ما تقول السادة العلماء

أئمة الدين رضى الله عنهم اجمعين فى قوله تعالى : (انما امرنا لشيء اذا اردناه ان نقول له كن فيكون) فان كان المخاطب موجوداً ، فتحصيل الحاصل محال ، وان كان معدوما فكيف يتصور خطاب المعـدوم؟ وقوله تعالى : (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون) فان كانت اللام للصيرورة فى عاقبة الامر فما صار ذلك . وان كانت اللام للغرض لزم ان لا يتخلف احد مـن المخلوقين عن عبادته ، وليس كذلك ، فـكيف التخلص من هذا المضيق ؟

وفيما ورد من الأخبار والآيات بالرضاء بقضاء الله تعالى ، وفي قوله صلى الله عليـه وسلم : « جف القلم بما هو كائن » وفي معنى قوله تعالى : (ادعـوني استجب لكم) فان كان الدعاء ايضا بما هو كائن ، فما فائدة الامر به ولا بد من وقوعه ؟ ؟(١)

فأجاب شيخ الاسلام : ابو العباس احمد بن تيمية ـــ رحمه الله ـــ الحمد لله رب العالمين .

---

(١) تسمى: مراتب الارادة

اما « المسألة الأولى » فهي مبنية على اصلين :

(أحدها) : الفرق بين خطاب التكوين الذي لا يطلب به سبحانه فعلا من المخاطب ، بل هو الذي يكون المخاطب به ويخلقه بدون فعل من المخاطب او قدرة او ارادة او وجود له . وبين خطاب التكليف الذي يطلب به من المأمور فعلا او تركا يفعله بقدرة وارادة ـــ وان كان ذلك جميعه بحول الله وقوته ، اذ لا حول ولا قوة الا بالله ـــ وهذا الخطاب قد تنازع فيه الناس ، هل يصح ان يخاطب به المعدوم بشرط وجوده أم لا يصح ان يخاطب به الا بعد وجوده؟ ولا نزاع بينهم انه لا يتعلق به حكم الخطاب الا بعد وجوده .

وكذلك تنازعوا في الأول ، هل هو خطاب حقيقي ام هو عبارة عن الاقتدار وسرعة التكوين بالقدرة ؟ والاول هو المشهور عند المنتسبين الى السنة .

و (الاصل الثاني) : ان المعدوم فى حال عدمه ، هل هو شيء ام لا ؟ فانه قد ذهب طوائف من متكلمة المعتزلة والشيعة الى انه شيء فى الخارج ، وذات وعين . وزعموا ان الماهيات غير مجعولة ولا مخلوقة ، وان وجودها زائد على حقيقتها ، وكذلك ذهب الى هذا طوائف من المتفلسفة والاتحادية وغيرهم من الملاحدة .

والذى عليه جماهير الناس ، وهو قول متكلمة اهل الاثبات والمنتسبين الى السنة والجماعة ، انه فى الخارج عن الذهن قبل وجوده ليس بشيء أصلا ولا ذات ولا عين، وانه ليس في الخارج شيئان:احدهما حقيقته ، والآخروجوده الزائد على حقيقته ، فان الله ابدع الذوات التى هي الماهيات فكل ما سواه سبحانه فهو مخلوق ومجعول ومبدع ومبدوء له سبحانه وتعالى . لكن فى هؤلاء من يقول المعدوم ليس بشيء أصلا ، وانما سمى شيئاً باعتبار ثبوته فى العلم فكان مجازاً .

ومنهم من يقول : لا ريب ان له ثبوتاً فى العلم ، ووجوداً فيه . فهوباعتبار هذا الثبوت والوجود هو شيء وذات . وهؤلاء لا يفرقون بين الوجود والثبوت ، كما فرق من قال المعدوم شيء ، ولا يفرقون في كون المعدوم ليس بشيء بين الممكن والممتنع ، كما فرق أولئك. اذ قد اتفقوا على ان الممتنع ليس بشيء ، وانما النزاع فى الممكن .

وعمدة من جعله شيئاً انما هو لانه ثابت فى العلم ؛ وباعتبار ذلك صح ان يخص بالقصد والخلق والخبر عنه والأمر به والنهي عنه ، وغير ذلك . قالوا : وهذه التخصيصات تمتنع ان تتعلق بالعدم المحض ، فان خص الفرق بين الوجود الذي هو الثبوت العيني وبين الوجود الذي هو الثبوت العلمي زالت الشبهة فى هذا الباب .

وقوله تعالى: (انما أمرنا لشيء اذا أردناه ان نقول له كن فيكون) . ذلك الشيء هو معلوم قبل ابداعه وقبل توجيه هـذا الخطاب إليه . وبذلك كان مقدراً مقضياً ، فان الله سبحانه وتعالى يقول ويكتب من ما يعلمه ما شاء كما قال النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو « ان الله قدر مقادير الخلائق قبل ان يخلق السموات والارض بخمسين ألف سنة » : وفى صحيح البخاري عن عمران بن حصين عن النبى صلى الله عليه سلم انه قال : « كان الله ولم يكن شيء معه وكان عرشه على الماء وكتب فى الذكر كل شيء ثم خلق السموات والارض » وفى سنن أبى داود وغيره عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال : « اول ما خلق الله القلم فقال له اكتب فقال : ما اكتب ؟ قال : ما هو كائن الى يوم القيامة » .

الى امثال ذلك من النصوص التى تبين ان المخلوق قبل ان يخلق كان معلوما مخبرا عنه مكتوباً ، فهو شيء باعتبار وجوده العلمي الكلامي الكتابي ، وان كانت حقيقته التى هي وجوده العيني ليس ثابتاً فى الخارج ، بل هو عدم محض ونفى صرف، وهذه المراتب الأربعة المشهورة للموجودات ، وقد ذكرها الله سبحانه وتعالى فى اول سورة أنزلها على نبيه فى قوله : (اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم) وقد بسطنا الكلام فى ذلك فى غير هذا الموضع .

واذا كان كذلك كان الخطاب موجها الى من توجهت اليه الارادة وتعلقت

به القدرة وخلق وكون، كما قال : (انما قولنا لشيء اذا اردناه ان نقول له كن فيكون) فالذى يقال له : كن هو الذي يراد ، وهو حين يراد قبل ان يخلق له ثبوت وتميز فى العلم والتقدير ، ولولا ذلك لما تميز المراد المخلوق من غيره وبهذا يحصل الجواب عن التقسيم .

فان قول السائل : ان كان المخاطب موجوداً فتحصيل الحاصل محال .

يقال له هذا اذا كان موجوداً فى الخارج وجوده الذي هو وجوده ، ولا ريب ان المعدوم ليس موجوداً ، ولا هو فى نفسه ثابت ، واما ما علم واريد وكان شيئاً فى العلم والارادة والتقدير فليس وجوده فى الخارج محالاً ؛ بل جميع المخلوقات لا توجد الا بعد وجودها في العلم والارادة .

وقول السائل : ان كان معدوما فكيف يتصور خطاب المعدوم .

يقال له : اما إذا قصد أن يخاطب المعدوم فى الخطاب بخطاب يفهمه ويمتثله فهذا محال ؛ إذ من شرط المخاطب ان يتمكن من الفهم والفعل ، والمعدوم لا يتصور ان يفهم ويفعل فيمتنع خطاب التكليف له حال عدمه ، بمعنى انه يطلب منه حين عدمه ان يفهم ويفعل ، وكذلك ايضا يمتنع ان يخاطب المعدوم فى الخارج خطاب تكوين ، بمعنى ان يعتقد انه شيء ثابت فى الخارج ، وانه يخاطب بأن يكون .

واما الشيء المعلوم المذكور المكتوب إذا كان توجيه خطاب التكوين اليه مثل توجيه الارادة اليه فليس ذلك محالا ، بل هو أمر ممكن ، بل مثل ذلك يجده الانسان فى نفسه فيقدر أمراً فى نفسه يريد ان يفعله ويوجه ارادته وطلبه إلى ذلك المراد المطلوب الذي قدره فى نفسه ، ويكون حصول المراد المطلوب بحسب قدرته ، فان كان قادراً على حصوله حصل مع الارادة والطلب الجازم ، وان كان عاجزاً لم يحصل ، وقد يقول الأنسان ليكن كذا ونحو ذلك من صيغ الطلب فيكون المطلوب بحسب قدرته عليه ، والله سبحانه على كل شيء قدير ، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن . فانما أمره إذا أراد شيئاً ان يقول له كن فيكون .

فصل

وأما (المسألة الثانية) فقول السائل : قوله تعالى : (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون) ان كانت هذه اللام للصيرورة فى عاقبة الأمر فما صار ذلك ؟ وان كانت اللام للغرض لزم ان لا يتخلف أحد من المخلوقين عن عبادته ؟ وليس الامر كذلك فما التخلص من هذا المضيق ؟ !

فيقال : هذه اللام ليست هي اللام التى يسميها النحاة لام العاقبة والصيرورة ولم يقل ذلك أحد هنا ، كما ذكره السائل من أن ذلك لم يصر الا

على قول من يفسر (يعبدون) بمعنى يعرفون ، يعني المعرفة التى أمر بها المؤمن والكافر ؛ لكن هذا قول ضعيف، وانما زعم بعض الناس ذلك فى قوله :(ولذلك خلقهم) التى فى آخر سورة هود . فان بعض القدرية زعم ان تلك اللام لام العاقبة والصيرورة : أي صارت عاقبتهم الى الرحمة ، والى الاختلاف ، وإن لم يقصد ذلك الخالق ، وجعلوا ذلك كقوله : (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً) وقول الشاعر :

لدوا للموت وابنوا للخراب

وهذا أيضاً ضعيف هنا لأن لام العاقبة إنما تجيء فى حق من لا يكون عالماً بعواقب الأمور ومصايرها فيفعل الفعل الذي له عاقبة لا يعلمها كآل فرعون ، فاما من يكون عالماً بعواقب الأفعال ومصايرها فلا يتصور منه ان يفعل فعلاً له عاقبة لا يعلم عاقبته ، وإذا علم ان فعله له عاقبة فلا يقصد بفعله ما يعلم انه لا يكون فان ذلك تمن وليس بارادة .

وأما اللام فهي اللام المعروفة ، وهي لام كي ولام التعليل ، التى إذا حذفت انتصب المصدر المجرور بها على المفعول له ، وتسمى العلة الغائية ، وهي متقدمة فى العلم والارادة ، متأخرة فى الوجود والحصول ، وهذه العلة هي المراد المطلوب المقصود من الفعل ، لكن ينبغي ان يعرف ان الارادة فى كتاب الله على نوعين :

(احدهما) : الارادة الكونية ، وهي الارادة المستلزمة لوقوع المراد ، التى يقال فيها : ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وهذه الارادة فى مثل قوله: (فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد ان يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً) وقوله : (ولا ينفعكم نصحي ان اردت ان انصح لكم ان كان الله يريد ان يغويكم) وقال تعالى : (ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل مايريد) وقال تعالى : (ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله) وامثال ذلك. وهذه الارادة هي مدلول اللام فى قوله : (ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم) . قال السلف خلق فريقاً للاختلاف ، وفريقاً للرحمة ، ولما كانت الرحمة هنا الارادة ، وهناك كونية وقع المراد بها ، فقوم اختلفوا ، وقوم رحموا .

واما (النوع الثاني) : فهو الارادة الدينية الشرعية ، وهي محبة المراد ورضاه ومحبة اهله والرضا عنهم وجزاهم بالحسنى ، كما قال تعالى : (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) وقوله تعالى : (ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم) وقوله : (يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم . والله يريد ان يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات ان تميلوا ميلاً عظيماً . يريد الله ان يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفاً) فهذه الارادة لا تستلزم وقوع المراد الا ان يتعلق به النوع الأول من الارادة ولهذا كانت الأقسام اربعة :

(احدها) : ما تعلقت به الارادتان ، وهو ما وقع فى الوجود من الأعمال الصالحة . فان الله اراده ارادة دين وشرع ؛ فأمر به واحبه ورضيه ، واراده ارادة كون فوقع؛ ولولا ذلك لما كان .

و (الثاني) : ما تعلقت به الارادة الدينية فقط . وهو ما أمر الله به من الأعمال الصالحة فعصى ذلك الأمر الكفار والفجار ، فتلك كلها ارادة دين وهو يحبها ويرضاها لو وقعت ولو لم تقع .

و (الثالث) : ما تعلقت به الارادة الكونية فقط ، وهو ما قدره وشاءه من الحوادث التى لم يأمر بها : كالمباحات والمعاصي فانه لم يأمر بها ولم يرضها ولم يحبها ، اذ هو لا يأمر بالفحشاء ولا يرضى لعباده الكفر ، ولولا مشيئته وقدرته وخلقه لها لما كانت ولما وجدت،فانه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن .

و (الرابع) : ما لم تتعلق به هذه الارادة ولا هذه ، فهذا ما لم يكن من أنواع المباحات والمعاصي ، واذا كان كذلك فمقتضى اللام فى قوله : (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون) هذه الارادة الدينية الشرعية ، وهذه قد يقع مرادها وقد لا يقع ، والمعنى ان الغاية التى يحب لهم ويرضى لهم والتى أمروا بفعلها هي العبادة ، فهو العمل الذي خلق العباد له : أي هو الذي يحصل كمالهم وصلاحهم الذي به يكونون مرضيين محبوبين ، فمن لم تحصل منه هذه الغاية كان عادماً لما يحب ويرضى ويراد له الارادة الدينية التى فيها سعادته ونجاته، وعادماً

لكماله وصلاحه العدم المستلزم فساده وعذابه ، وقول من قال : العبــادة هي العزيمة[او] الفطرية: فقولان ضعيفان فاسدان يظهر فسادهما من وجوه متعددة .

فصـــــل

و (أما المسألة الثالثة) : فقوله فيما ورد من الأخبار والآيات فى الرضا بقضاء الله ، فان كانت المعاصي بغير قضاء الله فهو محال وقدح فى التوحيد ، وان كانت بقضاء الله تعالى فكراهتها وبغضها كراهة وبغض لقضاء الله تعالى ؟

فيقال : ليس فى كتاب الله ، ولا فى سنة رسول الله آية ، ولا حديث يأمر العباد ان يرضوا بكل مقضى مقدر من افعال العباد حسنها وسيئها ؛ فهذا اصل يجب ان يعتنى به ، ولكن على الناس ان يرضوا بما امر الله به فليس لأحد ان يسخط ما امر الله به ، قال تعالى : (فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى انفسهم حرجاً ممـا قضيت ويسلموا تسليما) وقال تعالى : (ذلك بأنهم اتبعوا ما اسخط الله وكرهوا رضوانه . فأحبط اعمالهم) وقال : (ولو انهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا : حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله انا الى الله راغبون) وذكر الرسول هنا يبين ان الايتاء هو الايتــاء الديني الشرعي ، لا الكونى القدري ، وقال صلى الله عليه وسلم فى

الحديث الصحيح « ذاق طعم الايمان من رضى بالله ربا ، وبالاسلام ديناً ، وبمحمد نبياً » .

وينبغي للانسان ان يرضى بما يقدره الله عليه من المصائب التى ليست ذنوباً مثل ان يبتليه بفقر او مرض او ذل وأذى الخلق له ، فان الصبر على المصائب واجب ، وأما الرضا بها فهو مشروع ، لكن هل هو واجب او مستحب ؟ على « قولين » لأصحاب احمد وغيرهم : اصحهما انهمستحب ليس بواجب .

ومن المعلوم ان أوثق عرى الايمان الحب فى الله والبغض فى الله ، وقد امرنا الله ان نأمر بالمعروف ونحبه ونرضاه ونحب أهله ونهى عن المنكرونبغضه ونسخطه ونبغض أهله ونجاهدهم بأيدينا وألسنتنا وقلوبنا ، فكيف تتوهم انه ليس فى المخلوقات مانبغضه ونكرهه ؟! وقد قال تعالى لما ذكر ما ذكر من المنهيات : (كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً) فاذا كان الله يكرهها وهو المقدر لها فكيف لا يكرهها من امر الله ان يكرهها ويبغضها ، وهو القائل : (وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان اولئك هم الراشدون) وقال تعالى : (ذلك بأنهم اتبعوا ما اسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط اعمالهم) وقد قال تعالى : (فلما آسفونا انتقمنا منهم) وقال تعالى : (وغضب الله عليهم ولعنهم) وقال تعالى : (يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم اذ يبيتون ما لا يرضى من القول) فأخبر أن من القول الواقع ما لا يرضاه .

وقال تعالى : (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم) وقال : (ورضيت لكم الاسلام ديناً) وقال : (وان تشكروا يرضه لكم) فبين انه يرضى الدين الذي أمر به فلو كان يرضى كل شيء لما كان له خصيصة وفى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم « انه قال لا احد أغير من الله ان يزنى عبده او تزنى امته » وقال : « ان الله يغار والمؤمن يغار، وغيرة الله ان يأتى العبد ما حرم عليه » ولا بد فى الغيرة من كراهة ما يغار منه وبغضه وهذا باب واسع .

فصل

وأما « المسألة الرابعة » : فقوله إذا جف القلم بما هو كائن فما معنى قوله (ادعونى استجب لكم ؟) وان كان الدعاء ايضاً مما هو كائن فما فائدة الأمر به ولا بد من وقوعه ؟ ؟

فيقال : الدعاء فى اقتضائه الاجابة كسائر الأعمال الصالحة فى اقتضائها الاثابة ، وكسائر الأسباب في اقتضائها المسببات ، ومن قال : إن الدعاء علامة ودلالة محضة على حصول المطلوب المسؤل ليس بسبب ، او هو عبادة محضة لا اثر له في حصول المطلوب وجوداً ولا عدماً ؛ بل ما يحصل بالدعاء يحصل

بدونه فهما قولان ضعيفان فان الله علق الاجابة به تعليق المسبب بالسبب كقوله: (وقال ربكم : ادعونى استجب لكم) وفى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم « انه قال ما من مسلم يدعو الله بدعوة ليس فيها اثم ولا قطيعة رحم الا أعطاه بها احدى خصال ثلاث : اما ان يعجل له دعوته ، واما ان يدخر له من الخير مثلها ، واما ان يصرف عنه من الشر مثلها ، قالوا : يارسول الله ! اذا نكثر قال الله اكثر » ، فعلق العطايا بالدعاء تعليق الوعد والجزاء بالعمل المأمور به ، وقال عمر بن الخطاب : انى لا احمل هم الاجابة وانما احمل هم الدعاء ، فاذا الهمت الدعاء فان الاجابة معه ، وامثال ذلك كثير .

وأيضاً فالواقع المشهود يدل على ذلك ويبينه كما يدل على ذلك مثله فى سائر الأسباب ، وقد اخبر سبحانه من ذلك ما اخبر به فى مثل قوله : (ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون) وقوله تعالى : (وذا النون اذ ذهب مغاضباً فظن ان لن نقدر عليه فنادى في الظلمات ان لا اله الا انت سبحانك انى كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين) وقوله : (امن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض) وقوله تعالى عن زكريا : (رب لا تذرنى فرداً وانت خير الوارثين فاستجبنا له ووهبنا له يحيى واصلحنا له زوجه) وقال تعالى : (فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم الى البر اذاهم يشركون) وقال تعالى : (ومن آياته الجوار فى البحر كالاعلام ان يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره ان فى ذلك

لآيات لـكل صبار شكور او يوبقهن بما كسبوا ويعف عن كثير ويعـلم الذين يجادلون فى آياتنا ما لهم من محيص) .

فأخبر انه إن شاء او بقهن ؛ فاجتمع اخذهم بذنوبهم وعفوه عن كثير منها مع علم المجادلين فى آياته انه ما لهم من محيص ؛لأنه فى مثل هذا الحال يعلم المورد للشبهـات في الدلائل الدالة على ربوبية الرب وقدرته ومشيئته ورحمتـه انه لا مخلص له مما وقع فيه . كقوله في الآية الأخرى : (وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال) .

فان المعارف التى تحصل في النفس بالأسباب الاضطرارية اثبت وارسخ من المعارف التى ينتجها مجرد النظر القياسي ـــ الذي ينزاح عن النفوس فى مثل هذه الحال ـــ هـل الرب موجب بذاته ، فلا يكون هو المحـدث للحوادث ابتداء ولا يمكنه ان يحدث شيئاً ولا يغير العالم حتى يدعى ويسأل ؟ وهل هو عالم بالتفصيل والاجمال، وقادر على تصريف الأحوال ، حتى يسأل التحويل من حال الى حال ؟ اوليس كذلك كما يزعمه من يزعمه من المتفلسفة وغيرهم من الضلال، فيجتمع مع العقوبة والعفو من ذي الجلال، علم اهل المراء والجدال، انه لا محيص لهم عما اوقع بمـن جادلوا فى آيانه وهو شديد المحال . وقد تكلمنا على هذا واشباهه وما يتعلق به من المقالات والديانات فى غير هذا الموضع .

والمقصود هنا ان يعلم ان الدعاء والسؤال هو سبب لنيل المطلوب المسؤل

ليس وجوده كعدمه فى ذلك ، ولا هو علامة محضة، كما دل عليه الكتاب والسنة، وإن كان قد نازع فى ذلك طوائف من اهل القبلة وغيرهم ، مع ان ذلك يقربه جماهير بني آدم من المسلمين واليهود والنصارى والصابئين والمجوس والمشركين، لكن طوائف من المشركين والصابئين من المتفلسفة المشائين اتباع ارسطو ومن تبعه من متفلسفة اهل الملل كالفارابى وابن سينا ومن سلك سبيلهما - ممن خلط ذلك بالكلام والتصوف والفقه ، ونحو هؤلاء - يزعمون ان تأثير الدعاء في نيل المطلوب كما يزعمونه فى تأثير سائر الممكنات المخلوقات من القوى الفلكية والطبيعية والقوى النفسانية والعقلية ، فيجعلون ما يترتب على الدعاء هو من تأثير النفوس البشرية من غير ان يثبتوا للخالق سبحانه بذلك علماً مفصلاً او قدرة على تغيير العالم ، او ان يثبتوا انه لو شاء ان يفعل غير ما فعل لأمكنه ذلك ، فليس هو عندهم قادراً على ان يجمع عظام الانسان ويسوي بنانه ، وهو سبحانه هو الخالق لها ولقواها فلا حول ولا قوة الا بالله .

واما قوله : وإن كان الدعاء مما هو كائن ، فما فائدة الأمر به ولا بد من وقوعه ؟

فيقال : الدعاء المأمور به لا يجب كوناً ، بل إذا امر الله العباد بالدعاء فمنهم من يطيعه فيستجاب له دعاؤه ، وينال طلبته ويدل ذلك على أن المعلوم المقدور هو الدعاء والاجابة ، ومنهم من يعصيه فلا يدعو فلا يحصل ما علق بالدعاء، فيدل ذلك على أنه ليس فى المعلوم المقدور الدعاء ولا الاجابة ، فالدعاء الكائن هو

الذي تقدم العلم بأنه كائن [والدعاء الذي لا يكون هو الذي تقدم العلم بأنه] لا يكون .

فان قيل : فما فائدة الأمر فيما علم أنه يكون من الدعاء ! قيل الأمر هو سبب أيضاً فى امتثال المأمور به ، كسائر الأسباب ، فالدعاء سبب يدفع البلاء ، فاذا كان أقوى منه دفعه ، وان كان سبب البلاء أقوى لم يدفعه ، لكن يخففه ويضعفه ، ولهذا أمر عند الكسوف والآيات بالصلاة والدعاء والاستغفار والصدقة والعتق والله أعلم .

سئل شيخ الاسلام رحمه الله تعالى

عن الأقضية ، هل هي مقتضية للحكمة ام لا ؟ فاذا كانت مقتضية للحكمة . فهل اراد من الناس ماهم فاعلوه ؟ وإذا كانت الارادة قد تقدمت فما معنى وجود العذر والحالة هذه ؟ افتونا مأجورين .

فاجاب : الحمد لله رب العالمين ، قد احاط ربنا سبحانه وتعالى بكل شيء علما ، وقدرة وحكما ؛ ووسع كل شيء رحمة وعلما ، فما من ذرة فى السموات والارض، ولا معنى من المعاني الاوهو شاهد لله تعالى بتمام العلم والرحمة ، وكمال القدرة والحكمة ، وما خلق الخلق باطلا . ولا فعل شيئاً عبثاً ، بل هو الحكيم فى افعاله واقواله — سبحانه وتعالى — ثم من حكمته ما اطلع بعض خلقه عليه ، ومنه ما استأثر سبحانه بعلمه .

وارادته « قسمان » : ارادة أمر وتشريع ، وارادة قضاء وتقدير .

فالقسم الاول : انما يتعلق بالطاعات دون المعاصي ، سواء وقعت أو لم تقع .

كما في قوله : (يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم) وقوله : (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) .

واما القسم الثاني : وهو ارادة التقدير، فهي شاملة لجميع الكائنات، محيطة بجميع الحادثات ، وقد اراد من العالم ماهم فاعلوه بهذا المعنى لا بالمعنى الاول ، كما في قوله تعالى : (فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد ان يضله يجعل صدره ضيقا حرجا) وفي قوله : (ولا ينفعكم نصحي ان اردت ان انصح لكم إن كان الله يريد ان يغويكم هو ربكم) وفي قول المسلمين : ما شاء الله كان ومالم يشأ لم يكن . ونظائره كثيرة .

وهذه الارادة تتناول ماحدث من الطاعات والمعاصي ، دون مالم يحدث ، كما ان الاولى تتناول الطاعات حدثت او لم تحدث ، والسعيد من اراد منه تقديراً ما اراد به تشريعا ، والعبد الشقي من اراد به تقديراً ما لم يرد به تشريعاً ، والحكم يجري على وفق هاتين الارادتين ، فمن نظر الى الأعمال بهاتين العينين كان بصيراً ، ومن نظر الى القدر دون الشرع أو الشرع دون القدر كان اعور ، مثل قريش الذين قالوا : (لو شاء الله ما اشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء) قال الله تعالى : (كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ ان تتبعون الا الظن وان انتم الا تخرصون) .

فان هؤلاء اعتقدوا ان كل ماشاء الله وجوده وكونه وهي ــ الارادة القدرية ــ فقد أمر به ورضيه دون الا رادة الشرعية ، ثم رأوا ان شركهم بغير شرع مما قد شاء الله وجوده قالوا: فيكون قد رضيه وامر به، قال الله: (كذلك كذب الذين من قبلهم) بالشرائع من الامر والنهي (حتى ذاقوا بأسنا ، قل : هل عندكم من

علم فتخرجوه لنا) بان الله شرع الشرك وتحريم ما حرمتموه . (ان تتبعون) في في هذا (الا الظن) وهو توهمكم ان كل ما قدره فقد شرعه (وان انتم الا تخرصون) : اي تكذبون وتفترون بابطال شريعته ، (قل : فلله الحجة البالغة) على خلقه حين ارسل الرسل اليهم فدعوهم الى توحيده وشريعته ، ومع هذا فلو شاء هدى الخلق اجمعين الى متابعة شريعته . لكنه يمن على من يشاء فيهديه فضلا منه واحسانا ، ويحرم من يشاء ، لان المتفضل له ان يتفضل ، وله ان لايتفضل ، فترك تفضله على من حرمه عدل منه وقسط . وله في ذلك حكمة بالغة .

وهو يعاقب الخلق على مخالفة امره وارادته الشرعية ، وان كان ذلك بارادته القدرية ، فان القدر كما جرى بالمعصية جرى ايضاً بعقابها ، كما انه سبحانه قد يقدر على العبد امراضا تعقبه آلاما ، فالمرض بقدره والألم بقدره . فاذا قال العبد : قد تقدمت الأرادة بالذنب فلا اعاقب ، كان بمنزلة قول المريض قد تقدمت الارادة بالمرض فلا اتألم ، وقد تقدمت الارادة بأكل الحار فلا يحم مزاجي ، او قد تقدمت بالضرب فلا يتألم المضروب ، وهذا مع انه جهل فانه لا ينفع صاحبه؛ بل اعتلاله بالقدر ذنب ثان يعاقب عليه ايضاً ، وانما اعتل بالقدر ابليس حيث قال : (فبما اغويتني لازينن لهم في الارض) ، واما آدم فقال : (ربنا ظلمنا انفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) .

فمن اراد الله سعادته ألهمه ان يقول كما قال آدم ــ عليه السلام او نحوه ــ

ومن اراد شقاوته اعتل بعلة ابليس او نحوهـا . فيكون كالمستجير من الرمضاء بالنار . ومثله مثل رجل طار الى داره شرارة نار ؛ فقال له العقلاء : أطفئها لئلا تحرق المنزل ، فأخذ يقول : من اين كانت ؟ هـذه ريح ألقتها ، وأنا لاذنب لي في هذه النار ، فما زال يتعلل بهذه العلل حتى استعرت وانتشرت واحرقت الدار وما فيها . هذه حال من شرع يحيل الذنوب على المقادير ، ولا يردها بالاستغفار والمعاذير . بل حاله اسوأ من ذلك بالذنب الذي فعله ، بخـلاف الشرارة فانه لا فعل له فيها . والله سبحانه يوفقنا وإياكم وسائر اخواننا لما يحبه ويرضاه فانها لا تنال طاعته الا بمعونته ، ولا تترك معصيته الا بعصمته . والله أعلم .

وسئل قدس الله روحه

عن الاقضية : هل هي مقتضية للحكمة ام لا؟ واذا كانت مقتضية للحكمة : فهل اراد من الناس ماهم فاعلوه ام لا؟ واذا كانت الارادة قد تقدمت : فما معنى وجود العذر والحالة هذه ؟؟؟

فأجاب : الحمد لله رب العالمين .

نعم ! لله حكمة بالغة فى اقضيته واقداره ، وان لم يعلمه العباد ، فان الله علم علماً وعلمه لعباده ، او لمن يشاء منهم ، وعلم علما لم يعلمه لعباده (ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء ، وسع كرسيه السموات والارض ، ولا يؤده حفظهما).

وهو سبحانه اراد من العباد ماهم فاعلوه ارادة تكوين ، كما اتفق المسلمون على انه ما شاء الله كان ، ومالم يشأ لم يكن ، وكما قال : (فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد ان يضله يجعل صدره ضيقاً حرجا) . وكما قال: (ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم) وكما قال : (ولو شاء الله مااقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد) وكما قال : (يثبت الله الذين آمنوا

بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء).

ولكن لم يرد المعاصي من اصحابها ارادة امر وشرع ومحبة ورضى ودين ، ...لك كما قال تعالى : (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) وكما قال تعالى: يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم) (والله يريد ان يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات ان تميلوا ميلا عظيما . يريد الله ان يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفاً) وقال تعالى : (مايريد الله ليجعل عليكم من حرج ، ولكن يريد ليطهركم) وكما قال تعالى : (وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون) .

وبالتقسيم والتفصيل فى المقال،يزول الاشتباه ، ويندفع الضلال ، وقد بسطت الكلام فى ذلك بما يليق به فى غير موضع من القواعد ، اذ ليس هذا موضع بسط ذلك .

واما قول السائل : مامعنى وجود العذر ؟ فالمعذور الذي يعرف انه معذور هو من كان عاجزاً عن الفعل مع ارادته له: كالمريض العاجز عن القيام ، والصيام ، والجهاد ، والفقير العاجز عن الانفاق ، ونحو ذلك ، وهؤلاء ليسوا مكلفين ، ولا معاقبين على ماتركوه . وكذلك العاجز عن السماع والفهم : كالصبي والمجنون ؛ ومن لم تبلغه الدعوة .

واما من جعل محبا مختاراً راضيا بفعل السيئات حتى فعلها فليس مجبوراً على خلاف مراده ، ولا مكرها على مايرضاه . فكيف يسمى هذا معذوراً . بل ينبغي ان يسمى مغروراً ، ولكن بسط ذلك يحتاج الى الحكمة فى الخلق والامر، فهذا مذكور فى موضعه . وهذا المكان لايسعه ، والله اعلم وصلى الله على محمد .

قال شيخ الاسلام

تقي الدين أحمد بن تيمية ـ رحمه الله تعالى

في الفروق : التي يتبين بها كون الحسنة من الله والسيئة من النفس وقوله: (انما يخشى الله من عباده العلماء) وقوله : (قل انما حرم ربي الفواحش ماظهر منها وما بطن) الى قوله (وان تقولوا على الله مالا تعلمون) فانـه ينفي التحريم عن غيرها ، ويثبته لها ، لكن هل اثبتها للجنس او لـكل واحد من العلماء ، كما يقال انما يحج المسلمون . وذلك ان المستثنى هل هو مقتضى ، او شرط ؟.

ففي الآية وامثالهـا هو مقتضى فهو عام ؛ فان العلم بما انذرت به الرسل يوجب الخوف ، فاذا كان العـلم يوجب الخشية الحاملة على فعل الحسنات وترك السيئات ، وكل عاص فهو جاهل ليس بتام العلم،تبين ما ذكرنا من ان اصل السيئات الجهل وعدم العلم .

واذا كان كذلك فعدم العـلم ليس شيئاً موجوداً ؛ بـل هو مثل عدم القدرة وعدم السمع وعدم البصر ، والعدم ليس شيئاً ، وانما الشيء الموجود ـــ والله خالق كل شيء فلا يضاف العدم المحض الى الله تعـالى ، لكن قـد

يقترن به موجود — فاذا لم يكن عالماً ، والنفس بطبعها تحركه فانها حية ، والحركة الارادية من لوازم الحياة ، ولهـذا اصدق الأسماء الحارث والهمام ، وفى الحديث : « مثل القلب مثل ريشة ملقاة » الخ . وفيه « القلب اشـد تقلباً من القدر اذا استجمعت غلياناً » فاذا كان كذلك فان هداها الله علمها ما ينفعها وما يضرها ، فأرادت ماينفعها وتركت مايضرها . والله سبحانه تفضل عـلى بني آدم بأمرين ؛ هما اصل السعادة :

(احدهما) : ان كل مولود يولد على الفطرة ، كما فى الصحيحين.ولمسلم عن عياض بن حمار مرفوعا « انى خلقت عبادي حنفاء » الحديث . فالنفس بفطرتها اذا تركت كانت محبة لله تعبده لا تشرك به شيئاً ، ولكن يفسدها من يزين لها من شياطين الانس والجن . قال تعالى : (واذ اخـذ ربـك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم) الآية . وتفسير هذه الآية مبسوط فى غير هذا الموضع .

(الثانى) : ان الله تعالى هدى الناس هداية عامة ، بما جعل فيهم من العقل، وبما انزل اليهم من الكتب ، وارسل اليهـم من الرسل ، قال تعالى : (اقرأ باسم ربك الذي خلق — الى قوله — مالم يعلم) وقال تعالى : (الرحمن عـلم القرآن خلق الانسان علمه البيان) وقال تعالى : (سبح اسم ربك الأعلى الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى) وقال : (وهديناه النجدين) ففي كل واحد مايقتضي معرفته بالحق ومحبته له ، وقد هداه الى انواع من العلم يمكنه ان يتوصل بها الى سعادة الآخرة ، وجعل فى فطرته محبة لذلك .

لكن قد يعرض الانسان عن طلب علم ماينفعه وذلك الاعراض امر عدمي، لكن النفس من لوازمها الارادة والحركة فانها حية حياة طبيعية ، لكن سعادتها ان تحيا الحياة النافعة فتعبد الله ، ومتى لم تحيى هذه الحياة كانت ميتة ، وكان مالها من الحياة الطبيعية موجباً لعذابها ، فلاهي حية متنعمة بالحياة ، ولا ميتة مستريحة من العذاب ، قال تعالى : (ثم لايموت فيها ولا يحيى) فالجزاء من جنس العمل لما كان فى الدنيا ليس بحي الحياة النافعة ولا ميتاً عديم الاحساس ، كان في الآخرة كذلك ، والنفس ان علمت الحق وارادته فذلك من تمام انعام الله عليها ، والا فهى بطبعها لابد لها من مراد معبود غير الله؛ ومرادات سيئة؛ فهذا تركب من كونها لم تعرف الله ولم تعبده وهذا عدم .

والقدرية يعترفون بهذا ، وبأن الله خلق الانسان مريداً ، لكن يجعلونه مريداً بالقوة والقبول ، اي قابلا لأن يريد هذا وهذا ، وأما كونه مريداً لهذا المعين وهذا المعين ، فهذا عندهم ليس مخلوقاً لله ، وغلطوا بل الله خالق هذا كله ، وهو الذي ألهم النفس فجورها وتقواها ، وكان صلى الله عليه وسلم يقول : « اللهم آت نفسي تقواها الخ » والله سبحانه جعل ابراهيم واهل بيته أئمة يدعون بأمره . وجعل آل فرعون أئمة يدعون إلى النار . ولكن هذا [1] إلى الله لوجهين من جهة علته الغائية ، ومن جهة سببه :

---

(١) بياض فى الأصل .

اما العلة الغائية : فانه انما خلقه لحكمة هو باعتبارها خير ، وان كان شراً اضافيا ، فاذا اضيف مفرداً توهم المتوهم مذهب جهم بن صفوان ان الله خلق الشر المحض الذي لاخير فيه لأحد ، لالحكمة ولا لرحمة ، والكتاب والسنة والاعتبار يبطل هذا ، كما اذا قيل : محمد وامته يسفكون الدماء ويفسدون فى الارض كان هذا ذما لهم ، وكان باطلا ، واذا قيل يجاهدون لتكون كلمة الله هي العليا ويقتلون من منعهم من ذلك كان هذا مدحا لهم وكان حقاً .

فاذا قيل : ان الرب تعالى حكيم رحيم أحسن كل شيء خلقه وهو ارحم الراحمين ، والخير بيديه والشر ليس اليه ، لايفعل الا خيراً ، وما خلقه من الم لبعض الحيوان ، ومن اعماله المذمومة ، فله فيه حكمة عظيمة ونعمة جسيمة ، كان هذا حقاً وهو مدح للرب .

واما إذا قيل يخلق الشر الذي لاخير فيه ، ولا منفعة لأحد ، ولا له فيه حكمة ولا رحمة ويعذب الناس بلا ذنب لم يكن مدحاً له بل العكس ، وقد بينا بعض ما فى خلق جهنم وإبليس والسيئات من الحكمة والرحمة ومالم نعلم أعظم ، والله سبحانه وتعالى يستحق الحمد والحب والرضا لذاته ولاحسانه هذا حمد شكر ، وذاك حمد مطلقاً .

وقد ذكرنا فى غير هذا ان ماخلقه فهو نعمة يستحق عليها الشكر ، وهو من آلائه ولهذا قال فى آخر سورة النجم : (فبأي آلاء ربك تتمارى)

وفى سورة الرحمن يذكر : (كل من عليها فان) ونحو ذلك. ويقول عقبه :
(فبأي آلاء ربكما تكذبان) قال طائفة ـــ واللفظ للبغوي ـــ ثم ذكر قوله :
(يطوفون بينها وبين حميم آن) قال كلما ذكر الله عز وجل من قوله (كل من
عليها فان) فانه مواعظ وهو نعمة ؛ لأنه يزجر عن المعاصي ، وقال آخرون منهم :
الزجاج ، وابن الجوزي ، في الآيات أي : (فبأي آلاء ربكما تكذبان) بهذه
الاشياء ؛ لأنها كلها نعم فى دلالتها إياكم على توحيده ورزقه اياكم ما به قوامكم .
هذا قالوه فى سورة الرحمن ، وقالوا فى قوله : (فبأي آلاء ربك تتمارى) فبأي
نعم ربك التى تدل على وحدانيته تشكك ، وقيل . تشك وتجادل ، وقال ابن
عباس : تكذب .

قلت ضمن تتمارى معنى تكذب ، ولهذا عداه بالتاء فانه تفاعل من المرآء .
يقال : تمارينا فى الهلال ، ومرآء في القرآن كفر ، وهو يكون لتكذيب
وتشكيك . ويقال : لما كان الخطاب لهم . قال : تتمارى . اي يتمارون ، ولم يقل :
تمتري ؛ لأن التفاعل يكون بين اثنين . قالوا : (وان ليس للانسان الا ما
ما سعى) قيل : الوليد بن المغيرة . فانه قال : (ام لم ينبأ بما فى صحف موسى
وابراهيم الذي وفى . ان لا تزر وازرة وزر اخرى) ثم التفت اليه فقال :
(وان ليس للانسان الا ما سعى) . كما قال : (خلق الانسان من صلصال
كالفخار وخلق الجان من مارج من نار فبأي آلاء ربكما تكذبان) .

ففي كل ماخلقه إحسان الى عباده يشكر عليه ، وله فيه حكمة تعود اليه

يستحق ان يحمدعليها لذاته ، فجميع المخلوقات فيها انعام إلى عباده كالثقلين المخاطبين بقوله : (فبأي آلاء ربكما تكذبان) من جهة انهـــا آيات يحصل بها هدايتهم ، وتدل على وحدانيته ، وصدق انبيائه ، ولهذا قال عقيبه : (هذا نذير من النذر الاولى).قيل : محمد، وقيل: القرآن ، وهما متلازمان، يقول : هذا نذير أنذر بما انذرت به الرسل ، والكتب الأولى . وقوله : من النـذر الأولى ، اي من جنسها ، فأفضل النعم نعمة الايمان وكل مخلوق فهو من الآيات التى يحصل بها ما يحصل من هذه النعمة . قال تعالى : (لقد كان فى قصصهم عـبرة لأولي الألباب) وقال : (تبصرة وذكرى لـكل عبد منيب).

وما يصيب الانسان ان كان يسره فهو نعمة بينة ، وان كان يسوءه فهو نعمة ؛ لأنه يكفر خطاياه ويثاب عليه بالصبر ، ومن جهة ان فيه حكمة ورحمـة لا يعلمهــا العبد ، (وعسى ان تكرهوا شيئاً وهو خير لــكم وعسى ان تحبوا شيئاً وهو شر لــكم) الآية ، وكلتا النعمتين تحتاج مع الشكر الى الصبر ، اما الضراء فظاهر،واما نعمة السراء فتحتاج الى الصبرعلى الطاعة فيها ، كما قال بعض السلف : ابتلينا بالضراء فصبرنا ، وابتلينا بالسراء فلم نصبر ، فلهذا كان اكثرمن يدخل الجنة المساكين ،لكن لما كان فى السراء اللذة . وفى الضراء الألم ، اشتهر ذكر الشكر فى السراء والصبر في الضراء ، قال تعالى : (ولئن اذقنا الانسان منـا رحمة ثم نزعناهـا منه ـــ الى قـوله ـــ الا الذين صبروا وعمــلوا الصالحات) الآية .

وايضاً صاحب السراء احوج الى الشكر ، وصاحب الضراء احوج الى الصبر . فان صبر هذا وشكر هذا واجب ، واما صبر السراء فقد يكون مستحباً ، وصاحب الضراء قد يكون الشكر فى حقه مستحباً ، واجتماع الشكر والصبر يكون مع تألم النفس وتلذذها ، وهذا حال يعسر على كثير وبسطه له موضع آخر .

والمقصود : ان الله تعالى منعم بهذا كله ؛ وإن كان لايظهر فى الابتداء لأكثر الناس . فان الله يعلم وأنتم لا تعلمون ، واما ذنوب الانسان فهي من نفسه ، ومع هذا فهي مع حسن العاقبة نعمة ، وهي نعمة على غيره لما يحصل له بها من الاعتبار ، ومن هذا قوله :«اللهم لا تجعلنى عبرة لغيري ، ولا تجعل غيري أسعد بما علمتنى منى» ، وفى دعاء القرآن : (ربنا لا تجعلنا فتنة للظالمين) وكما فيه : (واجعلنا للمتقين إماماً) واجعلنا أئمة لمن يقتدي بنا ، ولا تجعلنا فتنة لمن يضل بنا ، والآلاء فى اللغة هي النعم ، وهي تتضمن القدرة .

والله تعالى فى القرآن يذكر آياته الدالة على قدرته وربوبيته ، ويذكر آياته التى فيها نعمه الى عباده ويذكر آياته المبينة لحكمته . وهي متلازمة ؛ لكن نعمة الانتفاع بالمآكل والمشارب والمساكن والملابس ظاهرة لكل احد ؛ فلهذا استدل بها في « سورة النحل » . وتسمى « سورة النعم » ، كما قاله قتادة وغيره ، وعلى هذا فكثير من الناس يقول الحمد اعم من الشكر من جهة اسبابه ؛ فانه يكون على نعمة وغيرها ، والشكر اعم من جهة انواعه فانه يكون

بالقلب واللسان واليد ، فاذا كان كل مخلوق فيه نعمة لم يكن الحمد الا على نعمة ، والحمد لله على كل حال .

لكن هـذا فهم من عرف ما فى المخلوقات من النعم ؛ والجهمية والجبرية بمعزل عن هذا ، وكذلك القدرية الذين يقولون : لا تعود الحكمة إليه ؛ بل ما ثم الا نفع الخلق فما عندهم الا شكر ، كما ليس عند الجهمية الا قدرة ، والقدرة المجردة عن نعمة وحكمة لايظهر فيها وصف حمد ، وحقيقة مذهبهم انه لا يستحق الحمد ؛ فله ملك بلا حمد ، كما ان عند المعتزلة له نوع من الحمد بلا ملك ، وعند السلف له الملك والحمد تامين .

قال تعالى : (شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة واولوا العلم قائماً بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم) فله الوحدانية فى الهيته ، وله العدل وله العزة والحكمة ، وهذه الأربعة انما يثبتها السلف واتباعهم . فمن قصر عن معرفة السنة نقص الرب بعض حقه .

والجهمي الجبري : لايثبت عدلاً ولا حكمة ، ولاتوحيد الهيته ، بل توحيد ربوبيته ، والمعتزلي لايثبت توحيد الهيته ، ولا عدلاً ولا عزة ولا حكمة ، وان قال : انه يثبت حكمة ما ، معناها يعود الى غيره ، فتلك لا تكون حكمة ، فمن فعل لا لأمر يرجع اليه بل لغيره ، فهذا عند العقلاء قاطبة ليس بحكيم ، واذا كان الحمد لايقع الأ على نعمة ، فقد ثبت انه رأس الشكر ، فهو اول الشكر والحمد ،

وان كان عـلى نعمة وعـلى حكمة ، فالشكر بالأعمـال هو عـلى نعمته ، وهو عبـادة له لالهيته الـتي تتضمن حـكمته ، فقد صار مجمـوع الأمور داخـلاً فى الشكر .

ولهذا عظم القرآن امر الشكر ، ولم يعظم امر الحمد مجرداً اذ كان نوعاً من الشكر ، وشرع الحمد الذي هو الشكر مقولا امام كل خطاب مع التوحيد ، ففي الفاتحة الشكر مع التوحيد ، والخطب الشرعية لا بد فيها من الشكر والتوحيد. والباقيات الصالحات نوعان : فسبحان الله وبحمده فيها الشكر والتنزيه والتعظيم، ولا إله إلا الله والله اكبر فيها التوحيد والتكبير ، وقد قال تعالى :(فادعوا الله مخلصين له الدين) (الحمد لله رب العالمين) وهل الحمد على الأمور الاختيارية، كما قيل فى العزم ، ام عام ؟ فيه نظر ليس هذا موضعه .

وفى الصحيح « انه صلى الله عليه وسلم إذا رفع رأسه من الركوع يقول : ربنا ولك الحمد ملء السماء وملء الأرض وملء ما شئت من شيء بعد اهل الثناء والمجد ، احق ما قال العبد وكلنا لك عبد ، لا مانع لما اعطيت ولامعطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد » هـذا لفظ الحديث . و « احق » افعل التفضيل ، وقد غلط فيه طائفة فقالوا : « حق ما قال العبد » ، وهـذا ليس بسديد ، فان العبد يقول الحق والباطل؛ بل حق ما يقوله الرب ، كما قال: (فالحق والحق اقول) ولكن أحق خبرمبتدأ محذوف اي الحمد احق ما قال العبد ففيه ان الحمد احق ما قاله العبد ، ولهذ وجب فى كل صلاة .

وإذا قيل : يخلق ما هو شر محض ، لم يكن هذا موجباً لمحبة العباد له ، وحمدهم ؛ بل العكس ؛ ولهذا كثير من هؤلاء ينطقون بالذم والشتم نظماً ونثراً، وكثير من شيوخهم وعلمائهم يذكر ذلك ، وان لم يقله بلسانه ، فقلبه ممتلىء به لكن يرى ان ليس في ذكره منفعة ، او يخاف من المسلمين ، وفى شعر طائفة من الشيوخ ذكر نحو هذا ؛ ويقيمون حجج ابليس واتباعه على الله ؛ وهو خلاف ما وصف به نفسه فى قوله : (وما ربك بظلام للعبيد) (وما ظلمناهم ولكن ظلموا انفسهم) فقوله : « أحق ما قال العبد » يقتضي ان حمده أحق ما قاله العبد ؛ لأنه سبحانه لا يفعل الا الخير وهو سبحانه[1] .

ونفسه متحركة بالطبع حركة لا بد فيها من الشر حكمة بالغة ونعمة سابغة .

فاذا قيل : فلم لا خلقها على غير هذا الوجه ؟ .

قيل كان يكون ذلك خلقاً غير الانسان ، وكانت الحكمة بخلقه لا تحصل ، وهذا سؤال الملائكة حيث قالوا : (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء — إلى قوله — اني اعلم ما لاتعلمون) فعلم من الحكمة فى خلق هذا ما لم تعلمه الملائكة ، فكيف يعلمه آحاد الناس ، ونفس الانسان خلقت كما قال تعالى :

---

(١) بياض في الاصل

(ان الانسان خلق هلوعاً إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً) وقال : (خلق الانسان من عجل) فقد خلق خلقة تستلزم وجود ما خلق منها ، لحكمة عظيمة ورحمة عميمة . فهذا من جهة الغاية مع أن الشر لا يضاف إليه سبحانه .

واما (الوجه الثاني) : من جهة السبب — فان هذا الشر إنما وجد لعدم العلم والآرادة التي تصلح النفس ، فانهـا خلقت بفطرتها تقتضي معرفـة الله ومحبته ، وقد هديت إلى علوم واعمال تعينها على ذلك ، وهذا كله من فضل الله واحسانه ؛ لكن النفس المدنية لمـا حصل لهـا من زين لهـا السيئات من شياطين الانس والجن مالت الى ذلك ، وكان ذلك مركبا من عـدم ماينفع . وهذا الاصل ووجود هذا العدم لا يضاف الى الله تعالى ، وهؤلاء القول فيهم كالقول فيها خلقهم لحكمة ، فلما كان عدم ماتصلح به هو احد السببين ، والشر المحض هو العـدم المحض ، وهو ليس شيئـاً . والله خالق كل شيء . فكانت السيئات منها باعتبار انها مستلزمة للحركة الارادية .

والعبد اذا اعترف ان الله خالق افعاله ، فان اعترف اقراراً بخلق الله لكل شيء ، وبكلماته التامات ، واعترافاً بفقره اليـه ، وانه ان لم يهـدد فهو ضال ، فخضع لعزته وحكمته فهذا حال المؤمنين ، وان اعترف احتجاجا بالقدر فهـذا الذنب اعظم من الأول ، وهذا من اتباع الشيطان .

وهنا سؤال سأله طائفة : وهو انه لايقضى للمؤمن من قضاء الا كان خيراً

له ؟ وقد قضى عليه السيئات ؟ وعنه جوابان :

(احدهما) : ان اعمال العباد لم تدخل فى الحديث ؛ ولكن مايصيبه من النعم والمصائب ؛ ولهذا قال : «ان اصابته سراء شكر ، فكان خيراً له»الخ . وهذا ظاهر اللفظ فلا اشكال .

و (الثاني) : ان قدر دخولها ؛ فقد قال صلى الله عليه وسلم « من سرته حسنته وساءته سيئته فهو المؤمن » فاذا قضى له بأن يحسن فهو مما يسره : فاذا قضى له بسيئة فهو انما يستحق العقوبة اذا لم يتب ؛ فان تاب ابدلت حسنة فيشكر عليها ، وان لم يتب ابتلى بمصائب تكفرها فيصبر عليها فيكون ذلك خيراً له وهو قال : لايقضى الله للمؤمن ؛ والمؤمن المطلق هو الذي لايضره الذنب ؛ بل يتوب منه فيكون حينئذ كما جاء فى عدة آثار « ان العبد ليعمل الذنب فيدخل به الجنة ، يعمله فلا يزال يتوب منه حتى يدخل بتوبته منه الجنة » والذنب يوجب ذل العبد وخضوعه واستغفاره وشهوده لفقره ، وفاقته اليه سبحانه .

وفى قوله : (من نفسك) من الفوائد : ان العبد لايطمئن إلى نفسه ؛ فان الشر لايجيء الا منها ؛ ولا يشتغل بملام الناس وذمهم ، ولكن يرجع الى الذنوب فيتوب منها ويستعيذ بالله من شر نفسه وسيئات عمله ، ويسأل الله ان يعينه على طاعته ؛ فبذلك يحصل له الخير ويدفع عنه الشر ؛ ولهذا كان انفع

الدعاء واعظمه وأحكمه دعاء الفاتحــة : (اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) .

فانه إذا هــداه هذا الصراط اعانه على طاعته وترك معصيته فلم يصبه شر لافى الدنيا ولا فى الآخرة ؛ والذنوب من لوازم النفس ؛ وهو محتاج الى الهدى كل لحظة ؛ وهو الى الهدى احوج منه الى الأكل والشرب ؛ ويدخل فى ذلك من انواع الحاجات مالا يمكن احصاؤه ؛ ولهذا امر به فى كل صلاة لفرط الحاجة اليه . وانما يعرف بعض قدره من اعتــبر احوال نفسه ؛ ونفوس الانس والجن المأمورين بهذا الدعاء ؛ ورأى مافيها من الجهل والظلم الذي يقتضي شقاءهــا في الدنيا والآخرة ؛ فيعــلم ان الله تعالى بفضله ورحمته جعل هــذا الدعاء من اعظم الأسباب المقتضية للخير المانعة من الشر .

ومما يبين ذلك ان الله تعالى لم يقص علينا فى القرآن قصة احد الا لنعتبرهــا وإنما يكون الاعتبار إذا قسنا الثاني بالأول ، وكانا مشتركين فى المقتضى والحــكم فلولا ان فى نفوس الناس من جنس ما كان فى نفوس المــكذبين للرســل ــــ فرعون ومن قبله ــــ لم يكن بنا حاجة الى الاعتبار بمن لا نشبهه قط : لكن الأمر كما قال تعالى : (ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك) وقال : (كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر او مجنون) وقــال تعالى : (كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم) وقــال: (يضاهئون قول الذين كفروا من قبل) ولهذا قال صلى الله عليه وســلم :

« لتسلكن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه ، قالوا : يارسول الله ! اليهود والنصارى ، قال : فمن ؟ ! » وقال : « لتأخذن مأخذ الأمم قبلكم شبراً بشبر وذراعا بذراع ، قالوا : يارسول الله ! فارس والروم . قال : فمن ؟ ! » وكلا الحديثين في الصحيحين .

ولما كان فى « غزوة حنين » كان للمشركين سدرة يعلقون عليها أسلحتهم فقال بعض الناس : يارسول الله ! اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط . فقال صلى الله عليه وسلم : « الله اكبر ! ! قلتم — والذي نفسي بيده — كما قال اصحاب موسى : (اجعل لنا إلها كما لهم آلهة) انها سنن لتركبن سنن من كان قبلكم » .

وقد بين القرآن ان السيئات من النفس وان كانت بقدر الله فأعظمها جحود الخالق والشرك به . وطلب النفس ان تكون شريكة له سبحانه ، او إلها من دونه ، وكل هذين وقع ، فان فرعون وإبليس كل واحد منها يطلب ان يعبد ويطاع من دون الله ، وهذا الذي فى فرعون وإبليس غاية الظلم والجهل : وفى نفوس سائر الانس والجن شعبة من هذا ، وهذا إن لم يعن الله العبد ويهده وإلا وقع فى بعض ما وقع فيه فرعون وإبليس بحسب الامكان ، قال بعض العارفين : ما من نفس إلا وفيها ما فى نفس فرعون ، الا انه قدر فأظهر ، وغيره عجز فأضمر .

وذلك ان الانسان اذا اعتبر وتعرف نفسه والناس رأى الواحد يريد نفسه ان تطاع وتعلو بحسب الامكان، والنفوس مشحونة بحب العلو والرئاسة بحسب امكانها، فتجده يوالي من يوافقه على هواه، ويعادي من يخالفه في هواه. وانما معبوده ما يهواه ويريده، قال تعالى: (أرأيت من اتخذ الهه هواه افأنت تكون عليه وكيلا) والناس عنده كما هم عند ملوك الكفار من الترك وغيرهم، « يال، ياغي » اي صديقي وعدوي، فمن وافق هواهم كان وليا وان كان كافراً، وان لم يوافقه كان عدواً وان كان من المتقين، وهذه حال فرعون.

والواحد من هؤلاء يريد ان يطاع أمره بحسب إمكانه، لكنه لا يتمكن مما تمكن منه فرعون من دعوى الالهية وجحود الصانع، وهؤلاء وان أقروا بالصانع فاذا جاءهم من يدعوهم الى عبادة الله المتضمنة ترك طاعتهم عادوه، كما عادى فرعون موسى عليه السلام. وكثير من الناس عنده عقل وايمان لايطلب هذا الحد، بل تطلب نفسه ما هو عنده. فاذا كان مطاعاً مسلماً طلب ان يطاع في اغراضه، وان كان فيها ما هو ذنب ومعصية لله، ويكون من اطاعه أحب اليه واعز عنده ممن اطاع الله وخالف هواه. وهذه شعبة من حال فرعون وسائر المكذبين للرسل.

وان كان عالما او شيخا احب من يعظمه دون من يعظم نظيره. وربما أبغض نظيره حسداً وبغياً كما فعلت اليهود لما بعث الله تعالى من يدعو الى مثل ما دعى اليه

موسى قال تعالى : (واذا قيل لهم آمنوا بما انزل الله قالوا نؤمن بما انزل علينا) الآية . وقال : (وما تفرق الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءتهم البينة) وقال : (وما تفرقوا الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم) ولهذا اخبر عنهم بنظير ما اخبر به عن فرعون وسلط عليهم من انتقم به منهم . فقال تعالى عن فرعون : (ان فرعون علا في الارض) الآية . ولهذا قال تعالى : (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الارض ولا فساداً والعاقبة للمتقين)

والله سبحانه انما خلق الخلق لعبادته ليذكروه ويشكروه ويعبدوه وارسل الرسل وانزل الكتب ليعبدوه وحده ، ويكون الدين كله لله ، وتكون كلمة الله هي العليا ، قال تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه انه لا اله الا انا فاعبدون) وقال : (واسأل من ارسلنا من قبلك من رسلنا اجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون) وقد أمر الرسل كلهم بهذا ، وان لايتفرقوا فيه فقال : (ان هذه امتكم امة واحدة وانا ربكم فاعبدون) وقال : (ياايها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا اني بما تعملون عليم . وان هذه امتكم امة واحدة) الآية .

قال قتادة : اي دينكم واحد ، وربكم واحد ، والشريعة مختلفة . وكذلك قال الضحاك ، وعن ابن عباس اي : دينكم دين واحد . قال ابن ابي حاتم . وروي عن سعيد بن جبير وقتادة وعبد الرحمن نحو ذلك . قال الحسن بين لهم ما يتقون ، وما يأتون ، ثم قال : ان هذه سنتكم سنة واحدة . وهكذا قال

جمهور المفسرين ، والأمة الملة والطريقة ، كما قال : (انا وجدنا آباءنا على امة) كما تسمى الطريق اماماً ؛ لأن السالك فيها يؤتم به ، فكذلك السالك يؤمه ويقصده ، والأمة ايضاً معلم الخير الذي يأتم به الناس ، وابراهيم عليه السلام جعله الله اماماً ، واخبر انه كان امة .

وأمر الله تعالى الرسل ان تكون ملتهم ودينهم واحداً ، لا يتفرقون فيه كما في الصحيحين : « انا معاشر الأنبياء ديننا واحد » وقال تعالى : (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً) الآية . ولهذا كان يصدق بعضهم بعضاً لا يختلفون مع تنوع شرائعهم ؛ فمن كان من المطاعين من الأمراء والعلماء والمشايخ متبعاً للرسول صلى الله عليه وسلم أمر بما امر به ودعا اليه واحب من دعا الى مثل ما دعا اليه ، فان الله يحب ذلك ، فيحب ما يحبه الله ؛ لأن قصده عبادة الله وحده ؛ وان يكون الدين لله ؛ ومن كره ان يكون له نظير يدعو الى ذلك ؛ فهذا يطلب ان يكون هو المطاع المعبود ؛ وله نصيب من حال فرعون واشباهه ؛ فمن طلب ان يطاع دون الله فهذا حال فرعون ؛ ومن طلب ان يطاع مع الله فهذا يريد من الناس ان يتخذوا من دون الله اندادا يحبونهم كحب الله ؛ والله سبحانه امر ان لا يعبد الا اياه ولا يكون الدين الا له ؛ وتكون الموالاة فيه والمعاداة فيه ؛ ولا يتوكل الا عليه ؛ ولا يستعان الا به .

فالمتبع للرسل يأمر الناس بما امرتهم به الرسل ؛ ليكون الدين لله لا له

فاذا امر غيره بمثل ذلك احبه واعانه وسر به ؛ واذا احسن الى الناس فانما يحسن اليهم ابتغاء وجه ربه الأعلى ؛ ويعلم ان الله قد من عليه بأن جعله محسناً فيرى ان عمله لله وبالله ؛ وهذا مذكور فى الفاتحة : (اياك نعبد واياك نستعين) فلا يطلب ممن احسن اليه جزاء ولا شكورا ؛ ولا يمن عليه بذلك ؛ فانه قد علم ان الله هو المان عليه اذ استعمله فى الاحسان ؛ فعليه ان يشكر الله اذ يسره لليسرى وعلى ذلك ان يشكر الله اذ يسر له ماينفعه، ومن الناس من يحسن الى غيره ليمن عليه ؛ او ليجزيه بطاعته له وتعظيمه اياه او نفع آخر ؛ وقد يمن عليه فيقول : انا فعلت وفعلت بفلان فلم يشكر ونحو ذلك . فهذا لم يعبد الله ولم يستعنه فلا عمل لله ولا عمل به ، فهو كالمرائي .

وقد أبطل الله صدقة المنان وصدقة المرائى ، فقال تعالى : (يا أيهـــا الذين آمنوا لاتبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثـــله كمثل صفوان عليه تراب فأصـــابه وابل فتركه صلداً لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لايهدي القوم الـــكافرين . ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة اصابهاوابل فآتت اكلها ضعفين فان لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير) قال قتادة: تثبيتاً من أنفسهم احتساباً من عند انفسهم . وقال الشعبي : يقيناً وتصديقاً من أنفسهم . وقيل يخرجونها طيبة بها أنفسهم على يقين بالثواب وتصديق بوعدالله يعلمون ان ما اخرجوهخير لهم مما تركوه . قلت : إذا كان المعطي محتسباًللأجر من الله لا من الذي أعطاه فلا يمن عليه .

(الفرق السادس) : انما يبتلى به من الذنوب وإن كان خلقا لله فهو عقوبة له على عدم فعل ما خلقه الله له وفطره عليه ، فانه خلقه لعبادته وحده ، ودل عليه الفطرة . فلما لم يفعل ما خلق له وما فطر عليه عوقب على ذلك ، بأن زين له الشيطان ما يفعله من الشرك والمعاصي . قال تعالى (اذهب فمن تبعك منهم فان جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً ـــ إلى قوله ـــ ان عبادي ليس لك عليهم سلطان) وقال تعالى : (انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون إنما سلطانه على الذين يتولونه) الآية . وقال تعالى : (ان الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون واخوانهم يمدونهم فى الغي ثم لا يقصرون) .

فتبين أن الاخلاص يمنع من تسلط الشيطان . كما قال تعالى : (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين) فكان إلهامه لفجوره عقوبة له وعدم فعل الحسنات ليس أمراً موجوداً حتى يقال : ان الله خلقه ، ومن تدبر القرآن تبين له ان عامة ما يذكر الله فى خلق الكفر والمعاصي يجعله جزاء لذلك العمل ، كقوله تعالى : (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً) الآية . وقال تعالى : (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) وقال : (وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى) وهذا وأمثاله يذكر فيه أعمالا عاقبهم بها على فعل محظور وترك مأمور ، ولا بد لهم من حركة وإرادة ؛ فلما لم يتحركوا بالحسنات حركوا

بالسيئات عدلا من الله ، كما قيل : نفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل .

وهذا الوجه إذا حقق يقطع مادة كلام طائفتى القدرية المكذبة والمجبرة . الذين يقولون : خلقها لذلك ، والتعذيب لهم ظلم . يقال لهم : إنما اوقعهم فيها وطبع على قلوبهم عقوبة لهم ، فما ظلمهم ولكن ظلموا أنفسهم ، يقال ظلمته إذا نقصته حقه ، قال تعالى : (كلتا الجنتين آتت اكلها ولم تظلم منه شيئاً) .

وكثير منهم يسلمون أن الله خلق من الأعمال ما يكون جزاء على عمل متقدم ، ويقولون : خلق طاعة المطيع ؛ لكن ما خلق شيئاً من الذنوب ابتداء ؛ بل جزاء . فيقولون : أول ما يفعل العبد لم يحدثه الله ، وما ذكرنا يوجب أن يكون الله خالق دل شيء ، لكن أولها عقوبة على عدم فعله لما خلق له . والعدم لايضاف إلى الله ، فما احدثه فأوله عقوبة على هذا العدم ، وسائرها قد يكون عقوبة على ما وجد ، وقد يكون عقوبةعلى استمراره على العدم ، فما دام لايخلص لله لا يزال مشركا ، والشيطان مسلط عليه .

ثم تخصيصه سبحانه لمن هداه بأن استعمله ابتداء فيما خلق له تخصيص بفضله ، وهذا منه لا يوجب الظلم ولا يمنع العدل ، ولهذا يقول تعالى : (والله يختص برحمته من يشاء) وكذلك الفضل هو أعلم به ، كما خص بعض الأبد ان

بقــوى لا توجد فى غيرهــا ، وبسبب عــدم القوة قد تحصــل له أمراض وجودية ، وغــير ذلك من حكمته ، وتحقيق هذا يدفع شبهات هذا الباب .

ومما ذكر فيه العقوبة على عدم الايمان قوله تعالى : (ونقلب افئدتهــم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به اول مرة) هذا من تمام قوله : (وما يشعركم انهــا إذا جاءت لا يؤمنون) فذكر ان هذا التقليب يكون لمن لم يؤمنوا به اول مرة ، وهذا عدم الايمان ؛ لكن يقال : هذا بعد دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم لهم ، وقد كذبوا وتركوا الايمان ، وهذه امور وجودية ؛ لكن الموجب هو عــدم الايمان ، وما ذكر شرط فى التعذيب ، كارسال الرسول ، فانه قد يشتغل عن الايمان بما جنسه مباح لا يستحق به العقوبة الا لأنه شغله عن الايمــان . ومن النــاس من يقول ضد الايمــان هو تركــه ، وهو امر وجودي لا ضــد له الا ذلك .

(الفرق السابــع) : ان السيئات التى هي المصائب ليس لها سبب الاذنبه الذي من نفسه ، ومايصير من الخير لا تنحصر أسبابه ؛ لأنه من فضل الله يحصل بعمله وبغير عمله ، وعمله من إنعام الله عليه ، وهو سبحانه لا يجزيه بقدر العمل بل يضاعفه فلا يتوكل إلا على الله ولا يرجع إلا إليه ، فهو يستحق الشكر المطلق العام التام ، وإنما يستحق غيره من الشكر ما يكون جزاء على ما يسره الله على يديه من الخــير ، كشكر الوالدين ؛ فانه لايشكر الله من لا يشكر الناس ؛ لكن لايبلغ من قول احد وانعامه ان يشكر بمعصية الله او يطــاع بمعصيته ؛ فانه هو

المنعم ، قال تعـالى : (وما بـكم من نعمة فمن الله) وقال : (وسخر لـكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه) وجزاؤه على الطاعة والشكر وعلى المعصية والكفر لايقدر احد على مثله ، فلهذا لم يجز ان يطاع مخلوق في معصية الخالق ، وقال تعالى : (ووصينا الانسـان بوالديه حسنـاً وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به عـلم فلا تطعهما) الآية . وفى الآية الأخرى : (وإن جاهـداك عـلى أن تشرك بى مـا ليس لك به عـلم فلا تطعهـما وصاحبهمـا فى الدنيا معروفاً) .

والمقصود انه إذا عرف أن النعم كلها من الله صار توكله ورجاؤه له سبحانه، واذا علم ما يستحقه من الشكر الذي لا يستحقه غيره صا[1]

والشر انحصر سببه فى النفس فعـلم من اين يأتى فاستغفر واستعـان بالله واستعاذ به مما لم يعمل بعد ؛ كما قال من قال من السلف : لا يرجون عبد الا ربه ولا يخافن الا ذنبه ، وهذا خلاف قول الجهمية الذين يقولون : يعذب بلا ذنب، ويخافونه ولو لم يذنبوا ، فاذا صدق بقوله : (ما أصابك من حسنة فمن الله وما اصابك من سيئة فمن نفسك) علم بطلان هذا القول . وقدتقدم قول ابن عباس وغيره : انما اصابهم يوم احد كان بذنوبهم ؛ لم يستثن من ذلك احداً ؛ وهذامن فوائد تخصيص الخطاب لئلا يظن انه عام مخصوص .

---

(١) بياض بالاصل

(الفرق الثامن) : ان السيئة اذا كانت من النفس ، والسيئة خبيثة مذمومة ؛ ووصفها بالخبث في مثل قوله : (الخبيثات للخبيثين) . قال جمهور السلف : الكلمات الخبيثة للخبيثين ؛ وقال بعضهم الأقوال والأفعال الخبيثة للخبيثين ، وقال تعالى : (ضرب الله مثلاً كلمة طيبة — الى قوله — ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة) وقال : (اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) والأقوال والأفعال صفات القائل الفاعل ؛ فاذا كانت النفس متصفة بالسوء والخبث لم يكن محلها الا ما يناسبها ؛ فمن أراد ان يجعل الحيات والعقارب يعاشرون الناس كالسنانير لم يصلح ؛ ومن اراد ان يجعل الكذاب شاهداً لم يصلح ، وكذلك من اراد ان يجعل الجاهل معلماً ؛ او الأحمق سائساً ؛ فالنفوس الخبيثة لا تصلح ان تكون في الجنة الطيبة ، بل اذا كان فى النفس خبث طهرت وهذبت ، كما فى الصحيح « ان المؤمنين اذا نجوا من النار وقفوا على قنطرة » الحديث .

واذا علم ان السيئة من نفسه لم يطمع في السعادة التامة مع ما فيه من الشر؛ بل علم تحقيق قوله : (من يعمل سوءاً يجز به) وقوله : (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ؛ ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) . وعلم أن الرب جارية افعاله على قانون العدل والاحسان ؛ وفى الصحيح « يمين الله ملأى » الحديث . وعلم فساد قول الجهمية الذين يجعلون الثواب والعقاب بلا حكمة ، وهو سبحانه قد شهد ان لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط ؛ وهم قصدوا مناقضة

المعتزلة فى القدر والوعيد؛ فلهذا سلك مسلكهم من ينتسب الى السنة والحديث واتباع السلف. وكذلك سلكوا فى « الايمان والوعيد » مسلك المرجئة الغلاة جهم واتباعه؛ وجهم اشتهر عنه « نوعان » من البدعة:

نوع فى (الأسماء والصفات) فغلا فى النفي؛ ووافقه على ذلك الباطنية والفلاسفة ونحوهم؛ والمعتزلة فى الصفات دون الأسماء. والكلابية ومن وافقهم من الفقهاء واهل الحديث فى نفي الصفات الاختيارية، والكرامية ونحوهم وافقوه على اصل ذلك؛ وهو امتناع دوام ما لا يتناهى وانه يمتنع ان يكون لم يزل متكلماً اذا شاء؛ وفعالا اذا يشاء؛ لامتناع حوادث لا اول لها، وعن هذا الأصل نفى وجود ما لا يتناهى في المستقبل؛ وقال بفناء الجنة والنار، ووافقه ابو الهذيل امام المعتزلة على هذا؛ لكن قال تتناهى الحركات.

فالمعتزلة فى الصفات مخانيث الجهمية، واما الكلابية في الصفات [1] وكذلك الأشعرية؛ ولكنهم كما قال ابو اسماعيل الأنصاري: االأشعرية الاناث هم مخانيث المعتزلة، ومن الناس من يقول: المعتزلة مخانيث الفلاسفة؛ لأنه لم يعلم ان جهما سبقهم الى هذا الأصل. او لأنهم مخانيثهم من بعض الوجوه، والشهرستاني يذكر انهم اخذوا ما اخذوا عن الفلاسفة؛ لأنه انما يرى مناظرة اصحابه الأشعرية معهم بخلاف أئمة السنة؛ فان مناظرتهم انما كانت مع الجهمية، وهم المشهورون عند

---

(١) بياض بالاصل

السلف بنفي الصفات ؛ وبهذا تميزوا عند السلف عن سائر الطوائف .

واما المعتزلة فامتازوا بالمنزلة بين المنزلتين لما احدثه عمرو بن عبيد ؛ وكان هو واصحابه يجلسون معتزلين للجماعة . فيقول قتادة وغيره : اولئك المعتزلة ، وكان ذلك بعد موت الحسن .

وبدعة القدرية حدثت قبل ذلك بعد موت معاوية ؛ ولهذا تكلم فيهم ابن عمر وابن عباس وغيرهما ؛ وابن عباس مات قبل ابن الزبير ؛ وابن عمر مات عقب موته ؛ وعقب ذلك تولى الحجاج العراق سنة بضع وسبعين ؛ فبقي الناس يخوضون فى القدر بالحجاز والشام والعراق ، واكثره كان بالشام والعراق والبصرة ،وأقله كان بالحجاز ؛ فلما حدثت المعتزلة وتكلموا بالمنزلة بين المنزلتين . وقالوا : بانفاذ الوعيد وخلود اهل التوحيد ، وان النار لايخرج منها من دخلها ضموا الى ذلك القدر ، فانه به يتم .

ولم يكن الناس اذ ذاك احدثوا شيئاً من نفي الصفات ، الى ان ظهر « الجعد ابن درهم » وهو اولهم ، فضحى به خالد بن عبد الله القسري ، وقال ايها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم فاني مضح بالجعد بن درهم ، انه زعم ان الله لم يتخذ ابراهيم خليلا ، ولم يكلم موسى تكليما ــ تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً ــ ثم نزل فذبحه وهذا كان بالعراق .

ثم ظهر « جهم » من ناحية المشرق من ترمذ ، ومنها ظهر رأي جهم، ولهذا كان علماء السنة بالمشرق اكثر كلاما فى رد مذهبهم من اهل الحجاز والشام والعراق ، مثل ابراهيم بن طهمان ، وخارجة بن مصعب ، ومثل عبد الله بن المبارك ، وامثالهم . وقد تكلم فى ذمهم مالك وابن الماجشون وغيرها ، وكذلك الأوزاعي ، وحماد بن زيد وغيرهم . وانما اشتهرت مقالتهم من حين محنة الامام احمد وغيره ، من علماء السنة فانهم في امارة المأمون قووا وكثروا ، فانه قد كان بخراسان مدة واجتمع بهم ثم كتب بالمحنة من طرسوس سنة ثمانية عشرة ومائتين. وفيها مات. وردوا احمد الى الحبس ببغداد الى سنة عشرين ومائتين . وفيها كانت محنته مع المعتصم ، ومناظرته لهم ؛ فلما رد عليهم ما احتجوا به ؛ وذكر ان طلبهم من الناس ان يوافقوهم وامتحانهم اياهم جهل وظلم ؛ واراد المعتصم اطلاقه اشار عليه من اشار بان المصلحة ضربه لئلا تنكسر حرمة الخلافة ؛ فلما ضربوه قامت الشناعة فى العامة ؛ وخافوا فأطلقوه ؛ وكان ابن ابى دؤاد قد جمع له نفاة الصفات من جميع الطوائف . وعلماء السنة : كابن المبارك واحمد واسحاق والبخاري يسمون هؤلاء جميعهم جهمية ؛ وصار كثير من المتأخرين من اصحاب احمد وغيرهم يظنون ان خصومه كانوا هم المعتزلة ، وليس كذلك؛ بل المعتزلة نوع منهم .

والمقصود هنا : ان جهما اشتهر عنه بدعتان :

(احداها) : نفي الصفات ؛ (والثانية) : الغلو في القدر والارجاء . فجعل

الايمان مجرد معرفة القلب . وجعل العبـاد لا فعل لهم ولا قدرة ؛ وهذان ممـا غلت المعتزلة فى خلافه فيهما ؛ واما الاشعري فوافقه على اصل قوله ، ولكن قد ينازعه منازعات لفظية .

وجهم لايثبت شيئاً من الصفات ؛ لا الارادة ولا غيرها ، فاذا قال ان الله يحب الطاعات ويبغض المعاصـي ؛ فمعناه الثواب والعقـاب ؛ والأشعري يثبت الصفات كالارادة فاحتاج الى الكلام فيها هل هي المحبة ام لا ؟ فقال : المعاصي يحبها الله ويرضاها كما يريدها ؛ وذكر ابو المعالي انه اول من قال ذلـك . واهل السنة قبله على ان الله لايحب المعاصي .

وشاع هذا القول فى كثير من الصوفية فوافقوا جهـما فى مسائل الافعال والقدر ؛ وخالفوه فى الصفات كأبي اسماعيـل الأنصاري صاحب ذم الكلام ؛ فانه من المبالغين فى ذم الجهمية فى نفي الصفات ؛ وله كتاب فى تكفـير الجهمية ؛ ويبالغ فى ذم الأشعرية مع انهم من اقرب هذه الطوائف الى السنة ؛ وربما كان يلعنهم ؛ وقال بعض الناس بحضرة نظام الملك : اتلعن الأشعريـة ؟ فقال ألعن من يقول ليس فى السموات إله ؛ ولا فى المصحف قرآن ، ولا فى القـبر نبي ؛ وقام من عنده مغضباً . وهو مـع هـذا فى مسألة ارادة الـكائنات وخلق الأفعال ابلغ من الأشعرية ؛ لايثبت سببا ولا حكمة ، بـل يقول ان مشاهدة العارف الحكم لا يبقى له استحسان حسنة ولا استقباح سيئة ؛ والحكم عنده هو المشيئة ؛ لأن العارف عنده من يصل الى مقام الفناء، والحسنة والسيئة يفترقان فى حظ العبد

لكونه ينعم بهذه ويعذب بهذه ؛ والالتفات الى هذا من حظوظ النفس ؛ ومقام الفناء ليس فيه الا مشاهدة مراد الحق .

والأشعري لما اثبت الفرق بين هذا وهذا من جهة المخلوق كان اعقل منهم ؛ فانهم يدعون ان العارف لايفرق ؛ وغلطوا فى حق العبد وحق الرب ؛ اما العبد فيلزمهم ان يستوي عنده جميع الحوادث ؛ وهذا محال قطعاً ، فعزلوا الفرق الرحماني ؛ وفرقوا بالطبعي الهوائى الشيطانى ؛ ومن هنا وقع خلق منهم في المعاصي ؛ وآخرون فى الفسوق ؛ وآخرون في الكفر حتى جوزوا عبادة الأصنام؛ ثم كثير منهم ينتقل الى الوحدة ويصرحون بعبادة كل موجود .

والمقصود الكلام على من نفى الحكم والأسباب والعدل فى القدر موافقة لجهم: — وهي بدعته الثانية بخلاف الارجاء فانه منسوب الى طوائف غيره — فهؤلاء يقولون : ان الرب يجوز ان يفعل كل مايقدر عليه ، ولهذا تجد من اتبعهم غير معظم للامر والنهي ، والوعد والوعيد ؛ بل ينحل عنه او عن بعضه ، ويتكلف لما يعتقده ،فانهم اذا وافقوا جهما والأشعري فى ان الحسن والقبيح كونه مأموراً أو محظوراً ؛ وذلك فرق يعود الى حظ العبد : وهم يدعون الفناء عن الحظوظ : فتارة يقولون : في امتثال الامر والنهي انه من مقام التلبيس ؛ وتارة يقولون : يفعل هذا لأجل اهل المارستان اي العامة — كما يقوله : الشيخ المغربى ؛ الى انواع اخر .

ومن سلك مسلكهم اذا عظم الأمر والنهي غايتـــه ان يقول كما نقل عن الشاذلي : يكون الجمع في قلبك مشهوداً ؛ والفرق على لسانك موجوداً ؛ كما يوجد فى كلامه وكلام غيره أقوال وأدعيـة ، وأحزاب تستلزم تعطيل الأمر والنهي : مثل دعوى ان الله يعطيه على المعصية اعظم مما يعطيه على الطاعة ، ونحو هــذا مما يوجب انه يجوز عنده ان يجعل الذين اجترحوا السيئات كالذين آمنـــوا وعملوا الصالحـات او أفضل . ويدعون بأدعيـــة فيهـا اعتداء كما يوجـد فى حزب الشاذلي .

وآخرون من عوامهم يجوزون ان يكرم الله بكرامات اكـبر الاولياء من يكون فاجراً ؛ بل كافراً ، ويقولون : هذه موهبة وعطية ، ويظنون ان تلك من كرامات الأولياء ، وتكون من الاحوال الشيطانية التى يكون مثلها للسحرة والكهان . قال تعالى : (ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهـم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لايعلمون واتبعوا ماتتلوا الشياطين عـلى ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملـكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من احد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما مايفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من احـد إلا باذن الله ويتعلمون مايضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خـلاق ولبئس ما شروا به انفسهم لو كانوا يعلمون . ولو انهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون) .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : « لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » الحديث .

والمسلمون الذين جاءهم كتاب الله القرآن عدل كثير ممن اضله الشيطان من المنتسبين اليهم إلى ان نبذ كتاب الله وراء ظهره ، واتبع ماتتلوه الشياطين فلا يعظم من امر القرآن بموالاته ، ويعادى من امر القرآن بمعاداته ، بل يعظم من رآه يأتي ببعض الخوارق التي تأتي بمثلها السحرة والكهان باعانة الشياطين لهم ، وهي تحصل بما تتلوه الشياطين .

ثم منهم من يعرف ان هذا من الشياطين ، ولكن يعظمه لهواه ويفضله على طريقة القرآن ، وهؤلاء كفار ، كالذين قال الله تعالى فيهم : (الم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء اهدى من الذين آمنوا سبيلا .أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً) وهؤلاء ضاهوا الذين قال الله تعالى فيهم : (ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم — الى قوله — ولكن الشياطين كفروا) .

ومنهم من لايعرف انه من الشياطين ، وقد يقع فى هذا طوائف من اهل الكلام والعلم ، واهل العبادة والتصوف ، حتى جوزوا عبادة الكواكب والاصنام لما رأوه فيها من الاحوال العجيبة التى تعينهم عليها الشياطين لما يحصل بها بعض أغراضهم من الظلم والفواحش ، فلم يبالوا بشركهم بالله وبكفرهم به وبكتابه اذا

نالوا ذلك ، ولم يبالوا بتعليم ذلك للناس وتعظيمهم له لرئاسة أو مال ينالونه ؛ وإن كانوا قد علموا الكفر والشرك ودعوا اليه ، بل حصل عندهم ريب وشك فيما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم واعتقاد انه خاطب الجمهور بمالا حقيقة له في الباطن للمصلحة ، كما يقول ذلك من يقوله من الملاحدة الباطنية ، ودخل في رأي هؤلاء طائفة من هؤلاء وهؤلاء ، وهذا مما ضاهوا به فارس والروم .

فان فارس كانت تعظم الأنوار . وتسجد للشمس وللنار . والروم كانوا قبل النصرانية مشركين : يعبدون الكواكب والاصنام ، فهؤلاء شر من الذين اشبهوا اليهود والنصارى ؛ فان هؤلاء ضاهوا اهل الكتاب فيما بدل او نسخ وهؤلاء ضاهوا من لا كتاب له .

وقال رحمه الله تعالى : فالنفوس مفطورة على علم ضروري موجود فيها بالخالق الذي خلق السموات ، وانه خلق السموات والارض ليس شيء منها خلق الناس ، كما قال موسى لفرعون لما قال له : (وما رب العالمين ؟ قال : رب السموات والارض وما بينهما ان كنتم موقنين) وقال : (فمن ربكما يا موسى ؟ قال : ربنا الذى اعطى كل شيء خلقه ثم هدى) .

سئل رحمه الله تعالى

عمن يعتقد ان الخير من الله والشر من الشيطان؟ وان الشر هو بيد العبد، إن شاء فعله، وان شاء لم يفعله. فاذا انكر عليه فى هذه يقول: قال الله تعالى: (ان الله لا يأمر بالفحشاء) (وإن الله لا يرضى لعباده الكفر) وان عقيدة هذا، ان الخير من الله وان الشر بيده، فاذا أراد ان يفعل الشر فعله؛ فانه قال: ان لي مشيئة فاذا أردت أن أفعل الشر فعلته، فهل له مشيئة فعالة ام لا؟.

فأجاب: الحمد لله — اصل هذا الكلام له مقدمتان:

(إحداهما): أن يعلم العبد أن الله يأمر بالايمان والعمل الصالح. ويحب الحسنات ويرضاها، ويكرم اهلها، ويثيبهم ويواليهم، ويرضى عنهم. ويحبهم ويحبونه. وهم جند الله المنصورون، وحزب الله الغالبون، وهم أولياؤه المتقون، وحزبه المفلحون، وعباده الصالحون اهل الجنة، وهم النبيون والصديقون والشهداء والصالحون، وهم اهل الصراط المستقيم. صراط الذين أنعم عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين. وان الله نهى عن السيئات: من الكفر والفسوق والعصيان. وهو يبغض ذلك ويمقت اهله، ويلعنهم ويغضب عليهم، ويعاقبهم ويعاديهم. وهم اعداء الله ورسوله، وهم اولياء الشيطان. وهم اهل النار

وهم الاشقياء . لكنهم يتقاربون في هذا مابين كافر وفاسق ، وعاص ليس بكافر ولا فاسق .

و (المقدمه الثانية) : أن يعلم العبد ان الله رب كل شيء وخالقه ومليكه . لارب غيره ؛ ولا خالق سواه ، وانه ماشاء كان ؛ وما لم يشأ لم يكن ؛ لا حول ولا قوة إلا به ؛ ولا ملجأ منه إلا اليه ؛ وانه علـى كل شيء قدير . فجميع ما فى السموات والارض : من الأعيان وصفاتها ؛وحركاتها ؛ فهي مخلوقة له ؛ مقدورة له ؛ مصرفة بمشيئته ، لايخرج شيء منها عن قدرته وملكه ؛ ولا يشركه فى شيء من ذلك غيره ؛ بل هو سبحانه لا إله إلا هو وحده لا شريك له : له الملك وله الحمد ؛ وهو على كل شيء قدير ، فالعبد فقير الى الله فى كل شيء ، يحتاج اليه فى كل شيء لايستغنى عن الله طرفة عـين ؛ فمن يهده الله فـلا مضل له ؛ ومن يضلل فلا هادي له .

فاذا ثبتت هاتان « المقدمتان » . فنقول : اذا ألهـم العبد ان يسأل الله الهداية ويستعينه على طاعته ، اعانه وهداه ، وكان ذلك سبب سعادته فى الدنيا والآخرة ، وإذا خذل العبد فلم يعبد الله ؛ ولم يستعن به ، ولم يتوكل عليه ، وكل الى حوله وقوته . فيوليه الشيطان ، وصد عن السبيل ، وشقي فى الدنيا والآخرة وكل ما يكون في الوجود هو بقضـاء الله وقدره ؛ لا يخرج احد عن القـدر المقدور ، ولا يتجـاوز ما خط له فى اللوح المحفوظ ، وليس لأحد عـلى الله

حجـة ؛ بل (لله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين) كل نعمة منه فضل ، وكل نقمة منه عدل .

وعلى العبد أن يؤمن بالقدر ، وليس له ان يحتج به على الله ؛ فالايمان به هدى ؛ والاحتجاج به على الله ضلال وغي . بل الايمان بالقدر يوجب ان يكون العبد صباراً شكوراً ؛ صبوراً على البلاء ، شكوراً على الرخاء . إذا اصابته نعمة علم انها من عند الله فشكره ، سواء كانت النعمة حسنة فعلها ، او كانت خيراً حصل بسبب سعيها . فان الله هو الذي يسر عمل الحسنات ، وهو الذي تفضل بالثواب عليها ، فله الحمد فى ذلك كله . وإذا أصابته مصيبة صبر عليها ، وإن كانت تلك المصيبة قد جرت على يد غيره ، فالله هو الذي سلط ذلك الشخص ، وهو الذي خلق أفعاله ، وكانت مكتوبة على العبد ؛ كما قال تعـالى : (ما اصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى انفسكم إلا فى كتاب من قبل ان نبرأها إن ذلك عـلى الله يسير . لكيلا تأسوا على ما فاتـكم ولا تفرحوا بمـا آتاكم) وقال تعـالى : (ما اصاب من مصيبة إلا باذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه) . قالوا : هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم انها من عند الله فيرضى ويسلم .

وعليه اذا اذنب ان يستغفر ويتوب ، ولا يحتج على الله بالقدر ، ولا يقول: اي ذنب لي وقد قدر علي هذا الذنب ؛ بل يعلم انه هو المذنب العاصي الفاعل للذنب ، وان كان ذلك كله بقضاء الله وقدره ومشيئته ، اذ لا يكون شيء الا بمشيئته وقدرته وخلقه ؛ لكن العبد هو الذي اكل الحرام ، وفعل الفاحشة ،

وهو الذي ظلم نفسه ؛ كما انه هو الذي صلى وصام وحج وجاهد . فهو الموصوف بهذه الأفعال ؛ وهو المتحرك بهذه الحركات ، وهو الكاسب بهذه المحدثات ،له ما كسب وعليه ما اكتسب ، والله خالق ذلك وغيره من الاشياء لماله فى ذلك من الحكمة البالغة بقدرته التامة ومشيئته النافذة . قال تعالى : (فاصبر ان وعد الله حق واستغفر لذنبك) . فعلى العبد ان يصبر على المصائب ، وان يستغفر من المعائب .

والله تعالى لا يأمر بالفحشاء ، ولا يرضى لعباده الكفر ؛ ولا يحب الفساد، وهو سبحانه خالق كل شيء ؛ وربه ومليكه ، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن . فمن يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ؛ ومشيئة العبد للخير والشر موجودة ، فان العبد له مشيئة للخير والشر ، وله قدرة على هذا وهذا . وهو العامل لهذا وهذا ، والله خالق ذلك كله وربه ومليكه ؛ لا خالق غيره ؛ ولا رب سواه ؛ ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

وقد اثبت الله « المشيئتين » مشيئة الرب ؛ ومشيئة العبد ؛ وبين ان مشيئة العبد تابعة لمشيئة الرب فى قوله تعالى : (ان هذه تذكرة فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلاً . وما تشاؤن الا ان يشاء الله ؛ ان الله كان عليماً حكيماً) وقال تعالى: (ان هو الا ذكر للعالمين . لمن شاء منكم ان يستقيم . وما تشاؤن الا ان يشاء الله رب العالمين) وقد قال تعالى: (اينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة . وان تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله . وان تصبهم سيئة يقولوا

هــذه مــن عندك . قل كل من عند الله فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثــاً . ما اصابك من حسنة فمــن الله وما اصابك مــن سيئة فمن نفسك) .

وبعض الناس يظن ان المراد هنا بالحسنات والسيئات الطــاعات والمعاصي؛ فيتنازعون . هذا يقول : قل كل من عند الله ، وهــذا يقول الحسنة من الله ، والسيئة من نفسك ، وكلاهما اخطأ في فهم الآية ؛ فان المراد هنا بالحسنات والسيئات، النعم والمصائب . كما في قوله : (وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون) : اي امتحناهم واختبرناهم بالسراء والضراء .

ومعنى الآية فى المنافقين : كانوا إذا اصابتهم حسنة مثــل النصر والرزق والعافية . قالوا : هذا من الله ، وإذا اصابتهــم سيئة ـــ مثــل ضرب ومرض وخوف من العدو ـــ قالوا : هذا من عندك يامحمد ! انت الذي جئت بهــذا الدين الذي عادانا لأجله الناس ، وابتلينا لأجله بهذه المصائب ، فقال الله تعالى : (فمال هؤلاء القوم لايكادون يفقهون حديثاً) انت إنما امرتهم بالمعروف ونهيتهم عن المنكر ، وما اصابك من نعمة : نصر وعافية ورزق فمن الله ، نعمة أنعم الله بها عليك ، وما اصابك من سيئة : فقر وذل وخوف ومرض وغير ذلك ، فمن نفسك وذنوبك وخطاياك . كما قال فى الآية الأخرى : (وما اصابكم من مصيبة فبما كسبت ايديكم) وقال تعالى : (او لما اصابتكم مصيبة قد اصبتم مثليها قلتم

أنى هذا؟ قل : هو من عند انفسكم) وقال تعالى : (وإن تصبهم سيئة بما قدمت ايديهم فان الانسان كفور) .

فالانسان إذا اصابته المصائب بذنوبه وخطاياه كان هو الظالم لنفسه ، فاذا تاب واستغفر جعل الله له من كل هم فرجاً ومن كل ضيق مخرجاً ، ورزقه من حيث لا يحتسب . والذنوب مثل اكل السم . فهو إذا اكل السم مرض أومات فهو الذي يمرض ويتألم ويتعذب ويموت ، والله خالق ذلك كله ، وإنما مرض بسبب اكله ، وهو الذي ظلم نفسه بأكل السم . فان شرب الترياق النافع عافاه الله ، فالذنوب كأكل السم ، والترياق النافع كالتوبة النافعة ، والعبد فقير الى الله تعالى فى كل حال ، فهو بفضله ورحمته يلهمه التوبة . فاذا تاب تاب عليه . فاذا سأله العبد ودعاه استجاب دعاءه . كما قال : (وإذا سألك عبادي عني فاني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون) .

ومن قال : لا مشيئة له فى الخير ولا فى الشر فقد كذب . ومن قال : انه يشاء شيئاً من الخير او الشر بدون مشيئة الله فقد كذب ؛ بل له مشيئة لكل ما يفعله باختياره من خير وشر ، وكل ذلك إنما يكون بمشيئة الله وقدرته فلا بد من الايمان بهذا وهذا ، ليحصل الايمان بالامر والنهي والوعد والوعيد . والايمان بالقدر خيره وشره ، وأنما اصاب العبد لم يكن ليخطئه ، وما اخطأه لم يكن ليصيبه .

ومن احتج بالقدر على المعاصي فحجته داحضة ، ومن اعتذر به فعذره غير مقبول ، بل هؤلاء الضالون . كما قال فيهم بعض العلماء : انت عند الطاعة قدري وعند المعصية جبري ، اي مذهب وافق هواك تمذهبت به . فان هؤلاء اذا ظلمهم ظالم ، بل لو فعل الانسان ما يكرهونه ، وإن كان حقاً لم يعذروه بالقدر ، بل يقابلوه بالحق والباطل ، فان كان القدر حجة لهم فهو حجة لهؤلاء ، وان لم يكن حجة لهؤلاء لم يكن حجة لهم ؛ وانما يحتج احدهم بالقدر عند هواه ومعصية مولاه ، لا عند ما يؤذيه الناس ويظلمونه .

وأما المؤمن فهو بالعكس فى ذلك اذا آذاه الناس نظر الى القدر ، فصبر واحتسب ، واذا اساء هو تاب واستغفر . كما قال تعالى : (فاصبر ان وعد الله حق واستغفر لذنبك) فالمؤمن يصبر على المصائب ويستغفر من الذنوب والمعايب ، والمنافق بالعكس لا يستغفر من ذنبه بل يحتج بالقدر ، ولا يصبر على ما اصابه ، فلهذا يكون شقياً فى الدنيا والآخرة ؛ والمؤمن سعيداً فى الدنيا والآخرة . والله سبحانه أعلم .

سئل أبو العباس بن تيمية

عن الخير والشر ؛ والقدر الكوني ؛ والأمر والنهي الشرعي .

فأجاب : الحمد لله . اعلم ان الله خالق كل شيء وربه ومليكه لارب غيره ولا خالق سواه ؛ ماشاء كان ومالم يشأ لم يكن ؛ وهو على كل شيء قدير ؛ وبكل شيء عليم ؛ والعبد مأمور بطاعة الله ؛ وطاعة رسوله ؛ منهي عن معصية الله ؛ ومعصية رسوله ؛ فان أطاع كان ذلك نعمة من الله أنعم بها عليه ؛ وكان له الأجر والثواب بفضل الله ورحمته ، وإن عصى كان مستحقاً للذم والعقاب ؛ وكان لله عليه الحجة البالغة ؛ ولا حجة لأحد على الله ؛ وكل ذلك كائن بقضاء الله وقدره ومشيئته وقدرته ؛ لكنه يحب الطاعة ويأمر بها ؛ ويثيب اهلها عليها ويكرمهم ؛ ويبغض المعصية وينهي عنها ؛ ويعاقب أهلها عليها ويهينهم .

وما يصيب العبد من النعم فان الله أنعم بها عليه ؛ وما يصيبه من الشر فبذنوبه ومعاصيه . كما قال تعالى : (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم) وقال تعالى : (ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك) : اي ما أصابك من خصب ونصر وهدى فالله أنعم بها عليك ؛ وما أصابك من جدب وذل وشر فبذنوبك وخطاياك ؛ وكل الاشياء كائنة بمشيئته وقدرته وخلقه

فلا بد أن يؤمن العبد بقضاء الله وقدره ؛ وأن يؤمن بشرع الله وأمره .

فمن نظر إلى الحقيقة القدرية وأعرض عن الامر والنهي والوعد والوعيد كان مشابها للمشركين ؛ ومن نظر إلى الامر والنهي وكذب بالقضاء والقدر كان مشابها للمجوسيين، ومن آمن بهذا وهذا، وإذا أحسن حمد الله ؛ وإذا أساء استغفر الله ؛ وعلم أن ذلك كله بقضاء الله وقدره فهو من المؤمنين .

فان آدم — عليه السلام — لما أذنب تاب فاجتباه ربه وهداه ، وإبليس اصر واستكبر واحتج بالقدر ؛ فلعنه وأقصاه ، فمن تاب كا آدمياً ، ومن اصر واحتج بالقدر كان إبليسياً . فالسعداء يتبعون أباهم آدم ، والاشقياء يتبعون عدوهم إبليس .

فنسأل الله العظيم ان يهدينا الصراط المستقيم . صراط الذين انعم عليهم من النبيين والصديقين . والشهداء والصالحين . والله اعلم .

وقال الشيخ رحمه الله

حديث علي رضي الله عنه المخرج فى الصحيح لما طرقه النبى صلى الله عليه وسلم وفاطمة — وهما نائمان — فقال «الا تصليان» فقال علي يارسول الله إنما انفسنا بيد الله إن شاء ان يمسكها وإن شاء ان يرسلها ؛ فولى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يضرب بيده على فخذه وهو يقول (وكان الانسان اكثر شيء جدلا)، هذا الحديث نص فى ذم من عارض الامر بالقدر ، فان قوله : « انما انفسنا بيد الله » الى آخره . استناد إلى القدر فى ترك امتثال الامر ،وهي فى نفسها كلمة حق ، لكن لاتصلح لمعارضة الامر بل معارضة الامر فيهما من باب الجدل المذموم الذي قال الله فيه: (وكان الانسان اكثر شيء جدلا) وهؤلاء احد اقسام « القدرية » وقد وصفهم الله فى غير هذا الموضع بالمجادلة الباطلة .

سؤال عن القدر

اورده احد علماء الذميين فقال :

أيا علماء الدين ، ذمي دينكم تحير دلوه بأوضح حجة
إذا ما قضى ربي بكفري بزعمكم ولم يرضه مني ، فما وجه حيلتى ؟
دعانى ، وسد الباب عنى، فهل الى دخولى سبيل ؟ بينوا لى قضيتى
قضى بضلالى، ثم قال: ارض بالقضا فما أنا راض بالذى فيه شقوتى
فان كنت بالمقضى ياقوم راضياً فربى لا يرضى بشؤم بليتى
فهل لى رضاً ،ما ليس يرضاه سيدى فقد حرت دلونى على كشف حيرتى
إذا شاء ربى الكفر منى مشيئة فهل انا عاص فى اتباع المشيئة ؟
وهل لى اختيار ان اخالف حكمه؟ فبالله فاشفوا بالبراهين غلتى

فأجاب شيخ الاسلام الشيخ الامام العالم العلامة احمد بن تيمية مرتجلا
الحمد لله رب العالمين :

سؤالك ياهذا ، سؤال معاند مخاصم رب العرش ، بارى البرية

فهذا سؤال ، خاصم الملأ العلا قديما به إبليس ، اصل البلية

ومن يك خصما للمهيمن يرجعن على ام رأس هاويا فى الحفيرة

ويدعى خصوم الله يوم معادهم إلى النار طرا ، معشر القدرية

سواء نفوه . او سعوا ليخاصموا به الله ، او ماروا به للشريعة

واصل ضلال الخلق من كل فرقة هو الخوض في فعل الاله بعلة

فانهمو لم يفهموا حكمة له فصاروا على نوع من الجاهلية

فان جميع الكون اوجب فعله مشيئة رب الخلق بارى الخليقة

وذات إله الخلق واجبة بما لها من صفات واجبات قديمة

مشيئته مع علمه ، ثم قدرة لوازم ذات الله قاضي القضية

وابداعه ما شاء من مبدعاته بها حكمة فيه وانواع رحمة

ولسنا اذا قلنا جرت بمشيئة من المنكري آياته المستقيمة

بل الحق ان الحكم لله وحده له الخلق والامر الذي في الشريعة

هو الملك المحمود فى كل حالة له الملك من غير انتقاص بشركة

فما شاء مولانا الاله ، فانه يكون . ومالا لا يكون بحيلة

وقدرته لا نقص فيها ، وحكمه يعم . فلا تخصيص فى ذي القضية

اريد بذا ان الحوادث كلها بقدرته كانت ، ومحض المشيئة
ومالكنا فى كل ما قد اراده له الحمد حمداً يعتلى كل مدحة
فان له فى الخلق رحمته سرت ومن حكم فوق العقول الحكيمة
اموراً يحار العقل فيها اذا رأى من الحكم العليا وكل عجيبة
فنؤمن ان الله عز بقدرة وخلق وابرام لحكم المشيئة
فنثبت هذا كله لالهنا ونثبت مافى ذاك من كل حكمة
وهذا مقام طالما عجز الاولى نفوه وكروا راجعين بحيرة
وتحقيق ما فيه بتبيين غوره وتحرير حق الحق فى ذي الحقيقة
هو المطلب الاقصى لوراد بحره وذا عسر في نظم هذى القصيدة
لحاجته الى بيان محقق لاوصاف مولانا الاله الكريمة
واسمائه الحسنى ، واحكام دينه وافعاله في كل هذى الخليقة
وهذا بحمد الله قد بان ظاهراً والهامه للخلق افضل نعمة
وقد قيل فى هذا وخط كتابه بيان شفاء للنفوس السقيمة
فقولك: لم قد شاء؟ مثل سؤال من يقول : فلم قد كان فى الازلية؛
وذاك سؤال يبطل العقل وجهه وتحريمه قد جاء فى كل شرعة
وفى الكون تخصيص كثير يدل من
له نوع عقل : أنه بارادة

واصداره عن واحد بعد واحد أو القول بالتجويز رمية حيرة
ولا ريب فى تعليق كل مسبب بما قبله من علة موجبية
بل الشأن فى الاسباب ، اسباب ما ترى
واصدارها عن حكم محض المشيئة
وقولك : لم شاء الاله ؟ هو الذي أزل عقول الخلق فى قعر حفرة
فان المجوس القائلين بخالق لنفع ، ورب مبدع للمضرة
سؤالهم عن علة السر ، أوقعت أوائلهم فى شبهة الثنوية
وان ملاحيد الفلاسفة الاولى يقولون بالفعل القديم لعلة
بغوا علة للكون بعد انعدامه فلم يجدوا ذاكم ، فضلوا بضلة
وان مبادى الشر فى كل امة ذوى ملة ميمونة نبوية
بخوضهمو فى ذاكم ، صار شركهم وجاء دروس البينات بفترة
ويكفيك نقضاً : ان ما قد سألته من العذر مردود لدى كل فطرة
فأنت تعيب الطاعنين جميعهم عليك ، وترميهم بكل مذمة
وتنحل من والاك صفو مودة وتبغض من ناواك من كل فرقة
وحالهم فى كل قول وفعلة كحالك يا هذا بأرجح حجة
وهبك كففت اللوم عن كل كافر وكل غوى خارج عن محجة
فيلزمك الاعراض عن كل ظالم
على الناس فى نفس ، ومال ، وحرمة

ولا تغضبن يوماً على سافك دما ولا سارق مالا لصاحب فاقة

ولا شاتم عرضا مصونا، وان علا ولا ناكح فرجا على وجه غية

ولا قاطع للناس نهج سبيلهم

ولا مفسد فى الارض فى كل وجهة

ولا شاهد بالزور إفكا وفرية ولا قاذف للمحصنات بزنية

ولا مهلك للحرث والنسل عامدا ولا حاكم للعالمين برشوة

وكف لسان اللوم عن كل مفسد

ولا تأخذن ذا جرمة بعقوبة

وسهل سبيل الكاذبين تعمدا على ربهم ، من كل جاء بفرية

وان قصدوا إضلال من يستجيبهم

بروم فساد النوع ، ثم الرياسة

وجادل عن الملعون ، فرعون ، اذ طغى

فاغرق فى اليم انتقاماً بغضبة

وكل كفور مشرك بالهه وآخر طاغ كافر بنبوة

كعاد ، ونمروذ ، وقوم لصالح وقوم لنوح ، ثم اصحاب الأيكة

وخاصم لموسى ، ثم سائر من اتى من الانبياء محيياً للشريعة

على كونهم قد جاهدوا الناس اذ بغوا

ونالوا من المعاصي بليغ العقوبة

والا فكل الخلق فى كل لفظة ولحظة عين ، او تحرك شعرة
وبطشة كف ، او تخطى قديمة وكل حراك ، بل وكل سكينة
همو تحت اقدار الاله وحكمه كما انت فيما قد اتيت بحجة
وهبك رفعت اللوم عن كل فاعل
فعال ردى ، طردا لهذى المقيسة
فهل يمكن رفع الملام جميعه عن الناس طراً عند كل قبيحة ؟
وترك عقوبات الذين قد اعتدوا وترك الورى الانصاف بين الرعية
فلا تضمنن نفس ومال بمثله ولا يعقبن عاد بمثل الجريمة
وهل فى عقول الناس ، او فى طباعهم
قبول لقول النذل : ماوجه حيلتى ؟
ويكفيك نقضاً : مابجسم ابن آدم صبي ، ومجنون ، وكل بهيمة :
من الالم المقضى فى غير حيلة وفيما يشاء الله اكمل حكمة
إذا كان فى هذا له حكمة ، فما يظن بخلق الفعل ، ثم العقوبة ؟
وكيف ، ومن هذا عذاب مولد
عن الفعل ، فعل العبد عند الطبيعة ؟
كما كل سم ، اوجب الموت اكله
وكل بتقدير لرب البرية

فكفرك يا هـذا ؛ كـم اكلته

وتعذيب نـار . مثل جرعة غصة

الست ترى في هذه الدار من جنى

يعاقب . إما بالقضـا . او بشرعة ؟

ولا عذر للجاني بتقدير خالق كذلك في الاخرى بلا مثنوية

وتقدير رب الخلق للذنب موجب

لتقدير عقبى الذنب إلا بتوبـة

ومـا كان من جنس المتاب لرفعه عواقب افعال العباد الخبيثة

كخيربه تمحى الذنوب . ودعوة تجاب من الجاني. ورب شفاعة

وقول حليف الشر : إني مقدر

علي . كقول الذئب: هذى طبيعتى

وتقديره للفعل يجلب نقمة كتقديره الاشيـاء طراً بعلة

فهل ينفعن عذر الملوم . بأنه كذا طبعه. امهل يقال لعثرة ؟

ام الذم والتعـذيب اوكد للذي

طبيعته فعل الشرور الشنيعة ؟

فان كنت ترجو ان تجاب بما عسى

ينجيك من نـار الاله العظيمة

فدونك رب الخلق، فاقصده ضارعا

مريداً لان يهديك نحو الحقيقـة

وذلل قيـاد النفس للحق ، واسمعن

ولا تعرض عن فكرة مستقيمة

وما بان من حق فلا تتركنه

ولا تعص من يدعـو لأقوم شرعة

ودع دين ذا العـادات ، لاتتبعنـه

وعج عن سبيل الأمـة الغضبية

ومن ضل عن حق فلا تقفونه وزن ما عليه الناس بالمعدلية

هنالك تبدو طالعات من الهدى تبشر من قد جاء بالحنيفيـة

بملة إبراهيم . ذاك إمامنـا ودين رسول الله خير البرية

فلا يقبل الرحمن دينـا سوى الذى

به جاءت الرسـل الكرام السجية

وقد جاء هذا الحاشر الخاتم الذي حوى كل خير في عموم الرسالة

وأخبر عن رب العبـاد بأن من غدا عنه فى الاخرى بأقبح خيبة

فهذى دلالات العبـاد لحائر واما هداه فهو فعل الربوبة

وفقد الهدى عند الورى لا يفيد من

غدا عنه ، بل يجزى بلا وجه حجة

وحجة محتج بتقدير ربـه تزيد عذاباً ، كاحتجاج مريضة

واما رضانا بالقضـاء فانما أمرنا بأن نرضى بمثل المصيبة

كسقم ، وفقر ، ثم ذل ، وغربة وما كان من مؤذ ، بدون جريمة

فأما الافاعيل التى كرهت لنـا فلا ترتضى ، مسخوطة لمشيئة

وقد قال قوم من اولى العلم: لارضاً

بفعل المعـاصي والذنوب الكبـيرة

وقال فريـق : نرتضى بقضائه ولانرتضي المقضى اقبح خصلة

وقال فريق نرتضي باضـافـة اليه . وما فينا فنلقى بسخطة

كما انها للرب خلق ، وانهـا لمخلوقة ، ليست كفعل الغريزة

فنرضى من الوجه الذي هو خلقه

ونسخط من وجه اكتساب الخطيئة

ومعصية العبـد المكلف تركه لمـا امر المولى ، وإن بمشيئة

فان إله الخلق حق مقاله بأن العباد فى جحيم وجنة

كما انهم فى هذه الدار هكذا بل البهم فى الآلام ايضاً ونعمة

وحكمته العليا اقتضت مااقتضت من الـ

فروق بعـلم ثم ايد ورحمـة

يسوق اولى التعذيب بالسبب الذي

يقدره نحـو العذاب بعـزة

ويهدي اولى التنعيم نحو نعيمهم بأعمال صدق، في رجاء وخشية

وامر إله الخلق بين مابه يسوق أولى التنعيم نحو السعادة

فمن كان من اهل السعادة أثرت

اوامره فيه بتيسير صنعة

ومن كان من اهل الشقاوة لم ينل

بأمر ولا نهى بتقدير شقوة

ولا مخرج للعبد عما به قضى

ولكنه مختار حسن وسوأة

فليس بمجبور عديم الارادة

ولكنه شاء بخلق الارادة

ومن اعجب الأشياء: خلق مشيئة

بها صار مختار الهدى بالضلالة

فقولك: هل اختار تركا لحكمة؟

كقولك: هل اختار ترك المشيئة؟

واختار ان لا اختار فعل ضلالة ولو نلت هذا الترك فزت بتوبة

وذا ممكن، لكنه متوقف على ما يشاء الله من ذي المشيئة

فدونك · فافهم مابه قد أجبت من

معان ، إذا انحلت بفهـم غريزة

اشارت إلى اصل يشير إلى الهدى

ولله رب الخلـق أكمل مدحة

وصلى إله الخلق، جل جـلاله على المصطفى المختار خير البرية

قال شيخ الاسلام

فصـــــل

قد ذكرت في غير موضع ان القدرية « ثلاثة اصناف » :

« قدرية مشركية » و « قدرية مجوسية » ، و « قدرية ابليسية » .

فأما الأولون فهم الذين اعترفوا بالقضاء والقدر، وزعموا ان ذلك يوافق الأمر والنهي ، وقالوا : (لو شاء الله ما اشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء) الى آخر الكلام في سورة الأنعام . (وقالوا : لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء) في سورة النحل ، وفى سورة الزخرف (وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم) .

فهؤلاء يؤول امرهم الى تعطيل الشرائع والأمر والنهي ، مع الاعتراف بالربوبية العامة لكل مخلوق ، وانه ما من دابة الا ربي آخذ بناصيتها ، وهو الذي يبتلي به كثيراً ـــ اما اعتقاداً ، واما حالا ـــ طوائف من الصوفية والفقراء حتى يخرج من يخرج منهم الى الاباحة للمحرمات ، واسقاط الواجبات ورفع

العقوبات وإن كان ذلك لا يستتب لهم وإنما يفعلونه عندموافقة اهوائهم كفعل المشركين من العرب، ثم إذا خولف هوى احد منهم قام فى دفع ذلك متعـديا للحدود غير واقف عند حد، كما كانت تفعل المشركون ايضاً. إذ هذه الطريقـة تتناقض عند تعارض ارادات البشر. فهذا يريد امراً والآخر يريد ضده، وكل من الارادتين مقدرة فلا بد من ترجيح احداهما او غيرهما. او كل منهما من وجه، والا لزم الفساد.

وقد يغلوا اصحاب هذا الطريق حتى يجعلوا عين الموجودات هي الله، كما قد ذكر فى غير هذا الموضع. ويتمسكون بموافقة الارادة القدرية فى السيئات الواقعة منهم ومن غيرهم، كقول الحسريري: انا كافر برب يعصى، وقول بعض اصحابه لما دعاه مكاس فقيل له هو مكاس. فقال: ان كان قد عصى الأمر فقد اطاع الارادة، وقول ابن اسرائيل:

اصبحت منفعلا لما يختاره منى؛ ففعلي كله طاعات

وقد يسمون هذا حقيقة باعتبار انه حقيقة الربوبية، والحقيقـة الموجودة الكائنة. او الحقيقة الخبرية، ولما كان فى هؤلاء شوب من النصارى والنصارى فيهم شوب من الشرك تابعوا المشركين فى ما كانوا عليه من التمسك بالقدر المخالف للشرع. هذا مع انهم يعبدون غير الله الذي قـدر الكائنات كما ان هؤلاء فيهم شوب من ذلك.

وإذا اتسع زنادقتهم الذين هم رؤساؤهم قالوا : ما نعبد إلا الله إذلاموجود غيره . وقال رئيس لهم انما كفر النصارى لأنهم خصصوا ، فيشرعون عبادة كل موجود بهذا الاعتبار ، ويقررون ما كان عليه المشركون من عبادة الأوثان ، والأحجار؛ لكنهم يستقصرونهم حيث خصصوا العبادة ببعض المظاهر والأعيان. ومعلوم ان هذا حاصل في جميع المشركين؛فانهم متفننون فى الآلهة التي يعبدونها وان اشتركوا فى الشرك ؛ هذا يعبد الشمس وهذا يعبد القمر ، وهذا يعبد اللاة وهذا يعبد العزى وهذا يعبد مناة الثالثة الأخرى . فكل منهم يتخذ إلهه هواه ويعبد ما يستحسن وكذلك فى عبادة قبور البشر كل يعلق على تمثال من احسن به الظن .

و « القدرية الثانية » المجوسية : الذين يجعلون لله شركاء في خلقه كما جعل الأولون لله شركاء فى عبادته . فيقولون : خالق الخير غير خالق الشر ، ويقول من كان منهم فى ملتنا : ان الذنوب الواقعة ليست واقعة بمشيئة الله تعالى، وربما قالوا : ولا يعلمها ايضاً ، ويقولون : ان جميع افعال الحيوان واقع بغير قدرته ولا صنعه فيجحدون مشيئته النافذة ، وقدرته الشاملة ؛ ولهذا قال ابن عباس : القدر نظام التوحيد فمن وحد الله وآمن بالقدر تم توحيده ومن وحد الله وكذب بالقدر نقض تكذيبه توحيده . ويزعمون ان هذا هو العدل ويضمون الى ذلك سلب الصفات ويسمونه التوحيد . كما يسمى الأولون التلحيد التوحيد، فيلحد كل منهما فى اسماء الله وصفاته، وهذا يقع كثيراً اما اعتقاداً وإما

حالا فى كثير من المتفقهة والمتكلمة . كما وقع اعتقاد ذلك فى المعتزلة والشيعة المتأخرين، وابتلى ببعض ذلك طوائف من المتقدمين من البصريين والشاميين ، وقد يبتلي به حالا لا اعتقاداً بعض من يغلب عليه تعظيم الأمر والنهي من غير ملاحظة للقضاء والقدر .

ولما بين الطائفتين من التنافي تجد المعتزلة ابعد الناس عن الصوفية، ويميلون الى اليهود، وينفرون عن النصارى، ويجعلون إثبات الصفات هو قول النصارى بالاقانيم، ولهذا تجدهم يذمون النصارى اكثر كما يفعل الجاحظ وغيره، كما ان الأولين يميلون إلى النصارى اكثر .

ولهذا كان هؤلاء فى الحروف والكلام المبتدع كما كان الأولون فى الأصوات والعمل المبتدع ،كما اقتسم ذلك اليهود والنصارى؛ واليهود غالبهم قدرية بهذا الاعتبار ؛ فانهم اصحاب شريعة وهم معرضون عن الحقيقة القدرية . ولهذا تجد ارباب الحروف والكلام المبتدع كالمعتزلة يوجبون طريقتهم ويحرمون ما سواها، ويعتقدون ان العقوبة الشديدة لاحقة من خالفها، حتى انهم يقولون : بتخليد فساق اهل الملل ، ويكفرون من خرج عنهم من فرق الامة ، وهذا التشديد والآصار والاغلال شبه دين اليهود .

وتجد ارباب الصوت والعمل المبتدع لا يوجبون ولا يحرمون ؛ وإنما يستحبون ويكرهون ، فيعظمون طريقهم ويفضلونه ويرغبون فيه حتى يرفعوه

فوق قدره بدرجات . فطريقهم رغبة بلا رهبة إلا قليلا ، كما ان الاول رهبة فى الغالب برغبة يسيرة وهذا يشبه ما عليه النصارى من الغلو فى العبادات التى يفعلونها مع انحلالهم من الايجاب والاستحباب لكنهم يتعبدون بعبادات كثيرة ويبقون ازماناً كثيرة على سبيل الاستحباب . والفلاسفة يغلب عليهم هذا الطريق ، كما ان المتكلمين يغلب عليهم الطريق الاول .

و (القسم الثالث) : القدرية الابليسية الذين صدقوا بأن الله صدر عنه الامران . لكن عندهم هذا تناقض ، وهم خصماء الله كما جاء فى الحديث . وهؤلاء كثير فى اهل الاقوال والافعال من سفهاء الشعراء ونحوهم من الزنادقة، كقول ابى العلاء المعري .

أنهيت عن قتل النفوس تعمداً وزعمت ان لها معاداً آتياً
ما كان اغناها عن الحالين[1] .

وقول بعض السفهاء الزنادقة : يخلق نجوما ويخلق بينها اقمار . يقول ياقوم غضوا عنهم الابصار . ترمي النسوان ، وتزعق معشر الحضار . اطفوا الحريق، وبيدك قد رميت النار .

ونحو ذلك مما يوجب كفر صاحبه وقتله .

---

(١) سقط بعض قول المعرى لخرم في الاصل

فتدبر كيف كانت الملل الصحيحة الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئون ، ليس فيها فى الاصل قدرية ؛ وإنما حدثت القدرية من الملتين الباطلتين : المجوس ، والذين اشركوا . لكن النصارى ومن ضارعهم مالوا الى الصابئة، واليهود ومن ضارعهم[1] .

---

(١) خرم في الاصل

سئل شيخ الاسلام

مفتى الأنام بقية السلف : ابو العباس احمد بن تيمية ـــ رحمه الله تعالى ـــ

عن أقوام يحتجون بسابق القدر . ويقولون : إنه قد مضى الأمر ،والشقى شقي ، والسعيد سعيد ، محتجين بقول الله سبحانه : (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى اولئك عنها مبعدون) قائلين بأن الله قدر الخير والشر ، والزنا مكتوب علينا . ومالنا فى الأفعال قدرة ، وإنما القدرة لله ، ونحن نتوقى ما كتب لنا ،وان آدم ما عصى ، وان من قال : لا إله الا الله دخل الجنة ، محتجين بقوله صلى الله عليه وسلم : « من قال : لا إله الا الله دخل الجنة . وإن زنى وإن سرق » فبينوا لنا فساد قول هذه الطائفة بالبراهين القاطعة ؟.

فأجاب : ـــ رحمه الله تعالى ـــ الحمد لله رب العالمين : هؤلاء القوم اذا أصروا على هذا الاعتقاد كانوا اكفر من اليهود والنصارى ؛ فان اليهود والنصارى يؤمنون بالأمر والنهي ، والوعد والوعيد ، والثواب والعقاب ، لكن حرفوا وبدلوا وآمنوا ببعض وكفروا ببعض . كما قال الله تعالى : (ان الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون ان يفرقون بين الله ورسله ، ويقولون : نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، ويريدون ان يتخذوا بين ذلك سبيلاً . اولئك هم

الكافرون حقاً واعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً . والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين احد منهم أولئك سوف يؤتيهم اجورهم . وكان الله غفوراً رحيماً) . فاذا كان من آمن ببعض وكفر ببعض فهو كافر حقاً ، فكيف بمن كفر بالجميع . ولم يقر بأمر الله ونهيه ووعده ووعيده ؛ بل ترك ذلك محتجاً بالقدر، فهو اكفر ممن آمن ببعض وكفر ببعض .

وقول هؤلاء يظهر بطلانه من وجوه :

(احدها) : ان الواحد من هؤلاء اما أن يرى القدر حجة للعبد . وإما ان لا يراه حجة للعبد ، فان كان القدر حجة للعبد ، فهو حجة لجميع الناس ، فانهم كلهم مشتركون فى القدر ، وحينئذ فيلزم ان لا ينكر على من يظلمه ويشتمه ويأخذ ماله ويفسد حريمه ويضرب عنقه ويهلك الحرث والنسل ، وهؤلاء جميعهم كذابون متناقضون ؛ فان احدهم لا يزال يذم هذا ، ويبغض هذا ، ويخالف هذا ، حتى ان الذي ينكر عليهم يبغضونه ويعادونه وينكرون عليه . فان كان القدر حجة لمن فعل المحرمات وترك الواجبات لزمهم ان لا يذموا احداً ، ولا يبغضوا احداً ، ولا يقولوا في احد : انه ظالم . ولو فعل ما فعل. ومعلوم ان هذا لا يمكن احداً فعله ، ولو فعل الناس هذا لهلك العالم ، فتبين ان قولهم فاسد فى العقل . كما انه كفر فى الشرع . وانهم كذابون مفترون فى قولهم : ان القدر حجة للعبد .

(الوجه الثاني) : ان هذا يلزم منه ان يكون ابليس وفرعون وقوم نوح

وعاد وكل من اهلكه الله بذنوبه معذوراً ، وهذا من الكفر الذي اتفق عليه ارباب الملل .

(الوجه الثالث) : ان هذا يلزم منه ان لا يفرق بين اولياء الله وأعداء الله ، ولا بين المؤمنين والكفار ، ولا اهل الجنة واهل النار . وقد قال تعالى : (وما يستوى الأعمى والبصير . ولا الظلمات ولا النور . ولا الظل ولا الحرور . وما يستوى الأحياء ولا الأموات) وقال تعالى : (ام نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض ام نجعل المتقين كالفجار) وقال تعالى : (ام حسب الذين اجترحوا السيئات ان نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون) .

وذلك أن هؤلاء جميعهم سبقت لهم عند الله السوابق ، وكتب الله مقاديرهم قبل ان يخلقهم ، وهم مع هذا قد انقسموا الى سعيد بالايمان والعمل الصالح ، والى شقي بالكفر والفسق والعصيان ، فعلم بذلك ان القضاء والقدر ليس بحجة لأحد على معاصي الله .

(الوجه الرابع) : أن القدر نؤمن به ولا نحتج به ، فمن احتج بالقدر فحجته داحضة ، ومن اعتذر بالقدر فعذره غير مقبول ، ولو كان الاحتجاج مقبولا لقبل من ابليس وغيره من العصاة ، ولو كان القدر حجة للعباد لم يعذب احد من الخلق ، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، ولو كان القدر حجة لم تقطع يد

سارق ، ولا قتل قاتل ، ولا أقيم حد على ذي جريمة ، ولا جوهد في سبيل الله ولا امر بالمعروف ، ولا نهي عن المنـكر .

(الوجه الخامس) : ان النـبي صلى الله عليـه وسـلم سئل عن هذا فلنه قال : « ما منكم من احد الا وقد كتب مقعده من الجنة ، ومقعده من النار » فقيل : يا رسول الله ! افلا ندع العمل ونتكل على الكتاب ؟ قال : « لا . اعملوا فـكل ميسر لما خلق له » . رواه البخاري ومسلم . وفى حديث آخر فى الصحيح « انه قيل : يا رسول الله ! أرأيت ما يعمل الناس فيه ويكدحون ، افيما جفت به الاقلام وطويت به الصحف؟ امفيما يستأنفون مماجاءهم به؟ ــ او كما قيل ــ فقال : بل فيما جفت به الأقلام ، وطويت به الصحف ، فقيل ففيم العمـل ؟ فقال : اعملوا فـكل ميسر لما خلق له » .

(الوجه السادس) : أن يقال : ان الله علم الامور وكتبها على ماهي عليه ؛ فهو سبحانه قد كتب ان فلاناً يؤمن، ويعمل صالحاً فيدخل الجنة،وفلاناً يعصي ويفسق فيدخل النار ؛ كما علم وكتب ان فلاناً يتزوج امرأة ويطؤها فيأتيه ولد وان فلاناً يأ كل ويشرب فيشبع ويروى ، وان فلاناً يبذر البذر فينبت الزرع . فمن قال : ان كنت من اهل الجنة فأنا ادخلها بلا عمـل صالح ، كان قوله قولا باطلاً متناقضاً ؛ لانه علم انه يدخل الجنة بعمله الصالح ، فلو دخلها بلا عمل كان هذا مناقضاً لما علمه الله وقدره .

ومثال ذلك من يقول : انا لا اطأ امرأة ، فان كان قـد قضى الله لي بولد فهو يولد ، فهذا جاهل ، فان الله اذا قضى بالولد قضى ان اباه يطأ امرأة فتحبل فتلد ، واما الولد بلا حبل ولا وطىء فان الله لم يقدره ولم يكتبه ، كذلك الجنة انما اعدها الله للمؤمنين ، فمن ظن انه يدخل الجنة بلا ايمان كان ظنه باطلاً ، واذا اعتقد ان الأعمال التى امر الله بها لا يحتاج اليها ، ولا فرق بين ان يعملها او لا يعملها ، كان كافراً ، والله قد حرم الجنة على الكافرين ، فهذا الاعتقاد يناقض الايمان الذي لا يدخل صاحبه النار .

فصـــــل

وأما قوله تعالى : (ان الذين سبقت لهم منا الحسنى اولئك عنها مبعدون) فمن سبقت له من الله الحسنى : فلا بد ان يصير مؤمناً تقياً ، فمن لم يكن من المؤمنين لم يسبق له من الله حسنى ، ولكن اذا سبقت للعبدمن اللهسابقة استعمله بالعمل الذي يصل به الى تلك السابقة ، كمن سبق له من الله ان يولد له ولد . فلا بد ان يطأ امرأة يحبلها ، فان الله سبحانه قدر الاسباب والمسببات ، فسبق منه هذا وهذا ؛ فمن ظن ان احداً سبق له من الله حسنى بلا سبب فقد ضل ، بل هو سبحانه ميسر الاسباب والمسببات ، وهو قد قدر فيما مضى هذا وهذا .

فصل

وأما قول القائل : مالنا في جميع افعالنا قدرة فقد كذب ، فان الله سبحانه فرق بين المستطيع القادر وغير المستطيع ، فقال : (فاتقوا الله ما استطعتم) وقال : (ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا) وقال تعالى :(الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة) . والله قد أثبت للعبد مشيئة وفعلاً . كما قال تعالى : (لمن شاء منكم ان يستقيم ، وما تشاءون الا ان يشاء الله رب العالمين) وقال : (جزاء بما كنتم تعملون) ؛ لكن الله سبحانه خالقه وخالق كل ما فيه من قدرة ومشيئة وعمل ، فانه لا رب غيره . ولا اله سواه ، وهو خالق كل شيء وربه ومليكه .

فصــــــل

وأما قول القائل : الزنا وغــيره من المعاصي مكتوب علينــا ؛ فهو كلام صحيــح ، لكن هــذا لاينفعه الاحتجــاج به ؛ فان الله كتب افعال العباد خيرها وشرها ، وكتب ما يصيرون إليه من الشقاوة والسعادة . وجعل الاعمال سبباً للثواب والعقــاب ، وكتب ذلك ، كما كتب الامراض وجعلهــا سبباً للموت وكما كتب اكل السم وجعله سبباً للمرض والموت ، فمن اكل السم فانه يمرض أو يموت . والله قــدر وكتب هــذا وهذا ؛ كذلك من فعــل ما نهي عنــه من الكفر والفسق والعصيان فانه يعمل ما كتب عليه ، وهو مستحق لما كتبه الله من الجزاء لمن عمل ذلك .

وحجة هؤلاء بالقدر على المعاصي من جنس حجة المشركين ، الذين قال الله عنهم : (وقال الذين اشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء كذلك فعل الذين من قبلهم) وقال تعالى: (سيقول الذين اشركوا لو شاء الله ما اشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء) قال الله تعالى : (كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن انتـم الا تخرصون . قــل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهدا كم اجمعين) .

فصـــــل

ومن قال : ان آدم ما عصى فهو مكذب للقرآن . ويستتاب فان تاب وإلا قتل ؛ فان الله قال : (وعصى آدم ربه فغوى) والمعصية : هي مخالفة الامر الشرعي ، فمن خالف امر الله الذي ارسل به رسله ، وأنزل به كتبه فقدعصى، وإن كان داخلاً فيما قدره الله وقضاه ، وهؤلاء ظنوا ان المعصية هي الخروج عن قدر الله ، وهذا لا يمكن ، فان احداً من المخلوقات لا يخرج عن قدر الله ، فان لم تكن المعصية الا هذا فلا يكون ابليس وفرعون وقوم نوح وعاد وثمود وجميع الكفار عصاة ايضاً ؛ لانهم داخلون فى قدر الله ، ثم قائل هذا يضرب ويهان ، واذا تظلم ممن فعل هذا به قيل له : هذا الذي فعل هذا ليس بعاص فانه داخـل فى قدر الله كسائر الخلـق ، وقائل هـذا القول متناقض لا يثبت على حال .

فصـــل

وأما قول القائل : من قال : لا اله الا الله دخـل الجنة ؟ واحتجـاجه بالحديث المذكور .

فيقال له : لا ريب ان الكتاب والسنة فيهما وعد ووعيد ، وقد قال الله تعالى : (ان الذين يأكلون اموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعـيرا) وقال الله تعـالى : (يا أيهـا الذين آمنوا لا تأكلوا أموالـكم بينكم بالباطل الا ان تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا انفسكم إن الله كان بكم رحيماً ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً فسوف نصليه ناراً وكان ذلك على الله يسيرا) . ومثل هـذا كثير فى الكتاب والسنة ، والعبد عليه ان يصدق بهذا وبهذا، لايؤمن ببعض ويكفر ببعض ، فهؤلاء المشركون ارادوا أن يصدقوا بالوعد ، ويكذبوا بالوعيد .

« والحرورية والمعتزلة » : ارادوا ان يصدقوا بالوعيد دون الوعد ، وكلاهما اخطأ ، والذي عليه اهل السنة والجماعة الايمان بالوعد والوعيد،فكما ان ما توعد الله به العبد من العقاب ، قد بين سبحانه انه بشروط : بأن لايتوب ، فان تاب تاب الله عليه . وبأن لا يكون له حسنات تمحو ذنوبه ؛ فان الحسنات يذهبن

السيئات وبأن لا يشــاء الله ان يغفر له (فان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) . فهكذا الوعـد له تفسير وبيـان . فمــن قال بلسانه : لا اله الا الله . وكذب الرسول فهو كافر باتفاق المسلمين ، وكذلك إن جحد شيئاً مما أنزل الله .

فلا بد من الايمان بكل ما جاء به الرسول ، ثم إن كان من اهل الكبار فأمره الى الله إن شاء عذبه ، وإن شاء غفر له ؛ فان ارتد عن الاسلام ومات مرتداً كان فى النار ، فالسيئات تحبطها التوبة ، والحسنات تحبطها الردة ، ومن كان له حسنات وسيئات فان الله لا يظلمه ، بل من يعمل مثقـال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره . والله تعالى قد يتفضل عليه ويحسن إليه بمغفرته ورحمته .

ومن مات على الايمان فانه لا يخلد فى النار . فالزاني والسارق لا يخلد فى النار ، بل لا بد ان يدخل الجنة . فان النار يخرج منها من كان فى قلبه مثقـال ذرة من ايمـان ، وهؤلاء المسؤول عنهـم يسمون : القدريـة المباحية المشركين . وقد جاء فى ذمهـم من الآثار ما يضيق عنه هـذا المكان والله سبحـانه وتعالى أعـلم وصـلى الله عـلى سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم وحسبنا الله ونعم الوكيل.

سئل شيخ الاسلام قدس الله روحه

عن قوم قد خصوا بالسعادة ، وقوم قد خصوا بالشقاوة ، والسعيدلايشقى والشقي لايسعد،وفى الأعمال لاتراد لذاتها ، بل لجلب السعادة ، ودفع الشقاوة وقد سبقنا وجود الأعمال ، فلا وجه لاتعاب النفس فى عمل ، ولا كفها عن ملذوذ ، فان المكتوب في القدم واقع لا محالة بينوا ذلك ؟ ؟

فأجاب رحمه الله : الحمد لله .

هذه « المسألة » قد أجاب فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم في غير حديث ففي الصحيحين عن عمران بن حصين قال : « قيل يا رسول الله ! اعلم أهل الجنة من أهل النار ؟ قال : نعم . قيل : ففيم يعمل العاملون ؟ قال : كل ميسر لما خلق له » وفى رواية البخاري « قلت : يا رسول الله كل يعمل لما خلق له او لما يسر له » رواه مسلم فى صحيحه عن ابي الأسودالدؤلي قال : قال لي عمران بن حصين : أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه ، أشيء قضي عليهم ومضى عليهم من قدر سابق ، او فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم وثبتت الحجة عليهم ؟ فقلت : بل شيء قضى عليهم ومضى عليهم ، قال: فقال : افلا يكون ذلك ظلماً . قال : ففزعت من ذلك فزعاً شديداً . وقلت :

كل شيء خلق الله وملك يده فلا يسأل عما يفعل وهم يسألون . فقال : يرحمك الله! اني لم ارد بما سألتك الا لأجود عقلك ، ان رجلين من مزينة اتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالا: يا رسول الله! أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه اشيء قضى عليهم ومضى فيهم من قدر سابق او فيما يستقبلون به مما آتاهم بـه نبيهم وثبتت الحجة عليهم ؟ فقال : لا ، بل شيء قضى عليهم ، ومضى فيهم . وتصديق ذلك في كتاب الله (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها) .

وروى مسلم في صحيحه عن زهير عن ابي الزبير عن جابر بن عبد الله قال: جاء سراقة بن مالك بن جعشم فقال : « يا رسول الله ! بين لنا ديننا كأنا خلقنا الآن ، فيم العمل اليوم ؟ افيما جفت به الاقلام وجرت به المقـادير ؟ ام فيما يستقبل ؟ قال : لا ؛ بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير ، قال : ففيم العمل ؟ قال زهير : ثم تـكلم ابو الزبير بشيء لم افهمه فسألت : عما قـال ؟ فقال : اعملوا فـكل ميسر »وفي لفظ آخر « فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم كل عامل ميسر بعمله » .

وفي الصحيحين عن علي بن ابي طالب رضي الله عنه قال« كنا في جنازة في بقيع الغرقد فأتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقعد وقعدنا حوله ، ومعـه مخصرة فنكس فجعل ينكت بمخصرته ، ثم قال : ما منكم من احد ، ما من نفس منفوسة الا وقد كتب الله مكانها من الجنة والنار ، الا وقد كتبت شقية اوسعيدة فقـال : رجل يا رسول الله ! افلا نتكل على كتابنا وندع العمل ، من كان

من اهل السعادة فسيصير الى عمل اهل السعادة ومن كان من اهــل الشقاوة فسيصير الى عمل أهل الشقاوة فقال : اعملوا فكل ميسر ، أما اهـل السعادة فـييسرون لعمل اهل السعادة ، واما اهل الشقاوة فـييسرون الى عمـل اهل الشقاوة . ثم قرأ (فأما مــن اعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى . وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى) وفى رواية البخاري « افلا نتكل على كتابنا وندع العمل ؟ فمن كان منا من اهل السعادة سيصير الى عمل اهل السعادة ومن كان من اهل الشقاوة سيصير الى عمل اهل الشقاوة . وقال : اما عمل اهل السعادة » الحديث .

وفى رواية فى الصحيحين عن علي قال : « كان رسول الله صلى الله عليـه وسلم ذات يوم وفى يده عود ينكت به فرفع رأسه فقال : ما منكم من نفس الا وقد علم منزلها من الجنة والنار ، فقالوا : يا رسول الله ! فلم نعمل،او لا نتكل ؟ قال : لا! اعمــلوا، فكل ميسر لما خلق له ، ثم قرأ (فأما مــن اعطى واتقى وصدق بالحسنى) الى قوله: (فسنيسره للعسرى) .

فقد اخبر النبي صلى الله عليه وسلم فى هذه الأحاديث وغيرها بما دل عليه القرآن ايضاً من ان الله سبحانه وتعالى تقدم علمه وكتابه وقضاؤه بما سيصير اليه العباد من السعادة والشقاوة . كما تقدم علمه وكتابه بغير ذلك من احوال العبــاد وغـيرهم كما فى الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال : « حدثنــا رسول الله صلى الله عليه وسلم ـــ وهو الصادق المصدوق ـــ : ان احدكم يجمع خلقه فى

بطن امه اربعين يوماً نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله ملكا بأربع كلمات فيكتب عمله واجله ورزقه وشقي او سعيد، ثم ينفخ فيه الروح، فوالذي لا اله غيره! إن احدكم ليعمل بعمل اهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها الا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل اهل النار فيدخلها. وإن احدكم ليعمل بعمل اهل النار حتى ما يكون بينه وبينها الا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل اهل الجنة فيدخلها» وفى الصحيحين عن انس بن مالك ورفع الحديث قال: «ان الله وكل بالرحم ملكا فيقول: اي رب نطفة! اي رب علقة! اي رب مضغة! فاذا اراد ان يقضي خلقه قال الملك اي رب! ذكر، او انثى؟ شقي او سعيد؟ فما الرزق؟ فما الأجل؟ فيكتب ذلك في بطن امه».

وهذا المعنى فى صحيح مسلم من حديث حذيفة بن اسيد الغفاري ايضاً.

والنصوص والآثار فى تقدم علم الله وكتابته وقضائه وتقديره الاشياء قبل خلقها، وانواعها كثيرة جداً.

وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم ان ذلك لاينافى وجود الأعمال التى بها تكون السعادة والشقاوة، وان من كان من اهل السعادة فانه ييسر لعمل اهل السعادة، ومن كان من اهل الشقاوة فانه ييسر لعمل اهل الشقاوة، وقد نهى ان يتكل الانسان على القدر السابق ويدع العمل؛ ولهذا كان من اتكل

على القدر السابق وترك ما امر به من الاعمال هو من الاخسرين اعمالا ، الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا ، وكان تركهم لما يجب عليهم من العمل من جملة المقدور الذي يسروا به لعمل اهل الشقاوة ، فان اهل السعادة هم الذين يفعلون المأمور ويتركون المحظور ، فمن ترك العمل الواجب الذي امر به وفعل المحظور متكلا على القدر كان من جملة اهل الشقاوة الميسرين لعمل اهل الشقاوة .

وهذا الجواب الذي اجاب به النبي صلى الله عليه وسلم فى غاية السداد والاستقامة ، وهو نظير ما اجاب به فى الحديث الذي رواه الترمذي « انه قيل : يارسول الله : أريت ادوية نتداوى بها ؟ ورقى نسترقي بها ؟ وتقاة نتقيها . هل ترد من قدر الله شيئاً ؟ فقال : هي من قدر الله » . وذلك لان الله سبحانه وتعالى هو يعلم الأشياء على ماهي عليه وكذلك يكتبها ، فاذا كان قد علم انها تكون بأسباب من عمل وغيره وقضى انها تكون كذلك وقدر ذلك لم يجز ان يظن ان تلك الأمور تكون بدون الاسباب التى جعلها الله اسبابا ، وهذا عام فى جميع الحوادث .

مثال ذلك : إذا علم الله وكتب انه سيولد لهذين ولد ، وجعل الله سبحانه ذلك معلقا باجتماع الابوين على النكاح وإنزال الماء المهين الذي ينعقد منه الولد ، فلا يجوز ان يكون وجود الولد بدون السبب الذي علق بـه وجود الولد ، والاسباب وان كانت « نوعين » معتادة ، وغريبة .

فالمعتادة: كولادة الآدمي من ابوين، والغريبة: كولادة الانسان من ام فقط كما ولد عيسى، او من أب فقط كما ولدت حواء، او من غير ابوين كما خلق آدم ابو البشر من طين.

فجميع الاسباب قد تقدم علم الله بها وكتابته لها، وتقديره اياها، وقضاؤه بها. كما تقدم [ربط] ذلك بالمسببات ، كذلك ايضا الاسباب التى بها يخلق النبات من انزال المطر وغيره من هذا الباب ، كما قال تعالى : (وما انزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة) وقال : (فأنزلنا به الماء فاخرجنا به من كل الثمرات) . وقال : (وجعلنا من الماء كل شيء حي) وامثال ذلك . فجميع ذلك مقدر معلوم ، مقضى مكتوب قبل تكوينه ؛ فمن ظن ان الشيء إذا علم وكتب انه يكفي ذلك فى وجوده ولا يحتاج الى مابه يكون من الفاعل الذي يفعله وسائر الأسباب ؛ فهو جاهل ضال ضلالا مبينا ؛ من وجهين .

(احدها) من جهة كونه جعل العلم جهلا ؛ فان العلم يطابق المعلوم ؛ ويتعلق به على ماهو عليه ؛ وهو سبحانه قد علم ان المكونات تكون بما يخلقه من الاسباب لأن ذلك هو الواقع فمن قال : انه يعلم شيئاً بدون الاسباب ؛ فقد قال على الله الباطل، وهو بمنزلة من قال : ان الله يعلم ان هذا الولد ولد بلا ابوين، وان هذا النبات نبت بلا ماء ، فان تعلق العلم بالماضي والمستقبل سواء ، فكما ان من اخبر عن الماضي بعلم الله بوقوعه بدون الاسباب يكون مبطلا ؛ فكذلك من اخبر عن المستقبل كقول القائل : ان الله علم انه خلق آدم من غير طين، وعلم

انه يتناسل الناس من غير تناكح ؛ وانه أنبت الزروع من غير ماء ولا تراب فهو باطل ظاهر بطلانه لكل احد ، وكذلك اخباره عن المستقبل .

وكذلك « الاعمال » هي سبب فى الثواب والعقاب . فلو قال قائل : إن الله اخرج آدم من الجنة بلا ذنب ، وانه قدر ذلك او قال : إنه غفر لآدم بلا توبة وانه علم ذلك ، كان هذا كذبا وبهتانا بخلاف ما اذا قال : (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه) (فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة) فانه يكون صادقا فى ذلك . والله سبحانه علم ما يكون من آدم قبل ان يكون وهو عالم به بعد ان كان .

وكذلك كل ما اخبر به من « قصص الانبياء » فانه علم انه اهلك قوم نوح وعاد وثمود وفرعون ولوط ومدين وغيرهم بذنوبهم ، وانه نجى الانبياء ومن اتبعهم بايمانهم وتقواهم ، كما قال : (فلما نسوا ماذكروا به انجينا الذين ينهون عن السوء واخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون) وقال : (فكلا اخذنا بذنبه فمنهم من ارسلنا عليه حاصباً ومنهم من اخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الارض ومنهم من اغرقنا) الآية وقال : (ذلك جزيناهم ببغيهم) وقال : (فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق) وقال : (فاهلكناهم بذنوبهم وانشأنا من بعدهم قرنا آخرين) وقال : (فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون . وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون) وقال : (وكذلك اخذ ربك إذا اخذ القرى وهي ظالمة إن اخذه أليم شديد) وقال :

(وكذلك مكنا ليوسف فى الارض يتبوأ منهــا حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع اجر المحسنين) وقال : (ذرية من حملنا مع نوح انه كان عبداً شكوراً) وقال: (إلا آل لوط نجيناهم بسحر نعمة من عندنا، كذلك نجزى من شكر) وقال : (وتمت كلمة ربك الحسنى على بني اسرائيل بما صبروا) وامثال ذلك فى القرآن كثير .

وكذلك خبره عما يكون من السعادة والشقاوة بالاعمال كقوله : (كلوا واشربوا هنيئاً بما اسلفتم فى الايام الخالية) وقوله تعالى : (وتلك الجنــة التى اورثتموها بما كنتم تعملون) وقوله : (والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهــم بايمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء) وقوله : (اني جزيتهــم اليوم بما صبروا انهم هم الفائزون) وقوله : (وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً) الآيات . وقوله : (هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون) وقوله: (ما سلككم فى سقر ؟ قالوا : لم نك من المصلين ، ولم نك نطعم المسكين ، وكنا نخوض مع الخائضين. وكنا نكذب بيوم الدين حتى اتانا اليقين . فما تنفعهم شفاعة الشافعين .) وامثال هذا فى القرآن كثير جداً .

بين سبحانه فيما يذكره من سعادة الآخرة ، وشقاوتها : ان ذلــك كان بالاعمال المأمور بها والمنهي عنهــا ، كما يذكر نحو ذلك فيما يقضيــه من العقوبات والمثوبات فى الدنيا ايضا .

و (الوجه الثاني) : ان العلم بأن الشيء سيكون والخبر عنه بذلك وكتابة ذلك لا يوجب استغناء ذلك عما بـه يكون من الاسباب الـتى لايتم الا بها ، كالفاعل وقدرته ومشيئته ؛ فان اعتقاد هذا غاية فى الجهل ، اذ هذا العلم ليس موجبا بنفسه لوجود المعلوم باتفاق العلماء ؛ بل هو مطابق له على ماهو عليه لايكسبه صفة ولا يكتسب منه صفـة بمنزلة علمنا بالامور التى [قبلنا] كالموجودات التى كانت قبل وجودنا مثل علمنا بالله وأسمائه وصفاته ، فان هذا العلم ليس مؤثراً فى وجود المعلوم باتفاق العلماء ، وان كان من علومنـا ما يكون له تأثير فى وجود المعلوم كعلمنا بما يدعونا الى الفعـل ويعرفنا صفته وقدره ؛ فان الافعال الاختيارية لاتصدر الا ممن له شعور وعلم ، اذ الارادة مشروطة بوجود العلم ، وهذا التفصيل الموجود فى علمنا بحيث ينقسم الى علم فعلي له تأثير فى المعلوم ، وعلم انفعالي لا تأثير له فى وجود المعـلوم ، هو فصل الخطاب في العلم .

فان من الناس من يقول : «العلم» صفة انفعالية لا تأثير له فى المعلوم ؛ كما يقوله طوائف من اهل الكلام ، ومنهم من يقول بل هـو صفة فعلية له تأثير فى المعلوم كما يقوله طوائف من اهل الفلسفة والكلام .

والصواب أنه « نوعان » كما بيناه ـــ وهكذا علم الرب تبارك وتعالى ، فان علمه بنفسه سبحانه لاتأثير له فى وجود المعـلوم ، واما علمه بمخلوقاته التى خلقها بمشيئته وارادته فهو مماله تأثير فى وجود معلوماته . والقول في

الكلام والكتاب كالقول في العلم : فانه سبحانه وتعالى اذا خلق الشيء خلقه بعلمه وقدرته ومشيئته ، ولذلك كان الخلق مستلزما للعلم ودليلا عليه كما قال تعالى : (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) . واما اذا اخبر بما سيكون قبل ان يكون فعلمه وخبره حينئذ ليس هو المؤثر فى وجوده لعلمه وخبره به بعد وجوده لثلاثة اوجه :

(احدها) : ان العلم والخبر عن المستقبل كالعلم والخبر عن الماضي .

(الثانى) : ان العلم المؤثر هو المستلزم للارادة المستلزمة للخلق ليس هو مايستلزم الخبر . وقد بينا الفرق بين العلم العملي والعلم الخبري .

(الثالث) انه لو قدر ان العلم والخبر بما سيكون له تأثير فى وجود المعلوم المخبر به فلا ريب انه لابد مع ذلك من القدرة والمشيئة . فلا يكون مجرد العلم موجباً له بدون القدرة والارادة . فتبين ان العلم والخبر والكتاب لا يوجب الاكتفاء بذلك عن الفاعل القادر المريد ، مما يدل على ذلك ان الله سبحانه وتعالى يعلم ويخبر بما سيكون من مفعولات الرب ، كما يعلم انه سيقيم القيامة ويخبر بذلك ، ومع ذلك فمعلوم ان هذا العلم والخبر لا يوجب وقوع المعلوم المخبر به بدون الاسباب التى جعلها الله اسباباً له .

اذا تبين ذلك فقول السائل : السعيد لايشقى ، والشقي لا يسعد ،

كلام صحيح : اي من قدر الله ان يكون سعيداً يكون سعيداً ، لكن بالاعمال التي جعله يسعد بها ، والشقي لا يكون شقياً إلا بالاعمال التى جعله يشقى بها التى من جملتها الاتكال على القدر . وترك الاعمال الواجبة .

واما قوله : والاعمال لاتراد لذاتها بل لجلب السعادة ودفع الشقاوة وقد سبقنا وجود الاعمال ، فيقال له : السابق نفس السعادة والشقاوة ، او تقدير السعادة والشقاوة علما وقضاء وكتاباً ، هذا موضع يشتبه ويغلط فيه كثير من الناس حيث لايميزون بين ثبوت الشيء فى العلم والتقدير ، وبين ثبوته فى الوجود والتحقيق .

فان الاول هو العلم به والخبر عنه ، وكتابته . وليس شيء من ذلك داخلا فى ذاته ولا فى صفاته القائمة به .

ولهذا يغلط كثير من الناس فى قول النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح الذى رواه ميسرة قال : « قلت : يارسول الله ! متى كنت نبياً ؟ وفى رواية — متى كتبت نبياً ؟ قال : وآدم بين الروح والجسد » . فيظنون ان ذاته ونبوته وجدت حينئذ . وهذا جهل فان الله إنما نبأه على رأس اربعين من عمره . وقد قال له : (وكذلك اوحينا اليك هذا القرآن وان كنت من قبله لمن الغافلين) وقال : (ووجدك ضالا فهدى) وفي الصحيحين « ان الملك قال له : — حين جاءه — اقرأ فقال : لست بقارىء — ثلاث مرات — » .

ومن قال : ان النبي صلى الله عليه وسلم كان نبياً قبل ان يوحى اليه فهو كافر باتفاق المسلمين . وانما المعنى ان الله كتب نبوته فأظهرها واعلنها بعد خلق جسد آدم . وقبل نفخ الروح فيه ، كما اخبر انه يكتب رزق المولود واجله وعمله وشقاوته وسعادته بعد خلق جسده ، وقبل نفخ الروح فيه كما فى حديث العرباض بن سارية الذي رواه احمد وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « اني عبد الله وخاتم النبيين » وفى رواية اني عبد الله لمكتوب خاتم النبيين ، وان آدم لمجندل فى طينته . وسأنبئكم باول ذلك دعوة ابي ابراهيم ، وبشرى عيسى ورؤيا امي رأت حين ولدتني انه خرج منها نور اضاءت له قصور الشام » .

وكثير من الجهال المصنفين وغيرهم يرويه « كنت نبياً وآدم بين الماء والطين » ، « وآدم لا ماء ولا طين » ويجعلون ذلك وجوده بعينه . وآدم لم يكن بين الماء والطين ، بل الماء بعض الطين لا مقابله.

واذا كان كذلك فان قال : السابق نفس السعادة والشقاوة فقد كذب ؛ فان السعادة إنما تكون بعد وجود الشخص الذي هو السعيد ، وكذلك الشقاوة لاتكون الا بعد وجود الشقى ، كما ان العمل والرزق لا يكون الا بعد وجود العامل ولا يصير رزقا الا بعد وجود المرتزق ، وانما السابق هو العلم بذلك وتقديره لانفسه وعينه ، واذا كان كذلك فالعمل — ايضا — سابق كسبق السعادة والشقاوة ، وكلاهما معلوم مقدر . وهما

متأخران فى الوجود، والله سبحانه علم وقدر ان هذا يعمل كذا فيسعد به وهذا يعمل كذا فيشقى به، وهو يعلم ان هـذا العمل الصالح يجلب السعادة كما يعلم سائر الاسباب والمسببات ، كما يعلم ان هذا يأكل السم فيموت ، وان هذا يأكل الطعام فيشبع ، ويشرب الشراب فيروى ، وظهر فساد قول السائل : فلا وجه لاتعاب النفس فى عمل، ولا لكفها عن ملذوذات، والمكتوب فى القدم واقع لامحالة .

وذلك أن المكتوب فى القدم هو سعادة السعيد لما يسر له من العمل الصالح، وشقاوة الشقي لما يسر له من العمل السيء ، ليس المكتوب احدهما دون الآخر . فما امر به العبد من عمل فيه تعب او امتناع عن شهوة هو من الأسباب التى تنال بها السعادة . والمقدر المكتوب هو السعادة والعمل الذي به ينال السعادة ، وإذا ترك العبد ما امر به متكلا على الكتاب كان ذلك من المكتوب المقدور الذي يصير به شقياً ، وكان قوله ذلك بمنزلة من يقول : انا لا آكل ولاشرب ، فان كان الله قضى بالشبع والري حصل، وإلا لم يحصل او يقول لا اجامع امرأتى فان كان الله قضى لي بولد فانه يكون .

وكذلك من غلط فترك الدعاء او ترك الاستعانة والتوكل ظاناً ان ذلك من مقامات الخاصة ناظراً الى القدر ، فكل هؤلاء جاهلون ضالون ؛ ويشهد لهذا ما رواه مسلم في صحيحه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف وفى كل خير ، احرص على ما ينفعك واستعن

بالله ولا تعجزن وإن اصابك شيء فلا تقل لو انى فعلت لكان كذا وكذا ، ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل ، فان لو تفتح عمل الشيطان » .

فأمره بالحرص على ما ينفعه ، والاستعانة بالله ونهاه عن العجز الذي هو الاتكال على القدر ، ثم امره اذا اصابه شيء ان لا ييأس على ما فاته ، بل ينظر الى القدر ويسلم الأمر لله ، فانه هنا لا يقدر على غير ذلك كما قال بعض العقلاء : الأمور « امران » امر فيه حيلة ، وأمر لاحيلة فيه ، فمافيه حيلةلايعجز عنه ، وما لا حيلة فيه لا يجزع منه .

وفى سنن ابى داود ان رجلين اختصما الى النبي صلى الله عليه وسلم فقضى على احدهما فقال المقضي عليه : حسبنا الله ونعم الوكيل ، فقال : النبي صلى الله عليه وسلم : «إن الله يلوم على العجز ، ولكن عليك بالكيس فاذا غلبك أمر فقل : حسبي الله ونعم الوكيل » . وفى الحديث الآخر « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت،والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الامانى» رواه ابن ماجه والترمذى وقال حديث حسن .

وعن شداد بن اوس قال قال رسول صلى الله عليه وسلم « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله عز وجل » . ومن الناس من يصحفه فيقول الفاجر وإنما هو العاجز

فى مقابلة الكيس ، كما فى الحديث الآخر « كل شيء بقدر حتى العجز والكيس » .

وهنا سؤال يعرض لكثير من الناس وهو : انه إذا كان المكتوب واقعاً لا محالة فلو لم يأت العبد بالعمل هل كان المكتوب يتغير ؟ وهذا السؤال يقال فى مسألة المقتول — يقال لو لم يقتل هل كان يموت ؟ ونحو ذلك .

فيقال هذا لو لم يعمل عملاً صالحاً لما كان سعيداً . ولو لم يعمل عملاً سيئاً لما كان شقياً ، وهذا كما يقال : إن الله يعلم ما كان وما يكون ، وما لايكون لو كان كيف كان يكون ، فان هذا من باب العلم والخبر بما لا يكون لو كان كيف يكون ، كقوله : (لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا) وقوله: (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه) وقوله : (لو خرجوا فيكم ما زادوكم الا خبالاً) وقوله (ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم) وأمثال ذلك كما روى انه يقال للعبد فى قبره حين يفتح له باب الى الجنة والى النار . ويقال : هذا منزلك ، ولو عملت كذا وكذا أبدلك الله به منزلا آخر .

وكذلك يقال هذا لو لم يقتله هذا لم يمت بل كان يعيش الا ان يقدر له سبب آخر يموت به ، واللازم فى هذه الجملة خلاف الواقع المعلوم والمقدور ، والتقدير للممتنع قديلزمه حكم ممتنع ، ولا محذور فى ذلك .

ومما يشبه هذه المسألة ان النبي صلى الله عليه وسلم خرج يوم بدر فأخبر اصحابه بمصارع المشركين فقال: « هذا مصرع فلان، وهذا مصرع فلان، ثم انه دخل العريش، وجعل يجتهد فى الدعاء، ويقول: اللهم انجز لي ما وعدتني». وذلك لان علمه بالنصر. لا يمنع ان يفعل السبب الذي به ينصر، وهو الاستغاثة بالله.

وقد غلط بعض الناس هنا وظن ان الدعاء الذي علم وقوع مضمونه كالدعاء الذي فى آخر سورة البقرة لا يشرع الا عبادة محضة، وهذا كقول بعضهم: ان الدعاء ليس هو الا عبادة محضة؛ لان المقدور كائن دعا او لم يدع.

فيقال له: اذا كان الله قد جعل الدعاء سبباً لنيل المطلوب المقدر فكيف يقع بدون الدعاء؟ وهو نظير قولهم: افلا ندع العمل ونتكل على الكتاب؟

ومما يوضح [ذلك] ان الله قد علم وكتب انه يخلق الخلق ويرزقهم ويميتهم ويحييهم، فهل يجوز ان يظن ان تقدم العلم والكتاب مغن لهذه الكائنات عن خلقه وقدرته ومشيئته، فكذلك علم الله بما يكون من أفعال العباد، وانهم يسعدون بها، ويشقون كما يعلم — مثلاً — ان الرجل يمرض او يموت بأكله السم او جرحه نفسه ونحو ذلك.

وهذا الذي ذكرناه مذهب سلف الامة وأئمتها ، وجمهور« الطوائف » من اهل الفقه والحديث والتصوف والكلام وغيرهم ، وانما نازع فى ذلك غلاة القدرية ، وظنوا ان تقدم العلم يمنع الأمر والنهي ، وصاروا فريقين :

(فريق) اقروا بالأمر والنهي والثواب والعقاب ، وانكروا ان يتقدم بذلك قضاء وقدر وكتاب ، وهؤلاء نبغوا فى اواخر عصر الصحابة فلما سمع الصحابة بدعهم تبرؤا منهم كما تبرؤا منهم ، ورد عليهم عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عباس ، وجابر بن عبد الله ، وواثلة بن الاسقع وغيرهم ، وقد نص « الأئمة » كمالك والشافعي واحمد على كفر هؤلاء الذين ينكرون علم الله القديم .

و (الفريق الثانى) : من يقر بتقدم علم الله وكتابه ، لكن يزعم ان ذلك يغني عن الأمر والنهي والعمل ، وانه لا يحتاج الى العمل ، بل من قضى له بالسعادة دخل الجنة ، بلا عمل اصلا ، ومن قضى عليه بالشقاوة شقى بلا عمل فهؤلاء ليسوا طائفة معدودة من طوائف اهل المقالات ، وانما يقوله كثير من جهال الناس . وهؤلاء اكفر من اولئك واضل سبيلا ، ومضمون قول هؤلاء تعطيل الأمر والنهي والحلال والحرام والوعد والوعيد ، وهؤلاء اكفر من اليهود والنصارى بكثير ، وهؤلاء هم الذين سأل السائل عن مقالتهم .

واما « جمهور القدرية » فهم يقرون بالعلم والكتاب المتقدم ، لكن ينكرون

ان الله خلق افعال العباد ، وارادة الكائنات، وتعارضهم القدرية المجبرة الذين يقولون ليس للعبد قدرة ولا ارادة حقيقية ولا هو فاعل حقيقة . وكل هؤلاء مبتدعة ضلال .

وشر من هؤلاء من يجعل خلق الأفعال ، وإرادة الله الكائنات مانعة من الأمر والنهي كالمشركين الذين قالوا : (لو شاء الله ما اشركنا ولا آباؤنا ولا حرنا من شيء) فهؤلاء اكفر من اليهود والنصارى . ومضمون قولهم : تعطيل جميع ما جاءت به الرسل كلهم من الأمر والنهي .

ثم قولهم متناقض ، معلوم الفساد بالضرورة لا يمكن ان يحيى معه بنو آدم لاستلزامه فساد العباد ، فانه إذا لم يكن على العباد أمر ونهي كان لكل احد ان يفعل ما يهواه كما قال تعالى : (ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والارض) فاذا قيل : انه يمكن كل احد مما يهواه من قتل النفوس وفعل الفواحش واخذ الاموال وغير ذلك ، كان ذلك غاية الفساد ولهذا لا تعيش امة من بنى آدم الا بنوع من الشريعة التى فيها أمر ونهي ، ولوكانت بوضع بعض الملوك مع ما فيها من فساد من وجوه اخرى .

فان قيل : هذا الذي ذكرتموه يبين ان تقدم علم الله وكتابه بالسعادة والشقاوة وغير ذلك من الأمور لا يمنع توقف ذلك على الأعمال والاسباب التى

جعل الله بها تلك الأمور ، وذلك يبين ان ذلك لا يمنع ان يكون العبد عاملا للعمل الصالح الذي به يسعده الله ، وان يكون قادراً على ذلك مريداً له ، وان كان ذلك كله بتيسير الله للعبد — وإن تنازع الناس فى تسمية ذلك جبراً — لكن هل يكون العبد قادراً على غير الفعل الذي فعله الذي سبق به العلم والكتاب: فهذا مما تنازع فيه الناس ، كما تنازعوا في ان الاستطاعة هل يجب ان تكون مع الفعل او يجب ان تتقدمه، فمن قال من اهل الاثبات: ان الاستطاعة لا تكون إلا مع الفعل ، يقول العبد لا يستطيع غير ما يفعله ، وهو ما تقدم به العلم والكتاب . ومن قال : ان الاستطاعة قد تتقدم الفعل ، وقد توجد دون الفعل فانه يقول : انه يكون مستطيعاً لما لم يفعله ، ولما علم وكتب انه لا يفعله .

وفصل الخطاب ، ان « الاستطاعة » جاءت فى كتاب الله على نوعين :

الاستطاعة المشترطة للفعل، وهي مناط الأمر والنهي كقوله تعالى : (ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا) وقوله : (فاتقوا الله ما استطعتم) وقوله : (ومن لم يستطع منكم طولاً ان ينكح المحصنات المؤمنات) الآية (فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين فمن لم يستطع فاطعام ستين مسكيناً) وقوله (وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين) وقول النبي صلى الله عليه وسلم لعمران بن حصين : « صل قائماً ، فان لم تستطع فقاعداً . فان لم تستطع فعلى جنب » . فان الاستطاعة فى هذه النصوص لو كانت لا توجد إلا مع الفعل لوجب ألا يجب الحج إلا على من حج ، ولا يجب صيام شهرين إلا على من

صام ولا القيام في الصلاة إلا على من قام، وكان المعنى: على الذين يصومون الشهر طعام مسكين ، والآية إنما انزلت لما كانوا مخيرين بين الصيام والاطعام فى شهر رمضان .

والاستطاعة التى يكون معها الفعل ، قد يقال هي المقترنة بالفعل الموجبة له — وهي النوع الثاني — وقد ذكروا فيها قوله تعالى : (الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعاً) وقوله تعالى: (يضاعف لهم العذاب ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون) ونحو ذلك قوله : (انا جعلنا فى اعناقهم اغلالاً فهي الى الأذقان فهم مقمحون وجعلنا من بين ايديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون) .

فان الاستطاعة المنفية هنا — سواء كان نفيها خبراً او ابتداء — ليست هي الأستطاعة المشروطة فى الأمر والنهي فان تلك إذا انتفت انتفى الأمر والنهي والوعد والوعيد والحمد والذم والثواب والعقاب ، ومعلوم ان هؤلاء فى هذه الحال مأمورون منهيون موعودون متوعدون ؛ فعلم ان المنفية هنا ليست المشروطة فى الأمر والنهي المذكورة في قوله : (فاتقوا الله ما استطعتم) .

لكن قد يقال : الاستطاعة هنا كالاستطاعة المنفية فى قول الخضر لموسى (انك لن تستطيع معي صبراً) فانهذه الاستطاعة المنفية ، لوكان المراد بها مجرد المقارنة فى الفاعل والتارك لم يكن فرق بين هؤلاء المذمومين وبين المؤمنين ،

ولا بين الخضر وموسى ؛ فان كل احد فعل او لم يفعل لا تكون المقارنة موجودة قبل فعله ، والقرآن يدل على ان هذه الاستطاعة انما نفيت عن التارك لا عن الفاعل ، فعلم انها مضادة لما يقوم بالعبد من الموانع التى تصد قلبه عن ارادة الفعل وعمله ، وبكل حال فهذه الاستطاعة منتفية فى حق من كتب عليه انه لا يفعل ، بل وقضى عليه بذلك .

واذا عرف هذا التقسيم — ان اطلاق القول بأن العبد لا يستطيع غير ما فعل ، ولا يستطيع خلاف المعلوم المقدر ، واطلاق القول بأن استطاعة الفاعل والتارك سواء ، وان الفاعل لا يختص عن التارك باستطاعة خاصة ، [عرف ان] كلا الاطلاقين خطأ وبدعة .

ولهذا اتفق سلف الامة وأئمتها وجمهور طوائف اهل الكلام على ان الله قادر على ما علم وأخبر انه لا يكون ، وعلى ما يمتنع صدوره عنه لعدم ارادته ، لا لعدم قدرته عليه ؛ وانما خالف فى ذلك طوائف من اهل الضلال من الجهمية والقدرية والمتفلسفة الصابئة الذين يزعمون انحصار المقدور في الموجود ، ويحصرون قدرته فيما شاءه وعلم وجوده ؛ دون ما اخبر انه لا يكون كما رجحه النظام والاسواري ، وكما يقوله من يزعم : انه ليس من المقدور غير هذا العالم ، ولا فى المقدور ما يمكن ان يهدى به الضال ، وقد قال الله تعالى : (ايحسب الانسان ألن نجمع عظامه بلى قادرين على ان نسوي بنانه) مع انه سبحانه لا يسوي بنانه ، وقال تعالى : (قل هو القادر على ان يبعث عليكم

عذاباً من فوقكم او من تحت ارجلكم او يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض) .

وقد ثبت فى الصحيح عن جابر : «انه لما نزلت هذه الآية (قل هو القادر على ان يبعث عليكم عذابا من فوقكم) قال النبي صلى الله عليه وسلم : أعوذ بوجهك ، — (او من تحت ارجلكم) ـ قال : أعوذ بوجهك ، (او يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض) . قال : هاتان أهون » . وقال الله تعالى (ولو شئنالآتينا كل نفس هداها).

ومن حكى من اهل الكلام عن اهل السنة والجماعة انهم يقولون : ان العبد ليس قادراً على غير ما فعل الذي هو خلاف المعلوم ، فانه مخطيء فيما نقله عنهم من نفى القدرة مطلقاً ، وهو مصيب فيما نقله عنهم من نفي القدرة التى اختص بها الفاعل دون التارك ، وهذا من اصول نزاعهم فى جواز تكليف ما لا يطاق .

فان من يقول الاستطاعة لا تكون إلا مع الفعل ، فالتارك لا استطاعة له بحال ، يقول : إن كل من عصى الله فقد كلفه الله ما لا يطيقه ، كما قد يقولون : إن جميع العباد كلفوا ما لا يطيقون . ومن يقول : إن استطاعة الفعل هي استطاعة الترك ، يقول : ان العباد لم يكلفوا إلا بما هم مستوون في طاقته وقدرته واستطاعته ؛ لا يختص الفاعل دون التارك باستطاعة خاصة ، فاطلاق القول بأن العبد كلف بما لا يطيقه كاطلاق القول بأنه مجبور على افعاله

ـ اذ سلب القدرة فى المأمور نظير اثبات الجبر في المحظور ـ واطلاق القول بأن العبد قادر مستطيع على خلاف معلوم الله ومقدوره .

وسلف الأمة وأئمتها ينكرون هذه الاطلاقات كلها لا سيما كل واحد من طرفي النفي والاثبات على باطل ، وان كان فيه حق ايضاً ؛ بل الواجب اطلاق العبارات الحسنة وهي المأثورة التي جاءت بها النصوص، والتفصيل فى العبارات المجملة المشتبهة ، وكذلك الواجب نظير ذلك فى سائر ابواب اصول الدين ان يجعل ما يثبت بكلام الله عز وجل ورسوله واجماع سلف الأمة هي النص المحكم ، وتجعل العبارات المحدثة المتقابلة بالنفي والاثبات المشتملة فى كل من الطرفين فى حق وباطل من باب المجمل المشتبه المحتاج الى تفصيل الممنوع من اطلاق طرفيه .

وقد كتبنا فى غير هذا الموضع ما قاله الأوزاعي ، وسفيان الثوري ، وعبد الرحمن بن مهدي ، واحمد بن حنبل ؛ وغيرهم من الأئمة من كراهة اطلاق الجبر ومن منع اطلاق نفيه أيضاً .

وكذلك ايضا : القول بتكليف ما لا يطاق لم تطلق الأئمة فيه واحداً من الطرفين . قال ابو بكر عبد العزيز : صاحب الخلال فى « كتاب القدر » الذي فى مقدمة « كتاب المقنع » له لم يبلغنا عن ابي عبد الله فى هذه المسألة قول فنتبعه ؛ والناس فيه قد اختلفوا فقال قائلون : بتكليف ما لا يطاق ونفاه

آخرون ومنعوا منه . قال : والذي عندنا فيه أن القرآن شهد بصحة ما اليه قصدناه . وهو ان الله عز وجل : يتعبد خلقه بما يطيقون وما لا يطيقون . ثم قال فى آخر الفصل : ولعل قائلا ان يعارض قولنا فيقول : لو جاز ان يكلف الله العبد ما لا يطيق جاز ان يكلف الأعمى صنعة الألوان والمقعد المشي؛ ومن لا يدله البطش وما اشبه ذلك فيقال له : قد قال ابن عباس : فى قوله تعالى : (ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم) هو مشيهم على وجوههم وسقط السؤال فى كل ما سألوا عنه على جواب ابن عباس فى المشي على الوجوه .

ثم قال : وقد أبان ابو الحسن — يعني الاشعري — فيما قدمنا ذكره عنه فى هذه المعاني بما فيه كفاية ، قال القاضي ابو يعلي : لما حكى كلام ابي الحسن — يعني ابا الحسن الاشعري — قد فصل بين مايقدر على فعله لا لاستحالته فيجوز تكليفه ، وما يستحيل لايجوز ، قال : وظاهر كلام ابي الحسن الاشعري الاحتمال فيما يستحيل وجوده هل يصح تكليفه ام لا ؟ قال : والصحيح ماذكرناه من التفصيل ، وهو ان ما لايقدر على فعله لاستحالته كالأمر بالمحال .وكالجمع بين الضدين وجعل المحدث قديما ، والقديم محدثا ، او كان مما لايقدر عليه للعجز عنه كالمقعد الذي لايقدر على القيام والاخرس الذي لأيقدر على الكلام ، فهذا الوجه لايجوز تكليفه .

و (الوجه الثاني) : مالا يقدر على فعله لا لاستحالته ولا للعجز عنه ، لكن لتركه والاشتغال بضده ، كالكافر كلفه الايمان في حال كفره ، لانه غير

عاجز عنه ولا مستحيل منه ، فهو كالذي لايقدر على العلم لاشتغاله بالمعيشة ، فهذا الذي ذكره القاضي ابو يعلي هو قول جمهور الناس من الفقهاء والمتكلمين وهو قول جمهور اصحاب الامام احمد ، وذكر القاضي المنصوص عن الاشعري — فيما ذكره القاضي عنه — وقد ذكر ان ابا بكر عبد العزيز ، ذكر كلام ابى الحسن فى ذلك كما يذكر المصنف كلام ابي الحسن فى ذلك ، وكما يذكر المصنف كلام موافقيه وأصحابه ، لأنه كان من جملة المتكلمين المنتسبين الى الامام احمد وسائر أئمة السنة كما ذكر ذلك فى كتبه .

واما اتباع ابى الحسن فمنهم من وافق نفس الذي ذكره القاضي كابي علي ابن شاذان واتباعه ، ومنهم من خالفه كأبي محمد اللبان والرازي وطوائف ، قالوا : انه يجوز تكليف الممتنع كالجمع بين الضدين والمعجوز عنه .

و (القول الثالث) : الذي ذكره ابو بكر عبد العزيز وهو انه يجوز تكليف كل ما يمكن وان كان ممتنعا في العادة كالمشي على الوجوه ، ونقط الاعمى المصحف .

وذكر ابو عبد الله بن حامد شيخ القاضي ابى يعلى فى اصوله : قولي التفريق والاطلاق عن اصحاب احمد فقال :

فصـــــل

لأنه ماوجد فى الأمر ولو وجد بالفكر وهــذا مثل مالم ترد الشريعــة به كأمر الاطفال ومن لا عقل له والاعمى البصر ، والفقــير النفقة ، والزمن ان ان يسير الى مكة فكل ذلك ما جاءت به الشريعة ، ولو جاءت به لزم الايمان به والتصديق فلا بقيد الكلام فيه . قال : وذهبت طائفة من اصحابنا الى اطلاق الاسم من جواز تكليف مالا يطاق من زمن وأعمى وغــيرهم ، وهو مذهب جهم وبرغوث .

و (الوجه الثاني) سلامة الآلة ، لكن عدم الطاقة لعدم التوفيق والقبول وذلك يجوز وجها واحداً فى معنى هذا أنه يجوز التكليف لمن قــدر علم الله فيه انه لايفعله ، وابى ذلك المعتزلة والدليل عليــه قوله تعالى لابليس (ما منعك ان تسجد لما خلقت بيــدي) وقوله : ((ان لا تسجد اذ أمرتك) الآيات . فأمر وقد سبق من علمه انه لايقع منه فعله . فكان الأمر متوجها الى ماقــد سبق من علم الله انه لايطيقه .

(القول الثاني) : منقول عن ابي الحسن ايضا وزعم ابو المعالي الجويني انه الذي مال اليه اكثر اجوبة ابي الحسن وانه الذي ارتضاه كثير من اصحابه ،

وقد توقف ابو الحسن عن الجواب فى هـذه المسألة في الموجز . وكان ابو المعالي يختاره اولا . ثم رجع عنه وقطع أن تكليف مالا يطاق محال، وهذا القول الاول قول ابن عقيل وابي الفرج بن الجوزي ، وابى عبد الله الرازي وغيره ، وهذا (الثاني) هو مذهب أبي اسحق الاسفرائيني وأبى بكر بن فورك . وأبي القاسم الاشعري ، والغزالي ، وادعى ابو اسحق الاسفرائيني انه مذهب شيخه أبي الحسن ، وانه مذهب اهل الحق ، فأما القاضي أبو بكر فقـد قال بجوازه فى بعض كتبه ، واكثر كلامه على التفريق بين تكليف العاجز ، وبين تكليف القادر على الترك ، كما هو قول الجمهور .

وفى المسألة (قول ثالث) : وهو الذي ذكره ابو بكر عبـد العزيز انـه يجوز تكليف كل ما يمكن وان كان ممتنعاً فى العادة كالمشي عـلى الوجه، ونقط الاعمى المصحف دون الممتنع كالجمع بين الضدين .

وفصل الخطاب فى « هذه المسألة » ان النزاع فيها فى اصلين :

احدها : التكليف الواقع الذي اتفق المسلمون على وقوعـه فى الشريعة وهو أمر العباد كلهم بما امرهم الله به ورسوله من الايمان به وتقواه هل يسمى هذا او شيء منه تكليف مالا يطاق ؟ فمن قال : بأن القدرة لا تكون الا مع الفعل يقول : إن العاصي كلف مالا يطيقه . ويقول : إن كل احـد كلف حين كان غير مطيق ؛ وكذلك من زعم ان تقدم العلم والكتاب بالشيء يمنع

ان يقدر على خلافه ، قال : ان كلف خلاف المعلوم فقــد كلف مالا يطيقه ، وكذلك من يقول : ان العرض لا يبقى زمانين ، يقول : ان الاستطاعة المتقدمة لاتبقى الى حين الفعل .

وهذا فى الحقيقة ليس نزاعا فى الافعال التى امر الله بها ونهى عنهــا ، هل يتناولها التكليف ؟ وإنما هو نزاع فى كونها غير مقدورة للعبد التارك لها وغير مقدورة قبل فعلها ، وقد قدمنا ان القدرة نوعان ، وان من أطلق القول بأن الاستطاعة لاتكون الا مع الفعل فاطلاقه مخالف لمــا ورد فى الكتاب والسنة وما اتفق عليه سلف الامة وأئمتها ــ كاطلاق القول بالجبر ــ وان كان قد أطلق ذلك طوائف من المنتسبين الى السنة في ردهم على القدرية من المنتسبين إلى الامام احمد وغيره من أئمة السنة كأبى الحسن ، وأبى بكر عبد العزيز ، وابي عبد الله بن حامد ؛ والقاضي ابى بكر ، والقاضي ابي يعلى ، وابي المعالي وابي الحسن بن الزاغوني ، وغيرهم ، فقد منع من هذا الاطلاق جمهور اهل العلم كأبى العباس بن سريج ، وأبى العباس القلانسي ، وغيرهما ، ونقل ذلك عن أبى حنيفة نفسه ، وهو مقتضى قول جميع الامة .

ولهذا امتنع ابو اسحق بن شاقلا من اطلاق ذلك . وحكى فيه القولين : فقال ــ فيما ذكره عنه القاضي أبو يعلي ــ الاستطاعة مــع الفعل أو قبله؟حجة من قال : إن الصلاة والحج والجهــاد لايجوز ان يأمر به غير مستطيع

وحجـة من قال ان الفعل خلق من خلق الله عز وجـل ، فاذا خلق فيه فعلا فعله .

وهذا كما ان من قال : إنه ليس للعبد إلا قدرة واحدة يقدر بها على الفعل والترك ، وانه مستغن فى حال الفعل عن معونة من الله تعالى يفعل بها ، وسوى بين نعمته على المؤمن والكافر والبر والفاجر ، فهو مبطل وهم من القدرية الذين حاد منهم فى الايام المشهورة حيث كان قولهم إن العبد لايفتقر إلى الله تعالى حال الفعل بالبر عما وجد قبل الفعل [1] وانه ليس لله تعالى نعمة انعم بها على من آمن به واطاعه اكبر من نعمته على من كفر به وعصاه ، فهذا القول خطأ قطعاً ، ولهذا اتفق أهل السنة والجماعة على تضليل صاحب هذا القول .

ثم النزاع بينهم بعد ذلك فى هذه الامور كثير منه لفظي ، ومنه ماهو اعتباري ، كتنازعهم فى أن العرض هل يبقى أم لايبقى ، وبنوا على ذلك بقاء الاستطاعة ، ولكن احسن الالفاظ والاعتبارات ما يطابق الكتاب والسنة ، واتفاق سلف الأمة وأئمتها والواجب ان يجعل نصوص الكتاب والسنة هي الاصل المعتمد الذي يجب اتباعه ويسوغ اطلاقه ، ويجعل الالفاظ حتى تنازع فيها الناس نفياً او اثباتاً موقوفة على الاستفسار والتفصيل ، ويمنع من

---

(١) كذا بالأصل .

إطلاق نفي ما أثبته الله ورسوله ، وإطلاق اثبات ما نفى الله ورسوله .

و « الأصل الثاني » فيما اتفق الناس على انه غير مقدور للعبد ، وتنازعوا فى جواز تكليفه . وهو « نوعان » : ماهو ممتنع عادة كالمشي على الوجه والطيران ونحو ذلك ، وما هو ممتنع في نفسه كالجمع بين الضدين ، فهذا فى جوازه عقلا ثلاثة اقوال كما تقدم . واما وقوعه فى الشريعة وجوازه شرعا فقد اتفق حملة الشريعة على ان مثل هذا ليس بواقع فى الشريعة ، وقد حكى انعقاد الاجماع على ذلك غير واحد منهم ابو الحسن بن الزاغونى فقال :

فصل

تكليف مالا يطاق وهو على ضربين :

(احدهما) : تكليف مالا يطاق لوجود ضده من العجز ، وذلك مثل ان يكلف المقعد القيام ، والاعمى الخط ونقط الكتاب ، وامثال ذلك ، فهذا مما لا يجوز تكليفه وهو مما انعقد الاجماع عليه وذلك لأن عدم الطاقة فيه ملحقة بالممتنع والمستحيل ، وذلك يوجب خروجه عن المقدور فامتنع تكليف مثله .

و (الثانى) : تكليف مالا يطاق لا لوجود ضده من العجز مثل ان يكلف الكافر الذي سبق فى علمه أنه لايستحب التكليف كفرعون وابى جهل

وامثالهم ، فهذا جائز وذهبت المعتزلة إلى ان تكليف مالا يطاق غـير جائز . قال وهذه المسألة كالأصل لهذه .

قلت : وهذا الاجماع هو اجماع الفقهاء واهل العلم ، فانه قـد ذهب طائفة من اهل الكلام إلى أن تكليف الممتنع لذاته واقع فى الشريعة ، وهذا قول الرازي وطائفة قبله ، وزعموا ان تكليف أبى لهب وغيره من هـذا الباب حيث كلف ان يصدق بالأخبار التى من جملتها الأخبار بانه لا يؤمن ، وهذا غلط ، فانه من اخبر الله أنه لا يؤمن وانه يصلى النار بعد دعاء النبي صلى الله عليه وسلم له الى الايمان فقد حقت عليـه كلمة العذاب : كالذي يعاين الملائكة وقت الموت لم يبق بعـد هـذا مخاطبـاً من جهـة الرسول بهذين الامرين المتناقضين .

وكذلك من قال: تكليف العاجز واقع محتجا بقوله: (يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلايستطيعون) فانه يناقض هذا الاجماع ومضمون الاجماع نفي وقوع ذلك فى الشريعة ، و « ايضا » فان مثل هذا الخطاب إنما هو خطاب تعجيز على وجه العقوبة لهم لتركهم السجود وهم سالمون يعاقبون على ترك العبادة فى حال قدرتهم بان أمروا بها حال عجزهم على سبيل العقوبة لهـم ، وخطاب العقوبـة والجـزاء من جنس خطاب التكوين ، لايشترط فيه قدرة المخاطب إذ ليس المطلوب فعله ، وإذا تبينت الأنواع والأقسام زال الاشتباه والابهام .

قال شيخ الاسلام

قدس الله روحه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نحمده ونستعينه . ونستهديه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور انفسنا ، ومن سيئات اعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلاهادي له وأشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له . وأشهد ان محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً .

فصـــــل

في قوله صلى الله عليه وسلم : « فحج آدم موسى » لما احتج عليه بالقدر .

وبيان : ان ذلك في المصائب لا فى الذنوب ، وان الله امر بالصبر والتقوى فهذا فى الصبر لا في التقوى ، وقال : (فاصبر إن وعد الله حق ، واستغفر

لذنبك) فأمر بالصبر على المصائب والاستغفار من المعائب .

وذلك ان بني آدم اضطربوا في « هذا المقام ـ مقام تعارض الامر والقدر ـ وقد بسطنا الكلام على ذلك فى مواضع .

و « المقصود هنا » انه قد ثبت فى الصحيحين حديث ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم . قال : « احتج آدم وموسى : فقال موسى : يا آدم ؟ انت ابو البشر الذي خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه ، وأسجد لك ملائكته فلماذا اخرجتنا ونفسك من الجنة ؟ فقال له آدم : انت موسى الذي كلمك الله تكليماً وكتب لك التوراة . فبكم تجد فيها مكتوباً : (وعصى آدم ربه فغوى) قبل ان اخلق ، قال : بأربعين سنة ، قال فحج آدم موسى » .

وهو مروي ايضاً من طريق عمر بن الخطاب باسناد حسن ، وقد ظن كثير من الناس ان آدم احتج بالقدر السابق على نفي الملام على الذنب . ثم صاروا لأجل هذا الظن « ثلاثة احزاب » .

(فريق) كذبوا بهذا الحديث : كأبي علي الجبائي وغيره ؛ لأنه من المعلوم بالاضطرار ان هذا خلاف ما جاءت به الرسل ولا ريب انه يمتنع ان يكون هذا مراد الحديث ، ويجب تنزيه النبي صلى الله عليه وسلم بل وجميع الانبياء وأتباع الانبياء ان يجعلوا القدر حجة لمن عصى الله ورسوله .

و (فريق) تأولوه بتأويلات معلومة الفساد : كقول بعضهم انما حجه لأنه كان اباه والابن لا يلوم اباه . وقول بعضهم : لأن الذنب كان فى شريعة ، والملام فى اخرى . وقول بعضهم : لأن الملام كان بعد التوبة . وقول بعضهم : لأن هذا تختلف فيه دار الدنيا ودار الآخرة .

و (فريق ثالث) جعلوه عمدة في سقوط الملام عن المخالفين لأمر الله ورسوله ، ثم لم يمكنهم طرد ذلك . فلا بد فى نفس معاشهم فى الدنيا ان يلام من فعل ما يضر نفسه وغيره؛ لكن منهم من صار يحتج بهذا عند أهوائه واغراضه ، لا عند اهواء غيره كما قيل فى مثل هؤلاء : انت عند الطاعة قدري . وعند المعصية جبري ، اي مذهب وافق هواك تمذهبت به . فالواحد من هؤلاء اذا اذنب اخذ يحتج بالقدر ، ولو اذنب غيره او ظلمه لم يعذره ، وهؤلاء ظالمون معتدون .

ومنهم من يقول : هذا فى حق اهل الحقيقة الذين شهدوا توحيد الربوبية وفنوا عما سوى الله . فيرون ان لا فاعل الا الله ، فهؤلاء لا يستحسنون حسنة ولا يستقبحون سيئة ، فانهم لا يرون لمخلوق فعلا ؛ بل لا يرون فاعلا الا الله ، بخلاف من شهد لنفسه فعلاً فانه يذم ويعاقب ، وهذا قول كثير من متأخري الصوفية المدعين للحقيقة ، وقد يجعلون هذا نهاية التحقيق ، وغاية العرفان والتوحيد ، وهذا قول طائفة من اهل العلم .

قال ابو المظفر السمعاني : وأما الكلام فيما جرى بين آدم وموسى من المحاجة في هذا الشأن ، فانما ساغ لهما الحجاج في ذلك ؛ لأنهما نبيان جليلان خصا بعلم الحقائق وأذن لهما في استكشاف السرائر ، وليس سبيل الخلق الذين امروا بالوقوف عندما حد لهم والسكوت عما طوي عنهم سبيلها ، وليس قوله :« فحج آدم موسى » إبطال حكم الطاعة ، ولا اسقاط العمل الواجب ، ولكن معناه ترجيح احد الامرين ، وتقديم رتبة العلة على السبب ، فقد تقع الحكمة بترجيح معنى احد الامرين ، فسبيل قوله : فحج آدم موسى ، هذا السبيل ، وقد ظهر هذا في قضية آدم قال الله تعالى : (انى جاعل فى الأرض خليفة) .

الى ان قال : فجاء من هذا ان آدم لم يتهيأ له ان يستديم سكنى الجنة [إلا] بأن لا يقرب الشجرة ؛ لسابق القضاء المكتوب عليه في الخروج منها ، وبهذا صال على موسى عند المحاجة . وبهذا المعنى قضي له على موسى فقال : فحج آدم موسى .

قلت : ولهذا يقول الشيخ عبد القادر — قدس الله روحه — كثير من الرجال اذا وصلوا الى القضاء والقدر امسكوا ، وانا انفتحت لي فيه روزنة فنازعت اقدار الحق بالحق للحق ، والرجل من يكون منازعاً للقدر لا موافقاً له ، وهو — رضي الله عنه — كان يعظم الامر والنهي ، ويوصي باتباع ذلك ، وينهى عن الاحتجاج بالقدر ، وكذلك شيخه حماد الدباس وذلك لما رأوه في

كثير من السالكين من الوقوف عند القدر المعارض للأمر والنهي ، والعبد مأمور بأن يجاهد فى سبيل الله ويدفع ما قدر من المعاصي بما يقدر من الطاعة فهو منازع للمقدور المحظور بالمقدور المأمور لله تعالى ، وهذا هو دين الله الذي بعث به الأولين والآخرين من الرسل صلوات الله عليهم اجمعين .

وممن يشبه هؤلاء كثير من الفلاسفة : كقول ابن سينا بأن يشهد سر القدر . والرازي يقرر ذلك ؛ لأنه كان جبرياً محضاً .

وفى الجملة فهذا المعنى دائر في نفوس كثير من الخاصة من اهل العلم والعبادة فضلاً عن العامة ، وهو مناقض لدين الاسلام .

ومن هؤلاء من يقول : الخضر انما سقط عنه الملام لأنه كان مشاهداً لحقيقة القدر . ومن شيوخ هؤلاء من كان يقول : لو قتلت سبعين نبياً لما كنت مخطئاً. ومنهم من يقول : بطرد قوله بحسب الامكان فيقول : كل من قدر على فعل شيء وفعله فلا ملام عليه ، فان قدر انه خالف غرض غيره فذلك ينازعه ، والأقوى منهما يقمر الآخر ، فأيهما اعانه القدر فهو المصيب ، باعتبار انه غالب وإلا فما ثم خطأ .

ومن هؤلاء « الاتحادية » الذين يقولون : الوجود واحد ، ثم يقولون :

بعضه افضل من بعض والأفضل يستحق ان يكون رباً للمفضول . ويقولون : ان فرعون كان صادقاً فى قوله : (انا ربكم الاعلى) . وهـذا قول طائفـة من ملاحدة المتصوفة المتفلسفة الاتحادية : كالتلمسانى . والقول بالاتحاد العام المسمى وحدة الوجود ، هو قول ابن عربى الطائى وصاحبه القونوي وابن سبعين وابن الفارض وأمثالهم ؛ لكن لهم فى المعـاد والجزاء نزاع ، كما ان لهـم نزاعاً فى ان الوجود هل هو شيء غير الذوات ام لا ، وهؤلاء ضلوا من وجوه : منها جهـة عدم الفرق بين الوجود الخالق والمخلوق .

وأما شهود القدر فيقال : لا ريب ان الله تعالى خالق كل شيء ومليكه ، والقدر هو قدرة الله ــ كما قال الامام احمد ــ وهو المقـدر لـكل ما هو كائن ، لكن [هذا لا ينفى] حقيقة الأمر والنهي ــ والوعد والوعيد وأن من الافعال ما ينفع صاحبه ، فيحصل له به نعيم ، ومنها ما يضر صاحبه فيحصل له به عذاب ــ فنحن لا ننكر اشتراك الجميـع من جهة المشيئة والربوبية وابتـداء الأمور . لكن نثبت فرقاً آخر من جهة الحكمة والأوامر الالهية ونهاية الامور ، فان العاقبة للتقوى ؛ لا لغير المتقـين . وقد قال تعـالى : (افنجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الارض ام نجعل المتقين كالفجار) وقال تعالى : (افنجعل المسلمين كالمجرمين) .

واذا كان كذلك فحقيقة الفرق : ان من الأمور ما هو مـلائم للانسان نافع له فيحصل له به اللذة . ومنها ما هو مضاد له ضار له يحصل به الألم ، فرجع

الفرق الى الفرق بين اللذة والألم . واسباب هذا وهذا . وهذا الفرق معلوم بالحس والعقل والشرع مجمع عليه بين الاولين والآخرين ؛ بل هو معلوم عند البهائم . بل هذا موجود في جميع المخلوقات ، واذا اثبتنا الفرق بين الحسنات والسيئات ، وهو الفرق بين الحسن والقبيح ، فالفرق يرجع الى هذا .

والعقلاء متفقون على ان كون بعض الافعال ملائماً للانسان ، وبعضها منافياً له ، اذا قيل : هذا حسن وهذا قبيح . فهذا الحسن والقبح مما يعلم بالعقل باتفاق العقلاء . وتنازعوا فى الحسن والقبح بمعنى كون الفعل سبباً للذم والعقاب ، هل يعلم بالعقل ام لا يعلم الا بالشرع . وكان من اسباب النزاع انهم ظنوا ان هذا القسم مغاير للأول ، وليس هذا خارجاً عنه . فليس فى الوجود حسن الا بمعنى الملائم . ولا قبيح الا بمعنى المنافي ، والمدح والثواب ملائم ، والذم والعقاب مناف ، فهذا نوع من الملائم والمنافى .

يبقى الكلام فى بعض انواع الحسن والقبيح لا في جميعه ، ولا ريب ان من انواعه ما لا يعلم الا بالشرع . ولكن النزاع فيما قبحه معلوم لعموم الخلق ، كالظلم والكذب ونحو ذلك .

والنزاع فى امور :

(منها) هل للفعل صفة صار بها حسناً وقبيحاً ، وان الحسن العقلي هو كونه موافقاً لمصلحة العالم ، والقبح العقلي بخلافه . فهل فى الشرع زيادة على

ذلك ؟ وفى ان العقاب فى الدنيا والآخرة هل يعلم بمجرد العقل ، وبسط هذا له موضع آخر .

ومن الناس من اثبت قسماً ثالثاً للحسن والقبح ، وادعى الاتفاق عليه : وهو كون الفعل صفة كمال او صفة نقص ، وهذا القسم لم يذكره عامة المتقدمين المتكلمين فى هذه المسألة ؛ ولكن ذكره بعض المتأخرين : كالرازي ، واخذه عن الفلاسفة .

والتحقيق ان هذا القسم لا يخالف الاول ، فان الكمال الذي يحصل للانسان ببعض الأفعال هو يعود الى الموافقة والمخالفة ، وهو اللذة اوالألم ، فالنفس تلتذ بما هو كمال لها ، وتتألم بالنقص فيعود الكمال والنقص الى الملائم والمنافى ، وهذا مبسوط في موضع آخر .

و (المقصود هنا) : ان الفرق بين الأفعال الحسنة التى يحصل لصاحبها بها لذة ، وبين السيئة التى يحصل له بها ألم امر حسى يعرفه جميع الحيوان . فمن قال من المدعين للحقيقة القدرية ، والفناء فى توحيد الربوبية ، والاصطلام : انه يبقى فى عين الجمع بحيث لا يفرق بين ما يؤلم او ما يلذ ، كان هذا مما يعلم كذبه فيه ، إن كان يفهم ما يقول ، وإلا كان ضالا يتكلم بما لا يعرف حقيقته ، وهو الغالب على من يتكلم فى هذا .

فان القوم قد يحصل لأحدهم هذا المشهد « مشهد الفناء في توحيد

الربوبية » فلا يشهد فرقاً ما دام فى هذا المشهد ، وقد يغيب عنه الاحساس بما يوجب الفرق مدة من الزمان ، فيظن هذا الفناء مقاماً محموداً ويجعله اما غاية. وإما لازماً للسالكين ، وهذا غلط فان عدم الفرق بين ما ينعم ويعذب احياناً هو مثل عدم الفرق بين النوم والنسيان ، والغفلة والاشتغال بشيء عن آخر وهو لا يزيل الفرق الثابت فى نفس الأمر ، ولا يزيل الاحساس به إذا وجد سببه .

والواحد من هؤلاء لا بد ان يجوع او يعطش فلا يسوى بين الخبز والشراب ، وبين الملح الاجاج والعذب الفرات ، بل لا بد ان يفرق بينهما ويقول : هذا طيب وهذا ليس بطيب ، وهذا هو الفرق بين كل ما امر الله ورسوله به ونهى عنه ، فانه امر بالطيب من القول والعمل ، ونهى عن الخبيث .

واذا عرف ان المراد بالفرق هو ان من الامور ما ينفع ، ويوجب اللذة والنعيم ، ومنها ما يضر ويوجب الالم والعذاب ، فبعض هذه الامور تدرك بالحس ، وبعضها يدركه الناس بعقولهم لامور الدنيا . فيعرفون ما يجلب لهم منفعة فى الدنيا وما يجلب لهم مضرة ، وهذا من العقل الذي ميز به الانسان ، فانه يدرك من عواقب الافعال ما لا يدركه الحس ، ولفظ العقل فى القرآن يتضمن ما يجلب به المنفعة وما يدفع به المضرة .

والله تعالى بعث الرسل بتكميل الفطرة ، فدلوهم على ما ينالون به النعيم فى الآخرة وينجون من عذاب الآخرة . فالفرق بين المأمور والمحظور هو كالفرق بين الجنة والنار ، واللذة والالم ، والنعيم والعذاب ، ومن لم يدرك هذا الفرق فان كان لسبب ازال عقله هو به معذور ، والا كان مطالباً بما فعله من الشر وتركه من الخير .

ولا ريب ان في الناس من قد يزول عقله فى بعض الاحوال ، ومن الناس من يتعاطى ما يزيل العقل : كالخمر وكسماع الاصوات المطربة ؛ فان ذلك قد يقوى حتى يسكر اصحابها ، ويقترن بهم شياطين ، فيقتل بعضهم بعضا في السماع المسكر كما يقتل شراب الخمر بعضهم بعضا اذا سكروا ، وهذا مما يعرفه كثير من اهل الاحوال ؛ لكن منهم من يقول المقتول شهيد . و « التحقيق » : ان المقتول يشبه المقتول فى شرب الخمر ، فانهم سكروا سكراً غير مشروع ؛ لكن غالبهم يظن ان هذا من احوال اولياء الله المتقين ، فيبقى القتيل فيهم كالقتيل فى الفتنة . وليس هو كالذي تعمد قتله ، ولا هو كالمقتول ظلماً من كل وجه .

فان قيل : فهل هذا الفناء يزول به التكليف ؟

قيل : ان حصل للانسان سبب يعذر فيه زال به عقله الذي يميز به فكان بمنزلة النائم والمغمى عليه ، والسكران سكراً لا يأثم به ، كمن سكر قبل التحريم او اوجر الخمر ، او اكره على شربها عند الجمهور ، واما ان كان السكر لسبب محرم ، فهذا فيه نزاع معروف بين العلماء .

والذين يذكرون عن ابي يزيد وغيره كلمات من الاتحاد الخاص، ونفي الفرق ويعذرونه فى ذلك يقولون : انه غاب عقله حتى قال : انا الحق وسبحاني وما فى الجبة الا الله . ويقولون : ان الحب اذا قوي على صاحبه وكان قلبه ضعيفاً يغيب بمحبوبه عن حبه، وبموجوده عن وجده، وبمذكوره عن ذكره حتى يفنى من لم يكن ويبقى من لم يزل، ويحكون ان شخصاً القى بنفسه فى الماء فألقى محبه نفسه خلفه . فقال : انا وقعت فلم وقعت انت ؟ فقال : غبت بك عني فظننت انك انى . فمثل هذا الحال التى يزول فيها تميزه بين الرب والعبد، وبين المأمور والمحظور ليست علماً ولا حقاً، بل غايته انه نقص عقله الذي يفرق به بين هذا وهذا، وغايته ان يعذر . لا أن يكون قوله تحقيقاً .

وطائفة من الصوفية المدعين للتحقيق يجعلون هذا تحقيقاً وتوحيداً، كما فعله صاحب منازل السائرين . وابن العريف وغيرهما ؛ كما ان الاتحاد العام جعله طائفة تحقيقاً وتوحيداً : كابن عربى الطائى .

وقد ظن طائفة ان الحلاج كان من هؤلاء ثم صاروا حزبين :

« حزب » يقول : وقع فى ذلك الفناء فكان معذوراً فى الباطن ولكن قتله واجب في الظاهر . ويقولون : القاتل مجاهد، والمقتول شهيد . ويحكون عن بعض الشيوخ انه قال : عثر عثرة لو كنت في زمنه لأخذت بيده . ويجعلون حاله من جنس حال أهل الاصطلام والفناء .

و « حزب ثان » : وهم الذين يصوبون حال أهل الفناء فى توحيد الربوبية . ويقولون : هو الغاية . يقولون : بل الحلاج كان فى غاية التحقيق والتوحيد .

ثم هؤلاء فى قتله فريقان :

« فريق » يقول : قتل مظلوماً وما كان يجوز قتله ، ويعادون الشرع وأهل الشرع لقتلهم الحلاج . ومنهم من يعادى جنس الفقهاء وأهل العلم . ويقولون : هم قتلوا الحلاج ، وهؤلاء من جنس الذين يقولون : لنا شريعة ولنا حقيقة تخالف الشريعة ، والذين يتكلمون بهذا الكلام لايميزون ما المرادبلفظ الشريعة فى كلام الله ورسوله وكلام سائر الناس ، ولا المراد بلفظ الحقيقة او الحق او الذوق او الوجد او التوحيد فى كلام الله ورسوله وكلام سائر الناس ، بل فيهم من يظن الشرع عبارة عما يحكم به القاضي .

ومن هؤلاء من لا يميز بين القاضي العالم العادل والقاضي الجاهل والقاضي الظالم ، بل ما حكم به حاكم سماه شريعة ، ولا ريب انه قد تكون الحقيقة فى نفس الأمر التى يحبها الله ورسوله خلاف ما حكم به الحاكم كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « انكم تختصمون الي ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، وإنما اقضى على نحو مما اسمع . فمن قضيت له من حق اخيه

شيئاً فلا يأخذه فانما اقطع له قطعة من النار » . فالحاكم يحكم بما يسمعه من البينة والاقرار ، وقد يكون للآخر حجج لم يبينها . وأمثال هذا .

فالشريعة فى نفس الأمر هي الأمر الباطن ، وما قضى بـه القاضي ينفذ ظاهراً ، وكثير من الأمور قد يكون باطنها بخلاف ما يظهر لبعض الناس . ومن هذا قصة موسى والخضر : فانه كان الذي فعله مصلحة ، وهو شريعة امره الله بها ، ولم يكن مخالفاً لشرع الله ، لكن لما لم يعرف موسى الباطن كان في الظاهر عنده ان هذا لا يجوز ، فلما بين له الخضر الأمور وافقه . فـلم يكن ذلك مخالفـاً للشرع .

وهـذا الباب يقـال فيه : قد يـكون الأمر فى البـاطن بخلاف ما يظهر ، وهـذا صحيـح . لكن تسمية الباطن حقيقة ، والظاهر شريعة ، أمر اصطلاحي .

ومـن النـاس من يجعـل الحقيقة هي الامر الباطن مطلقاً ، والشريعة الآمور الظاهرة .

وهذا كما أن لفظ « الاسلام » إذا قرن بالايمان اريد به الاعمال الظاهرة ، ولفظ « الايمان » يراد به الايمان الذي فى القلب كما فى حديث جبريل . فاذاجمع بينهما فقيل : شرائع الاسلام وحقائق الايمان ، كان هذا كلاماً صحيحاً ؛ لكن متى

أفرد احدهما تناول الآخر ، فكل شريعة ليس لها حقيقة باطنة ، فليس صاحبها من المؤمنين حقاً ، وكل حقيقة لا توافق الشريعة التى بعث الله بها محمداً صلى الله عليه وسلم فصاحبها ليس بمسلم ، فضلاً عن ان يكون من أولياء الله المتقين .

وقد يراد بلفظ الشريعة ما يقوله فقهاء الشريعة باجتهادهم ، وبالحقيقة ما يذوقه ويجده الصوفية بقلوبهم ، ولا ريب ان كلا من هؤلاء مجتهدون : تارة مصيبون ، وتارة مخطئون ، وليس لواحد منهما تعمد مخالفة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم ان انفق اجتهاد الطائفتين ، وإلا فليس على واحدة ان تقلد الاخرى إلا أن تأتى بحجة شرعية توجب موافقتها .

فمن الناس من يظهر ان الحلاج قتل باجتهاد فقهي يخالف الحقيقة الذوقية التى عليها هؤلاء ، وهذا ظن كثير من الناس ؛ وليس كذلك ، بل الذي قتل عليه إنما هو الكفر ، وقتل باتفاق الطائفتين ، مثل دعواه انه يقدر ان يعارض القرآن بخير منه ، ودعواه انه من فاته الحج انه يبني بيتا يطوف به ، ويتصدق بشيء قدره ، وذلك يسقط الحج عنه . إلى أمور اخرى توجب الكفر باتفاق المسلمين الذين يشهدون ان محمداً رسول الله : علماؤهم وعبادهم وفقهاؤهم وفقراؤهم وصوفيتهم .

و (فريق) يقولون : قتل لأنه باح بسر التوحيد والتحقيق : الذي ما

كان ينبغي ان يبوح به ؛ فان هذا من الاسرار التى لا يتكلم بها إلا مع خواص الناس ، وهي مما تطوى ولا تروى وينشدون :

من باح بالسر كان القتل شيمته　　من الرجال ولم يأخذ له ثار

باحوا بالسر تباح دماؤهم　　وكذا دماء البائحين تباح[1]

وحقيقة قول هؤلاء يشبه قول قائل : انما قاله النصارى فى المسيح حق ، وهو موجود لغيره من الأنبياء والأولياء ؛ لكن ما يمكن التصريح به . لأن صاحب الشرع لم يأذن فى ذلك ، وكلام صاحب منازل السائرين وامثاله يشير إلى هذا ، وتوحيده الذي قال فيه :

ما وحد الواحد من واحد　　إذ كل من وحده جاحد

توحيد من يخبر عن نعته　　عارية ابطلها الواحد

توحيده إياه توحيده　　ونعت من ينعته لاحد

فان حقيقة قول هؤلاء ان الموحد هو الموحد ، وان الناطق بالتوحيد على لسان العبد هو الحق ، وانه لايوحده إلا نفسه فلا يكون الموحد الا الموحد ويفرقون بين قول فرعون : (انا ربكم الأعلى) وبين قول الحلاج : انا الحق وسبحانى . فان فرعون قال ذلك : وهو يشهد نفسه ، فقال عن نفسه ، واما أهل الفناء فغابوا عن نفوسهم ، وكان الناطق على لسانهم غيرهم .

(١) كذا بالاصل

وهذا مما وقع فيه كثير من المتصوفة المتأخرين، ولهذا رد الجنيد ـ رحمه الله ـ على هؤلاء لما سئل عن التوحيد فقال : هو الفرق بين القديم والمحدث، فبين الجنيد ـــ سيد الطائفة ـــ ان التوحيد لايتم إلا بان يفرق بين الرب القديم، والعبد المحدث؛ لا كما يقوله هؤلاء الذين يجعلون هذا هو هذا، وهؤلاء أهل الاتحاد والحلول الخاص والمقيد، وأما القائلون بالحلول والاتحاد العام المطلق، فأولئك هم الذين يقولون : انه بذاته في كل مكان، او أنه وجود المخلوقات، وقد بسط الكلام على هؤلاء في غير هذا الموضوع.

و (المقصود هنا) : ان الحلاج لم يكن مقيداً بصنف من هذه الاصناف بل كان قد قال من الاقوال التى توجب الكفر والقتل، باتفاق طوائف المسلمين، ما قد ذكر فى غير هذا الموضع. وكذلك انكره أكثر المشايخ، وذموه : كالجنيد، وعمر بن عثمان المكي، وابى يعقوب النهرجوري.

ومن التبس عليه حاله منهم فلم يعرف حقيقة ماقاله ـــ إلا من كان يقول بالحلول والاتحاد مطلقاً او معيناً ـــ فانه يظن ان هذا كان قول الحلاج وينصر ذلك؛ ولهذا كانت فرقة ابن سبعين فيها من رجال الظلم جماعة منهم الحلاج ـــ وعند جماهير المشايخ الصوفية، واهل العلم ان الحلاج لم يكن من المشايخ الصالحين؛ بل كان زنديقاً وزهده لأسباب متعددة يطول وصفها، ولم يكن من أهل الفناء فى « توحيد الربوبية »؛ بل كان قد

تعلم السحر وكان له شياطين تخدمه إلى امور أخرى مبسوطة فى غير هذا الموضع .

وبكل حال آدم لما أكل هو وحواء من الشجرة ، لم يكن زائل العقل ولا فانيا فى شهود القدر العام ، ولا احتج على موسى بذلك ، بل قال : لم تلومني على امر كتبه الله علي قبل ان أخلق ؟ فاحتج بالقدر السابق لا بعدم تمييزه بين المأمور والمحظور .

فصل

إذا عرف هذا . فنقول : الصواب فى قصة آدم وموسى ، ان موسى لم يلم آدم إلا من جهة المصيبة التى أصابته وذريته بما فعل ، لا لأجل ان تارك الأمر مذنب عاص ؛ ولهذا قال : لماذا اخرجتنا ونفسك من الجنة ؟ لم يقل : لماذا خالفت الأمر ؟ ولماذا عصيت ؟ والناس مأمورون عند المصائب التى تصيبهم بأفعال الناس او بغير افعالهم بالتسليم للقدر ، وشهود الربوبية ، كما قال تعالى : (ما أصاب من مصيبة إلا باذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه) قال ابن مسعود أو غيره : هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم انها من عند الله فيرضى ويسلم ، وفي الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم : « احرص على

ماينفعك واستعن بالله ولاتعجزن . وان اصابك شيء فلا تقل : لو اني فعلت ، لكان كذا وكذا ، ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل فان (لو) تفتح عمل الشيطان » .

فأمره بالحرص على ما ينفعه وهو طاعة الله ورسوله ، فليس للعباد انفع من طاعة الله ورسوله ، وامره اذا أصابته مصيبة مقدرة ان لا ينظر إلى القدر ولا يتحسر بتقدير لا يفيد ، ويقول : قدر الله وما شاء فعل ، ولا يقول : لو اني فعلت لكان كذا ، فيقدر مالم يقع ، يتمنى ان لو كان وقع ؛ فان ذلك إنما يورث حسرة وحزنا لا يفيد ، والتسليم للقدر هو الذي ينفعه ، كما قال بعضهم : الأمر امران امر فيه حيلة فلا تعجز عنه . وامر لاحيلة فيه فلا تجزع منه .

وما زال أئمة الهدى من الشيوخ وغيرهم يوصون الانسان بأن يفعل المأمور ويترك المحظور ، ويصبر على المقدور ، وإن كانت تلك المصيبة بسبب فعل آدمي .

فلو ان رجلاً انفق ماله فى المعاصي حتى مات ، ولم يخلف لولده مالاً ، او ظلم الناس بظلم صاروا لأجله يبغضون اولاده ، ويحرمونهم ما يعطونه لأمثالهم لكان هذا مصيبة فى حق الأولاد حصلت بسبب فعل الأب ، فاذا قال احدهم لأبيه : أنت فعلت بنا هذا : قيل للابن هذا كان مقدوراً

عليكم ، وأنتم مأمورون بالصبر على ما يصيبكم ، والأب عاص لله فيما فعله من الظلم والتبذير ، ملوم على ذلك لا يرتفع عنه ذم الله وعقابه بالقدر السابق ؛ فان كان الأب قد تاب توبة نصوحا وتاب الله عليه وغفر له لم يجز ذمه ولا لومه بحال ، لا من جهة حق الله ؛ فان الله قد غفر له . ولا من جهة المصيبة التى حصلت لغيره بفعله إذ لم يكن هو ظالماً لأولئك . فان تلك كانت مقدرة عليهم .

وهذا مثال « قصة آدم » : فان آدم لم يظلم اولاده . بل انما ولدوا بعد هبوطه من الجنة ، وإنما هبط آدم وحواء ، ولم يكن معهما ولد حتى يقال : ان ذنبهما تعدى الى ولدهما ، ثم بعد هبوطهما إلى الأرض جاءت الأولاد . فلم يكن آدم قد ظلم اولاده ظلما يستحقون به ملامه ، وكونهم صاروا فى الدنيا دون الجنة امر كان مقدراً عليهم لا يستحقون به لوم آدم ، وذنب آدم كان قد تاب منه . قال الله تعالى : (وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى) ، وقال : (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه) فلم يبق مستحقاً لذم ولا عقاب .

وموسى كان اعلم من ان يلومه لحق الله على ذنب قد علم انه تاب منه . فموسى ايضاً قد تاب من ذنب عمله ، وقد قال موسى : (انت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وانت خير الغافرين) . وآدم اعلم من ان يحتج بالقدر على ان المذنب لا ملام عليه ، فكيف وقد علم ان إبليس لعنه الله بسبب

ذنبه : وهو ايضاً كان مقدراً عليه . وآدم قد تاب من الذنب واستغفر ، فلو كان الاحتجاج بالقدر نافعاً له عند ربه لاحتج ولم يتب ويستغفر .

وقد روى في الاسرائيليات انه احتج به . وهذا مما لا يصدق به لو كان محتملا ، فكيف إذا خالف اصول الاسلام ، بل اصول الشرع والعقل . نعم إن كان ذكر القدر مع التوبة فهذا ممكن ؛ لكن ليس فيما اخبر الله به عن آدم شيء من هذا ، ولا يجوز الاحتجاج في الدين بالاسرائيليات الا ما ثبت نقله بكتاب الله او سنة رسوله ، فان النبي صلى الله عليه وسلم قد قال : « اذا حدثكم اهل الكتاب فلا تصدقوهم ، ولا تكذبوهم » .

و (ايضاً) فلو كان الاحتجاج بالقدر نافعاً له فلماذا اخرج من الجنة واهبط إلى الارض؟!.

فان قيل : وهو قد تاب فلماذا بعد التوبة اهبط إلى الأرض ؟ .

قيل : التوبة قد يكون من تمامها عمل صالح يعمله فيبتلى بعد التوبة لينظر دوام طاعته ، قال الله تعالى : (إلا الذين تابوا من بعد ذلك واصلحوا فان الله غفور رحيم) فى التائب من الردة ، وقال فى كاتم العلم : (إلا الذين تابوا واصلحوا وبينوا فأولئك اتوب عليهم وانا التواب الرحيم) وقال : (انه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده واصلح فانه غفور رحيم) وقال فى القذف : (الا الذين تابوا من بعد ذلك واصلحوا

فان الله غفور رحيم) وقال : (إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيما . ومن تاب وعمل صالحاً فانه يتوب إلى الله متابا) وقال : (وانى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى) .

ولما تاب كعب بن مالك وصاحباه امر رسول الله صلى عليه وسلم المسلمين بهجرهم ـــ حتى نسائهم ـــ ثمانين ليلة . وقال النبي صلى الله عليه وسلم فى الغامدية لما رجمها ؟ « لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفرله، وهل وجدت افضل من ان جادت بنفسها لله » . وقد اخبر الله عن توبته على بني اسرائيل حيث قال لهم موسى : (يا قوم إنكم ظلمتم انفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا الى بارئكم فاقتلوا انفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم) .

واذا كان الله تعالى قد يبتلى العبد من الحسنات والسيئات ، والسراء والضراء بما يحصل معه شكره وصبره ، ام كفره وجزعه وطاعته ام معصيته فالتائب احق بالابتلاء ، فآدم اهبط الى الأرض ابتلاء له ، ووفقه الله فى هبوطه لطاعته ، فكان حاله بعد الهبوط خيراً من حاله قبل الهبوط ، وهذا بخلاف ما لو كان الاحتجاج بالقدر نافعاً له ، فانه لا يكون عليه ملام البتة ؛ ولا هناك توبة تقتضي ان يبتلى صاحبها ببلاء .

و « ايضاً » فان الله قد اخبر فى كتابه بعقوبات الكفار : مثل قوم

نوح وهود وصالح وقوم لوط واصحاب مدين وفرعون وقومه مايعرف بكل واحدة من هذه الوقائع ان لاحجة لأحد فى القدر ؛ وايضاً فقد شرع الله من عقوبة المحاربين من الكفار واهل القبلة وقتل المرتد وعقوبة الزانى والسارق والشارب ما يبين ذلك .

فصل

فقد تبين أن آدم حج موسى لما قصد موسى ان يلوم من كان سبباً فى مصيبتهم ، وبهذا جاء الكتاب والسنة قال الله تعالى : (ما أصاب من مصيبة الا باذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه) وقال تعالى : (ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها ان ذلك على الله يسير) .

وسواء في ذلك المصائب السمائية ، والمصائب التى تحصل بأفعال الآدميين، قال تعالى : (واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً) .(ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى اتاهم نصرنا) وقال فى سورة الطور بعد قوله : (فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون قل تربصوا فاني معكم من المتربصين ـــ الى قوله ـــ أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون ـــ الى قوله ـــ ام تسألهم اجراً فهم من مغرم مثقلون أم عندهم الغيب فهم يكتبون) (واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا

وسبح بحمد ربك حين تقوم) وقال تعالى فى سورة (ن) : (أم تسألهم اجراً فهم من مغرم مثقلون أم عندهم الغيب فهم يكتبون فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم) .

وقد قيل فى معناه : اصبر لما يحكم به عليك ، وقيل اصبر على أذاهم لقضاء ربك الذي هو آت ، والأول اصح .

وحكم الله نوعان : خلق ، وأمر .

(فالأول) : ما يقدره من المصائب .

و (الثاني) ما يأمر به وينهى عنه ، والعبد مأمور بالصبر على هذا وعلى هذا ، فعليه أن يصبر لما أمر به ، ولما نهى عنه ، فيفعل المأمور ، ويترك المحظور ، وعليه أن يصبر لما قدره الله عليه .

وبعض المفسرين يقول : هذه الآية منسوخة بآية السيف ، وهذا يتوجه إن كان فى الآية النهي عن القتال ، فيكون هذا النهي منسوخاً ، ليس جميع انواع الصبر منسوخة ، كيف والآية لم تتعرض لذلك هنا لا بنفي ولا إثبات؟!بل الصبر واجب لحكم الله ما زال واجباً ، وإذا امر بالجهاد فعليه « ايضاً » : ان يصبر لحكم الله فانه يبتلى من قتالهم بما هو اعظم من كلامهم ، كما ابتلى به يوم احد والخندق ، وعليه حينئذ ان يصبر ويفعل ما امر به من الجهاد .

و « المقصود هنا » قوله : (واصبر لحكم ربك) : فان ما فعلوه من الاذى هو مما حكم به عليك قدراً ، فاصبر لحكمه وان كانوا ظالمين فى ذلك ، وهذا الصبر اعظم من الصبر على ما جرى وفعل بالانبياء ، وقوله : (فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم) وقال : (وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن ان لن نقدر عليه فنادى في الظلمات) وسواء كان مغاضباً لقومه او لربه ، فكانت مغاضبته من امر قدر عليه . وبصبره صبر لحكم ربه الذي قدره وقضاه ، وإن كان انما تأذى من تكذيب الناس له .

وقالت الرسل لقومهم : (وما لنا ان لا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون) وقال موسى لقومه لما قال فرعون : (سنقتل ابناءهم ونستحيي نساءهم وانا فوقهم قاهرون . قال موسى لقومه : استعينوا بالله واصبروا إن الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين) وقال : (فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك) .

وقال تعالى : (والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم فى الدنيا حسنة ولأجر الآخرة اكبر لو كانوا يعلمون . الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون) فهؤلاء ظلموا فصبروا على ظلم الظالم لهم . وسبب نزولها المهاجرون الى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهي عامة فى كل من اتصف بهذه الصفة.

وأصل « المهاجر » من هجر ما نهى الله عنه كما ثبت ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم . فكل من هجر السوء فظلمه الناس على ترك الكفر والفسوق والعصيان حتى اخرجوه ـ لا هجر بعض امور فى الدنيا ـ فصبر على ظلمهم ، فان الله يبوئه فى الدنيا حسنة ولا جر الآخرة اكبر . كيوسف الصديق فانه هجر الفاحشة حتى ألجأه ذلك هجر منزله . واللبث فى السجن بعد ما ظلم ، فمكنه الله حتى تبوأ من الارض حيث يشاء .

وقال الذين لقوا الكفار : (ربنا افرغ علينا صبراً) وقال : (إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين . وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون . الآن خفف الله عنكم وعلم ان فيكم ضعفاً فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين باذن الله والله مع الصابرين) وقال : (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين) فهذا كله صبر على ما قدر من افعال الخلق ، والله سبحانه مدح فى كتابه الصبار الشكور . قال تعالى : (إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور) في غير موضع .

فالصبر والشكر على ما يقدره الرب على عبده من السراء والضراء : من النعم والمصائب : من الحسنات التى يبلوه بها ، والسيئات:فعليهان يتلقىالمصائب بالصبر ، والنعم بالشكر ، ومن النعم ما بيسره له من افعال الخير ، ومنها ما هي خارجة عن افعاله ، فيشهد القدر عند فعله للطاعات وعندإنعام الله عليهفيشكره.

ويشهده عند المصائب فيصبر ، واما عند ذنوبه فيكون مستغفراً تائباً كما قال : (فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك) .

واما من عكس هذا فشهد القدر عند ذنوبه ، وشهد فعله عند الحسنات فهو من اعظم المجرمين . ومن شهد فعله فيهما فهو قدري ، ومن شهد القدر فيهما ولم يعترف بالذنب ويستغفره فهو من جنس المشركين .

واما المؤمن فيقول : ابوء لك بنعمتك علي ، وابوء بذنبي فاغفر لي . كما فى الحديث الصحيح الالهي : « يا عبادي إنما هي اعمالكم احصيها لكم ثم اوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » .

وكان نبينا صلى الله عليه وسلم متبعاً ما امر به من الصبر على اذى الخلق ، ففي الصحيحين عن عائشة قالت : « ما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده خادماً له ، ولا دابة ، ولا شيئاً قط ؛ إلا ان يجاهد فى سبيل الله ، ولا نيل منه شيء قط فانتقم لنفسه ، إلا ان تنتهك محارم الله ، فاذا انتهكت محارم الله لم يقم لغضبه شيء حتى ينتقم لله » . وقال انس : خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين ، فما قال لشيء فعلته : لم فعلته ؟ ولا لشيء لم افعله : لم لا فعلته ؟ وكان بعض اهله اذا عتبني على شيء يقول : دعوه . دعوه ، فلو قضى شيء لكان . وفى السنن عن ابن مسعود ــ رضي الله عنه ــ انه ذكر النبي

صلى الله عليه وسلم قول بعض من آذاه : « فقال : دعنا منك ، فقد اوذي موسى بأكثر من هذا فصبر ». فكان يصبر على اذى الناس له من الكفار والمنافقين واذى بعض المؤمنين، كما قال تعالى : (ان ذلكم كان يؤذي النبي فيستحيي منكم) . وكان يذكر : ان هذا مقدر .

والمؤمن مأمور بأن يصبر على المقدور ، ولذلك قال : (وان تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً) فالتقوى فعل المأمور وترك المحظور ، والصبر على اذاهم ، ثم انه حيث اباح المعاقبة قال : (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين . واصبر وما صبرك الا بالله ، ولا تحزن عليهم ، ولاتك في ضيق مما يمكرون) .

فأخبر ان صبره بالله ، فالله هو الذي يعينه عليه ، فان الصبر على المكاره بترك الانتقام من الظالم ثقيل على الأنفس ، لكن صبره بالله كما امره ان يكون لله في قوله : (ولربك فاصبر) . لكن هناك ذكره في الجملة الطلبية الامرية ؛ لانه مأمور ان يصبر لله لا لغيره ، وهنا ذكره في الخبرية فقال : (وما صبرك الا بالله) فان الصبر وسائر الحوادث لا تقع الا بالله ، ثم قد يكون ذلك وقد لا يكون فما لا يكون بالله لا يكون ، وما لا يكون لله لا ينفع ولا يدوم . ولا يقال : واصبر بالله فان الصبر لا يكون الا بالله . لكن يقال : استعينوا بالله واصبروا فنستعين بالله على الصبر .

وكما ان الانسان مأمور بشهود القدر وتوحيد الربوبية عند المصائب ، فهو مأمور بذلك عند ما ينعم الله عليه من فعل الطاعات . فيشهد قبل فعلها حاجته وفقره الى اعانة الله له ، وتحقق قوله : (إياك نعبد وإياك نستعين) .

ويدعو بالأدعية التى فيها طلب اعانة الله له على فعل الطاعات ، كقوله : « أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك » وقوله : « يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك ويا مصرف القلوب ، اصرف قلبي الى طاعتك وطاعة رسولك » وقوله : (ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك انت الوهاب) وقوله : (ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من امرنا رشداً) ومثل قوله : « اللهم الهمني رشدي . واكفني شر نفسي » .

ورأس هذه الادعية وافضلها قوله : (اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) . فهذا الدعاء افضل الادعية واوجبها على الخلق ، فانه يجمع صلاح العبد فى الدين والدنيا والآخرة ، وكذلك الدعاء « بالتوبة » فانه يتضمن الدعاء بأن يلهم العبد التوبة ، وكذلك دعاء « الاستخارة » فانه طلب تعليم العبد ما لم يعلمه وتيسيره له وكذلك الدعاء الذي كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو به إذا قام من الليل . وهو فى الصحيح : « اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السموات والارض عالم الغيب والشهادة انت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون . اهدني لما اختلف فيه

من الحق باذنك انك تهدي من تشاء الى صراط مستقيم » .

وكذلك الدعاء الذي فيه : « اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك ، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ماتهون به علينا مصائب الدنيا » وكذلك الدعاء باليقين والعافية كما في حديث ابي بكر ، وكذلك قوله : اللهم! اصلح لي قلبي ونيتي، ومثل قول الخليل واسماعيل : (واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا امة مسلمة لك) .

وهذه ادعية كثيرة تتضمن افتقار العبد الى الله فى ان يعطيه الايمان والعمل الصالح ، فهذا افتقار واستعانة بالله قبل حصول المطلوب فاذا حصل بدعاء او بغير دعاء ، شهد إنعام الله فيه وكان في مقام الشكر والعبودية لله ، وان هذا حصل بفضله وإحسانه لا بحول العبد وقوته .

فشهود القدر في الطاعات من انفع الامور للعبد ، وغيبته عن ذلك من اضر الامور به . فانه يكون قدرياً منكراً لنعمة الله عليه بالايمان والعمل الصالح وان لم يكن قدري الاعتقاد كان قدري الحال وذلك يورث العجب والكبر ، ودعوى القوة والمنة بعمله واعتقاد استحقاق الجزاء على الله به،فيكون من يشهد العبودية مع الذنوب والاعتراف بها ـ لا مع الاحتجاج بالقدر ـ عليها خيراً من هذا الذي يشهد الطاعة منه لا من إحسان الله اليه . ويكون اولئك المذنبون بما معهم من الايمان افضل من طاعة بدون هذا الايمان .

وأما من اذنب وشهد ان لا ذنب له اصلاً لكون الله هو الفاعل ، وعند الطاعة يشهد انه الفاعل فهذا شر الخلق ، واما الذي يشهد نفسه فاعلاً للامرين والذي يشهد ربه فاعلاً للامرين ولا يرى له ذنباً فهذا اسوء عاقبة من القدري، والقدري اسوء بداية منه كما هو مبسوط فى موضع آخر .

والناس فى هذا المقام « اربعة اقسام » من يغضب لربه لا لنفسه . وعكسه، ومن يغضب لهما، ومن لايغضب لهما كما انهم فى شهود القدر « اربعة اقسام » : من يشهد الحسنة من فعل الله والسيئة من فعل نفسه . وعكسه ، ومن يشهد الثنتين من فعل ربه ، ومن يشهد الثنتين من فعل نفسه . فهذه الاقسام الاربعة فى شهود الربوبية ، نظير تلك الاقسام الاربعة فى شهود الالهية ، فهذا تقسيم العباد فيما لله ولهم ، وذاك تقسيمهم فيما هو بالله وبهم، والقسم المحض ان يعمل لله بالله ، فلا يعمل لنفسه ولا بنفسه .

والمقصود هنا : تقسيمهم فيما لله . فأعلاهم حال النبي صلى الله عليه وسلم ومن اتبعه : ان يصبروا على اذى الناس لهم باليد واللسان . ويجاهدون في سبيل الله، فيعاقبون ويغضبون وينتقمون لله لا لنفوسهم يعاقبون ؛ لان الله يأمر بعقوبة ذلك الشخص ، ويحب الانتقام منه ، كما فى جهاد الكفار وإقامة الحدود ، وادناهم عكس هؤلاء يغضبون وينتقمون ويعاقبون لنفوسهم ، لا لربهم فاذا اوذي احدهم او خولف هواه غضب وانتقم وعاقب ، ولو انتهكت محارم الله او ضيعت حقوقه لم يهمه ذلك ، وهذا حال الكفار والمنافقين .

وبين هذين وهذين قسمان « قسم » يغضبون لربهم ولنفوسهم . و«قسم» يميلون الى العفو فى حق الله وحقوقهم ، فموسى فى غضبه على قومه لما عبدوا العجل كان غضبه لله ، وقد مثل النبي صلى الله عليه وسلم فى حقوق الله ابا بكر وعمر بابراهيم وعيسى ونوح وموسى ، فقال : « ان الله يلين قلوب رجال فيه حتى تكون الين من اللبن ، ويشدد قلوب رجال فيه حتى تكون اشد من الحجر ومثلك يا ابا بكر كمثل ابراهيم وعيسى ، ومثلك يا عمر كمثل نوح وموسى» .

واما عفو الأنسان عن حقوقه ، فهذا افضل . وإن كان الاقتصاص جائزاً وكذلك غضبه لنفسه تركه افضل،وان كان الاقتصاص جائزاً ، واما ما كان من باب المصائب الحاصلة بقدر الله ولم يبق فيها مذنب يعاقب فليس فيها الا الصبر والتسليم للقدر .

وقصة آدم وموسى كانت من هذا الباب : فان موسى لامه لأجل ما اصابه والذرية ، وآدم كان قد تاب من الذنب وغفر له ، والمصيبة كانت مقدرة ، فحج آدم موسى .

وهكذا قد يصيب الناس مصائب بفعل اقوام مذنبين تابوا ، مثل كافر يقتل مسلماً ثم يسلم ويتوب الله عليه، او يكون متؤولاً لبدعة ثم يتوب من البدعة، او يكون مجتهداً، او مقلداً مخطئاً ، فهؤلاء اذا اصاب العبد اذى بفعلهم فهو من جنس المصائب السماوية التى لا يطلب فيها قصاص من آدمي .

ومن هـذا الباب القتـال فى « الفتنـة » . قال الزهري : وقعت الفتنة ــ وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم متوافرون ــ فأجمعوا ان كل دم او مال او فرج أصيب بتأويل القرآن فهو هدر ، وكذلك « قتال البغاة المتأولين» حيث امر الله بقتالهم إذا قاتلهم أهل العدل فأصابوا من اهل العـدل نفوساً وأموالاً لم تكن مضمونة عند جماهير العلماء : كأبي حنيفة ومالك والشافعي في احد قوليه ، وهذا ظاهر مذهب أحمد .

وكذلك « المرتدون » إذا صار لهم شوكة فقتلوا المسلمين ، وأصابوا من دمائهم وأموالهم، كما اتفق الصحابة فى قتال أهل الردة انهم لا يضمنون بعـد إسلامهم ما اتلفوه من النفوس والأموال فانهم كانوا متأولين ، وإن كان تأويلهم باطلاً، كما ان سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم المتواترة عنه مضت بأن الكفار إذا قتلوا بعض المسلمين وأتلفوا اموالهم ثم أسلموا لم يضمنوا ما اصابوه مـن النفوس والأموال ، واصحاب تلك النفوس والأموال كانوا يجاهـدون ، قد اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، فعوض ما اخذ منهم على الله لا على اولئك الظالمين الذين قاتلهم المؤمنون.

وإذا كان هذا فى الدمـاء والاموال فهو فى الاعراض اولى ، فمـن كان مجاهداً فى سبيل الله باللسان : بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر . وبيان الدين وتبليغ ما فى الكتاب والسنة من الامر والنهي والخبر : وبيـان الاقوال المخالفة لذلك ، والرد على من خالف الكتاب والسنة ، او باليد كقتـال الكفار . فاذا

اوذي على جهاده بيد غيره او لسانه فأجره فى ذلك على الله لا يطلب من هذا الظالم عوض مظلمته ، بل هذا الظالم إن تاب وقبل الحق الذي جوهد عليه فالتوبة تجب ما قبلها (قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف) . وإن لم يتب بل اصر على مخالفة الكتاب والسنة فهو مخالف لله ورسوله . والحق فى ذنوبه لله ولرسوله ، وإن كان « ايضاً » للمؤمنين حق تبعاً لحق الله ، وهذا اذا عوقب عوقب لحق الله ولتكون كلمة الله هي العليا ، ويكون الدين كله لله لا لأجل القصاص فقط .

والكفار اذا اعتدوا على المسلمين مثل ان يمثلوا بهم فللمسلمين ان يمثلوا بهم كما مثلوا ، والصبر أفضل واذا مثلوا كان ذلك من تمام الجهاد ، والدعاء على جنس الظالمين الكفار مشروع مأمور به ، وشرع القنوت والدعاء للمؤمنين ، والدعاء على الكافرين .

وأما الدعاء على معينين كما كان النبي صلى الله عليه وسلم : يلعن فلاناً وفلاناً فهذا قد روي انه منسوخ بقوله : (ليس لك من الامر شيء) . كما قد بسط الكلام على ذلك فى غير هذا الموضع . فيما كتبته فى قلعة مصر ؛ وذلك لان المعين لا يعلم ان رضى الله عنه ان يهلك ؛ بل قد يكون ممن يتوب الله عليه ؛ بخلاف الجنس فانه اذا دعي عليهم بما فيه عز الدين وذل عدوه وقمعهم كان هذا دعاء بما يحبه الله ويرضاه ؛ فان الله يحب الايمان وأهل الايمان وعلو اهل الايمان وذل الكفار ، فهذا دعاء بما يحب الله ، واما الدعاء على المعين بما لا يعلم ان الله

يرضاه فغير مأمور به ، وقد كان يفعل ثم نهى عنه ؛ لان الله قد يتوب عليه او يعذبه .

ودعاء نوح على اهل الارض بالهلاك ، كان بعد ان اعلمه الله انه لا يؤمن من قومك الا من قد آمن،ومع هذا فقد ثبت فى حديث الشفاعة فى الصحيح انه يقول : انى دعوت على اهل الارض دعوة لم اومر بها . فانه وان لم ينه عنها فلم يؤمر بها ، فكان الاولى ان لا يدعو الا بدعاء مأمور به واجب او مستحب، فان الدعاء من العبادات فلا يعبد الله الا بمأمور به واجب او مستحب ، وهذا لو كان مأموراً به لكان شرعاً لنوح ، ثم ننظر فى شرعنا هل نسخه ام لا ؟ .

وكذلك دعاء موسى بقوله : (ربنا اطمس على اموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم) اذا كان دعاء مأموراً به ؛ بقي النظر فى موافقة شرعنا له ، والقاعدة الكلية فى شرعنا ان الدعاء ان كان واجباً او مستحباً فهو حسن يثاب عليه الداعي ، وان كان محرماً كالعدوان فى الدماء فهو ذنب ومعصية ، وان كان مكروهاً فهو ينقص مرتبة صاحبه ، وان كان مباحاً مستوي الطرفين فلا له ولا عليه ، فهذا هذا . والله سبحانه اعلم .

فصل

وكلا الطائفتين : الذين يسلكون إلى الله محض الارادة والمحبة والدنو والقرب منه من غير اعتبار بالأمر والنهي المنزلين من عند الله . الذين ينتهون إلى الفناء فى توحيد الربوبية ، يقولون بالجمع والاصطلام في توحيد الربوبية ولا يصلون الى الفرق الثاني. ويقولون : ان صاحب الفناء لايستحسن حسنة ، ولا يستقبح سيئة . ويجعلون هذا غاية السلوك .

والذين يفرقون بين ما يستحسنونه ويستقبحونه ، ويحبونه ويكرهونه ، ويأمرون به وينهون عنه ، لكن بإرادتهم ومحبتهم ، وهو اهم ؛ لا بالكتاب المنزل من عند الله ، كلا الطائفتين متبع لهواه بغير هدى من الله ، وكلا الطائفتين لم يحققوا شهادة ان لا اله الا الله وشهادة ان محمداً رسول الله ، فان تحقيق الشهادة بالتوحيد يقتضى ان لا يحب الا لله ولا يبغض إلا لله ، ولا يوالى الا لله ، ولا يعادي الا لله ، وان يحب ما يحبه الله ، ويبغض ما أبغضه ، ويأمر بما أمر الله به وينهي عما نهى الله عنه ، وانك لاترجو الا الله ، ولا تخاف الا الله ، ولا تسأل الا الله ، وهذا ملة ابراهيم ، وهذا الاسلام الذي بعث الله به جميع المرسلين .

والفناء في هذا هو « الفناء » المأمور به ، الذي جاءت به الرسل ، وهو ان يفنى بعبادة الله عن عبادة ما سواه ، وبطاعته عن طاعة ما سواه ، وبالتوكل عليه عن التوكل على ماسواه ، وبرجائه وخوفه عن رجاء ماسواه وخوفه ، فيكون مع الحق بلا خلق ، كما قال الشيخ عبد القادر : كن مع الحق بلا خلق ، ومع الخلق بلا نفس .

وتحقيق الشهادة بأن محمداً رسول الله ، يوجب ان تكون طاعته طاعة الله وارضاؤه ارضاء الله . ودين الله ما أمر به . فالحلال ما حلله والحرام ما حرمه . والدين ماشرعه ، ولهذا طالب الله المدعين لمحبته بمتابعته ، فقال : (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) وضمن لمن اتبعه ان الله يحبه بقوله : (يحببكم الله) .

وصاحب هذه المتابعة لا يبقى مريداً الا ما احبه الله ورسوله ، ولا كارهاً الا لما كرهه الله ورسوله ، وهذا هو الذي يحبه الحق كما قال : « ولا يزال عبدي يتقرب الي بالنوافل حتى احبه ، فاذا احببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي ؛ ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه . وما ترددت عن شيء انا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت واكره مساءته ، ولا بدله منه » .

فهذا محبوب الحق ، ومن اتبع الرسول فهو محبوب الحق وهو المتقرب الى الله بما دعا اليه الرسول من فرض ونفل . ومعلوم ان من كان هكذا فهو يحب طاعة الله ورسوله ، ويبغض معصية الله ورسوله ، فان الفرائض والنوافل كلها من العبادات التى يحبها الله ورسوله، ليس فيها كفر ولا فسوق ، والرب تعالى أحبه لما قام بمحبوب الحق . فان الجزاء من جنس العمل، فلما لم يزل متقربا إلى الحق بما يحبه من النوافل بعد الفرائض احبه الحق فانه استفرغ وسعه في محبوب الحق . فصار الحق يحبه المحبة التامة التى لايصل اليها من هو دونه فى التقرب الى الحق بمحبوباته ، حتى صار يعلم بالحق وبعمل بالحق . فصار به يسمع وبه يبصر وبه يبطش وبه يمشي .

واما الذي لايستحسن حسنة ولا يستقبح سيئة ، فهذا لم تبق عنده الأمور « نوعان » : محبوب للحق ، ومكروه ؛ بل كل مخلوق فهو عنده محبوب للحق ، كما انه مراد ؛ فان هؤلاء اصل قولهم : هو قول جهم بن صفوان من القدرية . فهم من غلاة الجهمية الجبرية فى القدر ، وان كانوا فى الصفات يكفرون الجهمية نفاة الصفات . كحال ابى سماعيل الأنصاري صاحب « منازل السائرين » و « ذم الكلام » و « الفاروق » و « تكفير الجهمية » وغير ذلك ، فانه فى باب إثبات الصفات فى غاية المقابلة للجهمية والنفاة . وفى باب الأفعال والقدر قوله بوافق الجهم ومن اتبعه من غلاة الجبرية ، وهو قول الأشعري واتباعه ، وكثير من الفقهاء اتباع الأئمة الأربعة ومن اهل الحديث والصوفية .

فان هؤلاء اقروا بالقدر موافقة للسلف وجمهور الأئمـة ، وهم مصيبون في ذلك ، وخالفوا « القدريـة » من المعتزلة وغـيرهم في نفي القدر ، ولكن سلـكوا في ذلك مسلك الجهم بن صفوان وأتباعه فزعموا : ان الأمور كلهـا لم تصدر الا عن ارادة تخصيص احد المتماثلين بـلا سبب . وقالوا : الارادة والمحبة والرضا سواء ؛ فوافقوا في ذلك القدريـة ؛ فان الجهميـة والمعتزلة كلاهما يقول : ان القادر المختار يرجح احد المتماثلين بـلا مرجح ؛ وكلاهما يقول : لافرق بين الارادة والمحبة والرضا .

ثم قالت « القدرية » وقد علم بالكتاب والسنة واجماع السلف ان الله يحب الايمـان والعمـل الصالح ؛ ولا يحب الفساد ولا يرضى لعبـاده الكفر ؛ ويكره الكفر والفسوق والعصيان . قالوا : فيـلزم من ذلك ان يكون كل ما في الوجود من المعاصي واقعاً بدون مشيئته وارادته كما هو واقع على خلاف أمره ، وخلاف محبته ورضاه وقالوا : ان محبتـه ورضاه لأعمال عباده هو بمعنى أمره بها ؛ فكذلك ارادته لها بمعنى أمره بها ، فلايكون قط عندهم مريداً لغير ما امر به ؛ واخذ هؤلاء يتأولون مافي القرآن من ارادته لـكل ما يحدث ومن خلقه لأفعال العباد بتأويلات محرفة .

وقالت الجهمية ومن اتبعها من الأشعرية وامثالهـم : قـد علم بالكتاب والسنة والاجماع ان الله خالق كل شيء وربه ومليكه ؛ ولا يكون خالقـاً الا بقدرته ومشيئته ؛ فما شاء كان ومـالم يشأ لم يكن وكل مافي الوجود فهو

بمشيئته وقدرته ، وهو خالقه ؛ سواء فى ذلك افعال العباد وغيرها ؛ ثم قالوا : وإذا كان مريداً لكل حادث والارادة هي المحبة والرضا ؛ فهو محب راض لكل حادث ؛ وقالوا : كل مافى الوجود من كفر وفسوق وعصيان فان الله راض به محب له ؛ كما هو مريد له .

فقيل لهم : فقد قال تعالى : (لا يحب الفساد) (ولا يرضى لعباده الكفر) . فقالوا : هذا بمنزلة ان يقال : لا يريد الفساد ؛ ولا يريد لعباده الكفر ؛ وهذا يصح على وجهين :

اما ان يكون خاصا بمن لم يقع منه الكفر والفساد؛ ولاريب ان الله لا يريد ولا يحب مالم يقع عندهم؛ فقالوا :معناه لا يحب الفساد لعباده المؤمنين؛ ولا يرضاه لهم.

وحقيقة قولهم: ان الله ايضاً لا يحب الايمان ولا يرضاه من الكفار . فالمحبة والرضا عندهم كالارادة عندهم متعلقة بما وقع دون مالم يقع ؛ سواء كان مأموراً به او منهيا عنه ؛ وسواء كان من اسباب سعادة العباد او شقاوتهم ؛ وعندهم ان الله يحب ما وجد من الكفر والفسوق والعصيان ؛ ولا يحب ما لم يوجد من الايمان والطاعة ؛ كما اراد هذا دون هذا .

و (الوجه الثانى) : قالوا : لا يحب الفساد دينا ؛ ولا يرضاه دينا ؛ وحقيقة هذا القول انه لا يريده دينا ؛ فانه اذا أراد وقوع الشيء على صفة لم يكن مريداً له على خلاف تلك الصفة ؛ وهو اذا اراد وقوع شيء مع شيء

لم يرد وقوعه وحده فانه اذا اراد ان يخلق زيداً من عمرو لم يرد ان يخلقه من غيره ؛ واذا اراد ان ينزل مطراً فتنبت الأرض به ؛ فانه اراد إنزاله على تلك الصفة ؛ واذا اراد ان يركب البحر قوم فيغرق بعضهم ؛ ويسلم بعضهم ؛ ويربح بعضهم ؛ فانما اراده على تلك الصفة ؛ فكذلك الايمان والكفر ؛ قرن بالايمان نعيم أصحابه ؛ وبالكفر عذاب اصحابه، وان لم يكن عندهم جعل شيء لشيء سبباً، ولا خلق شيء لحكمة ؛ لكن جعل هذا مع هذا .

وعندهم جعل السعادة مع الايمان، لابه، كما يقولون : انه خلق الشبع عند الأكل، لا به ؛ فالدين الذي امر به هو ما قرن به سعادة صاحبه فى الآخرة، والكفر والفسوق والعصيان عندهم احبه ورضيه كما اراده ؛ لكن لم يحبه مع سعادة صاحبه ؛ فلم يحبه دينا . كما انه لم يرده مع سعادة صاحبه دينا .

وهذا المشهد الذي شهده اهل الفناء فى توحيد الربوبية ، فانهم رأوا الرب تعالى خلق كل شيء بارادته وعلم ان سيكون ما اراد . ولا سبب عندهم لشيء ولا حكمة ؛ بل كل الحوادث تحدث بالارادة .

ثم الجهم بن صفوان ونفاة الصفات من المعتزلة ونحوهم لايثبتون ارادة قائمة بذاته ، بل اما أن ينفوها ، واما ان يجعلوها بمعنى الخلق والأمر ؛ واما ان يقولوا : احدث إرادة لا فى محل .

واما مثبتة الصفات : كابن كلاب والأشعري وغيرهما — ممن يثبت

الصفات ؛ ولا يثبت إلا واحداً معيناً ـــ فـلا يثبت إلا ارادة واحدة تتعلق بكل حادث ؛ وسمعا واحداً معيناً متعلقاً بكل مسموع وبصراً واحَداً معيناً متعلقاً بكل مرئي ؛ وكلاما واحداً بالعين يجمع جميع انواع الكلام، كما قــد عرف من مذهب هؤلاء . فهؤلاء يقولون : جميع الحادثات صادرة عن تلك الارادة الواحدة العين المفردة التي ترجح احد المتماثلين لا بمرجح . وهي المحبة والرضا وغير ذلك .

وهؤلاء إذا شهدوا هذا لم يبق عندهم فرق بين جميع الحوادث في الحسن والقبح إلا من حيث موافقتها للانسان . ومخالفة بعضها له . فما وافق مراده ومحبوبه كان حسناً عنده . وما خالف ذلك كان قبيحاً عنده . فلا يكون في نفس الأمر حسنة يحبها الله ولا سيئة يكرهها إلا بمعنى ان الحسنة هي ماقرن بهـا لذة صاحبها ، والسيئة ماقرن بها الم صاحبها من غير فرق يعود اليه ، ولا الى الأفعال اصلاً ؛ ولهــذا كان هؤلاء لايثبتون حسناً ولا قبيحاً ، لابمعنى الملائم للطبع والمنافي له ، والحسن والقبح الشرعي هو مادل صاحبه على انه قــد يحصل لمن فعله لذة ، أو حصول ألم له .

ولهذا يجوز عنـدهم ان يأمر الله بكل شـيء حتى الكفر والفسوق والعصيان . وينهى عن كل شيء حتى عن الايمان والتوحيد ، ويجوز نسخ كل ما أمر به بكل مانهى عنه . ولم يبق عندهم في الوجود خـير ولا شر ، ولا حسن ولاقبيح . إلا بهذا الاعتبار ، فما في الوجود ضر ولانفع . والنفع والضر

أمران اضافيان ، فربما نفع هذا ما ضر هذا . كما يقال :

مصائب قوم عند قوم فوائد .

فلما كان هذا حقيقة قولهم الذي يعتقدونه ويشهدونه صاروا حزبين :

(حزبا) من اهل الكلام والرأي اقروا بالفرق الطبيعي ، وقالوا : ما ثم فرق الا الفرق الطبيعي ، ليس هنا فرق يرجع الى الله بأنه يحب هذا ويبغض هذا .

ثم منهم من يضعف عنده الوعد والوعيد ، اما لقوله بالارجاء ، واما لظنه ان ذلك لمصالح الناس فى الدنيا إقامة للعدل ، كما يقول : ذلك من يقوله من المتفلسفة ، فلا يبقى عنده فرق بين فعل وفعل إلا ما يحبه هو ويبغضه ، فما احبه هو كان الحسن الذي ينبغي فعله ، وما أبغضه كان القبيح الذي ينبغي تركه . وهذا حال كثير من أهل الكلام والرأي ؛ الذين يرون رأي جهم والأشعري ونحوهما في القدر ، تجدهم لا ينتهون فى المحبة والبغضة والموالاة والمعاداة إلا إلى محض أهوائهم وارادتهم ، وهو الفرق الطبيعي .

ومن كان منهم مؤمناً بالوعد فانه قد يفعل الواجبات ، ويترك المحرمات ، لكن لأجل ما قرن بهما من الأمور الطبيعية فى الآخرة من أكل وشرب ونكاح ، وهؤلاء ينكرون محبة الله ، والتلذذ بالنظر اليه ، وعندهم إذا قيل : ان

العباد يتلذذون بالنظر اليه،فمعناه أنهم عندالنظر يخلق لهم من اللذات بالمخلوقات مايتلذذون به، لا ان نفس النظر الى الله يوجب لذة. وقد ذكر هذا غير واحد منهم ابو المعالي فى « الرسالة النظامية ». وجعل هذا من اسرار التوحيد وهو من اشراك التوحيد، الذي يسميه هؤلاء النفاة توحيداً، لامن اسرار التوحيد الذي بعث الله به الرسل، وانزل به الكتب؛ فان المحبة لاتكون الا لمعنى فى المحبوب يحبه المحب. وليس عندهم فى الموجودات شيء يحبه الرب الا بمعنى يريده، وهو مريد لكل الحوادث؛ ولا فى الرب عندهم معنى يحبه العبد، وانما يحب العبد مايشتهيه، وانما يشتهي الأمور الطبيعية الموافقة لطبعه، ولا يوافق طبعه عندهم إلا اللذات البدنية كالأكل والشرب والنكاح.

و (الحزب الثانى) من الصوفية : الذي كان هذا المشهد هو منتهى سلوكهم، عرفوا الفرق الطبيعي؛ وهم قد سلكوا على ترك هذا الفرق الطبيعي، وانهم يزهدون فى حظوظ النفس وأهوائها؛ لايريدون شيئاً لأنفسهم؛ وعندهم ان من طلب شيئاً للأكل والشرب فى الجنة فانما طلب هواه وحظه؛ وهذا كله نقص عندهم ينافى حقيقة الفناء فى توحيد الربوبية؛ وهو بقاء مع النفس وحظوظها.

والمقامات كلها عندهم ــ التوكل والمحبة؛ وغير ذلك ــ إنما هي منازل أهل الشرع السائرين الى عين الحقيقة؛ فاذا شهدوا توحيد الربوبية كان ذلك عندهم عللاً فى الحقيقة؛ اما لنقص المعرفة والشهود واما لأنه ذب عن

النفس وطلب حظوظها : فانـه من شهد ان كل مافى الوجود فالرب يحبـه ويرضاه ويريده ، لافرق عنده بـين شيء وشيء ، إلا ان من الأمور مامعه حظ لبعض الناس من لذة يصيبها ، ومنها مامعـه ألم لبعض الناس . فمن كان هذا مشهده فانه قطعاً يرى ان كل من فرق بـين شيء وشيء لم يفرق الا لنقص معرفتـه ، وشهوده ان الله رب كل شيء ، ومريد لـكل شيء ومحب ـ على قولهم ـ لـكل شيء ، وانما لفرق يرجـع إلى حظه وهواه . فيكون طالباً لحظه ذاباً عن نفسه ، وهذا علة وعيب عندهم .

فصار عندهم كل من فرق : إما ناقص المعرفة والشهادة ، وإما ناقص القصد والارادة . وكلاهما علة ؛ بخلاف صاحب الفناء فى مشهد الربوبية ، فانه يشهد كل ما فى الوجود بارادته ومحبته ورضاه عندهم ، لا فرق بـين شيء وشيء ، فلا يستحسن حسنة ولا يستقبح سيئة ، كما قاله صاحب منازل السائرين .

ولهذا فى الكلام المنقول عن الذبيلي وأبي يزيد انه قال : إذا رأيت اهل الجنة يتنعمون فى الجنة ، واهل النار يعذبون فى النار ، فوقع فى قلبك فرق . خرجت عن حقيقة التوكل ،او قال: عن التوحيد الذي هو اصل التوكل ،ومعلوم ان هذا الفرق لا يعدم من الحيوان دائما ، بل لابد له منه يميل إلى مالا بد له منه من اكل وشرب ، لكنه فى حال الفناء قد يكون مستغرقا فى ذلك المشهد ، ولكن لابد ان يميل الى امور يحتاج إليها فيريدها ، وأمور تضره فيكرههـا وهذا فرق طبيعي لايخلو منه بشر .

لكن قد يقولون بالفرق فى الأمور الضرورية التى لايقوم الانسان الا بها من طعام ولباس ونحو ذلك ، فيكتفون فى الدنيا والآخرة بمالا بد منه من طعام ولباس ، ويرون هذا الزهد هو الغاية ، فيزهدون فى كل شيء ، بمعنى انهم لايريدونه ولا يكرهونه . ولا يحبونه ولا يبغضونه ، ويكون زهدهم فى المساجد كزهدهم في الحانات ، ولهذا اذا قدم الشيخ الكبير منهم بلداً يبدأ بالبغايا في الحانات ويقول : كيف انتم فى قدر الله، فانه لافرق عنده فى هذا المشهد بين المساجد والكنائس والحانات ، وبين اهل الصلاة والاحرام وقراءة القرآن واهل الكفر وقطاع الطريق والمشركين بالرحمن .

ولا ريب ان فناءهم وغيبتهم عن شهود « الالهية والنبوة » شهادة أن لا إله الا الله وان محمداً رسول الله ، وما تضمنه من الفرق يرجع الى نقص العلم والشهود والايمان والتوحيد ، فشهدوا نعتاً من نعوت الرب وغابوا عن آخر وهذا نقص .

وقد يرون ان شهود الذات مجردة عن الصفات اكمل ، ويقولون : شهود الافعال ثم شهود الصفات ثم شهود الذات المجردة ، وربما جعلوا الاول للنفس والثاني للقلب والثالث للروح ، ويجعلون هذا النقص من إيمانهم ومعرفتهم وشهودهم هو الغاية ، فيكونون مضاهين للجهمية نفاة الصفات ، حيث أثبتوا ذاتا مجردة عن الصفات . وقالوا : هذا هو الكمال ، لكن اولئك يقولون : بانتفائها فى الخارج ، فيقولون : انهم يشهدون انها منتفية وهؤلاء يثبتونها فى

في الخـارج علماً واعتقـاداً ، ولـكن يقولون : الـكمال فى ان يغيب عن شهودها ولا يشهدون نفيها ؛ لكن لا يشهدون ثبوتها . وهذا نقص عظيم وجهل عظيم .

اما « اولاً » فلأنهم شهدوا الأمر على خلاف ما هو عليه ، فذات مجردة عن الصفات لا حقيقة لها فى الخارج .

وأما « الثانى » فهو مطلوب الشيطان من التجهم ونفي الصفات فان عـدم العلم والشهود لثبوتها يوافق فيه الجهمي المعتقد لانتفائها ، ومن قال : اعتقـد ان محمداً ليس برسول،وقال الآخر : وان كنت أعلم رسالته فأنا أفنى عنهـا فلا أذكرها ولا اشهدها ، فهذا كافر كالاول فالكفر عدم تصديق الرسول ، سواء كان معه اعتقاد تكذيب ام لا ، بل وعدم الاقرار بما جاء به والمحبة له ، فمن الزم قلبه ان يغيب عن معرفة صفات الله كما يعرف ذاته ، والزم قلبه ان يشهد ذاتا مجردة عن الصفات ، فقد الزم قلبه ان لا يحصل له مقصود الايمان بالصفـات وهذا من اعظم الضلال .

وأهل الفناء في توحيد الربوبية قد يظن احدهم انه إذا لم يشهد إلا فعل الرب فيه فلا إثم عليه ، وهم في ذلك بمـنزلة من أكل السموم القاتلة وقال : انا اشهد ان الله هو الذي أطعمني فلا يضرني ، وهذا جهل عظيم ، فان الذنوب والسيئات تضر الانسان أعظم مما تضره السموم ، وشهوده ان الله فاعـل ذلك

لا يدفع ضررها ، ولو كان هذا دافعاً لضررها لكان أنبياء الله وأولياؤه المتقون اقدر على هذا الشهود الذي يدفعون به عن انفسهم ضرر الذنوب .

ومن هؤلاء من يظن ان الحق اذا وهبه حالا يتصرف به وكشفا لم يحاسبه على تصرفه به ، وهذا بمنزلة من يظن انه إذا أعطاه ملكا لم يحاسبه على تصرفه فيه ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد » فبين انه مع انه المعطي المانع ، فلا ينفع المجدود جده ، إنما ينفعه الايمان والعمل الصالح .

فهذا اصل عظيم ضل بالخطأ فيه خلق كثير . حتى آل الأمر بكثير من هؤلاء الى ان جعلوا اولياء الله المتقين يقاتلون أنبياءه ، ويعاونون أعداءه، وانهم مأمورون بذلك ، وهو امر شيطاني قدري ، ولهذا يقول من يقول منهم : ان الكفار لهم خفراء من اولياء الله . كما للمسلمين خفراء من اولياء الله ، ويظن كثير منهم ان اهل الصفة قاتلوا النبي صلى الله عليه وسلم فى بعض المغازي فقال : « يا أصحابي! تخلونى وتذهبون عني » ؟ ! فقالوا: نحن مع الله، من كان مع الله كنا معه .

ويجوزون قتال الانبياء وقتلهم ، كما قال شيخ مشهور منهم كان بالشام لو قتلت سبعين نبياً ما كنت مخطئاً ، فانه ليس فى مشهدهم لله محبوب مرضي مراد الا ما وقع ، فما وقع فالله يحبه ويرضاه ، وما لم يقع فالله لا يحبه ولا يرضاه

والواقع هو تبع القدر لمشيئة الله وقدرته ، فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن .
فهم من غلب كانوا معه ؛ لان من غلب كان القدر معه ، والمقدور عندهم هو محبوب الحق ، فاذا غلب الكفار كانوا معهم ، واذا غلب المسلمون كانوا معهم ، واذا كان الرسول منصوراً كانوا معه ، واذا غلب اصحابه كانوا مع الكفار الذين غلبوهم .

وهؤلاء الذين يصلون الى هذا الحد غالبهم لا يعرف وعيد الآخرة ؛ فان من اقر بوعيد الآخرة وانه للكفار لم يمكنه ان يكون معاوناً للكفار موالياً لهم على ما يوجب وعيد الآخرة ؛ لكن قد يقولون بسقوطه مطلقاً ، وقد يقولون بسقوطه عمن شهد توحيد الربوبية ، وكان فى هذه الحقيقة القدرية ؛ وهذا يقوله طائفة من شيوخهم كالشيخ المذكور وغيره .

فلهذا يوجد هؤلاء الذين يشهدون القدر المحض ، وليس عندهم غيره الا ما هو قدر ايضا — من نعيم اهل الطاعة ، وعقوبة اهل المعصية — لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر ، ولا يجاهدون فى سبيل الله ، بل ولا يدعون الله بنصر المؤمنين على الكفار ، بل اذا رأى احدهم من يدعوا قال الفقير او المحقق او العارف ما له ؟ ! يفعل الله ما يشاء ، وينصر من يريد ؛ فان عنده ان الجميع واحد بالنسبة الى الله ، وبالنسبة اليه ايضاً ؛ فانه ليس له غرض في نصر احدى الطائفتين لا من جهة ربه ، فانه لا فرق على رأيه عند الله تعالى بينهما ، ولا من جهة نفسه فان حظوظه لا تقص باستيلاء الكفار ؛ بل كثير منهم تكون

حظوظه الدنيوية مع استيلاء الكفار والمنافقين والظالمين اعظم ، فيكون هواه اعظم .

وعامة من معهم من الخفراء هم من هذا الضرب ، فان لهم حظوظا ينالونها باستيلائهم لا تحصل لهم باستيلاء المؤمنين . وشياطينهم تحب تلك الحظوظ المذمومة ، وتغريهم بطلبهم ، وتخاطبهم الشياطين بأمر ونهي وكشف يظنونه من جهة الله ، وان الله هو امرهم ونهاهم،وانه حصل لهم من المكاشفة ما حصل لأولياء الله المتقين . ويكون ذلك كله من الشياطين ، وهم لا يفرقون بين الأحوال الرحمانية والشيطانية : لأن الفرق مبني على شهود الفرق من جهة الرب تعالى . وعندهم لا فرق بين الأمور الحادثة كلها من جهة الله تعالى . انما هو مشيئة محضة تناولت الأشياء تناولاً واحداً فلا يحب شيئاً ولا يبغض شيئاً .

ولهذا يشترك هؤلاء فى جنس السماع الذي يثير ما فى النفوس من الحب والوجد والذوق : فيثير من قلب كل احد حبه وهواه، واهواؤهم متفرقة: فانهم لم يجتمعوا على محبة ما يحبه الله ورسوله ؛ إذ كان محبوب الحق ـ على اصل قولهم ـ هو ما قدره فوقع ، واذا اختلفت اهواؤهم فى الوجد اختلفت اهواء شياطينهم ، فقد يقتل بعضهم بعضا بشياطينه؛ لأنها اقوى من شياطين ذاك وقد يسلبه ما معه من الحال الذي هو التصرف والمكاشفة الحاصلة له بسبب شياطينهم ؛ فتكون شياطينه هربت من شياطين ذلك فيضعف امره ؛ ويسلب حاله ؛ كمن كان ملكا له اعوان فأخذت اعوانه ؛ فيبقى ذليلاً لا ملك له .

فكثير من هؤلاء كالملوك الظلمة الذين يعادي بعضهم بعضا : اما مقتول ؛ واما مأسور ؛ واما مهزوم . فان منهم من يأسر غيره فيبقى تحت تصرفه ؛ ومنهم من يسلبه غيره فيبقى لا حال له ؛ كالملك المهزوم ؛ فهذا كله من تفريع اصل الجهمية الغلاة فى الجبر فى القدر .

وانما يخلص من هذا كله من اثبت لله محبته لبعض الأمور وبغضه لبعضها؛ وغضبا من بعضها ؛ وفرحا ببعضها وسخطا لبعضها ، كما اخبرت به الرسل ، ونطقت به الكتب ، وهذا هو الذي يشهد : ان لا إله الا الله ؛ وان محمدا رسول الله ، ويعلم ان التوحيد الذي بعثت به الرسل ان يعبد الله وحده لا شريك له فيعبد الله دون ما سواه .

وعبادته تجمع كمال محبته وكمال الذل له ، كما قال تعالى : (وانيبوا الى ربكم واسلموا له) فينيب قلبه الى الله ويسلم له ، ويتبع ملة ابراهيم حنيفاً (ومن احسن دينا ممن اسلم وجهه لله وهو محسن ، واتبع ملة ابراهيم حنيفاً واتخذ الله ابراهيم خليلاً) . ويعلم ان ما امر الله ورسوله به فان الله يحبه ويرضاه ، وما نهى عنه فانه يبغضه وينهى عنه ويمقت عليه ويسخط على فاعله . فصار يشهد الفرق من جهة الحق تعالى .

ويعلم ان الله تعالى يحب ان يعبد وحده لاشريك له ، ويبغض من يجعل له انداداً يحبونهم كحب الله ، وان كانوا مقرين بتوحيد الربوبية كمشركي

العرب وغيرهم وان هؤلاء القدرية الجبرية الجهمية اهل الفناء فى توحيد الربوبية حقيقة قولهم من جنس قول المشركين الذين قالوا : (لو شاء الله ما اشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء) قال الله تعالى : (كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا،قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا، ان تتبعون إلا الظن ، وان انتم الا تخرصون . قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم اجمعين) .

فان هؤلاء المشركين لما انكروا ما بعثت به الرسل من الامر والنهي ، وانكروا التوحيد الذي هو عبادة الله وحده لاشريك له ، وهم يقرون بتوحيد الربوبية ، وان الله خالق كل شيء مابقي عندهم من فرق من جهة الله تعالى بين مأمور ومحظور . فقالوا : (لو شاء الله ما اشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء) وهذا حق ؛ فان الله لو شاء ان لا يكون هذا لم يكن ؛ لكن اي فائدة لهم فى هذا،هذا غايته ان هذا الشرك والتحريم بقدر ، ولايلزم اذا كان مقدوراً ان يكون محبوبا مرضياً لله ، ولا علم عندهم بأن الله امر به ولا احبه ولا رضيه بل ليسوا فى ذلك الا على ظن وخرص .

فان احتجوا بالقدر ، فالقدر عام لايختص بحالهم .

وان قالوا : نحن نحب هـذا ونسخط هذا فنحن نفرق الفرق الطبيعي لانتفاء الفرق من جهة الحق ، قال تعالى : لاعلم عندكم بانتفاء الفرق من جهة الله تعالى ، والجهمية المثبتة للشرع تقول : بأن الفرق الثابت هو ان التوحيد

قرن به النعيم ، والشرك قرن به العذاب وهو الفرق الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو عندهم يرجع الى علم الله بما سيكون واخباره ، بل هؤلاء لا يرجع الفرق عندهم الى محبة منه لهذا وبغض لهذا .

وهؤلاء يوافقون المشركين فى بعض قولهم لا فى كله ، كما ان القدرية من الامة ـــ الذين هم مجوس الامة ـــ يوافقون المجوس المحضة فى بعض قولهم لا فى كله . والا فالرسول قد دعاهم الى عبادة الله وحده لاشريك له ، والى محبة الله دون ماسواه، والى ان يكون الله ورسوله احب اليه مما سواهما ، والمحبة تتبع الحقيقة فان لم يكن المحبوب فى نفسه مستحقاً ان يحب لم يجز الأمر بمحبته فضلا عن ان يكون احب الينا من كل ما سواه .

واذا قيل « محبته » محبة عبادته وطاعته ، قيل محبة العبادة والطاعة فرع على محبة المعبود المطاع، وكل من لم يحب فى نفسه لم تحب عبادته وطاعته، ولهذا كان الناس يبغضون طاعة الشخص الذي يبغضونه ولا يمكنهم مع بغضه محبة طاعته الا لغرض آخر محبوب ، مثل عوض يعطيهم على طاعته فيكون المحبوب فى الحقيقة هو ذلك العوض ، فلا يكون الله ورسوله احب اليهم مما سواهما ، الا بمعنى ان العوض الذي يحصل من المخلوقات احب اليهم من كل شيء .

ومحبة ذلك العوض مشروط بالشعور به فما لا يشعر به تمتنع محبته . فاذا قيل : هم قد وعدوا على محبة الله ورسوله بأن يعطوا افضل محبوباتهم المخلوقة ،

قيل : لامعنى لمحبة الله ورسوله عندكم الا محبة ذلك العوض ، والعوض غير مشعور به حتى يحب ، واذا قيل : بل اذا قال : من قال : لا يحب غيره الا لذاته المعنى : أنك اذا اطعتني اعطيتك اعظم ما تحبه صار محباً لذلك الآمر له . قيل : ليس الأمر كذلك بل يكون قلبه فارغاً من محبة ذلك الآمر، وانما هو معلق بما وعده من العوض على عمله كالفعلة الذين يعملون من البناء والخياطة والنساجة وغير ذلك ما يطلبون به اجورهم،فهم قد لا يعرفون صاحب العمل اولا يحبونه ولا لهم غرض فيه ، انما غرضهم فى العوض الذي يحبونه .

وهذا اصل قول الجهمية القدرية والمعتزلة الذين ينكرون محبة الله تعالى ، ولهذا قالت المعتزلة ومن اتبعها من الشيعة : ان معرفة الله وجبت لكونها لطفا فى اداء الواجبات العقلية فجعلوا اعظم المعارف تبعاً لما ظنوه واجباً بالعقل ، وهم ينكرون محبة الله والنظر اليه فضلا عن لذة النظر .

وابن عقيل لما كان فى كثير من كلامه طائفة من كلام المعتزلة سمع رجلا يقول: اللهم انى اسألك لذة النظر الى وجهك . فقال : ياهذا! هب ان له وجها أفتتلذذ بالنظر اليه ؟! وهذا اللفظ مأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث الذي رواه النسائى وغيره عن عمار عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال فى الدعاء : « اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق ، احينى ما كانت الحياة خيراً لي ، وتوفنى اذا كانت الوفاة خيراً لي ، اللهم انى اسألك خشيتك فى الغيب والشهادة واسألك كلمة الحق فى الغضب والرضا ، واسألك القصد فى الفقر والغنى ، واسألك نعيما لا ينفد واسألك قرة عين لا تنقطع ، واسألك

الرضا بعد القضـاء، وبرد العيش بعـد الموت واسألك لذة النظر الى وجهك الكريم والشوق الى لقائك من غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة، اللهم: زينـا بزينة الايمان واجعلنا هداة مهتدين ».

وقد روي هـذا اللفظ من وجه آخر عن النبي صـلى الله عليـه وسلم ـــ اظنه من رواية زيد بن ثابت ـــ ومعناه فى الصحيح من حديث صهيب عن النبى صلى الله عليه وسـلم قال: « اذا دخل اهل الجنة الجنة نادى منـاد: يااهل الجنة! ان لكم عند الله موعداً يريد ان ينجزكموه. فيقولون: ما هو؟ ألم يبيض وجوهنـا، ويثقل موازيننا، ويدخلنا الجنـة ويجرنا من النـار؟ قال: فيكشف الحجاب فينظرون اليه فما اعطاهم شيئاً احب اليهم من النظر اليه وهي الزيادة » يعنى قوله: (للذين احسنوا الحسنى وزيادة).

فقد اخبر انه ليس فيما اعطوه من النعيم احب إليهم من النظر، وإذا كان النظر إليه أحب الأشياء إليهم علم أنه نفسه أحب الأشياء إليهم، والا لم يكن النظر احب أنواع النعيم إليهم؛ فان محبـة الرؤية تتبع محبـة المرئى، وما لا يحب ولا يبغض في نفسه لا تـكون رؤيته احب إلى الانسـان من جميـع أنواع النعيم.

و « فى الجملة » فانكار الرؤية والمحبة والـكلام ـــ ايضاً ـــ معروف مـن كلام الجهمية والمعتزلة ومن وافقهم. والاشعرية ومن تابعهم يوافقونهم عـلى

نفي المحبـة ، ويخـالفونهـم فى إثبـات الرؤيـة ولكن الرؤيـة الـتى يثبتونها لا حقيقة لها .

وأول من عرف عنه في الاسلام انه أنكر ان الله يتكلم ، وان الله يحب عباده : « الجعد بن درهم » . ولهذا أنكر ان يكون اتخـذ الله ابراهيم خليلاً ، او كلم موسى تكليماً ، فضحى به خالد بن عبـد الله القسري ، وقال : ضحوا ايهـا النـاس ! تقبل الله ضحاياكم ، فاني مضح بالجعد بن درهم ، انه زعم ان الله لم يتخذ ابراهيم خليلاً ، ولم يكلم موسى تكليماً ، تعالى الله عما يقوله الجعد علواً كبيراً . ثم نزل فذبحه .

وأما « الصوفية » فهم يثبتون المحبة بل هذا اظهر عندهم من جميع الامور وأصل طريقتهم إنما هي الارادة والمحبـة ، وإثبات محبـة الله مشهور فى كلام اوليهم وآخريهم ، كما هو ثابت بالكتاب والسنة واتفاق السلف .

والمحبة جنس تحته انواع كثـيرة فكل عابد محب لمعبوده : فالمشركون يحبـون آلهتهـم كما قال الله تعـالى : (ومـن النـاس من يتخـذ من دون الله أنداداً يحبونهـم كحب الله . والذين آمنـوا اشد حبـاً لله) وفيـه قولان .

(احدهما) : يحبونهم كحب المؤمنين لله . و (الثاني) : يحبونهـم كما

يحبون الله ؛ لأنه قد قال : (والذين آمنوا اشد حباً لله) فلم يمكن ان يقال : ان المشركين يعبدون آلهتهم كما يعبد الموحدون الله ، بل كما يحبون ـــ هم ـــ الله ؛ فانهم يعدلون آلهتهم برب العالمين . كما قال : (ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) وقال : (تالله إن كنا لفي ضلال مبين . إذ نسويكم برب العالمين) .

وقد قال : بعض من نصر القول الاول في الجواب عن حجة (القول الثاني) قال : المفسرون : قوله : (والذين آمنوا اشد حباً لله) اي اشد حباً لله من المشركين لآلهتهم . فيقال له : ما قاله هؤلاء المفسرون مناقض لقولك ، فانك تقول : إنهم يحبون الأنداد كحب المؤمنين لله ، وهذا يناقض ان يكون المؤمنون اشد حبا لله من المشركين لأربابهم ، فتبين ضعف هذا القول وثبت ان المؤمنين يحبون الله اكثر من محبة المشركين لله ولآلهتهم ؛ لأن اولئك اشركوا في المحبة ، والمؤمنون أخلصوها كلها لله .

و (ايضا) فقوله : (كحب الله) اضيف فيه المصدر الى المحبوب المفعول، وحذف فاعل الحب . فاما ان يراد كما يحب الله ـــ من غير تعيين فاعل ـــ فيبقي عاما في حق الطائفتين ، وهذا يناقض قوله : (والذين آمنوا اشد حبا لله) وإما ان يراد كحبهم لله ، ولا يجوز ان يراد كما يحب غيرهم لله ، اذ ليس في الكلام ما يدل على هذا بخلاف حبهم ، فانه قد دل عليه قوله : (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله) فأضاف الحب المشبه اليهم

فكذلك الحب المشبه لهم ، إذ كان سياق الكلام يدل عنيه . اذا قال : يحب زيداً كحب عمرو ، او يحب عليا كحب ابي بكر ، او يحب الصالحين من غير اهله كحب الصالحين من اهله ، او قيل : يحب الباطل كحب الحق ، او يحب سماع المكاء والتصدية كحب سماع القرآن . وأمثال ذلك لم يكن المفهوم الا انه هو المحب للمشبه والمشبه به ، وانه يحب هذا كما يحب هذا ، لا يفهم منه انه يحب هذا كما يحب غيره هذا ، اذ ليس فى الكلام ما يدل على محبة غيره اصلاً .

والمقصود ان المحبة تكون لما يتخذ الها من دون الله ، وقد قال تعالى : (افرأيت من اتخذ الهه هواه واضله الله على علم) فمن كان يعبد ما يهواه فقد اتخذ إلهه هواه ، فماهويه [هوية] إلهه، فهو لا يتأله من يستحق التأله ، بل يتأله ما يهواه ، وهذا المتخذ إلهه هواه له محبة كمحبة المشركين لآلهتهم ، ومحبة عباد العجل له ، وهذه محبة مع الله لا محبة لله ، وهذه محبة اهل الشرك .

والنفوس قد تدعي محبة الله ، وتكون في نفس الامر محبة شرك تحب ما تهواه ، وقد اشركته فى الحب مع الله ، وقد يخفى الهوى على النفس فان حبك الشيء يعمى ويصم .

وهكذا الأعمال التى يظن الانسان انه يعملها لله وفى نفسه شرك قد خفي

عليــه ، وهو يعمــله : إما لحب رياسة ، وإما لحـب مال ، وإما لحب صورة ، ولهذا قالوا : يا رسول الله ! الرجـل يقاتل شجاعة وحميـة ورياء فأي ذلك فى سبيل الله ؟ فقال : «من قاتل لتـكون كلمة الله هي العليـا فهو فى سبيل الله » .

فلما صار كثير من الصوفية النساك المتأخرين يدعون المحبة ، ولم يزنوهـا بميزان العلم والكتاب والسنة ، دخل فيهـا نوع من الشرك ، واتبـاع الأهواء والله تعـالى قد جعل محبته موجبة لاتبـاع رسوله . فقال (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) وهذا لأن الرسول هو الذي يدعو الى ما يحبه الله ، وليس شيء يحبه الله إلا والرسول يدعو إليه ، وليس شيءيدعو اليه الرسول الا والله يحبه ، فصار محبوب الرب ومدعو الرسول متلازمين ، بل هـذا هو هذا فى ذاته ، وإن تنوعت الصفات .

فكل من ادعى انه يحب الله ولم يتبع الرسول فقد كذب ، ليست محبته لله وحده ، بل إن كان يحبه فهي محبة شرك ، فانما يتبع ما يهـواه كدعوى اليهود والنصـارى محبة الله ، فانهـم لو اخلصوا له المحبـة لم يحبوا الا ما احب ، فكانوا يتبعون الرسول ، فلما احبوا ما ابغض الله مع دعواهم حبه كانت محبتهـم من جنس محبة المشركين .

وهكذا اهل البدع فمن قال: انه من المريدين للهالمحبين له ، وهو لايقصد

اتباع الرسول ، والعمل بما امر به . وترك ما نهى عنه ، فمحبته فيها شوب من محبة المشركين واليهود والنصارى ، بحسب مافيه من البدعة . فان البدع التى ليست مشروعة وليست مما دعا اليه الرسول لا يحبها الله ، فان الرسول دعاالى كل ما يحبه الله ، فأمر بكل معروف ونهى عن كل منكر .

و (أيضاً) فمن تمام محبة الله ورسوله بغض من حاد الله ورسوله والجهاد في سبيله . لقوله تعالى : (لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم او ابناءهم او اخوانهم او عشيرتهم اولئك كتب فى قلوبهم الايمان وايدهم بروح منه) . وقال تعالى : (ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم انفسهم ان سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون . ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما انزل اليه ما اتخذوهم اولياء ولكن كثيراً منهم فاسقون) وقال تعالى : (قد كانت لكم اسوة حسنة فى ابراهيم والذين معه اذ قالوا لقومهم : انا برءاء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم . وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء ابداً حتى تؤمنوا بالله وحده) .

فأمر المؤمنين ان يتأسوا بابراهيم ومن معه حيث ابدوا العداوة والبغضاء لمن اشرك حتى يؤمنوا بالله وحده ، فأين هذا من حال من لا يستحسن حسنة ولا يستقبح سيئة ؟ !

وهؤلاء سلكوا طريق الارادة والمحبة مجملاً من غير اعتصام بالكتاب والسنة كما سلك اهل الكلام والرأي طريق النظر والبحث من غير اعتصام بالكتاب والسنة ، فوقع هؤلاء في ضلالات وهؤلاء فى ضلالات . كما قال تعالى: (فاما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى . ومن اعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة اعمى . قال رب لم حشرتني اعمى وقد كنت بصيرا . قال كذلك اتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) وقال : (وان هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) وقال : (ان هذا القرآن يهدي للتى هي اقوم) وقال : (قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها) . ومثل هذا كثير فى القرآن .

وقد بسط الكلام على هذا الأصل فى غير هذا الموضع .

فان قيل : صاحب الفناء فى توحيد الربوبية قد شهد ان الرب خلق كل شيء ، وقد يكون ممن يثبت الحكمة فيقول : انما خلق المخلوقات لحكمة ، وهو يحب تلك الحكمة ويرضاها ، وانما خلق ما يكرهه لما يحبه . والذين فرقوا بين المحبة والارادة قالوا : المريض يريد الدواء ولا يحبه . وانما يحب ما يحصل به وهو العافية وزوال المرض . فالرب تعالى خلق الأشياء كلها بمشيئته فهو مريد لكل ما خلق ، ولما احبه من الحكمة ؛ وان كان لا يحب بعض المخلوقات من الأعيان والأفعال ؛ لكنه يحب الحكمة التى خلق لأجلها ؛ فالعارف اذا شهد

هذا احب ايضاً ان يخلق لتلك الحكمة وتكون الأشياء مرادة محبوبة له كما هي للحق ؛ فهو وان كره الكفر والفسوق والعصيان لكن ما خلقه الله منه خلقه لحكمة وارادة فهو مراد محبوب باعتبار غايته لا باعتباره فى نفسه .

قيل : من شهد هذا المشهد فهو يستحسن ما حسنه الله واحبه ورضيه ؛ ويستقبح ما كرهه الله وسخطه ، ولكن اذا كان الله خلق هذا المكروه لحكمة يحبها ؛ فالعارف هو ايضاً يكرهه ويبغضه كما كرهه الله ؛ ولكن يحب الحكمة التى خلق لأجلها فيكون حبه وعلمه موافقاً لعلم الله وحبه لا مخالفاً . والله عليم حكيم ؛ فهو يعلم الأشياء على ما هي عليه وهو حكيم فيما يحبه ويريده ويتكلم به وما يأمر به ويفعله . فان كان يعلم ان الفعل الفلانى والشيء الفلانى متصف بما هو مذموم لأجله مستحق للبغض والكراهة كان من حكمته ان يبغضه ويكرهه ؛ واذا كان يعلم ان في وجوده حصول حكمة محبوبة محمودة كان من حكمته انه يخلقه ويريده لأجل تلك الحكمة المحبوبة التى هي وسيلة الى حصوله .

واذا قيل : ان هذا « الوسط » يحب باعتبار انه وسيلة الى محبوب لذاته ، ويبغض باعتبار ما اتصف به من الصفات المذمومة كان هذا حسناً كما تقول إن الانسان قد يبغض الدواء من وجه ويحبه من وجه ، وكذلك امور كثيرة تحب من وجه وتبغض من وجه .

و (أيضاً) يجب الفرق بين ان يكون مضراً بالشخص مكروهاً له بكل اعتبار ، وبين ان يكون الله خلقه لحكمة فى ذلك .

وإذا كان الله خلق كل شيء لحكمة له فى ذلك ، فاذا شهد العبد ان له حكمة ورأى هذا مع الجمع الذي يشترك فيه المخلوقات ، فلايمنعه ذلك ان يشهد ما بينهما من الفرق الذي فرق الله به بين اهل الجنة واهل النار ؛ بل لابد من شهود هذا الفرق فى ذلك الجمع وهذا الشهود مطابق لعلم الله وحكمته والله اعلم .

وقد قال تعالى : (قل : إن كان آباؤكم وابناؤكم واخوانكم وازواجكم وعشيرتكم ؛ واموال اقترفتموها ؛ وتجارة تخشون كسادها ؛ ومساكن ترضونها ، احب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله ، فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين) فأخبر ان من كانت محبوباته احب اليه من الله ورسوله والجهاد فى سبيله فهو من اهل الوعيد ، وقال فى الذين يحبهم ويحبونه : (فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه اذلة على المؤمنين اعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم) .

فلا بد لمحب الله من متابعة الرسول ، والمجاهدة فى سبيل الله ؛ بل هذا لازم لكل مؤمن . قال تعالى : (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله

ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله اولئك هم الصادقون) فهذا حب المؤمن لله .

وأما « المحبة الشركية » فليس فيها متابعة للرسول ، ولا بغض لعدوه ومجاهدة له ، كما يوجد فى اليهود والنصارى والمشركين يدعون محبة الله ولا يتابعون الرسول ولا يجاهدون عدوه .

وكذلك « اهل البدع » المدعون للمحبة لهم من الاعراض عن اتباع الرسول بحسب بدعتهم ، وهذا من حبهم لغير الله ، وتجدهم من ابعد الناس عن موالاة اولياء الرسول ، ومعاداة اعدائه والجهاد فى سبيله لما فيهم من البدع التى هي شعبة من الشرك .

والذين ادعوا المحبة من « الصوفية » وكان قولهم فى القدر من جنس قول الجهمية المجبرة هم فى آخر الأمر لا يشهدون للرب محبوباً الا ما وقع وقدر ، وكل ما وقع من كفر وفسوق وعصيان فهو محبوبه عندهم ، فلا يبقى فى هذا الشهود فرق بين موسى وفرعون ، ولا بين محمد وأبي جهل ، ولا بين اولياء الله واعدائه ، ولا بين عبادة الله وحده وعبادة الأوثان ؛ بل هذا كله عندالفاني فى توحيد الربوبية سواه ؛ ولا يفرق بين حادث وحادث إلا من جهة ما يهواه ويحبه ؛ وهذا هو الذى اتخذ إلهه هواه ، انما يأله ويحب ما يهواه وهو وإن كان عنده محبة لله فقد اتخذ من دون الله انداداً يحبهم كحب الله ، وهم

من يهواه ؛ هذا ما دام فيه محبة لله ؛ وقد ينسلخ منهـا حتى يصير الى التعطيل ، كفرعون وأمثاله الذي هو اسوء حالاً من مشركي العرب ونحوهم .

ولهذا هؤلاء يحبون بلا علم ، ويبغضون بلا علم ، والعلم ماجاء به الرسول كما قال : (فمن حاجك فيه من بعدما جاءك من العلم) وهو الشرع المنزل ، ولهذا كان الشيوخ العارفون كثيراً ما يوصون المريدين باتباع العلم والشرع ، كما قد ذكرنا قطعة من كلامهم فى غير هذا الموضع ؛ لان الارادة والمحبة اذا كانت بغير علم وشرع كانت من جنس محبة الكفار وارادتهم. فهؤلاء السالكون المريدون الصوفية والفقراء الزاهدون العابدون الذين سلكوا طريق المحبة والارادة ان لم يتبعوا الشرع المنزل والعلم الموروث من النبي صلى الله عليه وسلم فيحبون ما احب الله ورسوله ويبغضون ما ابغض الله ورسوله ، والا افضى بهم الأمر الى شعب من شعب الكفر والنفاق .

ولا يتم الايمان والمحبـة لله الا بتصديق الرسول فيـما اخـبر وطاعته فيما أمر .

ومن الايمان بما اخبر الايمان بما وصف به نفسه ، ووصفه به رسوله ، فمن نفى الصفات فقد كذب خبره .

ومن الايمان بما أمر فعل ما أمر وترك ماحظر ، ومحبة الحسنات وبغض

السيئات ، ولزوم هذا الفرق إلى الممات . فمن لم يستحسن الحسن المأمور به ، ولم يستقبح السيء المنهي عنه لم يكن معه من الايمان شيء . كما قال صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده . فان لم يستطع فبلسانه . فان لم يستطع فبقلبه . وذلك اضعف الايمان » . وكما قال فى الحديث الصحيح عن عبد الله بن مسعود ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما من نبي بعثه الله فى امته قبلي إلا كان له من امته حواريون وأصحاب ؛ يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ثم انها تخلف من بعدهم خلوف يقولون . مالا يفعلون ويفعلون مالا يؤمرون فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن . ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، وليس وراء ذلك من الايمان حبة خردل » رواه مسلم .

فأضعف الايمان الانكار بالقلب . فمن لم يكن فى قلبه بغض المنكر الذي يبغضه الله ورسوله لم يكن معه من الايمان شيء ؛ ولهذا يوجد المبتدعون الذين يدعون المحبة المجملة المشتركة التى تضاهي محبة المشركين يكرهون من ينكر عليهم شيئاً من احوالهم ، ويقولون : فلان ينكر وفلان ينكر ، وقد يبتلون كثيراً بمن ينكر ما معهم من حق وباطل ، فيصير هذا يشبه النصرانى الذي يصدق بالحق والباطل ، ويحب الحق والباطل ، كالمشرك الذي يحب الله ويحب الانداد ، وهذا كاليهودي الذي يكذب بالحق والباطل ، ويبغض الحق والباطل ، فلا يحب الله ولا يحب الانداد ؛ بل يستكبر عن عبادة الله ، كما استكبر فرعون وامثاله .

وهذا موجود كثيراً فى اهل البدع من اهل الارادة ، والبـدع من اهل الكلام ، هؤلاء يقرون بالحق والباطل مضاهاة للنصارى ، وهؤلاء يكذبون بالحق والباطل مضاهاة لليهود ، وانمـا دين الاسلام وطريق اهـل القرآن والايمان إنكار مايبغضه الله ورسوله ، ومحبة مايحبه الله ورسوله والتصديق بالحق ، والتكذيب بالباطل ، فهم فى تصديقهم ومحبتهـم معتدلون يصدقون بالحق ويكذبون بالباطل ، ويحبون الحق ويبغضون الباطل ؛ يصدقون بالحق الموجود ويكذبون بالباطل المفقود ، ويحبون الحق الذي يحبـه الله ورسوله . وهو المعروف الذي امر الله ورسوله بـه ، ويبغضون المنكـر الذي نهى الله ورسوله عنه ، وهذا هو الصراط المستقيم ، صراط الذين انعـم الله عليهم من النبيين والصديقيين والشهداء والصالحين ، لا طريق المغضوب عليهـم الذين يعرفون الحق ، فلا يصدقون به ولا يحبونه ، ولا الضالين الذين يعتقدون ويحبون مالم ينزل الله به سلطاناً .

و (المقصود) هنا ان المحبة الشركية البدعيـة هي التى أوقعت هؤلاء فى ان آل أمرهم إلى ان لايستحسنوا حسنة ، ولا يستقبحوا سيئة ؛ لظنهم ان الله لايحب مأموراً ولا يبغض محظوراً ، فصاروا فى هذا من جنس من انكر ان الله يحب شيئاً ويبغض شيئاً كما هو قول الجهمية نفاة الصفات ، وهؤلاء قد قد يكون احدهم مثبتاً لمحبـة الله ورضاه ، وفى اصل اعتقاده إثبات الصفات لكن إذا جاء إلى القدر لم يثبت شيئاً غير الارادة الشاملة ، وهذا وقع فيـه

طوائف من مثبتة الصفات ، تكلموا فى القدر بما يوافق رأى جهم والأشعرية فصاروا مناقضين لما اثبتوه من الصفات ، كحال صاحب « منازل السائرين » وغيره .

وأما أئمة الصوفية والمشايخ المشهورون من القدماء : مثل الجنيد بن محمد واتباعه ، ومثل الشيخ عبد القادر وأمثاله ، فهؤلاء من اعظم الناس لزوماً للأمر والنهي ، وتوصية باتباع ذلك ، وتحذيراً من المشي مع القدر ، كما مشى اصحابهم أولئك ، وهذا هو « الفرق الثاني » الذي تكلم فيه الجنيدمع اصحابه . والشيخ عبد القادر كلامه كله يدور على اتباع المأمور وترك المحظور ، والصبر على المقدور ، ولا يثبت طريقاً تخالف ذلك اصلاً لاهو ولا عامة المشايخ المقبولين عند المسلمين ، ويحذر عن ملاحظة القدر المحض بدون اتباع الأمر والنهي ، كما اصاب أولئك الصوفية الذين شهدوا القدر وتوحيد الربوبية ، وغابوا عن الفرق الالهي الديني الشرعي المحمدي ، الذي يفرق بين محبوب الحق ومكروهه ، ويثبت انه لا إله الا هو .

وهذا من اعظم ما تجب رعايته على اهل الارادة والسلوك ، فان كثيراً من المتأخرين زاغ عنه فضل سواء السبيل ، وإنما يعرف هذا من توجه بقلبه وانكشفت له حقائق الأمور ، وصار يشهد الربوبية العامة والقيومية الشاملة، فان لم يكن معه نور الايمان والقرآن الذي يحصل به الفرقان ، حتى يشهد الالهية التى تميز بين اهل التوحيد والشرك ، وبين مايحبه الله وما يبغضه ، وبين

ما أمر به الرسول وبين مانهى عنـه ، وإلا خرج عن دين الاسلام بحسب خروجه عن هذا . فان الربوبية العامة قد اقر بها المشركون الذين قال فيهم : (وما يؤمن اكثرهم بالله إلا وهم مشركون) .

وإنما يصير الرجل مسلماً حنيفاً موحداً اذا شهـد : ان لا اله الا الله . فعبد الله وحده بحيث لايشرك معه احداً فى تألهه ، ومحبته له وعبوديته وإنابته اليه ، واسلامه له ، ودعائه له ، والتوكل عليـه ، وموالاته فيه ؛ ومعاداته فيـه ؛ ومحبته ما يحب ؛ وبغضه مايبغض ويفنى بحق التوحيد عن باطل الشرك ؛ وهذا فناء يقارنه البقاء فيفنى عن تأله ماسوى الله بتأله الله تحقيقاً لقوله : لا إله إلا الله ؛ فينفي ويفنى من قلبه تأله ما سواه ؛ ويثبت ويبقي فى قلبه تأله الله وحده ؛ وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم ــ في الحديث الصحيح ــ : « من مات وهو يعلم ان لا إله الا الله دخل الجنة » وفى الحديث الآخر : « من كان آخر كلامه : لا اله الا الله دخل الجنة » وقال فى الصحيح : « لقنوا موتاكم لآ اله الا الله» . فانها حقيقة دين الاسلام فمن مات عليها مات مسلماً » .

والله تعالى قد امرنا ألا نموت الا على الاسلام فى غير موضع . كقوله تعالى : (اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وانتم مسلمون) وقال الصديق (توفني مسلما والحقني بالصالحين) والصحيح من القولين انه لم يسأل الموت ولم يتمنه . وانما سأل انه اذا مات يموت على الاسلام ؛ فسأل الصفة لا الموصوف كما امر الله بذلك ؛ وامر به خليله ابراهيم واسرائيل ؛ وهكذا قال غير واحد من العلماء ؛ منهم ابن عقيل وغيره . والله تعالى اعلم .

وقال شيخ الاسلام

أحمد بن تيمية ـ رحمه الله تعالى

فصل

قد تكلم الناس من اصحابنا وغيرهم في « استطاعة العبد » هل هي مع فعله ام قبله ؟ وجعلوها قولين متناقضين ، فقوم جعلوا الاستطاعة مع الفعل فقط ، وهذا هو الغالب على مثبتة القدر المتكلمين من اصحاب الاشعري ومن وافقهم من اصحابنا وغيرهم .

وقوم جعلوا الاستطاعة قبل الفعل ، وهو الغالب على النفاة من المعتزلة والشيعة ، وجعل الاولون القدرة لا تصلح إلا لفعل واحد ، اذ هي مقارنة له لا تنفك عنه، وجعل الآخرون الاستطاعة لا تكون الا صالحة للضدين، ولاتقارن الفعل أبداً ، والقدرية اكثر انحرافاً ؛ فانهم يمنعون ان يكون مع الفعل قدرة بحال ، فان عندهم ان المؤثر لا بد ان يتقدم على الأثر لا يقارنه بحال، سواء فى فى ذلك القدرة والارادة والأمر .

والصواب الذي دل عليه الكتاب والسنة : ان الاستطاعة متقدمة على الفعل ومقارنة له أيضاً ، وتقارنه أيضاً استطاعة اخرى لا تصلح لغيره .

فالاستطاعة « نوعان » : متقدمة صالحة للضدين ، ومقارنة لا تكون الا مع الفعل ، فتلك هي المصححة للفعل المجوزة له ، وهذه هي الموجبة للفعل المحققة له .

قال الله تعالى فى الاولى : (ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا) . ولو كانت هذه الاستطاعة لا تكون الا مع الفعل لما وجب الحج الا على من حج ، ولما عصى احد بترك الحج ، ولا كان الحج واجباً على احد قبل الاحرام به ؛ بل قبل فراغه. وقال تعالى: (فاتقوا الله ما استطعتم) ، فأمر بالتقوى بمقدار الاستطاعة ، ولو اراد الاستطاعة المقارنة لما وجب على احد من التقوى الا ما فعل فقط ، اذ هو الذي قارنته تلك الاستطاعة . وقال تعالى : (لا يكلف الله نفساً الا وسعها) و« الوسع » الموسوع، وهو الذي تسعه وتطيقه، فلو أُريد به المقارن لما كلف احد الا الفعل الذي أُتى به فقط دون ما تركه من الواجبات. وقال تعالى : (فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين فمن لم يستطع فاطعام ستين مسكيناً) ، والمراد به الاستطاعة المتقدمة ؛ وإلا كان المعنى فمن لم يفعل الصيام فاطعام ستين ، فيجوز حينئذ الاطعام لكل من لم يصم ، ولا يكون الصوم واجباً على احد حتى يفعله . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إذا أمرتكم بأمر فاتوا منه ما استطعتم » ولو أُريد به المقارنة فقط لكان المعنى : فاتوا منه ما فعلتم ،

فلا يكونون مأمورين الا بما فعلوه ؛ وكذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم لعمران بن حصين : «صل قائما فان فان لم تستطع فقاعداً فان لم تستطع فعلى جنب » ولو أريد المقارن لكان المعنى : فان لم تفعل فتكون مخيراً، ونظائر هذا متعددة، فان كل أمر علق فى الكتاب والسنة وجوبه بالاستطاعة وعدمه بعدمها لم يرد به المقارنة ، وإلا لما كان الله قد أوجب الواجبات إلا على من فعلها وقد أسقطها عمن لم يفعلها فلا يأثم أحد بترك الواجب المذكور .

وأما « الاستطاعة المقارنة الموجبة » فمثل قوله تعالى : (ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون) وقوله : (الذين كانت اعينهم في غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعاً) فهذه الاستطاعة هي المقارنة الموجبة، إذ الاخرى لا بد منها فى التكليف .

« فالاولى» هي الشرعية التى هي مناط الامر والنهي، والثواب والعقاب، وعليها يتكلم الفقهاء وهي الغالبة فى عرف الناس .

و « الثانية » : هي الكونية التى هي مناط القضاء والقدر، وبها يتحقق وجود الفعل ، فالاولى للكلمات الامريات الشرعيات و « الثانية » للكلمات الخلقيات الكونيات . كما قال : (وصدقت بكلمات ربها وكتبه) .

وقد اختلف الناس في قدرة العبد على خلاف معلوم الحق او مراده ،

والتحقيق انه قد يكون قادراً بالقدرة الاولى الشرعية المتقدمة على الفعل ، فان الله قادر ايضاً على خلاف المعلوم والمراد ، والا لم يكن قادراً إلا على ما فعله وليس العبد قادراً على ذلك بالقدرة المقارنة للفعل ، فانه لا يكون الا ما علم الله كونه واراد كونه ، فانه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وكذلك قول الحواريين : (هل يستطيع ربك ان ينزل علينا مائدة من السماء) إنما استفهموا عن هذه القدرة ، وكذلك ظن يونس ان لن نقدر عليه اي فسر بالقدرة ، كما يقال للرجل ؛ هل تقدر ان تفعل كذا ؟ اي هل تفعله ؟ وهو مشهور فى كلام الناس .

ولما اعتقدت القدرية ان الاولى كافية فى حصول الفعل ، وان العبد يحدث مشيئته جعله مستغنياً عن الله حين الفعل ، كما ان الجبرية لما اعتقدت ان الثانية موجبة للفعل وهي من غيره راوه مجبوراً على الفعل وكلاهما خطأ قبيح ، فان العبد له مشيئة وهي تابعة لمشيئة الله كما ذكر الله ذلك فى عدة مواضع من كتابه :(فمن شاء ذكره وما يذكرون الا ان يشاء الله) (فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا وما تشاؤون الا ان يشاء الله) (لمن شاء منكم ان يستقيم وما تشاؤون الا ان يشاء الله رب العالمين) .

فاذا كان الله قد جعل العبد مريداً مختاراً شائياً امتنع ان يقال هو مجبور مقهور مع كونه قد جعل مريداً . وامتنع ان يكون هو الذي ابتدع لنفسه المشيئة ، فاذا قيل هو مجبور على ان يختار مضطر الى ان يشاء فهذا لا نظير له

وليس هو المفهوم من الجبر بالاضطرار ولا يقدر على ذلك إلا الله .

ولهذا افترق القدرية والجبرية على طـرفي نقيض ، وكلاهما مصيب فيما أثبته دون ما نفاه ، فأبو الحسين البصري ومن وافقه من القدرية يزعمون : ان العلم بان العبد يحدث افعاله وتصرفاته : علم ضروري وان جحد ذلك سفسطة .

وابن الخطيب ونحوه من الجبرية يزعمون ان العلم بافتقار رجحـان فعل العبد على تركه الى مرجح من غير العبد ضروري ؛ لأن الممكن المتساوي الطرفين لا يترجح احد طرفيه على الآخر إلا بمرجح وكلا القولين صحيـح؛ لكن دعوى استلزام احدهما نفي الآخر ليس بصحيح ؛ فان العبـد محدث لافعاله كاسب لها ، وهذا الاحداث مفتقر الى محدث فالعبد فاعل صانع محدث ، وكونه فاعلا صانعاً محدثاً بعد ان لم يكن ، لا بد له من فاعل كما قال : (لمن شاء منكم ان يستقيم) فاذا شاء الاستقامة صار مستقيماً ثم قال : (وما تشاؤون إلا ان يشاء الله رب العالمين) .

فما علم بالاضطرار وما دلت عليه الادلة السمعية والعقلية كله حق ؛ ولهذا كان لا حول ولا قوة إلا بالله ، والعبد فقير إلى الله فقرا ذاتيـاً له في ذاته وصفاته وأفعاله مع ان له ذاتاً وصفات وافعالاً ، فنفي افعاله كنفي صفاته وذاته وهو جحد للحق شبيه بغلو غالية الصوفية الذين يجعلونه هـو الحق او جعل شيء منه مستغنياً عن الله او كائناً بدونه جحد للحق شبيه بغـلو الذي قال :

(انا ربـكم الأعلى) وقال انه خلق نفسه ، وانما الحق ما عليـه اهل السنة والجماعة[1] .

وانما الغلط فى اعتقاد تناقضه بطريق التلازم ، وان ثبوت احدهما مستلزم لنفي الآخر فهذا ليس بحق ، وسببه كون العقل يزيد على المعلوم المدلول عليه ما ليس كذلك ، وتلك الزيادة تناقض ما علم ودل عليه .

---

(١) يشير المؤلف الى ورقة فيها تمام هذا البحث ولم نجدها .

وقال الشيخ قدس الله روحه

فصــــــل

واما السؤال : عن « تعليل افعال الله » .

فالذي عليه جمهور المسلمين ــ من السلف والخلف ــ ان الله تعالى يخلق لحكمة ، ويأمر لحكمة ، وهذا مذهب أئمة الفقه والعلم ، ووافقهم على ذلك اكثر أهل الكلام : من المعتزلة ، والكرامية وغيرهم .

وذهب طائفة من اهل الكلام ، ونفاة القياس ، الى نفي التعليل فى خلقه وامره وهو قول الأشعري ، ومن وافقه وقالو : ليس فى القرآن لام تعليل فى فعل الله وامره ، ولا يأمر الله بشيء لحصول مصلحة ، ولا دفع مفسدة ، بل(ما) يحصل من مصالح العباد ومفاسدهم بسبب من الأسباب ، فانما خلق ذلك عندها ، لا انه يخلق هذا لهذا ، ولا هذا لهذا ، واعتقدوا ان التعليل يستلزم الحاجة والاستكمال بالغير ، وانه يفضي الى التسلسل .

والمعتزلة : اثبتت التعليل ، لكن على اصولهم الفاسدة فى التعليل والتجويز

واما اهل الفقه والعلم ، وجمهور المسلمين . الذين يثبتون التعليل فلا يثبتونه على قاعدة القدرية ، ولا ينفونه نفي الجهمية ، وقدبسطت الكلام على هذه المسألة فى مواضع .

لكن قول الجمهور : هو الذي يدل عليه الكتاب والسنة ، والمعقول الصريح ، وبه يثبت ان الله حكيم ، فانه من لم يفعل شيئاً لحكمة لم يكن حكيما ، والكلام فى هذا يبنى على اصول .

(احدها) : إثبات محبة الله ورضاه ، وانه يستحق ان يعبد لذاته ، ويحب لذاته ، وليس شيء سواه يستحق ان يحب الا هو ، وكل محبة لغيره فهي فاسدة ، وهذا من معاني الالهية فان « الاله » هو المألوه : الذي يستحق ان يؤله فيعبد ، والعبادة تجمع غاية الذل ، وغاية الحب ، وهذا لا يستحقه الا هو ، وهو سبحانه يحمد نفسه ، ويثني على نفسه ويمجد نفسه ويفرح بتوبة التائبين ؛ ويرضى عن عباده المؤمنين .

و « الحمد » هو الأخبار بمحاسن المحمود مع المحبة لها . فلو اخبر مخبر بمحاسن غيره من غير محبة لها لم يكن حامداً ولو احبها ولم يخبر بها لم يكن حامداً. والرب ـــ سبحانه وتعالى ـــ إذا حمد نفسه ، فذكر أسماءه الحسنى وصفاته العلى ، وأفعاله الجميلة ، وأحب نفسه المقدسة . فكان هو الحامد والمحمود ، والمثني والمثنى عليه ، والممجد والممجد ، والمحب والمحبوب ، كان هذا غاية

الـكمال ؛ الذي لايستحقه غيره ، ولا يوصف به إلا هو .

وهو سبحانه رب كل شيء ؛ فلا يكون شيء إلأ به وهو الاله الذي لا اله الا هو ، ولا يجوز ان نعبد الا هو ، فما لا يكون بـه لا يكون ؛ وما لا يكون له لا ينفع ولا يدوم وكل عمل لم يرد به وجهـه فهو باطل : (اليـه يصعد الكـلم الطيب والعمل الصالح يرفعه).

وهو الذي جعل المسلم مسلماً ؛ والمصلي مصلياً والتائب تائباً والحامـد حامداً فاذا يسر عبـده لليسرى فتاب اليه وفرح الله بتوبته ، وشكره فرضي بشكره وعمل صالحاً فأحبه ؛ لم يكن المخلوق هو الذي جعل الخالق راضياً محبـاً فرحا بتوبته ؛ بل الرب هو الذي جعل المخلوق فاعلا لما يفرحه ويرضيه ويحبه وكل ذلك حاصل بمشيئته وقدرته لا شريك له فى احداث شيء من المحدثات ولا هو مفتقر الى غيره بوجه من الوجوه ؛ بل هو الغني عن كل ما سواه من كل وجه وكل ماسواه فقير اليه من كل وجه ، فاذا خلق شيئاً لحـكمة يحبها ويرضاها لم يجز ان يقال هو مفتقر الى غيره ، الا اذا كان هناك خالق غيره يفعل ما يحبه ويرضاه ، وهذا يجيء على قول القدرية : الذين يزعمون انه لم يخلق افعال العباد ، وان الطاعات وجدت بدون قدرته وخلقه فاذا قيـل : انه يحبهـا ويرضاها ، لزم ان يكون المخلوق جعله كذلك .

واما على قول اهل السنة ـــ الذين يقولون : انـه خالق كل شيء من

[افعال] العباد وغيرها ، فلم يوجد الا ماخلقه هو ، وله فى ذلك من الحكمة البالغة مايعلمه هو على وجه التفصيل . وقد يعلم بعض عباده من ذلك مايعلمه اياه اذ لايحيطون بشيء من علمه الا بما شاء .

واما كون ذلك يستلزم قيام الأمور الاختيارية بذاته فهذا قول السلف وأئمة الحديث والسنة وكثير من أهل الكلام .

واما كون ذلك يستلزم التسلسل فى المستقبل فانه اذا خلق شيئاً لحكمة توجد بعد وجوده وتلك الحكمة لحكمة اخرى لزم التسلسل فى المستقبل فهذا جائز عند المسلمين وغيرهم ممن يقول بدوام نعيم اهل الجنة وانما يخالف في ذلك من شك: كالجهم بن صفوان الذي يقول : بفناء الجنة والنار وكأبي الهذيل الذي يقول : بانقطاع حركات أهل الجنة والنار . فان هذين ادعيا امتناع وجود مالا يتناهى فى الماضي والمستقبل . وخالفهم جماهير المسلمين .

و (الجواب الثاني) : ان يقال التسلسل نوعان :

(احدهما) : في الفاعلين . وهو ان يكون لكل فاعل فاعل . فهذا باطل بصريح العقل . واتفاق العقلاء .

و (الثاني) : التسلسل فى الآثار ؛ مثل ان يقال : ان الله لم يزل متكلما اذا شاء ويقال : ان كلمات الله لا نهاية لها . فهذا التسلسل يجوزه أئمة اهل

الملل . وأئمة الفلاسفة ولـكن الفلاسفة يدعون قدم الافلاك . وان حركات الفلك لا بداية لها ، ولا نهاية لها . هذا كفر مخالف لدين الرسل . وهو باطل فى صريح المعقول .

وكذلك القول : بأن الرب لم يكن يمكنه ان يتكلـم ولا يفعل بمشيئته ، ثم صار يمكنه الكلام والفعل بمشيئته كما يقول ذلك الجهمية والقدرية . ومن وافقهم من أهل الكلام قول باطل . وهو الذي اوقـع الاضطراب بـين ملاحدة المتفلسفة ومبتدعة اهل الكلام . فى هذا الباب والكلام على هذه الأمور مبسوط فى موضعه وهذه مطالب غالية . انما يعرف قدرها من عرف مقالات الناس والاشكالات اللازمة عـلى كل قول حتى اوقعت كثيراً من فحول النظـار في بحـور الشك والارتياب وهي مبسوطة فى غـير هـذا الموضع .

قال شيخ الاسلام رحمه الله

فصـــــل

حدثني بعض ثقات أصحابنا : ان شيخنا أبا عبد الله محمد بن عبد الوهاب عاد شيخنا ابا زكريا بن الصرمي وعنده جماعة فسألوه الدعاء .

فقال في دعائه : اللهم بقدرتك التي قدرت بها ان تقول بها للسموات والأرض ائتيا طوعا او كرها .قالتا أتينا طائعين. افعل كذا وكذا . قال ابو عبد الوهاب: ولم اخاطبه فيه بحضرة الناس حتى خلوت بـه وقلت له : هذا لايقال لو قلت : قدرت بها على خلقك جاز ، فاما قدرت بها ان تقول فلا يجوز لأن هذا يقتضي ان يكون قوله مقدوراً لهمخلوقا ، وذكر لي الحاكي ـــ وهو من فضلاء اصحاب الشافعي ـــ انه بلغ الامام ابا زكريا النواوي فـلم يتفطن لوجه الانكار في هذا الدعاء حتى تبين له فعرف ذلك .

قلت : هذه المسألة مثل مسألة المشيئة ، وهو قولنا يتكلم إذا شاء ، فان

ما تعلقت به المشيئة تعلقت به القدرة . فان ماشاء الله كان ، ولا يكون شيء إلا بقدرته ، وما تعلقت به القدرة من الموجودات تعلقت بــه المشيئة ، فانــه لا يكون شيء إلا بقدرته ومشيئته ، وما جاز ان تتعلق به القدرة جاز ان تتعلق به المشيئة ، وكذلك بالعكس ، ومالا فلا ولهذا قال : (ان الله على كل شيء قدير) والشيء فى الأصل مصدر شاء يشاء شيئاً كنال ينال نيلا ، ثم وضعوا المصدر موضــع المفعول فسموا المشيء شيئاً ، كما يسمى المنيل نيلا ، فقالوا : نيل المعدن وكما يسمي المقدور قدرة ، والمخلوق خلقاً فقوله : (على كل شيء قدير) اي على كل ما يشاء . فمنه ماقد شيء فوجد ، ومنــه مــالم يشأ لكنه شيء في العلم بمعنى انه قابل لأن يشاء ، وقوله :(على كل شيء): يتناول مــا كان شيئاً فى الخارج والعلم او ما كان شيئاً فى العــلم فقط ، بخلاف مالا يجوز ان تتناوله المشيئة وهو الحق تعالى وصفاته ، او الممتنع لنفسه فانه غير داخل فى العموم . ولهذا اتفق الناس على ان الممتنع لنفسه ليس بشيء ، وتنازعوا فى المعدوم الممكن :

فذهب فريق من أهل الــكلام من المعتزلة والرافضة وبعض من وافقهم من ضلال الصوفية : إلى أنه شيء فى الخارج لتعلق الارادة والقدرة به وهذا غلط . وإنما هو معلوم لله ومراد له إن كان مما يوجــد وليس له فى نفسه لا موت ولا وجود ولا حقيقة أصلا ، بل وجوده وثبوته وحصوله شيء واحد ، وماهيتــه وحقيقته في الخــارج هي نفس وجوده ، وحصوله وثبوته ليس فى

الخارج شيئان وان كان العقل يميز الماهية المطلقة عن الوجود المطلق ،

إذا عرف ذلك فهذه المسألة مبنية على «مسألة كلام الله ونحو ذلك من صفاته، هل هي قديمة لازمة لذاته لايتعلق شيء منها بفعله وبمشيئته ولا قدرته ؟ أو يقال : انه يتكلم إذا شاء ويسكت إذا شاء وانها مع ذلك صفات فعلية ، وهذا فيه قولان لأصحابنا وغيرهم من أهل السنة . «قلت» : وهذا الدعاء الذي دعا به الشيخ ابو زكريا مأثور عن الامام احمد ، ومن هناك حفظه الشيخ والله اعلم فانه كان كثير المحبة لأحمد وآثاره والنظر فى مناقبه واخباره وقد ذكروه في مناقبه ورواه الحافظ البيهقي فى مناقب أحمد وهي رواية الشيخ ابى زكريا عن الحافظ عبد القادر الرهاوي اجازة وقد سمعوها عليه عنه اجازة ، قال البيهقي : وفيما أنبأنى ابو عبد الله الحافظ اجازة ، حدثني ابو بكر محمد بن اسماعيل بن العباس حدثنى ابو محمد عبد الله بن اسحاق بن ابراهيم البغوى . حدثنا ابو جعفر محمد بن يعقوب الصفار .

قال : كنا عند احمد بن حنبل فقلنا : ادع الله لنا ، فقال : اللهم انك تعلم انا نعلم انك لنا على اكثر ما نحب، فاجعلنا نحن لك على ماتحب . قال ثم جلست ساعة فقيل له : يا أبا عبد الله زدنا ، فقال : اللهم إنا نسألك بالقدرة التى قلت للسموات والأرض إئتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين اللهم ! وفقنا لمرضاتك ؛ اللهم ! إنا نعوذ بك من الفقر الا اليك ، ونعوذ بك من الذل إلا لك ، اللهم لاتكثر فنطغى ، ولا تقل علينا فننسى ،

وهب لنا من رحمتك وسعة من رزقك تكون بلاغا فى دنياك وغنى من فضلك

قلت : هذا على المعنى المتقدم موافق لقوله : يتكلم اذا شاء ، فجعله معلقا بالقدرة والمشيئة . وان جعل القول هنا عبارة عن سرعة التكوين بلا قول حقيقي ، فهذا خلاف ما احتج به احمد فى كتاب الرد على الجهمية في هذه فانه احتج بهذه الآية على أن الكلام لايقف على لسان وادوات .

ما قول أهل الإسلام

الراسخين فى جذر الكلام ، الباسقين فى فن الأحكام ، حياكم العلام فى صدور دار السلام ؛ وحباكم القيام بتوضيح ما استبهم على الأفهام . في معتقد اهل السنة والجماعة. نضر الله أرواح السلف . وكثر اعداد الخلف وأمدهم بأنواع اللطف . بأن الأفعال الاختيارية من العباد تحصل بخلق الله تعالى وبخلق العبد ، فحقيقة كسب العبد ما هي ؟ وبعد هذا هل هو مؤثر في وجود الفعل ؟ ام غير مؤثر ؟ . فان كان فيصير العبد مشاركاً للخالق في خلق الفعل ، فلا يكون العبد كاسباً ؛ بل شريكا خالقاً ـــ وأهل السنة بررة برآء من هـذا القول ـــ وإن لم يكن مؤثراً فى وجود الفعل فقد وجد الفعل بكماله بالحق سبحانه وتعالى ، وليس للعبد فى ذلك شيء ، [فلزم] الجبر الذي يطوي بساط الشرع، واهل السنة الغراء والمحجة البيضاء فارون من هذه الكلمة الشنعاء والعقيدة العوراء . ولم ينسب الى العبد الطاعة والعصيان والكفر والايمان حتى يستحق الغضب والرضوان . فكيف السلوك ايها الهداة الأدلاء على اللحب المستقيم والمنهج القويم ؟ وطرفى قصد الأمور ذميم .

فبينوا بياناً يطلق العقول من هـذا العقال ، ويشفى القلوب من هذا الداء العضال . ايدكم بروح القدس من له صفات الكمال .

فأجاب الشيخ الامام العـالم الرباني . المقذوف فى قلبه النور الألهي ، الجامع اشتات الفضائل . مفتى المسلمين ، تقي الدين احمد بن عبدالحليم ابن‌عبد السلام بن ابي القاسم بن محمد بن تيمية ـــ رحمه الله تعالى ـــ قال : رضي الله عنه .

تلخيص الجواب : ان الكسب هو الفعل الذي يعود على فاعله بنفـع او ضر ، كما قال تعالى : (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) فبـين سبحانه ان كسب النفس لها او عليها ، والناس يقولون : فلان كسب مالا او حمـداً او شرفاً كما انه ينتفع بذلك ، ولما كان العباد يكملون بأفعالهم ويصلحون بها ، اذ كانوا فى اول الخلق خلقوا ناقصين صح إثبات السبب ، اذ كمالهم وصلاحهم عن افعالهم ، والله سبحانه وتعالى فعله وصنعه عن كماله وجلاله ، فأفعاله عـن اسمائه وصفاته ومشتقة منها، كما قال سبحانه وتعالى : « ان الرحمن خلقت الرحم وشققت لهـا من اسمى » والعبد اسماؤه وصفاته عن افعاله فيحدث له اسم العالم والـكامل بعد حدوث العلم والـكمال فيه .

ومن هنا ضلت « القدرية » حيث شبهوا افعاله ـــ سبحانه وتعـالى عمـا يقولون علوا كبيراً ـــ بأفعال العباد ، وكانوا هم المشبهة فى الأفعال ، فاعتقدوا انما حسن منهم حسن منه مطلقاً ، وما قبح منهم قبح منه مطلقـاً بقدر علمهم وعقلهم ، او ما علموا (انها) انما حسنت منهم لافضائها الى ما فيه صلاحهـم

وفلاحهم ، وقبحت لافضائها الى ما فيه فسادهم ، والله سبحانه متعـال عن ان يلحقه ما لا يليق به سبحانه .

وأما قوله : هل هو مؤثر فى وجود الفعل او غير مؤثر ؟

فالكلام فى مقامين :

(احدها) ان هذا سؤال فاسد ان أخذ على ظاهره ؛ لأن كسب العبد هو نفس فعله وصنعه ، فكيف يقـال : هل يؤثر كسبه فى فعله ، او هل يكون الشيء مؤثراً فى نفسه ؟ وإن حسب حاسب ان الكسب هو التعاطي والمباشرة وقصد الشيء ومحاولته ، فهذه كلها افعال يقال فيها ما يقال فى افعـال البدن من قيام وقعود .

وأظن السائل فهم هذا وتشبث بقول من يقول : ان فعل العبد يحصل بخلق الله عز وجل ، وكسب العبد .

وتحقيق الكلام ان يقال : فعل العبد خلق لله عز وجل وكسب للعبد ؛ الا ان يراد ان افعال بدنه تحصـل بكسبه : اي بقصده وتأخيه . وكأنه قال : أفعاله الظاهرة تحصل بأفعاله الباطنة ؛ وغير مستنكر عدم تجديد هذا السؤال، فانه مزلة أقدام ، ومضلة افهام . وحسن المسألة نصف العـلم . اذا كان السائل قد تصور السؤال . وإنما يطلب اثبات الشيء او نفيه ، ولو حصل التصور التام لعلم أحد الطرفين .

و (المقام الثاني) : فى تحرير السؤال وجوابه ـــ وهو ان يقـال هل قدرة العبد المخلوقة مؤثرة فى وجود فعله، فان كانت مؤثرة لزم الشرك ؛ والا لزم الجبر . والمقام مقام معروف ؛ وقف فيــه خلق من الفاحصين والباحثـين والبصراء والمكاشفين ، وعامتهـم فهموا صحيحاً . ولكن قـل منهم من عبر فصيحاً .

فنقول : التأثير اسم مشترك قد يراد بالتأثير الانفراد بالابتداع والتوحيد بالاختراع فان اريد بتأثير قدرة العبد هذه القدرة فحاشا لله لم يقله سني وإنما هو المعزو إلى أهل الضلال .

وان اريد بالتأثير نوع معاونة اما فى صفة من صفات الفعـل . او فى وجه من وجوهه كما قاله كثير من متكلمي أهل الاثبات . فهو ايضاً باطل بما به بطل التأثير فى ذات الفعل ؛ اذ لافرق بين اضافة الانفراد بالتأثـير الى غير الله سبحانه فى ذرة او فيل . وهل هو الا شرك دون شرك وان كان قائل هذه المقالة ما نحا الا نحو الحق .

وان اريد بالتأثير ان خروج الفعل من العـدم الى الوجود كان بتوسط القدرة المحدثة . بمعنى ان القدرة المخلوقــة هي سبب وواسطة فى خلق الله سبحانه وتعالى الفعل بهذه القدرة . كما خلـق النبات بالماء وكما خلق الغيث بالسحاب . وكما خلق جميـع المسببات والمخلوقات بوسائط واسباب فهذا حق

وهذا شأن جميع الاسباب والمسببات . وليس إضافة التأثير بهذا التفسير الى قدرة العبد شركا ، والا فيكون اثبات جميع الاسباب شركا . وقد قال الحكيم الخبير : (فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات) . (أنبتنا به حدائق ذات بهجة) وقال تعالى : (قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم) .

فبين انه المعذب ، وان ايدينا اسباب وآلات وأوساط وأدوات فى وصول العذاب اليهم ، وقال صلى الله عليه وسلم « لايموتن أحد منكم الا آذنتموني حتى أصلي عليه ، فان الله جاعل بصلاتي عليه بركة ورحمة » . فالله سبحانه هو الذي يجعل الرحمة ، وذلك إنما يجعله بصلاة نبينا صلى الله عليه وسلم،وعلى هذا التحرير فنقول :

خلق الله سبحانه أعمال الأبدان بأعمال القلوب ، ويكون لاحدالكسبين تأثير فى الكسب الآخر بهذا الاعتبار ، ويكون ذلك الكسب من جملة القدرة المعتبرة فى الكسب الثانى ؛ فان القدرة هنا ليست الا عبارة عما يكون الفعل به لامحالة : من قصد وإرادة وسلامة الأعضاء والقوى المخلوقة فى الجوارح وغير ذلك ، ولهذا وجب ان تكون مقارنة للفعل ، وامتنع تقديمها على الفعل بالزمان .

واما القدرة التى هي مناط الأمر والنهي فذاك حديث آخر ليس هذا موضعه .

وبالتمييز بين هاتين القدرتين يظهر لك قول من قال : القدرة مع الفعل ومن قال : قبله . ومن قال : الأفعال كلها تكليف مالا يطاق ، ومن منع ذلك : وتقف على اسرار المقالات . واذا اشكل عليك هذا البيان فخذ مثلا من نفسك : أنت اذا كتبت بالقلم وضربت بالعصا ونجرت بالقدوم ، هل يكون القلم شريكك او يضاف اليه شيء من نفس الفعل وصفاته ؟ ام هل يصلح ان تلغى أثره وتقطع خبره وتجعل وجوده كعدمه ؟ ام يقال : به فعل وبه صنع — ولله المثل الاعلى — فان الاسباب بيد العبد ليست من فعله وهو محتاج إليها لايتمكن الا بها ، والله سبحانه خلق الاسباب ومسبباتها ، وجعل خلق البعض شرطا وسبباً فى خلق غيره ، وهو مع ذلك غني عن الاشتراط والتسبب ، ونظم بعضها ببعض ، لكن لحكمة تتعلق بالاسباب . وتعود اليها والله عزيز حكيم .

وأما قوله : إذا نفينا التأثير لزم انفراد الله سبحانه بالفعل . ولزم الجبر . وطي بساط الشرع الأمر والنهي .

فنقول : إن اردت بالتأثير المنفى التأثير على سبيل الانفراد فى نفس الفعل أو فى شيء من صفاته ، فلقد قلت الحق ، وان كان بعض اهل الاستنان يخالفك فى القسم الثاني .

وإن اردت به ان القدرة وجودها كعدمها ، وان الفعل لم يكن بها

ولم يصنع بها . فهذا باطل كما تقدم بيانه ، وحينئذ لا يلزم الجبر بل ينبسط بساط الشرع ، وينشر علم الأمر والنهي ، ويكون لله الحجة البالغة .

فقد بان لك ان اطلاق القول باثبات التأثير أو نفيه دون الاستفصال ، وبيان معنى التأثير ركوب جهالات واعتقاد ضلالات ، ولقد صدق القائل : أكثر اختلاف العقلاء من جهة اشتراك الاسماء وبان لك ارتباط الفعل المخلوق بالقدرة المخلوقة . ارتباط الاسباب بمسبباتها ، ويدخل فى عموم ذلك جميع ما خلقه الله تعالى فى السموات والأرض والدنيا والآخرة ، فان اعتقاد تأثير الاسباب على الاستقلال . دخول فى الضلال . واعتقاد نفي اثرها والغاؤه ركوب المحال ، وان كان لقدرة الانسان شأن ليس لغيرها كما سنومىء اليه انشاء الله تعالى .

فلعلك أن تقول بعد هذا البيان : أنا لا افهم الاسباب ، ولا اخرج عن دائرة التقسيم والمطالبة بأحد القسمين . وما انت ان قلت هذا : الا مسبوق بخلق من الضلال : (كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم تشابهت قلوبهم) ، وموقفك هذا مفرق طرق ، إما الى الجنة واما الى النار . فيعاد عليك البيان بأن لها تأثيرا من حيث هي سبب ، كتأثير القلم وليس لها تأثير من حيث الابتداع والاختراع . ونضرب لك الامثال ، لعلك تفهم صورة الحال . ويبين لك ان اثبات الاسباب مبتدعات هو الاشراك ، واثباتها اسباباً موصولات هو عين تحقيق التوحيد . عسى الله ان يقذف بقلبك نورا ترى هذا

البيان (ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور)

فان قلت : اثبات القدرة سبب نفي للتأثير في الحقيقة ، فما بال الفعل يضاف الى العبد ؟ وما باله يؤمر وينهى ؟ ويثاب ويعاقب وهل هذا الا محض الجبر ؟ واذا كنت مشبهاً لقدرة الانسان بقلم الكاتب وعصا الضارب ، فهل رأيت القلم يثاب او العصا تعاقب ؟ واقول لك الآن ان شاء الله وجب هداك بمعونة مولاك ، وان لم تطلع من اسرار القدر الا على مثل ضرب الاثر والق السمع وانت شهيد ، عسى الله ان يمدك بالتأييد :

اعلم ان العبد فاعل على الحقيقة وله مشيئة ثابتة ، وله ارادة جازمة وقوة صالحة ، وقد نطق القرآن باثبات مشيئة العباد فى غير ما آية كقوله : (لمن شاء منكم ان يستقيم وما تشاؤون الا ان يشاء الله رب العالمين) (فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا) (فمن شاء ذكره وما يذكرون الا ان يشاء الله هو اهل التقوى واهل المغفرة)

ونطق باثبات فعله فى عامة آيات القرآن : (يعملون) (يفعلون) (يؤمنون) (يكفرون) (يتفكرون) (يحافظون) (يتقون) .

وكما انا فارقنا مجوس الامة باثبات انه تعالى خالق ، فارقنا الجبرية باثبات ان العبد كاسب فاعل صانع عامل ، والجبر المعقول الذي انكره سلف الأمة وعلماء السنة هو أن يكون الفعل صادراً على الشيء من غير ارادة ولا مشيئة

ولا اختيـار ، مثل حركة الاشجـار بهبوب الرياح ، وحركة [1] باطباق الأيدي ، ومثله فى الاناسي حركة المحموم والمفلوج والمرتعش فان كل عاقل يجد تفرقة بديهية بين قيام الانسان وقعوده وصلاته وجهـاده ، وزناه وسرقتـه وبين انتعاش المفلوج وانتفاض المحموم ، ونعلم ان الاول قادر على الفعل مريد له مختار ، وان الثانى غير قادر عليه ولا مريد له ولا مختار .

والمحكي عن جهم وشيعتـه « الجبرية » أنهم زعموا : ان جميع أفاعيل العباد قسم واحد ، وهو قول ظاهر الفساد ، وبما بين القسمين من الفرقان انقسمت الافعال : الى اختياري ، واضطراري واختص المختار منها باثبات الأمر والنهي عليه ، ولم يجيء فى الشرائع ولا فى كلام حكيم امر الأعمى بنقط المصحف ، والمقعد بالاشتداد أو المحموم بالسكون ، وشبه ذلك ، وان اختلفوا فى تجويزه عقلاً او سمعاً فاما منع وقوعه باجماع العقلاء أولى العقل من جميع الاصناف .

فان قيل : هب ان فعلي الذي اردته واخترته هو واقع بمشيئتى وارادتي اليست تلك الارادة وتلك المشيئة من خلق الله تعـالى ؟ واذا خلق الأمر الموجب للفعل . فهل يتأتى ترك الفعل معه ؟ اقصى مافى الباب ان الأول جبر بغير توسط الارادة من العبد ، وهذا جبر بتوسط الارادة .

---

(١) بياض بالاصل

فنقول : الجبر المنفي هو الأول كما فسرناه ، واما اثبات القسم الثاني فلا ريب فيه عند اهل الاستنان والآثار وأولي الألباب والأبصار ، لكن لا يطلق عليه اسم الجبر خشية الالتباس بالقسم الأول ، وفراراً من تبادر الأفهام اليه وربما سمي[جبراً] إذا أمن من اللبس وعلم القصد ، قال علي رضي الله عنه فى الدعاء المشهور عنه فى الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم : اللهم داحي المدحوات ، وباري المسموكات جبار القلوب على فطراتها شقاها او سعدها .

فبين انه سبحانه جبر القلوب على مافطرها عليه : من شقاوة او سعادة وهذه الفطرة الثانية ليست الفطرة الأولى ، وبكلا الفطرتين فسر قوله صلى الله عليه وسلم : « كل مولود يولد على الفطرة ». وتفسيره بالأولى واضح قاله محمد بن كعب القرظي — وهو من افاضل تابعي اهل المدينة واعيانهم ، وربما فضل على اكثرهم — فى قوله(الجبار) ، قال جبر العباد على ما اراد ، وروي ذلك عن غيره ، وشهادة القرآن والأحاديث ورؤية اهل البصائر والاستدلال التام لتقليب الله سبحانه وتعالى قلوب العباد ، وتصريفه اياها والهامه فجورها وتقواها ، وتنزيل القضاء النافذ من عند العزيز الحكيم ، فى ادنى من لمح البصر على قلوب العالمين ، حتى تتحرك الجوارح بما قضى لها وعليها بين غاية البيان ، الا لمن اعمى الله بصره وقلبه .

فان قلت : انا أسألك على هذا التقدير بعد خروجي عن تقدير الجبر الذي نفوه وابطلوه وثباتي على ما قالوه وبينوه كيف انبنى الثواب والعقاب

على فعله . وصح تسميته فاعلاً على حقيقته . وانبنى فعله على قدرته ؟ .

فأقول : ــ والله الهادي الى سواء الصراط ــ اعلم ان الله تعالى خلق فعل العبد سبباً مقتضياً لآثار محمودة او مذمومة ، والعمل الصالح مثل صلاة أقبل عليها بقلبه ووجهه واخلص فيها وراقب ، وفقه ما بنيت عليه من الكلمات الطيبات ، والأعمال الصالحات ، يعقبه في عاجل الأمر نور في قلبه ، وانشراح في صدره ، وطمأنينة في نفسه ومزيد في علمه ، وتثبيت في يقينه ، وقوة في عقله الى غير ذلك من قوة بدنه ، وبهاء وجهه ، وانتهائه عن الفحشاء والمنكر والقاء المحبة له في قلوب الخلق ، ودفع البلاء عنه وغير ذلك مما يعلمه ولا نعلمه .

ثم هذه الآثار التي حصلت له من النور والعلم واليقين وغير ذلك اسباب مفضية الى آثار اخر من جنسها ومن غير جنسها أرفع منها وهلم جرا . ولهذا قيل: ان من ثواب الحسنة الحسنة بعدها وان من عقوبة السيئة السيئة بعدها ، وكذلك العمل السيء مثل الكذب ــ مثلاً ــ يعاقب صاحبه في الحال بظلمة في القلب وقسوة وضيق في صدره ونفاق واضطراب ونسيان ما تعلمه وانسداد باب علم كان يطلبه ونقص في يقينه وعقله ، واسوداد وجهه وبغضه في قلوب الخلق واجترائه على ذنب آخر من جنسه او غير جنسه . وهلم جراً . إلا ان يتداركه الله برحمته .

فهذه الآثار هي التيتورثها الأعمال هي الثواب والعقاب وافضاء العمل اليها واقتضاؤه اياها كافضاء جميــع الأسباب التى جعلهــا الله سبحانه وتعالى [اسبابا الى] مسبباتها ، والانسان اذا أكل او شرب حصل له الري والشبع وقد ربط الله سبحانه وتعالى الري والشبع بالشرب والأكل ربطاً محكماً ، ولو شاء ان لايشبعه ويرويه مع وجود الأكل والشرب فعل ، اما ان لايجعل فى الطعام قوة ، او يجعــل فى المحل قوة مانعة ، او بما يشاء سبحانه وتعالى ، ولو شاء ان يشبعه ويرويه بلا أكل ولا شرب او بأكل شيء غير معتاد فعل .

كذلك فىالأعمال: المثوبات والعقوبات حذو القذة بالقذة، فانهانما سمي الثواب ثوابا ؛ لأنه يثوب الى العامل من عمله : اي يرجع والعقاب عقابا لأنــه يعقب العمل : اي يكون بعده ، ولو شاء الله ان لا يثيبه على ذلك العمل ، اما بأن لايجعل فى العمل خاصة تفضي إلى الثواب ، او لوجود اسبابتنفي ذلك الثواب او غير ذلك لفعل سبحانه وتعالى وكذلك في العقوبات .

وبيان ذلك ان نفس الأكل والشرب باختيار العبد ومشيئته . التى هي من فعل الله سبحانه وتعالى ايضا ، وحصول الشبع عقب الأكل ليس للعبــد فيه صنع البتة ، حتى لو اراد دفع الشبع بعد تعاطي الأسباب الموجبــة له لم يطق ، وكذلك نفس العمل هو بارادته واختياره ، فــلو شاء ان يدفع اثر ذلك العمل وثوابه بعد وجود موجبه لم يقدر .

فهذه حكمة الله تعالى ومشيئته فى جميع الأسباب في الدنيا والآخرة ، لكن العلم بالأعمال النافعة في الدار الآخرة ، والأعمال الضارة اكثره غيب عن عقول الخلق ، وكذلك مصير العباد ومنقلبهم بعد فراق هذه الدار . فبعث الله سبحانه وتعالى رسله وانزل كتبه مبشرين ومنذرين ؛ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وحكمته فى ذلك تضارع حكمته فى جميع خلق الأسباب والمسببات .

وما ذاك الا ان علمه الازلي ومشيئته النافذة وقدرته القاهرة اقتضت ما اقتضته واوجبت ما اوجبته من مصير اقوام الى الجنة ، بأعمال موجبة لذلك منهم . وخلق اعمالهم وساقهم بتلك الأعمال إلى رضوانه ، وكذلك اهل النار كما قال : الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم لما قيل : له «الاندع العمل ونتكل على الكتاب ؟ فقال : لا . اعملوا فكل ميسر لما خلق له . اما من كان من اهل السعادة فييسر لعمل اهل السعادة ، واما من كان من اهل الشقاوة فييسر لعمل اهل الشقاوة » .

فبين صلى الله عليه وسلم ان السعيد قد يسر للعمل الذي يسوقه الله تعالى به الى السعادة ، وكذلك الشقى . وتيسيره له هو نفس إلهامه ذلك العمل وتهيئة اسبابه ، وهذا هو تفسير خلق افعال العباد . فنفس خلق ذلك العمل هو السبب المفضي الى السعادة او الشقاوة . ولو شاء لفعله بلا عمال بل هو فاعله ، فانه ينشيء للجنة خلقاً لما يبقى فيها من الفضل .

يبقى ان يقال : فالحكمة الكلية التى اقتضت ما اقتضته من الاسباب الاول

وحقائق ما الأمر صائر اليه فى العواقب ، والتخصيصات والتمييزات الواقعة فى الاشخاص والاعيان . الى غير ذلك من كليات القدر ، التى لاتختص بمسألة خلق افعال العباد . وليس هذا الاستفتاء معقوداً لها ، وتفسير جمل ذلك لا يليق بهذا الموضع . فضلا عن بعض تفصيله .

ويكفى العاقل ان يعلم ان الله عز وجل عليم حكيم رحيم ، بهرت الالباب حكمته ووسعت كل شيء رحمته . وأحاط بكل شيء علمه ، واحصاه لوحه وقلمه وان لله تعالى فى قدره سراً مصوناً ، وعلماً مخزوناً احترز به دون جميع خلقه ، واستأثر به على جميع بريته ؛ وانما يصل به أهل العلم وارباب ولايته الى جمل من ذلك ، وقد لايؤذن لهم فى ذكر ما ، وربما كلم الناس في ذلك على قدر عقولهم ، وقد سأل موسى وعيسى وعزير ربنا تبارك وتعالى عن شيء من سر القدر ، وانه لو شاء ان يطاع لاطيع وانه مع ذلك يعصى ، فأخبرهم سبحانه وتعالى ان هذا سره .

وفى هذا المقام تاهت عقول كثير من الخلائق ، وفيه ضل القائلون [بقدم العالم] . وأن صانعه موجب بذاته ، ومقتضى بنفسه اقتضاء العلة للمعلول ، وانه ليس فى الامكان ابدع مما صنع ، ودب بعض هذا الداء الى بعض اهل الكتاب واتباع الرسل فقدقرروا انحصار الممكن فى الموجود وكل ذلك طلباً للاستراحة من مؤمنة تعليل الافعال الالهية ووجود الاسباب الحادثة للأمور الحادثة ، وعلله اهل القدر بعللهم العائلة فى التعديل والتجويز ووجوب رعاية الصالح او

الاصلح ؛ ولم يستقم لواحد من الفريقين اصلهم ، ولم يطرد لهم .

ومن هنا ذهب اهل التثنية والتمجس الى الاصلين ، والقول بقدم النور والظلمة ، وسلم بعض السلامة — وان كان فيه نوع من ظن السوء بالله وضرب من الجفاء — اكثر متكلي اهل الاثبات حيث ردوا الامر الى محض المشيئة ، وصرف الارادة ، وان انشاءها جميع الجائزات واقتضاءها كل الممكنات على نحو واحد ووتيرة واحدة وإنها بذاتها تخصص وتميز .

ولو خلط بهذا الكلام ضرب من وجوه الرحمة ، وأنواع الحكمة — علمناها او جهلناها — لكان اقرب إلى القبول .

وبكل حال فلام التعليل في فعله سبحانه وتعالى ليست على مايعقله ا كثر الخلق من لام التعليل فى أفعالهم ، ووراء ما يعلمه هؤلاء ويقولون : مما أنار الله سبحانه وتعالى به قلوب أوليائه ، وقذف فى افئدة اصفيائه ، ممن استمسك فيما يظهر من الكلام بسبيل اهل الآثار ، واعتصم فيما يبطن عن الافهام ، بحبل أهل الابصار .

وفي هذا المقام تعرف أولوا الألباب سر قوله : « سبقت رحمتى غضبى » وقوله : « الشر ليس إليك » وقوله : « بيدك الخير » ، وقوله : (من شر ما

خلق) · وقوله : (واذا مرضت فهو يشفين) . (وأنا لاندري اشر اريد بمن في الارض ام أراد بهم ربهم رشداً) ؛ وما شاكل ذلك من ان الشر اما ان يحذف فاعله . أو يضاف الى الاسباب ، او ينـدرج في العموم . واما افراده بالذكر مضافا الى خالق كل شيء فـلا يقتضيه كلام حكيم . لمـا توجبه الحقيقة المقتضية للأدب المؤسس لا لمحض[1] متميز .

وهنا يعرف سبب دخول خلق كثير الجنة بلا عمل . وإنشاء خلق لها واما النـار فلا تدخل الا بعمـل ، ولن يدخلهـا الا اهـل الدنيا ويعرف حقيقة : (وما أصابك من سيئة فمـن نفسك) (وما اصابكم من مصيبة فبما كسبت ايديـكم) مـع أن السيئة من القدر ، وقول الصديق وغيره من الصحابة : إن يكن صواباً فمن الله وان يكن خطئاً فمني ومن الشيطان ، الى غير ذلك ممـا فيه ما قد لحظ كل ناظر منه شعبة من الحـق ، وتعلق بسبب من الصواب وما يتبع وجوه الحق ، ويؤمن بالكتاب كله الا اولوا الألباب وقليل ماهم ، فهذه اشارة يسيرة الى كلي التقدير .

وأما كون قدرة العبد وكسبه له شان من بين سائر الأسباب . فان الله عز وجل خص الانسان بأن علمه يورثه في الدنيا اخلاقاًواحوالاً وآثاراً .وفي الآخرة ايضاً امورا اخر لم يحصل هذا لغيره من مخلوقاته ، والوجوه الـتي خص

---

(١) سقط بالاصل بسبب خروم في المنقول منه

بها الانسان فى ذاته وصفاته واسمائه وافعاله شخصاً ونوعا اكثر من ان تحصى، وما من عاقــل الا وعنده منها طرف . ولهــذا حسن توجيه الامر والنهي اليه . وصح اضافة الفعل اليه حقيقة وكسبا ، مــع انه خلق الله تعالى . فان الله تعالى خلق العبد وعمله وجعل هذا العمل له عملاً قام به وصدر عنه وحدث بقدرته الحادثة .

وأدنى أحوال « الفعل » ان يكون بمنزلة الصفات والأخــلاق المخلوقة فى العبد ، إذا جعلت مفضية الى امور اخر . فهل يصح تجريد العبد عنها؟ كلا ولما .

وأما « الأمر » فانه في حق المطيعين من الأسباب التى بها يكون الفعــل منهم ؛ فانه يبعث داعيتهم ، ثم انه يوجب لهم الطاعة ومحض الانقياد والاستسلام فهو من جملة القدر السابق لهم الى السعادة وفى حق العاصين هو السبب الذي يستحقون به العصيان . إذ لولا هو لما تميز مطيع من عاص .

و « أيضاً » فى حقهم من القدر السابق لهم الى المعصية ؛ ليضل به كثيراً ويهدي به كثيراً ، عن إدخال الأمر والنهي فى جملة المقادير ، [1] يحل عقدة كثيرة هذا [1] سبحانه وتعالى لعلمه بالعواقب . وأما امر العبــاد فظاهر العدم [1] من المعاصي فى علمهم وان قصدهم نفس صدور الفعل من الجميع فهو [1] فى ظاهر الأمر الشرعي عــلى لسان المرسلين بالكتب المــنزلة والله

---

(١) هكذا بالاصل لاجل خروق في المنسوخ منه .

كله (١) مظهر امر وحكم يمضيه ، فالارادة والأمر كل منهما منقسم (١) عام الوقوع جامع للقسمين والى شرع وبما بعد وربما وقف (١) القدر له والخير كل الخير في نفوذه وهو خاص الوقوع بفرق الى القسمين ، واضع الأشياء فى مراتبها .

وإذا صح نسبة الطاعة والمعصية الى من خلقت فيه ولو أنه بخلق الصفات . أفيحسن بالانسان ان يقول : اسود واحمر وطويل وقصير وذ كي وبليد وعربي وعجمي فيضيف اليه جميع الصفات التى ليس للانسان فيها إرادة اصلاً البتة لقيامها به . وتأثيرها فيه ، تارة بما يلائمه وتارة بما ينافره ، ثم يستبعد ان يضاف اليه ما خلق فيه من الفعل بواسطة قصده وإرادته المخلوقين ايضاً ؟ ثم يقول : ليس للعبد في السيء شيء فهل الجميع الا له ؟ بل ليست لأحد غيره ؛ لكن الله سبحانه وتعالى خلقها له واضافة الفعل الى خالقه ومبدعه لا تنافي اضافته الى صاحبه ، ومحله الذي هو فاعله وكاسبه ، وقد بينا الجبر المذموم ما هو .

ونختم الكلام بكلام وجيز فى سبب الفرق بين الخلق والكسب . فنقول :

الخلق يجمع معنيين (احدها) الابداع والبرء ، و (الثاني) : التقدير والتصوير .

---

(١) هكذا بالاصل لاجل خروق في المنسوخ منه .

فاذا قيل : خلق ، فلا بد ان يكون ابدع ابداعاً مقدراً . ولما كان سبحانه وتعالى ابدع جميع الأشياء من العدم وجعل لكل شيء قدراً . صح اضافة الخلق اليه بالقول المطلق . والتقدير فى المخلوق لازم ، إذ هو عبارة عن تحديده والأحاطةبه وهذا لازم لجميع الكائنات ، لا كما زعم من حسب أن الخلق فى (١) ذوات المساحة وهي الأجسام مفرقاً بين الخلق والأمر بذلك ، فانه قول باطل مبتدع والأمر هو كلامه كما فسره الأولون ، والخلق مفسر (١) يجعل الخلق بازاء ابداع الصور الذهنية وتقديرها ومنه تسمية(١) اختلافاً إذ هو صور ذهنية ليس لها حقيقة خارجة عن الذهن و (١) جعل الخلق بمعنى التقدير فقط مقطوعا عنه النظر الى الابداع بما قال : (١) سدى ما خلقت ، وكما قال علي فى تمثال صنعه : انا خلقته والفرق (١) الأولى من حيث ان تلك الصورة مبتدعة ، لكان قولا (١) يكون إلا الله سبحانه وتعالى صح وصفه سبحانه بأنه خالق كل شيء .

وأما الكسب فقد ذكرنا انه إنما ينظر فيه الى تأثيره فى محله ولو لم يكن له عليه قدرة حتى يقال : الثوب قد اكتسب من ريح المسك . والمسجد قد اكتسب الحرمة من أفعال العابدين ، والجلد قد اكتسب الحرمة لمجاورة المصحف والثمرة قد اكتسبت لوناً وريحاً وطعماً ، فكل محل تأثر عن شيء مؤثراً وملائماً ومنافراً صح وصفه بالاكتساب بناء على تأثره وتغيره وتحوله

---

(١) بياضات بالاصل

من حال الى حال ، والانسان يتأثر عن الأفعال الاختيارية ، ولا يتأثر عن الأفعال الاضطرارية ، فتورثه اخلاقاً واحوالاً على اي حال كان حتى على رأي من يطلق اسم الجبر على مجموع افعاله ، فانه يستيقن تأثير الأفعال الاختيارية فى نفسه ، بخلاف الاضطرارية ، اللهم إلا من حيث قد توجب الأفعال الاضطرارية امراً فى نفسه فيكون ذلك اختياراً .

ثم اعلم ان الاضطرار إنما يكون فى بدنه دون قلبه ، اما بفعل الله تعالى كالأمراض والأسقام واما بفعل العباد كالقيد والحبس ، واما افعال روحه المنفوخة فيه ؛ إذا حركت يديه فهي كلها اختيارية ، ومن وجه قد بيناه كلها اضطرارية ، فاضطرارها هو عين[1] واختيارها انما هو بالاضطرار ، وحقيقة الاضطرار هو ان اضطرار[1] وربما احبت من وجه وكرهت من وجه آخر ، وهذا كله لايمنع ورود التكليف ، واقتضاء الثواب والعقاب .

هذا الذي تيسر كتابته فى الحال : (والله يقول الحق وهو يهدي السبيل) والحمد لله وحده

---

(١) بياض في الاصل

سئل شيخ الاسلام

تقي الدين ابو العباس احمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية رحمه الله : ما تقول السادة العلماء أئمة الدين ـــ رضي الله عنهم اجمعين ـــ فى «افعال العباد» : هل هي قديمة ، ام مخلوقة حين خلق الانسان ؟ وما الحجة علـى من يقول : ان سائر افعال العباد من الحركات وغيرهـا من القدر الذي قدر قبل خلق السموات والأرض ؟ وفيمن لم يستثن في الافعال الماضية كقول القائل : هذه نخلة او شجرة زيتون قطعاً ،لم يقل شيء الا وبسترجع فيه المشيئة ،ويسأل البسط فى ذلك .

فأجاب رضي الله عنه : الحمد لله رب العالمين . « افعال العباد » مخلوقة باتفاق سلف الأمة وائمتها ، كما نص على ذلك سائر ائمة الاسلام : الامام احمد ومن قبله وبعده ، حتى قال بعضهم : من قال : ان افعال العباد غير مخلوقة . فهو بمنزلة من قال : ان السماء والارض غير مخلوقة ، وقال يحيى بن سعيد العطـار: ما زلت اسمع اصحابنا يقولون افعال العباد مخلوقة .

وكان السلف قد اظهروا ذلك لما اظهرت القدرية ان افعال العبـاد غير

مخلوقة لله ، وزعموا ان العبد يحدثها او يخلقها دون الله ، فبين السلف والائمة ان الله خالق كل شيء من افعال العباد وغيرها .

ثم لما اظهر طائفة من المنتسبين الى السنة أن الفاظ العباد [بالقرآن] غير مخلوقة ، وانكر الامام احمد ذلك وبدع من قاله ، ثم لما مات قام بعده صاحبه أبو بكر المروذي فصنف فى ذلك مصنفاً ، ذكره ابو بكر الخلال فى «كتاب السنة» ، وذكر مسألة أبي طالب لما أنكر عليه احمد القول بأن لفظي بالقرآن غير مخلوق ، والجهمية أول من قال اللفظ بالقرآن مخلوق ، ورواه عنه ابناه صالح وعبد الله وحنبل بن عمه ، والمروذي وفوران وغيرهم من أجلاء اصحابه .

وانكر الأئمة من اصحاب احمد وغيرهم من علماء السنة من قال : ان اصوات العباد وافعالهم غير مخلوقة ، وصنف البخاري فى ذلك مصنفا ، كما انهم بدعوا وجهموا من قال : ان الله لايتكلم بصوت ، اوان حروف القرآن مخلوقة . او قالوا : ان اللفظ بالقرآن مخلوق ، فرد الأئمة هذه البدعة كما ذكرنا ذلك مبسوطا فى غير هذا الموضع . ولم يقل قط احد لا من اصحاب احمد المعروفين ولا من غيرهم من العلماء المعروفين : ان افعال العباد قديمة .

وإنما رأيت هذا [قولا] لبعض المتأخرين بأرض العجم وارض مصر ، من المنتسبين الى مذهب الشافعي او احمد ، فرأيت بعض المصريين يقولون :

ان افعال العباد من خير وشر قديمة ، ويقولون : ليس مرادنا بالافعال نفس الحركات . و لكن مرادنا الثواب الذي يكون عليها ، كما جاء فى الحديث : « ان المؤمن يرى عمله فى صورة رجل حسن الوجه طيب الريح »

واحتجوا على ذلك بأن الأفعال من القدر ، والقدر سر الله وصفة من صفاته ، وصفاته قديمة .

واحتجوا بأن الشرائع غير مخلوقة . لانها امر الله وكلامه ، والافعال هي الشرائع ، فتكون قديمة . وهذا قول فى غاية الفساد ، وهو مخالف لنصوص أئمة الاسلام كلهم ؛ واحدهم الامام احمد . فانه نص هو وغيره من الائمة على ان الثواب الذي يعطيه الله على قراءة القرآن مخلوق . فكيف بالثواب الذي يعطيه على سائر اعمال العباد .

ولما احتج الجهمية على الامام احمد وغيره من اهل السنة على ان القرآن مخلوق بقول النبي صلى الله عليه وسلم : « تأتي البقرة وآل عمران كأنهما غمامتان او غيابتان او فرقان من طير صواف و يأتي القرآن فى صورة الرجل الشاحب » ونحو ذلك قالوا : ومن يأتى ويذهب لا يكون إلا مخلوقا ، اجابهم الامام احمد بأن الله تعالى قد وصف نفسه بالمجيء والاتيان بقوله : (هل ينظرون الا ان تأتيهم الملائكة او يأتي ربك او يأتي بعض آيات ربك) وقال: (وجاء ربك والملك صفا صفا) ومع هذا فلم يكن هذا دليلا على انه مخلوق

بالاتفاق، بل قد يقول القـائل : جاء امره ، وهكـذا تقوله المعتزلة الذين يقولون : القرآن مخلوق ، يتأولون هذه الآية على ان المراد بمجيئه مجيء امره فلم لايجوز ان يتأول مجيء القرآن على مجيء ثوابه ؟ ويكون المراد بقوله تجيء البقرة وآل عمران بمجيء ثوابها، وثوابها مخلوق .

وقد ذكر هذا المعنى غير واحد ، وبينوا ان المراد بقوله : « تجيء البقرة وآل عمران » اي ثوابها ، ليجيبوا الجهميـة الذين احتجوا بمجيء القرآن وإتيانه على انه مخلوق ، فلو كان الثواب ايضاً الذي يجيء في صورة غمامة او صورة شاب غير مخلوق ، لم يكن فرق بين القرآن والثواب، ولا كان حاجة الى ان يقولوا : يجيء ثوابـه ؟ ولا كان جوابهم للجهمية صحيح ، بل كانت الجهمية تقول : انتم تقولون انه غير مخلوق ؛ وان ثوابه غير مخلوق ، فلا ينفعكم هذا الجواب .

فعلم ان ائمة السنـة مع الجهمية كانوا متفقين على ان ثواب قراءة القرآن مخلوق ، فكيف يكون ثواب سـائر الاعمال ؛ وهـذا بين ، فان الثواب والعقاب هو ما وعد الله به عبـاده . واوعدهم به ؛ فالثواب هو الجنة بمـا فيها ؛ والعقاب هو النار بما فيها ؛ والجنة بما فيها مخلوق والنار بما فيها مخلوق وقـد ذكر الامام احمد هـذه الحجة فيما كتبه فى الرد على الزنادقة والجهمية فقـال :

(باب) : ما ادعت الجهمية ان القرآن مخلوق من الاحاديث التى رويت

« ان القرآن يجيء فى صورة الشاب الشاحب ؛ فيأتي صاحبه فيقول : هل تعرفني ؟ فيقول له : من انت ؟ فيقول : انا القرآن الذي اظمأت نهارك ؛ واسهرت ليلك ؛ قال : فيأتي بـه الله ؛ فيقول: يارب ! » فادعوا. ان القرآن مخلوق ؛ فقلنا لهم : إن القرآن لايجيء بمعنى انه قد جاء: « من قرأ : (قل هو الله احد) فله كذا وكذا » الا ترون من قرأ : (قل هو الله احد) لايجيئه ؛ بل يجيء ثوابه ؛ لأنا نقرأ القرآن فنقول لايجيء ؛ ولا يتغير من حال إلى حال .

فبين احمد ان الثواب هو الذي يجيء ؛ وهو المخلوق من العمل ؛ فكيف بعقوبة الاعمال الذي تتغير من حال إلى حال فاذا كان هذا ثواب (قل هو الله احد) وهو ثواب القرآن فكيف ثواب غيره !!

واما احتجاج المحتج بان الافعال قدر الله فيقال له : لفظ « القدر » يراد به التقدير ؛ ويراد به المقدر . فان اردت ان افعال العباد نفس تقدير الله الذي هو علمه وكلامه ومشيئته ونحو ذلك من صفاته ؛ فهذا غلط وباطل . فان افعال العباد ليست شيئاً من صفات الله تعالى ؛ وإن اردت انها مقدرة قدرها الله تعالى ؛ فهذا حق . فانها مقدرة كما ان سائر المخلوقات مقدرة ؛ وقد ثبت في الصحيح ان الله قدر مقادير الخلائق قبل ان يخلق السموات والارض بخمسين الف سنة ، وكل تلك المقدورات مخلوقة .

وثبت فى الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال : « حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق : ان خلق احدكم يجمع فى بطن امه اربعين يوماً نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات فيقال : اكتب رزقه واجله وعمله وشقي او سعيد ثم ينفخ فيه الروح » . فالرزق والأجل قدره كما قدر عمله ؛ ومعلوم ان الرزق الذي يأكله مخلوق مع انه مقدر . فكذلك عمله ؛ وكذلك سعادته وشقاؤه؛وسعادته وشقاؤه هي ثواب العمل وعقابه ؛ وكل ذلك مقدر ؛ كما ان الرزق مقدر والمقدر مخلوق .

وأما قولهم : ان الأعمال هي الشرائع ، والشرائع غير مخلوقه ، فيقال لهم ايضاً لفظ الشرع يراد به كلام الله الذي شرع به الدين ، ويراد به الأعمال المشروعة ، فان هذه الألفاظ يراد بها المصدر ويراد بها المفعول ، كلفظ « الخلق » ونحوه .

فان قلتم : ان أعمال العباد هي الشرع الذي هو كلام الله ، فهذا باطل ظاهر البطلان .

وإن أردتم : أن الأعمال هي المشروعة بأمر الله بها فهذا حق ؛ لكن أمر الله غير مخلوق ، وأما المأمور به المكون بأمر الله او الممتثل بأمر الله فانه مخلوق ، كما ان العبد المأمور مخلوق .

ولفظ « الأمر » يراد به المصدر ، والمفعول ، فالمفعول مخلوق . كما قال : (أتى أمر الله) ، وقال: (وكان امر الله قدراً مقدوراً) . فهنا المراد به المأمور به ليس المراد به امره الذي هو كلامه ، وهذه الآية التى احتج بها هؤلاء تضمنت الشرع وهو الأمر والقدر ، وقد ضل في هذا الموضع فريقان :

«الجهمية »الذين يقولون : كلام الله مخلوق ، ويحتجون بقوله : (وكان امر الله قدراً مقدوراً) . ويقولون : ما كان مقــدوراً فهو مخلوق . وهؤلاء « الحلولية » الضالون الذين يجعلون فعل العباد قديماً بأنه امر الله وقــدره ، وامره وقدره غير مخلوق .

ومثار الشبهة ان اسم « القدر » و « الأمر » و « الشرع » يراد به المصدر ويراد به المفعول ، ففي قوله : (وكان امر الله قدراً مقدوراً) المراد به المأمور به المقدور ، وهذا مخلوق ، واما فى قوله : (ذلك امر الله انزله اليكم) فأمره كلامه إذ لم ينزل إلينا الأفعال التى امرنا بها وإنما انزل القرآن ، وهذا كقوله : (إن الله يأمركم ان تؤدوا الأمانات إلى اهلها) فهذا الامر هو كلامه .

فاذا احتج الجهمي الذي يؤول امره إلى ان يجعله حالاً فى المخلوقات بقوله : (وكان امر الله قدراً مقدوراً) قيل له المراد به المأمور به ، كما فى قوله : (اتى امر الله فلا تستعجلوه) وكما يقال عن الحوادث التى يحدثها الله هــذا امر عظيم ، واذا احتج الحلولي الذي يجعل صفات الرب تقارن ذاته ، وتحل في

المخلوقات بقوله : (وكان امر الله قدراً مقدوراً) وقال الافعال قـدره وامره ، وامره غير مخلوق . وقدره غير مخلوق . قيل له : امره وقدره الذي هو صفته كمشيئته وكلامه غير مخلوق ، فاما امره الذي هوقدر مقدور فمخلوق ، فالمقدور مخلوق ، والمأمور به مخلوق . وان سميا امراً وقدراً .

ثم يقال لهؤلاء الضالين : هب ان المأمور به يسمى امـراً وشرعا فالمنهي عنه ليس هو مأموراً به ولا مشروعا ، وإنما هو مخالفة للأمر والشرع ، وهو منهي عنه،فكيف سميتم الكفر والفسوق والعصيان شرائع، وليست من الشرائع؟! ولكن هي مما نهت عنه الشريعة ، ولما قال سبحانه : (ثم جعلناك على شريعة من الامر فاتبعها) هل دخل في هذه الشريعة الكفر والفسوق والعصيان ؟ ! وهل امر الرسول باتباع ذلك وباجتنابه واتقائه ؟ ! .

واما قول السائل : ما الحجة على من يقول : ان افعال العباد من الحركات وغيرها من القدر الذي قدر قبل خلق السموات والارض ؟ فيقال له : مـن قال هذا القول فقد احسن واصاب وليس عليه حجة ، بل هذا الـكلام حجـة على نقيض مطلوبه ، فان لفظ رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي رواه مسلم في صحيحـه عن عبـد الله بن عمـرو عنه صلى الله عليـه وسلم قال : «ان الله قدر مقادير الخلائق قبل ان يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة فقدر أعمالهم وارزاقهم وصورهم والوانهم وكل ذلك مخلوق ، فدل ذلك على ان الأعمال من المقدورات المخلوقة . وهل يقول عاقل: ان عمل العبد كان موجوداً

قبل وجوده ، وعمل العبد حركته التى نشأت عنه فكيف يكون ذلك موجوداً قبله .

ومن فسر كلامه وقال : انا لم نرد الحركة ، ولكن اردنا ثوابها ، فيقال له كل ما سوى الله فهو مخلوق وكلامه وصفاته ليست خارجة عن مسماه؛ بل كلامه داخل فى مسمى اسمه . ولو قال قائل : ما سوى الله وصفاته فهو مخلوق ليزيل هذه الشبهة كان قد قصد معنى صحيحاً وكذلك إذ قال كما قال من قال من السلف : الله الخالق وما سواه مخلوق ، إلا القرآن فانه كلام الله منزل غير مخلوق ، منه بدا وإليه يعود ، فهؤلاء استثنوا القرآن لئلا يتوهم المستمع ان القرآن المنزل مخلوق .

فان الجهمية كانوا يقولون للناس : القرآن هو الله او غير الله ؟ فيجيبهم من لا يفهم مقصودهم بأنه غير الله ، فيقولون كل ما سوى الله مخلوق ، فقال من قال من السلف هذه العبارة لئلا يظن من لم يعرف مقاصد الجهمية ان القرآن مخلوق ، لظنه ان ذلك يدخل في عموم قوله : وما سوى الله مخلوق فقالوا : ان ذلك لا يدخل فى عموم قوله : وما سوى الله مخلوق ، فقالوا : إلا القرآن فانه ليس بمخلوق ، وإن أدخله من أدخله فى قول القائل وما سوى الله مخلوق ، فلما كان لفظ الغير والسوى فيها اشتراك ، فصفة الشيء تدخل تارة فى لفظ الغير والسوى ، وتارة لا تدخل ، والمخاطب ممن يفهم دخول القرآن في لفظ السوى استثناه السلف .

فأما افعال العباد فلم يستثنها احـــد من عموم المخلوقات ، إلاّ القدرية الذين يقولون : ان الله لم يخلقها ـــ من المعتزلة ونحوهم ـــ .

لكن هؤلاء يقولون : إنهـــا محدثة كائنة بعد ان لم تكن ، الا هؤلاء الحلولية ، وما علمت احداً من المتقدمين قال : إن افعال العباد من الخير او الشر قديمة ، لا من اهل السنة ولا من اهل البدعـة الا عن بعض متأخري المصريين وبلغني نحو ذلك عن بعض متـأخري الاعاجم ورأيت بعض شيوخ هؤلاء من الشاميين توقفوا عنها ، فقالوا : نقول هي مقضية مقدرة ولا نقول مخلوقة ولا غير مخلوقة ، وبعض الناس فرق بان افعال الخير من الايمـان ، وكلام السلف فى « الايمان » مذكور في غير هذا الموضع .

وهذه « الأقوال الثلاثة » بقدمها او قـدم افعال الخير ، والتوقف فى ذلك اقوال فاسدة باطلة لم يقلها احد من الأئمة المشهورين ولا يقولها من يتصور مايقول وإنما اوقع هؤلاء فيهـا ماظنوه فى « مسألة اللفظ بالقرآن » و « مسألة التلاوة والمتلو » و « مسألة الايمـان » . وقد اوضحنا مذاهب النـاس فى « مسألة القرآن » ، وبينا القول الحق والوسط الذي كان عليه السلف والأئمة الموافق للمنقول والمعقول وبينا انحراف المنحرفين من المثبتة والنفـاة فى غير هذا الموضع .

وقد آل الأمر بطائفة ممن يجعلون بعض صفـات العبد قديما . إلى ان جعلوا الروح التى فيه قديمة ، وقالوا : بقدم النور القـائم بالشمس والقمر ونحو ذلك من المقـالات . التى بينا فسادهـا ومخالفتها للسلف والأئمة فى غير هذا الموضع .

وهؤلاء يشتركون فى القول بحلول بعض صفات الخالق في المخلوق ٠ واما الجهمية الذين هم شر من هؤلاء فيؤول الأمر بهم إلى ان يجعلوا الخـالق نفسه يحل فى المخلوقات كلها او يجعلونه عين وجود المخلوقات ، وكان قـد اجتمع شيخ هؤلاء الحلولية الجهمية بشيوخ اولئك الحلولية الصفاتية .

وبسبب هذه البدع وامثالها وغيرها من مخالفة الشريعة جرى ما جرى من المصائب على الأئمة .

والامام « احمد » وغيره من الأئمة انكروا القول بالحلول وشبهوا هؤلاء بالنصارى ٠ وقال ــــ فيما كتبه من « الرد على الزنادقة والجهمية » قال : ــــ فكان مما بلغنا من امر الجهم عدو الله انه كان من اهل خراسان من اهل الترمذ ٠ وكان له خصومات وكلام وكان اكثر كلامه فى الله ٠ فلقي اناساً من المشركين يقال لهم السمنية فعرفوا الجهم ، فقالوا له : نكلمك فان ظهرت حجتنا عليك دخلت فى ديننا ، وإن ظهرت حجتك علينـــا دخلنا فى دينك ، فكان مما كلموا به الجهم ان قالوا : ألست تزعم ان لك إلها ؟ قال الجهم

نعم ، فقالوا له : فهل رأيت إلهك ؟ قال : لا ، قالوا : فهل سمعت كلامه قال : لا . قالوا : فشممت له رائحة . قال : لا . قالوا : فوجدت له حساً . قال : لا . قالوا : فوجدت له مجساً . قال : لا . قالوا : فما يدريك انه إله ؟ قال : فتحير الجهم فلم يدر من يعبد اربعين يوماً ؛ ثم انه استدرك حجة مثل حجة زنادقة النصارى ؛ وذلك ان زنادقة النصارى يزعمون ان الروح الذي فى عيسى بن مريم هو روح الله من ذات الله ؛ فاذا اراد ان يحدث امراً دخل فى بعض خلقه ؛ فتكلم على لسان خلقه فيأمر بما شاء ؛ وينهى عما يشاء وهو روح غائب عن الأبصار .

فاستدرك الجهم حجة ، فقال للسمنى : ألست تزعم ان فيك روحاً ؟ قال : نعم ، قال : فهل رأيت روحك . قال : لا . قال : فهل سمعت كلامه . قال : لا . قال : فوجدت له حساً او مجساً . قال : لا . قال : فكذلك الله لا ترى له وجهاً ولا تسمع له صوتاً ، ولا تشم له رائحة ، وهو غائب عن الأبصار ، ولا يكون فى مكان دون مكان ، وتكلم فى الرد عليهم إلى ان قال :

ثم ان الجهم ادعى امراً آخر فقال : إنا وجدنا آية من كتاب الله تدل على القرآن انه مخلوق فقلنا : اي آية ؟ فقال : قول الله : (إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته) وعيسى مخلوق . فقلنا : ان الله منعك الفهم فى القرآن ، عيسى تجري عليه الفاظ ، لا تجرى على القرآن ؛ لأنه

يسميه مولوداً وطفلا وصبياً وغلامـاً يأكل ويشرب وهو مخـاطب بالأمر والنهي يجرى عليه الوعد والوعيد ، ثم هو من ذرية نوح ، ومن ذرية ابراهيم ولا يحل لنا ان نقول في القرآن مانقول فى عيسى ، هل سمعتم الله يقول فى القرآن ما قال فى عيسى ؟!

ولكن المعنى فى قول الله جل ثناؤه : (انما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها الى مريم) فالكلمة التى ألقاها الى مريم حين قال له : كن فكان عيسى بكن وليس عيسى هو الكن ولكن كان بكن ، فالكن من الله قول، وليس الكن من الله مخلوقا .

وكذب النصارى والجهمية على الله فى امر عيسى وذلك ان الجهمية قالوا : عيسى روح الله وكلمته ، الا ان الكلمة مخلوقة وقالت النصارى : عيسى روح الله من ذات الله ، وكلمة الله من ذات الله . كما يقال : ان هذه الخرقة من هـذا الثوب . وقلنـا : نحن ان عيسى بالكلمة كان . وليس عيسى هو الكلمة واما قول الله وروح منه . يقول : من امره كان الروح فيه ، كقوله : (وسخر لكم ما فى السموات وما فى الارض جميعـا منه) يقول مـن امره ، وتفسير روح الله انما معناها انها روح بكلمة الله خلقها الله ، كما يقـال : عبد الله وسماء الله .

وبين احمد ان كلام الآدميين مخلوق ، فضلاً عن اعمالهم فقال :

بيان ما انكرت الجهمية من ان يكون الله كلم موسى ، فقلنا لم انكرتم ذلك ؟ قالوا : ان الله لم يتكلم ولا يتكلم ، انما كون شيئا فعبر عن الله وخلق صوتاً فأسمع ، وزعموا ان الكلام لا يكون الا من جوف ولسان وشفتين . فقلنا : فهل يجوز لمكون غير الله ، ان يقول : يا موسى انا ربك او يقول : (انني انا الله لا اله الا انا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري) فمن زعم ان ذلك غير الله فقد ادعى الربوبية، ولو كان كما زعم الجهمي ان الله كون شيئاً كان يقول ذلك المكون : (يا موسى ان الله رب العالمين) لا يجوز له ان يقول : (اني انا الله رب العالمين) وقد قال الله تعالى : (وكلم الله موسى تكليماً) وقال : (ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه) وقال :(اني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي) فهذا منصوص القرآن .

فأما ما قالوا : ان الله لا يتكلم . ولا يكلم فكيف يصنعون بحديث الأعمش عن خيثمة عن عدي بن حاتم الطائي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما منكم من احد الا سيكلم ربه ليس بينه وبينه ترجمان» . وبسط الكلام عليهم الى ان قال :

قد اعظمتم على الله الفرية حين زعمتم انه لا يتكلم ، فشبهتموه بالأصنام التي تعبد من دون الله؛ لأن الاصنام لا تتكلم ولا تتحرك ولا تزول من مكان الى مكان ، فلما ظهرت عليه الحجة قال : ان الله قد يتكلم ، ولكن كلامه مخلوق ، قلنا : وكذلك بنوا آدم كلامهم مخلوق ، فقد شبهتم الله بخلقه حين

زعمتم ان كلامه مخلوق، ففي مذهبكم قد كان فى وقت من الاوقات لا يتكلم حتى خلق التكلم، فقد جمعتم بين كفر وتشبيه. فتعالى الله عن هذه الصفة. بل نقول: ان الله لم يزل متكلماً اذا شاء . ولا نقول : انه كان ولا يتكلم حتى خلق ، وذكر تمام كلامه .

فقد بين ان كلام الآدميين مخلوق خلقه الله ، وذلك ابلغ من نصه على ان افعال العباد مخلوقة ، مع نصه على الامرين .

وقال اذا اردت ان تعلم ان الجهمي كاذب على الله حين زعم انه في كل مكان ، ولا يكون فى مكان دون مكان . فقل : اليس الله كان ولا شيء ؟! فيقول : نعم ، فقل له : حين خلق خلقه ، خلقه فى نفسه او خارجاً عن نفسه ، فانه يصير الى ثلاثة اقاويل : واحدة منها ان زعم ان الله خلق الخلق في نفسه ، كفر حين زعم ان الجن والانس والشياطين في نفسه . وان قال : خلقهم خارجاً من نفسه ثم دخل فيهم كان هذا ايضاً كفراً حين زعم انه دخل في مكان وحش قذر رديء . وان قال : خلقهم خارجاً من نفسه ثم لم يدخل فيهم رجع عن قوله اجمع وهو قول اهل السنة .

فقد بين احمد ان كلام الآدميين مخلوق ونص فى غير موضع على ان افعالهم مخلوقة والنص على كلامهم ابلغ ، فان الشبه فيه اظهر . فمن قال : ان

كلام الآدميين او افعالهم قديمة فهو مبتدع مخالف للكتاب والسنة واجماع سلف الامة وأئمتها .

فصــــل

واما الاستثناء فى الماضي المعلوم المتيقن : مثل قوله هذه شجرة انشاء الله او هذا انسان ان شاء الله ، او السماء فوقنا ان شاء الله . او لا اله الا الله ان شاء الله . او محمد رسول الله ان شاء الله . او الامتناع من ان يقول محمد رسول الله قطعاً . وأن يقول : هذه شجرة قطعاً فهذه بدعة مخالفة للعقل والدين .

ولم يبلغنا عن احد من اهل « الاسلام » الا عن طائفة من المنتسبين الى الشيخ ابى عمرو بن مرزوق ولم يكن الشيخ يقول بذلك ولا عقلاء اصحابه . ولكن حدثني بعض الخبيرين انه بعد موته تنازع صاحبان له : حازم وعبد الملك فابتدع حازم هذه البدعة فى الاستثناء فى الامور الماضية المقطوع بها . وترك القطع بذلك . وخالفه عبد الملك فى ذلك موافقة لجماعة المسلمين وائمة الدين .

واما « الشيخ ابو عمرو » فكان اعقل من ان يدخل فى مثل هذا

الهذيان ، فانه كان له علم ودين ، وان كان ما تقدم من مسألة قدم افعال العباد من خير وشر يعزى اليه . وقد اراني بعضهم خطه بذلك . فقد قيل : انه رجع عن ذلك ، وكان يسلك طريقة الشيخ ابي الفرج المقدسي الشيرازي ونقل عنه انه كان يقف ويقول : هي مقضية مقدرة . وأمسك.

والشيخ ابو الفرج كان احد اصحاب القاضي ابي يعلى ولكن القاضي ابو يعلى لا يرضى بمثل هذه المقالات ، بل هو ممن يجزم بأن افعال العباد مخلوقة ، ولو سمع احداً يتوقف فى الكفر والفسوق والعصيان انه مخلوق — فضلاً عن ان يقول ان افعال العبد من خير وشر قديمة — لانكر عليه اعظم الانكار .

وإن كان فى كلام القاضي مواضع اضطرب فيها كلامه وتناقض فيها وذكر فى موضع كلاماً بنى عليه من وافقه فيه من ابنية فاسدة ، فالعالم قد يتكلم بالكلمة التى يزل فيها فيفرع اتباعه عليها فروعاً كثيرة ، كما جرى فى مسألة « اللفظ » و « كلام الآدميين » ومسألة « الايمان » و «افعال العباد ».

فان السلف والائمة — الامام احمد وغيره — لم يقل احد منهم ان كلام الآدميين غير مخلوق ولا قالوا : إنه قديم ولا ان افعال العباد غير مخلوقة ، ولا أنها قديمة . ولا قالوا ايضاً : ان الايمان قديم ولا انه غير مخلوق ولا قالوا : إن لفظ العباد بالقرآن مخلوق ، ولا أنه غير مخلوق ولكن منعوا من إطلاق

القول بأن الايمان مخلوق . وأن اللفظ بالقرآن مخلوق ؛ لما يدخل في ذلك من صفات الله تعالى ، ولما يفهمه هذا اللفظ من ان نفس كلام الخالق مخلوق وأن نفس هذه الكلمة مخلوق . ومنعوا ان يقال : حروف الهجاء مخلوقة ؛ لان القائل هذه المقالات يلزمه ان لا يكون القرآن كلام الله ، وأنه لم يكلم موسى .

فجاء اقوام اطلقوا نقيض ذلك فقال بعضهم : لفظي بالقرآن غير مخلوق ، فبدع الامام احمد وغيره من الائمة من قال ذلك .

وكذلك اطلق بعضهم القول بأن الايمان غير مخلوق . حتى صار يفهم من ذلك أن « أفعال العباد » التى هي ايمان غير مخلوقة ، فجاء آخرون فزادوا على ذلك فقالوا كلام الآدميين مؤلف من الحروف التى هي غير مخلوقة . فيكون غير مخلوق . وقال آخرون : فأفعال العباد كلها غير مخلوقة ، والبدعة كلما فرع عليها وذكر لوازمها زادت قبحاً وشناعة ، وافضت بصاحبها الى ان يخالف ما يعلم بالاضطرار من العقل والدين .

وقد بسطنا الكلام فى هذا ، وبينا اضطراب الناس في هذا فى مسألة القرآن وغيرها .

وهذا كما ان اقواما ابتدعوا : ان حروف القرآن ليست من كلام الله ،

وان كلام الله إنما هو معنى قائم بذاته هو الأمر والنهي والخبر وهـذا الكلام فاسد بالعقل الصريح والنقل الصحيح ، فان المعنى الواحد لا يكون هو الأمر بكل مأمور ، والخبر عن كل مخبر ، ولا يكون معنى التوراة والانجيل والقرآن واحداً ، وهم يقولون : إذا عبر عن ذلك الكلام بالعربيـة صار قرآناً ، وإذا عبر عنه بالعبرية صار توراة ، وهذا غلط فان التوراة يعبر عنها بالعربية ومعانيها ليست هي معاني القرآن ، والقرآن يعبر عنـه بالعبريـة وليست معانيه هي معاني التوراة .

وهذا القول أول من احدثه ابن كلاب ، ولكنه هو ومن اتبعـه عليه : كالأشعري وغيره يقولون مع ذلك : ان القرآن محفوظ بالقـلوب حقيقة ، متلو بالألسن حقيقة ، مكتوب في المصاحف حقيقة .

ومنهم من يمثل ذلك بأنه محفوظ بالقلوب كما ان الله معلوم بالقـلوب ، ومتلو بالألسن كما ان الله مذكور بالألسن ، ومكتوب فى المصاحف كما ان الله مكتوب فى المصاحف . وهـذا غلط فى تحقيق مذهب ابن كلاب والأشعري فان القرآن عندهم معنى عبارة عنه . والحقائق لها اربع مراتب : وجود عيني وعلمي . ولفظي . ورسمي . فليس العلم بالمعنى له المرتبة الثانية ، وليس ثبوته في الكتاب كثبوت الأعيـان فى الكتاب ، فـزاد هـؤلاء قول ابن كلاب والأشعري قبحاً .

ثم تبع اقوام من اتباعهم أحد أهل المذهب، وان القرآن معنى قائم بذات الله فقط، وان الحروف ليست من كلام الله، بل خلقها الله فى الهواء او صنفها جبريل أو محمد، فضموا الى ذلك ان المصحف ليس فيه إلا مداد وورق، واعرضوا عما قاله سلفهم من ان ذلك دليل على كلام الله فيجب احترامه لما رأوا ان مجرد كونه دليلاً لا يوجب الاحترام، كالدليل على الخالق المتكلم بالكلام، فان الموجودات كلها أدلة عليه ولا يجب احترامها فصار هؤلاء يمتهنون المصحف حتى يدوسوه بأرجلهم، ومنهم من يكتب اسماء الله بالعذرة إسقاطاً لحرمة ما كتب فى المصاحف والورق من اسماء الله وآياته.

وقد اتفق المسلمون على ان من استخف بالمصحف مثل ان يلقيه فى الحش او يركضه برجله إهانة له، انه كافر مباح الدم.

فالبدع تكون فى اولها شبراً ثم تكثر فى الاتباع حتى تصير اذرعا واميالا وفراسخ.

وهذا الجواب لا يحتمل بسط هذا الباب فانه مبسوط فى غيره.

وهؤلاء الذين يستثنون فى هذه الأشياء الماضية المقطوع بها مبتدعة ضلال جهال، وأحدهم يحتج على ذلك. فاذا قيل له: هذه شجرة، قال: ان شاء الله ان يقلبها حيواناً فعل.

فيقال له : هي الآن شجرة قطعاً . وإما إذا قلت : قد انتقلت كما ان الانسان يكون نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم لحما ثم يحيى فبعدنفخ الروح فيه حي قطعاً وإذا شاء اللهان يميته اماته ؛ فالله إذا كان قادراً على تحويل الخلق من حال إلى حال لم يمنع ذلك ان يكونوا فى كل وقت على الحال التى خلقهم عليها . فالسماء سماء بمشيئة الله وقدرته وخلقه ؛ والانسان إنسان بمشيئة الله وقدرته وخلقه والفرس فرس بمشيئة الله وقدرته وخلقه واذا شاء الله ان يغير ماشاء غيره بمشيئته ان شاء وقدرته وخلقه .

ولم يجيء فى الكتاب والسنة استثناء فى الماضي بل فى المستقبل كقوله : (ولا تقولن لشيء إنى فاعل ذلك غداً إلا ان يشاء الله) وقوله : (لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله) وقول النبي صلى الله عليه وسلم : « وانا ان شاء الله بكم لاحقون » وقوله : « ان سليمان قال : لأطوفن الليلة على سبعين امرأة تأتي كل امرأة بفارس يقاتل في سبيل الله فقال له صاحبه : قل : ان شاء الله فلم يقل . فلم تلد منهن إلا امرأة جاءت بشق ولد قال : فلو قال ان شاء الله لقاتلوا فى سبيل الله فرساناً اجمعين » وقال صلى الله عليه وسلم : « من حلف فقال : ان شاء الله ؛ فان شاء فعل وان شاء ترك »لأن الحالف يحلف على مستقبل ليفعلن هو او غيره كذا او لا يفعل هو او غيره كذا فيقول ان شاء الله لأنه ما شاء الله كان ؛ ومالم يشأ لم يكن فان وقع الفعل كان الله شاءه فلا حنث عليه وان لم يقع لم يكن الله شاءه فلا حنث عليه ؛ لأنه انما التزمه ان اشاء الله ؛ فاذا لم يشأه الله لم يكن قد التزمه فلا يحنث .

و « الاستثناء في الايمان » مأثورعن ابن مسعود وغيره من السلف والأئمة لاشكا فيما يجب عليهم الايمان به فان الشك في ذلك كفر . ولكنهم استثنوا في الايمان خوفا الا يكونوا قاموا بواجباته وحقائقه ؛ وقد قال تعالى : (والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة) قال النبي صلى الله عليه وسلم : « هو الرجل يصوم ويصلي ويتصدق ويخاف ان لا يتقبل منه » .

واستثنوا ايضا لعدم علمهم بالعاقبة والايمان النافع هو الذي يموت المرء عليه .

واستثنوا خوفامن تزكية النفس ونحو ذلك من المعاني الصحيحة .

وكذلك من استثنى في اعمال البر كقوله : صليت ان شاء الله ونحو ذلك فهذا كله استثناء في افعال لم يعلم وقوعها على الوجه المأمور المقبول فهو استثناء فيما لم تعلم حقيقته ؛ او في مستقبل علق بمشيئة الله ليبين ان الامور كلها بمشيئة الله ، فأما الاستثناء في ماض معلوم فهذه بدعة بخلاف العقل والدين .

وقال رحمه الله

فصـــــل

وأما « مسألة تحسين العقل وتقبيحه » : ففيها نزاع مشهور ، بين اهل السنة والجماعة من الطوائف الأربعــة وغيرهم . فالحنفية وكثير من المالكيــة ، والشافعية والحنبلية ، يقولون بتحسين العقل وتقبيحه ، وهو قول الكراميــة والمعتزلة ، وهو قول أكثر الطوائف من المسلمين ، واليهود والنصــارى والمجوس وغيرهم . وكثير من الشافعية والمالكية والحنبلية ينفون ذلك ، وهو قول الأشعرية ؛ لكن أهل السنة متفقون على إثبات القدر ، وان الله على كل شيء قدير ، خالق كل شيء من أفعال العباد وغيرها ، وانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

والمعتزلة وغيرهم من القدرية : يخالفون فى هذا . فانكار القدر بدعــة منكرة ، وقد ظن بعض الناس ، ان من يقول : بتحسين العقل وتقبيحــه ينفي القدر ، ويدخل مع المعتزلة فى مسائل التعديل والتجويز ، وهذا غلط ، بل جمهور المسلمين لا يوافقون المعتزلة على ذلك . ولا يوافقون الأشعرية على نفي

الحكم والأسباب؛ بل جمهور طوائف المسلمين يثبتون القدر، ويقولون: ان الله خالق كل شيء من افعال العباد وغيرها. ويقولون: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

وأما الاقرار بتقدم علم الله وكتابه لافعال العباد، فهذا لم ينكره إلا الغلاة من القدرية وغيرهم؛ وإلا فجمهور القدرية من المعتزلة وغيرهم يقرون بان الله علم ما العباد فاعلون قبل ان يفعلوه، ويصدقون بما أخبر به الصادق المصدوق من ان الله قدر مقادير الخلائق قبل ان خلقهم. كما ثبت فى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله قدر مقادير الخلائق قبل ان يخلق السموات والأرض بخمسين الف سنة، وكان عرشه على الماء» وفي صحيح البخاري وغيره عن عمران بن حصين «عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء وكتب فى الذكر كل شيء، وخلق السموات والأرض» وفي لفظ «ثم خلق السموات والأرض».

وفى الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال: «حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم - وهو الصادق المصدوق - ان أحدكم يجمع خلقه فى بطن امه اربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث إليه الملك؛ فيؤمر بأربع كلمات، فيقال: اكتب رزقه، واجله، وعمله، وشقي او سعيد، ثم ينفخ فيه الروح، فو الذي نفسي بيده ان احدكم ليعمل بعمل اهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل اهل النار فيدخل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل

اهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع . فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل اهل الجنة فيدخل الجنة » . والآثار مثل هذا كثيرة .

فهذا يقر به اكثر القدرية ، وإنما ينكره غلاتهم كالذين ذكروا لعبد الله بن عمر فى الحديث الذي رواه مسلم فى اول صحيحه بحيث قيل له : « قبلنا اقوام يقرؤون القرآن ، ويتقفرون العلم ، يزعمون ان لا قدر وان الأمر انف ، قال : فاذا لقيت اولئك فأخبرهم انى برىء منهم ، وانهم مني برءاء » ولهذا كفر الأئمة :ــ كمالك والشافعي واحمد ــ من قال : ان الله لم يعلم افعال العباد حتى يعملوها . بخلاف غيرهم من القدرية .

والمقصود هنا : ان جماهير المسلمين يخالفون القدريــة من المعتزلة وغيرهم ، وجماهير المسلمين ايضاً يقرون بالاسباب التى جعلها الله اسباباً فى خلقه وامره ويقرون بحكمة الله ــ التى يريدها ــ فى خلقــه وامره . ويقولون : كما قال الله فى القرآن حيث قال : (وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها) وقال : (فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات) ومثــل هــذا كثير فى الكتــاب والسنة . وجمهور المسلمين على ذلك يقولون : ان هذا فعل بهذا ، لا يقولون كما يقــول نفــاة الاسباب : فعل عندها لا بهــا ، وهــذه الامور مبسوطة فى غير هــذا الموضع .

والمقصود هنا : ان « مسألة التحسين والتقبيح » ليست ملازمة لمسألة القدر . وإذا عرف هذا فالناس فى « مسألة التحسين والتقبيح » على ثلاثة اقوال : طرفان ، ووسط .

(الطرف الواحد) : قول من يقول : بالحسن والقبح ، ويجعل ذلك صفات ذاتية للفعل لازمة له ، ولا يجعل الشرع إلا كاشفاً عن تلك الصفات ، لا سبباً لشيء من الصفات ، فهذا قول المعتزلة - وهو ضعيف - وإذا ضم الى ذلك قياس الرب على خلقه ، فقيل : ما حسن من المخلوق حسن من الخالق ، وما قبح من المخلوق قبح من الخالق ، ترتب على ذلك اقوال القدرية الباطلة ، وما ذكروه فى التجويز والتعديل ، وهم مشبهة الافعال ، يشبهون الخالق بالمخلوق والمخلوق بالخالق فى الافعال ، وهذا قول باطل ، كما ان تمثيل الخالق بالمخلوق والمخلوق بالخالق في الصفات باطل .

فاليهود وصفوا الله بالنقائص التى يتنزه عنها ، فشبهوه بالمخلوق : كما وصفوه بالفقر والبخل ، واللغوب . وهذا باطل ؛ فان الرب تعالى منزه عن كل نقص ، وموصوف بالكمال الذي لا نقص فيه ، وهو منزه في صفات الكمال ان يماثل شيء من صفاته شيئاً من صفات المخلوقين ، فليس له كفؤاً احد في شيء من صفاته . لا فى علمه ولا قدرته ولا إرادته ولا رضاه ولا غضبه ، ولا خلقه ولا استوائه ، ولا إتيانه ولا

نزوله ، ولا غير ذلك مما وصف بـه نفسه ، او وصفه به رسوله . بـل مذهب السلف انهم يصفون الله بما وصف به نفسه . وما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل . فلا ينفون عنه ما اثبته لنفسه من الصفات ، ولا يمثلون صفاته بصفات المخلوقين : فالنافي معطل . والمعطل يعبد عدماً . والمشبه ممثل ، والممثل يعبد صنماً .

ومذهب السلف إثبات بلا تمثيل وتنزيه بلا تعطيل . كما قال تعالى : (ليس كمثله شيء) وهذا رد على الممثلة . وقوله : (وهو السميع البصير) رد على المعطلة . وافعال الله لا تمثل بأفعال المخلوقين فان المخلوقين عبيده ، يظلمون ويأتون الفواحش ، وهو قادر على منعهم ولو لم يمنعهم ؛ لكان ذلك قبيحاً منه وكان مذموماً على ذلك . والرب تعالى لا يقبح ذلك منه ، لما له في ذلك من الحكمة البالغة والنعمة السابغة ، هذا على قول السلف والفقهاء والجمهور الذين يثبتون الحكمة في خلق الله وأمره .

ومن قال انه لا يخلق شيئاً بحكمة ، ولا يأمر بشيء بحكمة ؛ فانه لا يثبت إلا محض الارادة التي ترجح احد المتماثلين على الآخر بلا مرجح ، كما هو اصل ابن كلاب ، ومن تابعه ، وهو اصل قولي القدرية والجهمية .

وأما الطرف الآخر في « مسألة التحسين والتقبيح » فهو قول من يقول:

إن الأفعال لم تشتمل على صفات هي أحكام ، ولا على صفات هي علل للأحكام، بل القادر أمر بأحد المتماثلين دون الآخر ، لمحض الارادة ، لا لحكمة ولا لرعاية مصلحة فى الخلق والأمر .

ويقولون : انه يجوز أن يأمر الله بالشرك بالله ، وينهى عن عبادته وحده ، ويجوز ان يأمر بالظلم والفواحش ، وينهى عن البر والتقوى ، والأحكام التى توصف بها الأحكام مجرد نسبة واضافة فقط ، وليس المعروف فى نفسه معروفاً عندهم ، ولا المنكر فى نفسه منكراً عندهم ، بل اذا قال : (يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث) فحقيقة ذلك عندهم انه يأمرهم بما يأمرهم، وينهاهم عما ينهاهم ، ويحل لهم مايحل لهم ، ويحرم عليهم مايحرم عليهم ، بل الأمر والنهي والتحليل والتحريم ، ليس فى نفس الأمر عندهم لا معروف ولا منكر ولا طيب ولا خبيث ، الا ان يعبر عن ذلك بما يلائم الطباع ، وذلك لايقتضى عندهم كون الرب يحب المعروف ويبغض المنكر .

فهذا القول ولوازمه هو ايضاً قول ضعيف مخالف للكتاب والسنة ، ولاجماع السلف والفقهاء ، مع مخالفته ايضاً للمعقول الصريح ؛ فان الله نزه نفسه عن الفحشاء . فقال : (ان الله لا يأمر بالفحشاء) كما نزه نفسه عن التسوية بين الخير والشر فقال تعالى : (أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء : محياهم ومماتهم

ســاء ما يحكمون) وقال : (أفنجعل المسلمين كالمجرمين ؟ ما لكم كيف تحكمون ؟ !) وقال : (ام نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض ؟ ام نجعل المتقين كالفجار ؟!)

وعلى قول النفاة : لافرق فى التسوية بين هؤلاء وهؤلاء ، وبين تفضيل بعضهم على بعض ، ليس تنزيهه عن احدهما بأولى من تنزيهه عن الآخر ، وهذا خلاف المنصوص والمعقول . وقد قال الله تعالى : (الله اعلم حيث يجعل رسالته) وعندهم تعلق الارسال بالرسول كتعلق الخطاب بالأفعال لا يستلزم ثبوت صفة لا قبل التعلق ولا بعده ، والفقهاء وجمهور المسلمين يقولون : الله حرم المحرمات فحرمت ، واوجب الواجبات فوجبت ، فمعنا شيئان : إيجاب وتحريم ، وذلك كلام الله وخطابه ، والثاني وجوب وحرمة وذلك صفة للفعل . والله تعالى عليم حكيم ، علم بما تتضمنه الأحكام من المصالح ، فأمر ونهى لعلمه بما فى الأمر والنهي والمأمور والمحظور من مصالح العباد ومفاسدهم ، وهو أثبت حكم الفعل ، واما صفته فقد تكون ثابتة بدون الخطاب .

وقد ثبت بالخطاب والحكمة الحاصلة من الشرائع ثلاثة انواع ،

(أحدها) : ان يكون الفعل مشتملا على مصلحة او مفسدة ، ولو لم يرد الشرع بذلك ، كما يعلم ان العدل مشتمل على مصلحة العالم ، والظلم يشتمل

على فسادهم، فهذا النوع هو حسن وقبيح ، وقد يعلم بالعقل والشرع قبح ذلك لا انه اثبت للفعل صفة لم تكن : لكن لا يلزم من حصول هذا القبح ان يكون فاعله معاقباً في الآخرة ، إذا لم يرد شرع بذلك وهذا مما غلط فيه غلاة القائلين بالتحسين والتقبيح ؛ فانهم قالوا ؛ ان العباد يعاقبون على افعالهم القبيحة ، ولو لم يبعث اليهم رسولاً ، وهذا خلاف النص قال تعالى : (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً) وقال تعالى : (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) وقال تعالى : (وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في امها رسولاً ، يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكي القرى الا واهلها ظالمون) وقال تعالى : (كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير ؟! قالوا : بلى ، قد جاءنا نذير ، فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء ان انتم الا فى ضلال كبير . وقالوا لو كنا نسمع او نعقل ما كنا فى اصحاب السعير).

وفى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « ما احد احب اليه العذر من الله ، من اجل ذلك ارسل الرسل مبشرين ومنذرين » والنصوص الدالة على ان الله لايعذب الا بعد الرسالة كثيرة ، ترد على من قال من اهل التحسين والتقبيح : ان الخلق يعذبون فى الأرض بدون رسول ارسل اليهم .

(النوع الثاني) : ان الشارع اذا امر بشيء صار حسناً ، واذا نهى

عن شيء صار قبيحاً ، واكتسب الفعل صفة الحسن والقبح بخطاب الشارع.

و(النوع الثالث) : ان يأمر الشارع بشيء ليمتحن العبد ، هل يطيعه ام يعصيه ! ولا يكون المراد فعل المأمور به ، كما امر ابراهيم بذبح ابنه ، فلما اسلما وتله للجبين حصل المقصود ففداه بالذبح ، وكذلك حديث ابرص واقرع واعمى ، لما بعث الله اليهم من سألهم الصدقة ، فلما اجاب الأعمى قال الملك : امسك عليك مالك ، فانما ابتليتم ؛ فرضي عنك ، وسخط على صاحبيك.

فالحكمة منشؤها من نفس الأمر لا من نفس المأمور به ، وهذا النوع والذي قبله لم يفهمه المعتزلة ؛ وزعمت ان الحسن والقبح لا يكون الا لما هو متصف بذلك ، بدون امر الشارع ، والأشعرية ادعوا : ان جميع الشريعة من قسم الامتحان ، وان الافعال ليست لها صفة لا قبل الشرع ولا بالشرع ؛ واما الحكماء والجمهور فأثبتوا الاقسام الثلاثة ، وهو الصواب.

سئل شيخ الاسلام

تقي الدين أبو العباس بن تيمية رحمه الله تعالى

عن العبد : هل يقدر ان يفعل الطاعة اذا اراد ام لا ؟ واذا اراد ان يترك المعصية يكون قادراً على تركها ام لا ؟ واذا فعل الخير نسبه الى الله ، واذا فعل الشر نسبه الى نفسه ؟ .

فأجاب : الحمد لله : نعم ! إذا أراد العبد الطاعة التى اوجبها الله عليه ارادة جازمة كان قادراً عليها ، وكذلك اذا أراد ترك المعصية التى حرمت عليه ارادة جازمة كان قادراً على ذلك ، وهذا مما اتفق عليه المسلمون وسائر أهل الملل ، حتى أئمة الجبرية ، بل هذا معلوم بالاضطرار من دين الاسلام ، وانما ينازع فى ذلك بعض غلاة « الجبرية » الذين يقولون : ان الأمر الممتنع لذاته واقع فى الشريعة ، ويحتجون بأمره ابالهب : بأنه يؤمن بما يستلزم عدم ايمانه . وهذا القول خلاف ما اجمع عليه ائمة الاسلام : كالأئمة الاربعة وغيرهم ، وأئمة الحديث والتصوف وغيرهم ، وخلاف ما اجمع عليه أئمة الكلام من أهل النفي والاثبات .

فاما اجماع المعتزلة ونحوهم على ذلك فظاهر ، وكذلك أئمة المتكلمين المثبتة :

كابي محمد بن كلاب ، وابى العباس القلانسي ، وابى الحسن الأشعري ، والقاضي ابى بكر البقلانى، وابي بكر بن فورك ، وابي اسحق الاسفرائيني ، والاستاذ ابي المعالى الجويني ، وابى حامد الغزالى، وكذلك ابو عبد الله محمد بن كرام واصحابه : كابن الهيصم ، وسائر متكلمي اصحاب ابى حنيفة : كابى منصور الماتريدي . وغيره وامثال هؤلاء كلهم متفقون وقد حكى إجماع المسلمين على ذلك غير واحد: كابي الحسن بن الزاغونى ، وانما نازع فى ذلك بعضهم ، واتبعه ابو عبد الله الرازي .

واحتجاجهم بقصة ابى لهب حجة باطلة ؛ فان الله أمر ابالهب بالايمان قبل ان تنزل السورة ، فلما اصر وعاند استحق الوعيد ، كما استحق قوم نوح حين قيل له : (انه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن) وحين استحق الوعيد اخبر الله بالوعيد الذي يلحقه ، ولم يكن حينئذ مأموراً امراً يطلب به منه ذلك ، والشريعة طافحة بأن الافعال المؤمور بها مشروطة بالاستطاعة والقدرة ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لعمران ابن حصين : « صل قائما فان لم تستطع فقاعداً فان لم تستطع فعلى جنب » .

وقد اتفق المسلمون على ان المصلي اذا عجز عن بعض واجباتها : كالقيام اوالقراءة او الركوع او السجود او ستر العورة او استقبال القبلة او غير ذلك ، سقط عنه ماعجز عنه . وانما يجب عليه ما اذا اراد فعله ارادة جازمة امكنه فعله ، وكذلك الصيام اتفقوا على انه يسقط بالعجز عن مثل :

الشيخ الكبير والعجوز الكبيرة . الذين يعجزون عنه اداء وقضاء ، وانما تنازعوا هل على مثل ذلك الفدية بالاطعام ؟ فأوجبها الجمهور : كابى حنيفة والشافعي واحمد ولم يوجبها مالك . وكذلك الحج : فانهم اجمعوا على انه لا يجب على العاجز عنه وقد قال تعالى : (ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلاً) وقد تنازعوا : هل الاستطاعة مجرد وجود المال ؟ كما هو مذهب الشافعي واحمد ، او مجرد القدرة ولو بالبدن كما هومذهب مالك ؟ او لابد منهما كمذهب ابى حنيفة ؟ والأولون يوجبون على المغضوب ان يستنيب بماله ، بخلاف الآخرين .

بل مما ينبغي ان يعرف ان الاستطاعة الشرعية المشروطة فى الأمر والنهي لم يكتف الشارع فيها بمجرد المكنة ولو مع الضرر ، بل متى كان العبد قادراً على الفعل مع ضرر يلحقه جعل كالعاجز فى مواضع كثيرة من الشريعة : كالتطهر بالماء والصيام فى المرض ، والقيام فى الصلاة ، وغير ذلك تحقيقاً لقوله تعالى : (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) ولقوله تعالى : (ما جعل عليكم فى الدين من حرج) ولقوله تعالى : (ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج) وفى الصحيح عن انس « عن النبي صلى الله عليه وسلم ان الاعرابى لما بال فى المسجد قال : لا تزرموه — اي لاتقطعوا عليه بوله — فانما بعثتم ميسرين ، ولم تبعثوا معسرين » وكذلك في الصحيح « ان النبى صلى الله عليه وسلم قال : — لمعاذ وابى موسى حين بعثهما الى اليمن — يسرا ولا

تعسرا ، وبشرا ولا تنفرا ، وتطاوعا ولا تختلفا » وهذا وامثاله فى الشريعة اكثر من ان يحصر .

فمن قال ان الله امر العباد بما يعجزون عنه إذا ارادوه إرادة جازمة فقد كذب على الله ورسوله ، وهو من المفترين الذين قال الله فيهم : (إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين) قال ابو قلابة : هذا لكل مفتر من هذه الأمة إلى يوم القيامة .

لكن مع قوله ذلك فيجب ان تعلم انه لاحول ولاقوة إلا بالله ، وانه ماشاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وان الله خالق كل شيء فهو خالق العباد، وقدرتهم وارادتهم وأفعالهم ، فهو رب كل شيء ومليكه لا يكون شيء إلا بمشيئته ، واذنه وقضائه وقدره وقدرته، وفعله، وقد جاءت الارادة فى كتاب الله على نوعين :

(احدهما) : الارادة الدينية، كما قال تعالى : (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) (يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم ـــ إلى قوله تعالى ـــ والله يريد ان يتوب عليكم) وقال تعالى : (مايريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون) .

و (الثانى) : الارادة الكونية ، كما قال تعالى : (فمن يرد الله أن يهديه

يشرح صدره للاسلام ، ومن يرد ان يضله يجعل صدره ضيقاً حرجا كانما يصعد فى السماء) وقال تعالى: (ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل مايريد) وقال نوح : (ولا ينفعكم نصحي ان اردت انصح لكم ان كان الله يريد ان يغويكم) وقال : (انما امره إذا أراد شيئاً ان يقول له كن فيكون) وهذا التقسيم تقسيم شريف ، وهو ايضاً وارد فى كتاب الله فى الأذن والأمر ، والكلمات والتحريم والحكم والقضاء ، كما قد بيناه فى غير هذا الموضع ، وبمعرفته تندفع شبهات عظيمة .

ومن مواقع الشبهة ومثارات الغلط : تنازع الناس فى « القدرة » هل يجب ان تكون مقارنة للفعل ؟ او يجب ان تكون متقدمة عليه ؟ والتحقيق الذي عليه ائمة الفقهاء : ان الاستطاعة المشروطة في الأمر والنهي – وهي التى تقدم الكلام فيها – لايجب ان تقارن الفعل . فان الله إنما أوجب الحج على من استطاعه ، فمن لم يحج من هؤلاء كان عاصيا باتفاق المسلمين ، ولم يوجد فى حقه استطاعة مقارنة ، وكذلك سائر من عصى الله من المأمورين المنهيين ، وجد فى حقه الاستطاعة المشروطة فى الأمر والنهي ،

وأما المقارنة فانما توجد فى حق من فعل ، والفاعل لابد ان يريد الفعل إرادة جازمة وأن يكون قادراً عليه ، وإذا وجد ذلك في حقه وجب وجود الفعل . فمن قال : الاستطاعة هي المقارنة ، فهي مجموع مايجب من الفعل ويدخل في ذلك الارادة وغيرها وعلى هذا الاصطلاح يقال : اذا لم يرد الفعل فليس

بقادر عليه . وقد تبين ان مثل هذا النزاع لفظي ، فمن فسر عدم القدرة بذلك ظهر مقصوده . فاذا حقق الأمر وقيل : هل يكون العبد إذا اراد ما امر بـه إرادة جازمة عاجزاً عنه ، تبين الحق وظهر لـكل احد انه إذا اراد ما أمر به لم يكن عاجزاً ، بل قادراً عليه . وان ما كان عاجزاً عنه اذا أراده فان الله لم يـكلفه إياه ، فان الله لا يكلف نفساً الا وسعها : اي ماوسعته النفس.

ويجب ان يعلم العبد ان عمله من الحسنات هو بفضل الله ورحمتـه ومن نعمته ، كما قال اهل الجنة : (الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لو لا ان هدانا الله) وقال تعالى : (ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه فى قلوبـكم وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان اولئك هم الراشدون) وقال تعـالى : (افمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهـم من ذكر الله) وقال : (أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها) وقال تعالى : (وكذلك اوحينـا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ماالكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا) .

وكذلك إضافة السيئات الى نفسه هو الذي ينبغي ان يفعله مع علمه بأن الله خالق كل موجود: من الأعيان والصفات والحركات والسكنات . كما قال آدم: (ربنا ظلمنا انفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن مـن الخاسرين) وقـال موسى : (رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي) وقال الخليل : (والذي اطمع ان

يغفر لي خطيئتي يوم الدين) وقال لخاتم الرسل : (فاعلم أنه لا اله الا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات) وقد قال تعالى : — في حق من عذبهم — (وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين) (وما كان دعواهم اذ جاءهم بأسنا الا ان قالوا : انا كنا ظالمين) وأمثال هذا كثير في الكتاب والسنة .

وفي الحديث الصحيح الالهي الذي رواه مسلم وغيره عن ابي ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يروي عن ربه تعالى : «يا عبادي! اني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما ؛ فلا تظالموا ، يا عبادي ! انكم تخطئون بالليل والنهار وانا اغفر الذنوب جميعاً ولا ابالي ؛ فاستغفروني اغفر لكم ، يا عبادي ! كلكم ضال الا من هديته ؛ فاستهدوني اهدكم ، يا عبادي ! كلكم جائع الا من اطعمته ؛ فاستطعموني اطعمكم . يا عبادي ! كلكم عار الا من كسوته ؛ فاستكسوني اكسكم . يا عبادي ! لو ان اولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على انقى قلب رجل منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً . يا عبادي ! لو ان اولكم وآخركم وانسكم وجنكم اجتمعوا في صعيد واحد ، فسألوني فأعطيت كل انسان منهم مسألته ؛ لم ينقص ذلك من ملكي الا كما ينقص البحر اذ يغمس فيه المخيط غمسة واحدة . يا عبادي ! انما هي اعمالكم احصيها لكم ثم اوفيكم اياها ؛ فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن الا نفسه» .

فقد بين هذا الحديث ان من وجد خيراً بالعمل الصالح فليحمد الله ، فانه هو الذي انعم بذلك ، وان وجد غير ذلك : اما شراً له عقاب ، واما عبثاً

لا فائدة فيه ، فلا يلومن الا نفسه ، فانه هو الذي ظلم نفسه ، وكل حادث فبقدرة الله ومشيئته ، وكذلك في سيد الاستغفار الذي رواه البخاري وغيره عن شداد بن اوس عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « سيد الاستغفار ، ان يقول العبد : اللهم ! انت ربى لا اله الا انت خلقتني وانا عبدك . وانا على عهدك ووعدك ما استطعت ؛ اعوذ بك من شر ما صنعت ابوء لك بنعمتك علي وابوء بذنبي ؛ فاغفر لي فانه لا يغفر الذنوب الا انت ، من قالها اذا اصبح موقناً بها فمات من يومه دخل الجنة ؛ ومن قالها اذا امسى موقناً بها فمات من ليلته دخل الجنة » .

قوله «ابوء لك بنعمتك علي» يتناول نعمته عليه من الحسنات وغيرها وقوله و«ابوء بذنبي» اعتراف منه بذنبه . وهذه الطريقة هي طريقة المؤمنين . ومن عداهم ثلاثة اصناف : فان القسمة رباعية .

(قسم) يجعلون انفسهم هي الخالقة المحدثة للحسنات والسيئات ، وان نعمة الله الدينية على المؤمن والكافر سواء وانه لم يعط العبد الا قدرة واحدة تصلح للضدين وليس بيد الله هداية خص بها المؤمن ؛ او تطلب منه بقول العبد : (اهدنا الصراط المستقيم) وانه لا يقدر على هداية ضال ، ولا اضلال مهتد ؛ فهؤلاء القدرية المجوسية .

و(قسم) يسلبون العبد اختياره وقدرته ؛ ويجعلونه مجبوراً على حركاته

من جنس حركات الجمادات ؛ ويجعلون أفعاله الاختيارية والاضطرارية من نمط واحد حتى يقول أحدهم : ان جميع ما أمر الله به ورسوله فانما هو امر بما لا يقدر عليه ، ولا يطيقه ؛ فيسلبونه القدرة مطلقاً ؛ اذ لايثبتون له إلا قدرة واحدة مقارنة للفعل . ولا يجعلون للعاصى قدرة اصلا .

فهذه المقالات وامثالها من « مقالات الجبرية القدرية » الذين انكر قولهم — كما انكروا قول الأولين — أئمة الهدى : مثل عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي ، وسفيان بن سعيد الثوري ، ومحمد بن الوليد الزبيدي ، وعبد الرحمن بن مهدي واحمد بن محمد بن حنبل وغيرهم .

فان ضموا الى ذلك اقامة العذر للعصاة بالقدر ، وقالوا : انهم معذورون لذلك لايستحقون اللوم والعذاب ، او جعلوا عقوبتهم ظلماً ، فهؤلاء كفار ، كما ان من انكر علم الله القديم من غلاة القدرية فهو كافر .

وان جعلوا ثبوت القدر موجباً لسقوط الأمر والنهي والوعد والوعيد ، كفعل المباحية ، فهؤلاء اكفر من اليهود والنصارى من جنس المشركين ، الذين قالوا ؛ (لو شاء الله ما اشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا . قل : هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ ان تتبعون الا الظن وان انتم الا تخرصون ، قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين) فان هذا القول يستلزم طي بساط كل امر ونهي ،

وهذا مما يعلم بالأضطرار من العقل والدين انه يوجب الفساد في امر الدنيا والمعاد .

واما (القسم الرابع) : فهو شر الأقسام كما قال الشيخ ابو الفرج بن الجوزي . قال انت عند الطاعة قدري ، وانت عند المعصية جبري اي مذهب وافق هواك تمذهبت به — فهؤلاء شر اتباع الشيطان . وليس هو مذهباً لطائفة معروفة ، ولكن هو حال عامة المحلولين عن الامر والنهي ، ان فعل طاعة اخذ يضيفها الى نفسه ويعجب حتى يحبط عمله ، وان فعل معصية اخذ يعتذر بالقدر ويحتج بالقضاء ، وتلك حجة داحضة ، وعذر غير مقبول .

وتراه إذا اصابته مصيبة بفعل العباد أو غيرهم لا يستسلم للقدر ، وتراه إذا ظلم نفسه أو غيره احتج بالقدر ويقول : العبد مسكين لا قادر ولا معذور ويقول :

القاه في البحر مكتوفا وقال له ... إياك إياك أن تبتل بالماء

وان ظلمه غيره ظلما دون ذلك او توهم انه ظلمه احد ، سعى فى الانتقام من ذلك باضعاف ذلك ، ولا يعذر غيره بمثل ماعذر به نفسه من القدر ، وهما سواء فهذه الجمل يجب اعتقادها .

واما الكلام على الحقيقة الموجبة لاضافة الذنوب الى العبد مع عموم الخلق

وفي سرد وقوع هذه الشرور — فى القدر ، وانه مع ذلك لم يضف الى الله فى كتابه الاعلى احد وجوه ثلاثة :

اما على (طريق العموم) كقوله تعالى : (خالق كل شيء).

واما أن يضاف إلى السبب ، كقوله تعالى : (من شر ما خلق) .

واما ان يحذف الفاعل كقول الجن: (وانا لاندرى اشر اريد بمن فى الأرض ام أراد بهم ربهم رشداً؟!).

والكلام على ان اسماء الله الحسنى لابد ان تتضمن اضافة الخير ، والشر داخل فى مفعولاته، كقوله تعالى : (نبىء عبادي اني انا الغفور الرحيم وان عذابى هو العذاب الأليم) وقوله : (اعلموا ان الله شديد العقاب وان الله غفور رحيم) فتحرير هذه الحقائق الشريفة التى هي شرف الأولين والآخرين يحتاج الى بسط واطناب في غير هذا الجواب ، والله الموفق للصواب ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، ولا ملجأ منه إلا اليه ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

سئل شيخ الاسلام

بقية السلف الكرام ، العلامة الربانى ، والحجة النورانى ، أوحد عصره وفريد دهره ، حلية الطالبين ، ونخبة الراسخين ، تقى الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحرانى — رضي الله عنه واثابه الجنة بمنه وكرمه . فقيل : —

يا ايها الحبر الذي علمه	وفضله فى الناس مذكور
كيف اختيار العبد افعاله	والعبد فى الأفعال مجبور
لأنهم قد صرحوا : انه	على الارادات لمقسور
ولم يكن فاعل أفعاله	حقيقة . والحكم مشهور
ومن هنا لم يكن للفعل فى	ما يلحق الفاعل تأثير
(وما تشاءون) دليل له	فى صحة المحكي تقرير
و(كل شيء)، ثم لو سلمت، لم	يك للخالق تقدير
أو كان ، فاللازم من كونه	حدوثه والقول مهجور
ولا يقال : علم الله مايختار	فا لمختار مسطور

والجبر - ان صح - يكن مكرهاً وعندك المكره معذور
نعم ذلك الجبر ، كنت امرءاً له الى نحوك تشمير
سيقمن الشوق ولكنني تقعدنى عنك المقادير

فأجاب . الحمد لله رب العالمين .

اصل « هذه المسألة » : ان يعلم الانسان ان مذهب اهل السنة والجماعة فى هذا الباب وغيره مادل عليه الكتاب والسنة ، وكان عليه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، والذين اتبعوهم باحسان : وهو ان الله خالق كل شيء وربه ومليكه ، وقد دخل في ذلك جميع الاعيان القائمة بأنفسها وصفاتها القائمة بها ، من افعال العباد وغير افعال العباد .

وانه سبحانه ما شاء كان ومالم يشأ لم يكن ؛ فلا يكون في الوجود شيء إلا بمشيئته وقدرته ، لايمتنع عليه شيء شاءه ؛ بل هو قادر على كل شيء ، ولا يشاء شيئاً الا وهو قادر عليه .

وانه سبحانه يعلم ما كان وما يكون . وما لم يكن لو كان كيف يكون ، وقد دخل في ذلك افعال العباد وغيرها ، وقد قدر الله مقادير الخلائق قبل ان يخلقهم : قدر آجالهم وأرزاقهم وأعمالهم وكتب ذلك ، وكتب ما يصيرون اليه من سعادة وشقاوة ، فهم يؤمنون بخلقه لكل شيء ،

وقدرته على كل شيء ، ومشيئته لكل ما كان ، وعلمه بالأشياء قبل ان تكون ، وتقديره لها وكتابته إياها قبل ان تكون . وغلاة القدرية ينكرون علمه المتقدم ، وكتابته السابقة . ويزعمون انه امر ونهى ، وهو لايعلم من يطيعه ممن يعصيه ، بل الامر أنف : اي مستأنف .

وهذا القول اول ماحدث فى الاسلام بعد انقراض عصر الخلفاء الراشدين وبعد امارة معاوية بن ابى سفيان فى زمن الفتنة التى كانت بين ابن الزبير وبين بنى امية فى اواخر عصر عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عباس ، وغيرهما من الصحابة ، وكان اول من ظهر عنه ذلك بالبصرة معبد الجهني ، فلما بلغ الصحابة قول هؤلاء تبرءوا منهم ، وانكروا مقالتهم ، كما قال عبد الله بن عمر — لما اخبر عنهم — : اذا لقيت أولئك فأخبرهم : انى بريء منهم، وانهم برءاء مني ، وكذلك كلام ابن عباس وجابر بن عبد الله وواثلة بن الاسقع وغيرهم من الصحابة والتابعين لهم باحسان ، وسائر ائمة المسلمين ، فيهم كثير حتى قال فيهم الأئمة كمالك والشافعي واحمد بن حنبل وغيرهم : ان المنكرين لعلم الله المتقدم يكفرون .

ثم كثر خوض الناس فى القدر فصار جمهورهم يقر بالعلم المتقدم والكتاب السابق ، لكن ينكرون عموم مشيئة الله ، وعموم خلقه وقدرته ، ويظنون انه لامعنى لمشيئته الا امره ، فما شاءه فقد امر به ، ومالم يشأه لم يأمر به ، فلزمهم ان يقولوا : انه قد يشاء ما لا يكون ، ويكون مالا يشاء ، وانكروا

ان يكون الله تعالى خالقا لأفعال العباد ، او قادراً عليها . او ان يخص بعض عباده من النعم بما يقتضي إيمانهم به وطاعتهم له .

وزعموا ان نعمته ـ التى يمكن بها الايمان والعمل الصالح ـ على الكفار كابى لهب ، وابى جهل ، مثل نعمته بذلك على ابى بكر وعمر وعثمان وعلي ، بمنزلة رجل دفع لأولاده مالا فقسمه بينهم بالسوية ، لكن هؤلاء احدثوا اعمالهم الصالحة ، وهؤلاء احدثوا اعمالهم الفاسدة ، من غير نعمة خص الله بها المؤمنين وهذا قول باطل . وقد قال تعالى : (يمنون عليك ان اسلموا قل لا تمنوا على اسلامكم بل الله يمن عليكم ان هداكم للايمان ان كنتم صادقين) وقال تعالى : (واعلموا ان فيكم رسول الله لو يطيعكم فى كثير من الامر لعنتم ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه فى قلوبكم وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون) .

وقد أمرنا الله ان نقول فى صلاتنا : (اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) . وقال اهل الجنة : (الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله) . وقال الخليل صلوات الله وسلامه عليه : (ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا امة مسلمة لك) . وقال : (رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتى) . وقال تعالى : (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا) وقال : (وجعلناهم ائمة يدعون الى النار) ونصوص الكتاب والسنة وسلف الأمة المبينة لهذه

الأصول كثيرة : مع ما فى ذلك من الدلائل العقلية الكثيرة على ذلك .

فصـــــل

وسلف الأمة وائمتها متفقون ايضاً على ان العباد مأموررون بمــا امرهم الله به ، منهيون عما نهاهم الله عنه ، ومتفقون على الايمان بوعده ووعيــده الذي نطق به الكتاب والسنة ، ومتفقون انه لا حجة لأحد على الله فى واجب تركه ولا محرم فعله ، بل لله الحجة البالغة على عبــاده ، ومن احتـج بالقــدر على ترك مأمور ، او فعل محظور او دفع ما جاءت به النصوص فى الوعد والوعيـد فهو اعظم ضلالاً وافتراء على الله ومخالفـة لدين الله من اولئك القدرية ، فان اولئك مشبهون بالمجوس ، وقد جاءت الآثار فيهم انهم مجوس هذه الأمة ، كما روي ذلك عن ابن عمر وغيره من السلف؛ وقد رويت في ذلك احاديث مرفوعة الى النبي صلى الله عليه وسلم منها ماروواه ابو داود والترمذي ، ولكن طائفـة من ائمة الحديث طعنوا فى صحة الاحاديث المرفوعة فى ذلك ، وهذا مبسوط فى موضعه .

والمقصود هنا ان القدرية النــافية يشبهون المجوس فى كونهم اثبتوا غير الله ، يحدث اشياء من الشر بدون مشيئته وقدرته وخلقه .

واما المحتجون على القدر باسقاط الامر والنهى والوعد والوعيد فهؤلاء يشبهون المشركين الذين قال الله فيهم : (وقال الذين اشركوا لو شاء الله ما اشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندهم من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون إلا الظن وان انتم الا تخرصون) وقال تعالى : (وقال الذين اشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباءنا ولا حرمنا من دونه من شيء كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل الا البلاغ المبين) وقال تعالى : (واذا قيل لهم انفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا انطعم من لو يشاء الله اطعمه ان انتم الا فى ضلال مبين) وقال تعالى : (وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم إن هم الا يخرصون)

فهؤلاء المحتجون بالقدر على سقوط الأمر والنهي من جنس المشركين المكذبين للرسل ، وهم اسوأ حالاً من المجوس وهؤلاء حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد .

ومن هؤلاء من يظن ان آدم احتج على موسى بالقدر على الذنب ، وان ذلك جائز لخاصة الاولياء المشاهدين للقدر ، وهذا ضلال عظيم ؛ فان موسى انما لام آدم على المعصية التى لحقت الذرية بسبب اكله من الشجرة ، فقال : «لماذا اخرجتنا ونفسك من الجنة» ؟ والعبد مأمور عند المصائب ان يرجع للقدر فان سعادة العبد ان يفعل المأمور ويترك المحظور ويسلم للمقدور،قال الله تعالى:

(ما أصاب من مصيبة الا باذن الله ، ومن يؤمن بالله يهد قلبه) قال ابن مسعود : هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم انها من عند الله فيرضى ويسلم .

فالسعيد يستغفر من المعائب ويصبر على المصائب ، كما قال تعالى : (فاصبر ان وعد الله حق . واستغفر لذنبك) والشقي يجزع عند المصائب ويحتج بالقدر على المعائب ؛ وإلا فآدم صلى الله عليه وسلم قد تاب من الذنب ، وقد اجتباه ربه وهداه ، وموسى اجل قدراً من ان يلوم احداً على ذنب قد تاب منه وغفر الله له ، فضلا عن آدم وهو ايضاً قد تاب مما فعل حيث قال : (رب اني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له) وقال : (إنا هدنا اليك) وقال : (انت ولينا فاغفر لنا وارحمنا) وموسى وآدم اعلم بالله من ان يظن واحد منهما ان القدر عذر لمن عصى الله ، وقد علما ما حل بابليس وغير إبليس ، وآدم نفسه قد اخرج من الجنة وطفق هو وامرأته يخصفان عليهما من ورق الجنة، وقدعاقب الله قوم نوح وهود وصالح وغيرهم من الأمم وقد شرع الله عقوبة المعتدين واعدجهنم للكافرين ، فكيف يكون القدر عذراً للذنب؟!.

وهؤلاء لا يحتجون بالقدر الا اذا كانوا متبعين لأهوائهم بغير علم ، ولا يطردون حجتهم ، فان القدر لو كان عذراً للخلق للزم ان لا يلام احد ولا يذم ولا يعاقب لا فى الدنيا والآخرة ، ولا يقتص من ظالم اصلا ، بل يتمكن الناس ان يفعلوا ما يشتهون مطلقاً ، ومعلوم ان هذا لايتصور ان يقوم عليه مصلحة احد لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، بل هو موجب الفساد العام وصاحب

هـذا لا يكون إلا ظـالمـاً متناقضـاً ، فـاذا آذاه غـيره او ظلمه طلب معاقبته وجزاه ولم يعذره بالقدر . وإذا كان هو الظالم احتج لنفسه بالقدر ، فلا يحتج احد بالقدر الا للتباع هواه بغير علم ، ولا يكون الا مبطلا لا حق معه ، كما احتج به المشركون فقال تعالى : (قل هل عنـدكم من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون الا الظن وان انتم الا تخرصون) وقال : (كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل الا البلاغ المبين)

ولهـذا كان هؤلاء المشركون المحتجون بالقدر اذا عاداهم احـد قابلوه وقاتلوه وعاقبوه ولم يقبلوا حجته اذا قال لو شاء الله ما عاديتكم ، بل هم دائما يعيبون من ظلم واعتدى ولا يقبلون احتجاجه بالقدر ، فلما جاءهم الحق من ربهم اخذوا يدافعون ذلك بالقدر . فصاروا يحتجون على دفع امر الله ونهيه بمـا لا يجوزون ان يحتج به عليهم فى دفع امرهم ونهيهم ، بل ولا يجوز احد من العقلاء ان يحتج به عليه فى دفع حقه ، فعـارضوا ربهم ورسل ربهم بمـا لا يجوزون ان يعارض به احد من الناس، ولا رسل احد من الناس، فكان امر المخلوق ونهيه وحقه اعظم على قولهم من امر الله ونهيه وحقه على عباد الله وكان امر الله ونهيه وحقه على عباده أخف حرمة عندهم من امر المخلوق ونهيه وحقه على غيره: فان حق الله على عباده ان يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ؛ كما ثبت فى الصحيحين عن معاذ بن جبل قال : « كنت رديف النبي صـلى الله عليـه وسلم على حمـار فقـال : يامعاذ ! اتدري ما حق الله على عباده ؟ قلت الله ورسوله أعلم ، قـال حقـه

عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، اتدري ماحق العباد على الله اذا فعلوا ذلك ؟ قلت : الله ورسوله اعلم ، قال حقهم عليه ان لايعذبهم» .

فكان هؤلاء المشركون من أعظم الناس جهلاً وعداوة لله ورسوله ، فاحتجوا على اسقاط حقه وأمره ونهيه بما لا يجوزون لا هم ولا احد من العقلاء ان يحتج به على اسقاط حق مخلوق ولا امره ولا نهيه .

وهذا كما جعلوا لله شركاء وبنات وهم لا يرضى احدهم ان يكون مملوكه شريكه ولا يرضى البنات لنفسه . قال تعالى : (ويجعلون لله ما يكرهون وتصف ألسنتهم الكذب ان لهم الحسنى لا جرم ان لهم النار وانهم مفرطون) وقال تعالى : (واذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم) وقال تعالى : (ضرب لكم مثلاً من انفسكم هل لكم مما ملكت ايمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم انفسكم) : اي كخيفة بعضكم بعضا .

وقوله تعالى : (لولا اذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً) وقوله : (فتوبوا الى بارئكم فاقتلوا انفسكم) وقوله : (ندع ابناءنا وابناءكم ونساءنا ونساءكم وانفسنا وأنفسكم) فالمكذبون للرسل دائماً حجتهم داحضة متناقضة فهم فى قول مختلف يؤفك عنه من أفك . قال الله تعالى : (ولا يأتونك بمثل

الاجئناك بالحق واحسن تفسيرا) وقال تعالى : (وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين وكفى بربك هادياً ونصيراً) وقال تعالى : (وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء ان ربك حكيم عليم) فحجة المشركين في شركهم بالله وجعلهم له ولدا ، وفي دفع امره ونهيه بالقدر (داحضة) . وقد بسط الكلام على هذه الأمور وما يناسبها في غير هذا الموضع .

وبين ان قول الفلاسفة — القائلين بقدم العالم وأنه صادر عن موجب بالذات متولد عن العقول والنفوس الذين يعبدون الكواكب العلوية ويصنعون لها التماثيل السفلية: كارسطو واتباعه — اعظم كفراً وضلالاً من مشركي العرب الذين كانوا يقرون بأن الله خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة ايام ، بمشيئته وقدرته ، ولكن خرقوا له بنين وبنات بغير علم واشركوا به ما لم ينزل به سلطاناً .

وكذلك المباحية الذين يسقطون الأمر والنهي مطلقاً ويحتجون بالقضاء والقدر اسوأ حالاً من اليهود والنصارى ومشركي العرب ؛ فان هؤلاء مع كفرهم يقرون بنوع من الأمر والنهي والوعد والوعيد . ولكن كان لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله . بخلاف المباحية المسقطة للشرائع مطلقاً ، فانما يرضون بما تهواه انفسهم ويغضبون لما تهواه انفسهم . لا يرضون لله ولا يغضبون لله ولا يحبون لله ولا يغضبون لله ولا يأمرون بما امر الله به ولا

ينهون عما نهى عنه ؛ الا اذا كان لهم في ذلك هوى ، فيفعلونه لأجل هواهم لا عبادة لمولاهم .

ولهذا لا ينكرون ما وقع فى الوجود من الكفر والفسوق والعصيان الا اذا خالف اغراضهم ، فينكرونه إنكاراً طبيعياً شيطانياً لاانكاراً شرعياً رحمانياً؛ ولهذا تقترن بهم الشياطين اخوانهم فيمدونهم في الغي ثم لا يقصرون ، وقد تتمثل لهم الشياطين وتخاطبهم وتعينهم على بعض اهوائهم ؛ كما كانت الشياطين تفعل بالمشركين عباد الأصنام . وهؤلاء يكثرون فى الطوائف الخارجين عما بعث الله به رسوله من الكتاب والسنة الذين يسلكون طرقاً فى العبادات والاعتقادات مبتدعة فى الدين ولا يتحرون فى عباداتهم واعتقاداتهم موافقة الرسول والاعتصام بالكتاب والسنة ، فتكثر فيهم الأهواء والشبهات وتغويهم الشياطين وتصير فيهم شبهة من المشركين بحسب بعدهم عن الرسول .

وكما يجب انكار قول القدرية المضاهين للمجوس ، فانكار قول هؤلاء اولى ، والرد عليهم احرى ، وهؤلاء لم يكونوا موجودين فى عصر الصحابة والتابعين لهم باحسان ؛ فان البدع انما يظهر منها اولا فأولا الأخف فالأخف كما حدث فى آخر عصر الخلفاء الراشدين بدعة الخوارج والشيعة ، ثم فى آخر عصر الصحابة بدعة المرجئة والقدرية ، ثم فى آخر عصر التابعين بدعة الجهمية معطلة الصفات واما هؤلاء المباحية المسقطون للأمر والنهي محتجين على ذلك بالقدر فهم شر من جميع هذه الطوائف وانما حدثوا بعد هؤلاء كلهم .

فصـــــل

ومما اتفق عليه سلف الأمة وائمتها ، مع ايمانهم بالقضاء والقـدر وان الله خالق كل شيء وانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وانه يضل من يشاء ويهدي من يشاء أن العباد لهم مشيئة وقدرة يفعلون بمشيئتهم وقدرتهـم ما اقدرهم الله عليه ، مع قولهم ان العباد لا يشاؤون الا ان يشاء الله . كما قال الله تعالى : (كلا انها تذكرة فمن شاء ذكره وما يذكرون الا ان يشاء الله) الآيـة . وقال تعـالى : (ان هذه تذكرة فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلاً وما تشاؤون الا ان يشاء الله ان الله كان عليماً حكيماً) وقال : (ان هو الا ذكر للعالمـين لمن شـاء منكم ان يستقيـم وما تشاؤون الا ان يشـاء الله رب العالمين) .

والقرآن قد اخبر بأن العباد يؤمنون ويكفرون ويفعـلون ويعمـلون ويكسبون ويطيعون ويعصون ويقيمـون الصـلاة ويؤتون الزكاة ويحجـون ويعتمرون ويقتلون ويزنون ويسرقون ويصدقون ويكذبون ويأكلون ويشربون ويقاتلون ويحاربون ، فلم يكن من السلف والأئمة من يقول : ان العبد ليس بفاعل ولا مختار ، ولا مريد ولا قادر . ولا قال احدمنهم : انه فاعل

مجازاً بل من تكلم منهم بلفظ الحقيقة والمجاز متفقون على ان العبد فاعل حقيقة والله تعالى خالق ذاته وصفاته وافعاله .

واول من ظهر عنه إنكار ذلك هو الجهم بن صفوان واتباعه ، فحكي عنهم انهم قالوا : ان العبد مجبور وانه لا فعل له اصلاً وليس بقادر اصلاً ، وكان الجهم غالياً فى تعطيل الصفات ، فكان ينفي ان يسمى الله تعالى باسم يسمى به العبد ، فلا يسمى شيئاً ولا حيا ولا عالماً ولا سميعا ولا بصيراً . الا على وجه المجاز . وحكي عنه انه كان يسمى الله تعالى قادراً ؛ لأن العبد عنده ليس بقادر ، فلا تشبيه بهذا الاسم على قوله .

وكان هو واتباعه ينكرون ان يكون لله حكمة فى خلقه وامره ، وان يكون له رحمة ، ويقولون : انما فعل بمحض مشيئة ، لا رحمة معها ، وحكي عنه انه كان ينكر ان يكون الله ارحم الراحمين ، وانه كان يخرج الى الجذمى فينظر اليهم ويقول : ارحم الراحمين يفعل مثل هذا بهؤلاء ؟! وكان يقول: العباد مجبورون على افعالهم ليس لهم فعل ولا اختيار .

وكان ظهور جهم ومقالته فى تعطيل الصفات ، وفى الجبر والارجاء في اواخر دولة بني امية بعد حدوث القدرية والمعتزلة وغيرهم . فان القدرية حدثوا قبل ذلك فى اواخر عصر الصحابة ، فلما حدثت مقالته المقابلة لمقالة القدرية انكرها السلف والائمة كما انكروا قول القدرية من المعتزلة وغيرهم ، وبدعوا الطائفتين ،

حتى فى لفظ « الجبر » انكروا على من قال: جبر ، وعلى من قال : لم يجبر .

والآثار بذلك معروفة عن الاوزاعي ، وسفيان الثوري وعبد الرحمن بن مهدي واحمد بن حنبل ، وغيرهم من سلف الامة وائمتها ؛ كما ذكر طرفا من ذلك ابو بكر الخلال فى « كتاب السنة » هو وغيره ممن يجمع اقوال السلف . وقال الاوزاعي والزبيدي وغيرهما ليس فى الكتاب والسنة لفظ جبر ، وانما فى السنة لفظ جبل كما فى الصحيح ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : لأشج عبد القيس لما قدم عليه وفد عبد القيس من البحرين فقالوا : يا رسول الله ! بيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر وإنا لا نصل اليك الا فى شهر حرام ، فمرنا بأمر فصل نعمل به ، ونأمر به من وراءنا . فقال : « آمركم بالايمان بالله . اتدرون ما الايمان ؟ شهادة ان لا اله الا الله ، وان محمداً رسول الله ، واقام الصلاة وايتاء الزكاة . وان تؤدوا خمس ماغنمتم » . ونهاهم عن الانتباذ فى الاوعية التى يسرع إليها السكر . حتى قد يشرب الرجل ولا يدري انه شرب مسكراً ؛ بخلاف الظروف التى توكأفانها إذا اشتد الشراب انشقت ، ونهي عن الدباء وهو القرع والحنتم وهو ما يصنع من المدر كالجرار والمزفت ــ وهي الظروف المزفتة ــ والنقير وهو الخشب المنقور ثم قد قيل ان النبي صلى الله عليه وسلم أباح ذلك بعد هذا النهي .

ولهذا تنازع العلماء فى هذا النهي هل هو منسوخ أم لا ؟ على قولين

مشهورين للعلماء ، هما روايتان عند أحمد ، والقول بالنسخ مذهب ابى حنيفة والشافعي ، والقول بأن هذا كان لم ينسخ مذهب مالك ؛ لكن مالك لا ينهي إلا عن صنفين فانه ثبت فى صحيح البخاري أنه حرم ذينك الصنفين ، وأباح الآخرين بعد النهي .

وأما مسلم فروى فى صحيحه النسخ فى الجميع ، فلهذا اختلف قول أحمد لان الاحاديث بالنهي متواترة، وحديث النسخ ليس مثلها ؛ فلهذا صار للناس فيها ثلاثة أقوال ، وهؤلاء وفد عبد القيس كانوا بالبحرين أسلموا طوعاً . كما اسلم اهل المدينة ، وأول جمعة جمعت فى الاسلام فى قرية عندهم من قرى البحرين .

والمقصود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأشج عبد القيس » : إن فيك لخلقين يحبهما الله : الحلم والأناءة . فقال : أخلقين تخلقت بهما ؟ ام خلقين جبلت عليهما ؟ فقال : بل خلقين جبلت عليهما . فقال : الحمد لله الذي جبلنى على ما يحب » فقال الاوزاعي والزبيدي وغيرهما من السلف لفظ « الجبل » جاءت به السنة ، فيقال جبل الله فلاناً على كذا ؛ وأما لفظ « الجبر » فلم يرد ؛ وأنكر الأوزاعي والزبيدي والثوري وأحمد بن حنبل وغيرهم لفظ « الجبر » فى النفي والاثبات .

وذلك لأن لفظ « الجبر » مجمل، فانه يقال جبر الأب ابنته على النكاح ، وجبر

الحاكم الرجل على بيع ماله لوفاء دينه، ومعنى ذلك اكرهه . ليس معناه انه جعله مريداً لذلك مختاراً محباً له راضياً به . قالوا : ومن قال : إن الله تعالى جبر العباد بهذا المعنى فهو مبطل ، فان الله اعلى واجل قدراً من ان يجبر احداً، وانما يجبر غيره العاجز عن ان يجعله مريداً للفعل مختاراً له محباًله راضياً به والله سبحانه قادر على ذلك ، فهو الذي جعل المريد للفعل المحب له الراضي به مريداً له محباً له راضياً به.فكيف يقال اجبره واكرهه كما يجبر المخلوق المخلوق، مثل ما يجبر السلطان والحاكم والأب وغيرهم من يجبرونه إما بحق واما بباطل واجبارهم هو اكراههم لغيرهم على الفعل، والاكراه قد يكون إكراها بحق وقد يكون اكراها بباطل .

(فالأول) : كاكراه من امتنع من الواجبات على فعلها ، مثل إكراه الكافر الحربي على الاسلام ، او اداء الجزية عن يد وهم صاغرون ، واكراه المرتد على العود الى الأسلام ، واكراه من اسلم على اقام الصلاة ، وايتاء الزكاة وصوم رمضان ، وحج البيت ، وعلى قضاء الديون التى يقدر على قضائها ، وعلى أداء الامانة التى يقدر على أدائها ، واعطاء النفقة الواجبة عليه التى يقدر على اعطائها.

واما الاكراه بغير حق : فمثل اكراه الانسان على الكفر والمعاصي ، وهذا الاجبار الذي هو الاكراه يفعله العباد بعضهم مع بعض ، لأنهم لا يقدرون على احداث الارادة والاختيار فى قلوبهم وعلى جعلهم فاعلين

لافعالهم ، والله تعالى قادر على احداث ارادة للعبد ولاختياره ، وجعله فاعلا بقدرته ومشيئته . فهو اعلا وأقدر من ان يجبر غيره ويكرهه على أمر شاءه منه ؛ بل إذا شاء جعله فاعلا له بمشيئته ، كما انه قادر على ان يجعله فاعلا للشيء مع كراهته له فيكون مريدا له حتى يفعله مع بغضه له كما قد يشرب المريض الدواء مع كراهته له ، قال الله تعالى :(ولله يسجد من فى السموات والارض طوعا وكرها) وقال : (وله أسلم من فى السموات والارض طوعا وكرها) .

فكل ما يقع من العباد بارادتهم ومشيئتهم فهو الذي جعلهم فاعلين له بمشيئتهم ، سواء كانوا مع ذلك فعلوه طوعا ، او كانوا كارهين له فعلوه كرها وهو سبحانه لا يكرههم على ما لا يريدوه ، كما يكره المخلوق المخلوق حيث يكرهه على امر وان لم يرده. وليس هو قادراً أن يجعله مريداً له فاعلا له لا مع الكراهة ، ولا مع عدمها ؛ فلهذا يقال للعبد : إنه جبر غيره على الفعل ، والله اعلى واجل واقدر من ان يقال بأنه جبر بهذا المعنى .

وقد يستعمل لفظ « الجبر » فى أعم من ذلك بحيث يتناول كل من قهر غيره وقدر عليه فجعله فاعلا لما يشاء منه ، وإن كان هو المحدث لارادته وقدرته عليه .

قال محمد بن كعب القرظي فى اسم الله « الجبار » قال : هو الذي جبر

العباد على ما اراد ، وكذلك ينقل عن امير المؤمنين على بن ابي طالب انه قال فى الدعاء المأثور : اللهم داحي المدحوات ، وباري المسموكات ، جبار القلوب على فطرتها ، شقيها وسعيدها ، والجبر من الله بهـذا الاعتبار معنـاه القهر والقدرة ، وانه يقدر ان يفعل ما يشاء ، ويجبر على ذلك ويقهرهم عليه ، فليس كالمخلوق العاجز الذي يشاء ما لا يكون ، ويكون ما لا يشاء ، ومـن جبره وقهره وقدرته ان يجعل العباد مريدين لما يشاء منهم ، اما مختارين له طوعا واما مريدين له مع كراهتهم له ويجعلهم فاعلين له ، وهذا الجـبر الذي هو قهره بقدرته لا يقدر عليه غـيره ، وليس هو كاجبار غيره واكراهـه من وجوه .

(منها) ان ما سواه عاجز لا يقدر ان يجعل العباد مريدين لـما يشاؤه ولا فاعلين له .

ومنها : ان غيره قد يجبر الغير ويكرهه اكراها يكون ظالـما به ، والله تعالى عادل ، لا يظلم مثقال ذرة .

ومنها : ان غيره قد يكون جاهلا او سفيها لا يعلم ما يفعله وما يجـبر عليه ، ولا يقصد حكمة تكون غير ذلك ، والله عليم حكيم ، ما خلقه وامر به له فيه حكمة بالغة صادرة من علمه وحكمته وقدرته .

فصـــــل

وأما السلف والائمة كما انهم متفقون على الايمان بالقدر وانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وانه خالق كل شيء من افعال العباد وغيرها وهم متفقون على اثبات امره ونهيه ووعده ووعيده وانه لا حجة لأحد على الله فى ترك مأمور ولا فعل محظور . فهم ايضاً متفقون على ان الله حكيم رحيم وانه احكم الحاكمين وارحم الراحمين .

وقد ثبت فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « الله ارحم بعباده من الوالدة بولدها » . وقد اخبر عن حكمته فى خلقه وامره بما اخبر به فى كتابه وسنة رسوله .

والجهم بن صفوان ومن اتبعه ينكرون حكمته ورحمته ، ويقولون : ليس فى افعاله وأوامره لام كي : لا يفعل شيئاً لشيء ، ولا يأمر بشيء لشيء .

وكثير من المتأخرين من المثبتين للقدر من اهل الكلام ومن وافقهم سلكوا مسلك جهم فى كثير من مسائل هذا الباب ، وان خالفوه فى بعض

ذلك ، إما نزاعا لفظيا ، وإما نزاعا لايعقل ، وإما نزاعا معنويا ، وذلك كقول من زعم : ان العبد كاسب ليس بفاعل حقيقة ، وجعل الكسب مقدوراً للعبد ، واثبت له قدرة لا تأثير لهـا فى المقدور ، ولهذا قال جمهور العقلاء : إن هذا كلام متناقض غير معقول ، فان القدرة اذا لم يكن لها تأثير أصلا فى الفعل كان وجودها كعدمها ،ولم تكن قدرة؛ بل كان اقترانها بالفعل كاقتران سائر صفات الفاعل فى طوله وعرضه ولونه .

ولما قيل لهؤلاء : ما الكسب ؟ قالوا : ما وجـد بالفاعل وله عليه قدرة محدثة ، أو مايوجد فى محل القدرة المحدثة ، فاذا قيل لهم : ما القدرة ؟ قالوا : ما يحصل به الفرق بين حركة المرتعش وحركة المختار ؛ فقال لهـم جمهور العقلاء : حركة المختار حاصلة بارادته دون حركة المرتعش ، وهي حاصلة بقدرته ايضا ، فان جعلتم الفرق مجرد الارادة ، فالانسان قـد يريد فعل غيره ولا يكون فاعلا له ، وإن اردتم انـه قادر عليه فقد عاد الامر إلى معنى القدرة ، والمعقول من القدرة معنى به يفعل الفاعل ، ولا تثبت قدرة لغير فاعل ، ولا قدرة يكون وجودها وعدمها بالنسبة إلى الفاعل سواء .

وهؤلاء المتبعون لجهم يقولون : ان العبد ليس بفاعل حقيقة ؛ وإنما هو كاسب حقيقية ، ويثبتون مع الكسب قدرة لا تأثير لها فى الكسب ، بل وجودها وعدمها بالنسبة اليه سواء ، ولكن قرنت به من غير تأثير فيه وزعموا ان كل مافى الوجود من القوى والطبائع والأسباب العلوية والسفلية

كقدرة العبد لا تأثيرلشيء منها فيمااقترنت به من الحوادث والأفعال والمسببات بل قرن الخالق هذا بهذا لا لسبب ولا لحكمة اصلا .

وقالوا : ان الطاعات والمعاصي مع الثواب والعقاب كذلك ، ليس فى الطاعة معنى يناسب الثواب ، ولا فى المعصية معنى يناسب العقاب ، ولا كان في الأمر والنهي حكمة لأجلها امر ونهى ؛ ولا أراد بارسال الرسل رحمة العباد ومصلحتهم ، بل اراد ان ينعم طائفة ويعذب طائفة لا لحكمة ، والسبب هو جعل الأمر والنهي والطاعة والمعصية علامة على ذلك لا لسبب ولا لحكمة ، وانه يجوز ان يأمر بكل شيء حتى بالشرك وتكذيب الرسل والظلم والفواحش ، وينهى عن كل شيء حتى التوحيد والايمان بالرسل وطاعتهم .

وكثير من هؤلاء كابي الحسن واتباعه ومن وافقهم من متأخري اصحاب مالك والشافعي وأحمد مثل ابن عقيل و ابن الجوزي وامثالهما يقولون : إن الخلق هو المخلوق ، والفعل هو المفعول ، وقد جعلوا افعال العباد فعلا لله ، والفعل عندهم هو المفعول ، فامتنع مع هذا ان يكون فعلا للعبد ؛ لئلا يكون فعل واحد له فاعلان .

واما الجمهور فيقولون : انها مخلوقة لله مفعولة له ، وهي فعل للعبد قائمة به ، وليست فعلاً لله قائماً به ، بل مفعوله غير فعله ، والرب

تعالى لايوصف بما هو مخلوق له ، وإنما يوصف بما هو قائم به ، فلم يلزم هؤلاء ان يكون الرب ظالماً ؛ واما أولئك فاذا قالوا انه يوصف بالمخلوق المنفصل عنه ، فيسمى عادلا وخالقا لوجود مخلوق منفصل عنه خلقه ، فأنهم ألزموهم ان يكون ظالما لخلقه ظلماً منفصلا عنه اذ كانوا لا يفرقون فيما انفصل عنه بين ما يكون صفة لغيره وفعلا له ، وبين مالا يكون ، اذ الجميع عندهم نسبته واحدة إلى قدرته ومشيئته وخلقه .

وهؤلاء اطلقوا القول بتكليف مالا يطاق ؛ وليس فى السلف والأئمة من اطلق القول بتكليف مالا يطاق ، كما انه ليس فيهم من اطلق القول بالجبر ، وإطلاق القول بانه يجبر العباد كاطلاق القول بأنه يكلفهم مالا يطيقون ، هذا سلب قدرتهم على ما أمروا به ، وذلك سلب كونهم فاعلين قادرين .

ولهذا كان المقتصدون من هؤلاء : كالقاضي ابي بكر بن الباقلاني واكثر اصحاب ابي الحسن ، وكالجمهور من اصحاب مالك ، والشافعي وأحمد بن حنبل ، كالقاضي ابى يعلى ، وأمثاله يفصلون في القول بتكليف مالا يطاق ، كما تقدم القول فى تفصيل الجبر ، فيقولون : تكليف مالا يطاق لعجز العبد عنه لايجوز ، واما مايقال انه لايطاق للاشتغال بضده فيجوز تكليفه ؛ وهذا لان الانسان لايمكنه فى حال واحدة ان يكون قائما قاعداً ، ففي حال القيام لايقدر ان يفعل معه القعود ، ويجوز ان يؤمر حال القعود بالقيام ،

وهذا متفق على جوازه بين المسلمين ، بل عامة الامر والنهى هو من هـذا النوع ، لكن هل يسمى هذا تكليف مالا يطاق ؟ فيه نزاع .

قيل : ان العبد لايكون قادراً إلا حـين الفعل ، وان القدرة لاتكون إلا مع الفعل . كما يقوله ابو الحسن الاشعري وكثير من نظار المثبتة للقدر ، فعلى قول هؤلاء كل مكلف فهو حين التكليف قـد كلف مالا يطيقه حينئذ وإن كان قد يطيقه حين الفعل بقدرة يخلقهـا الله له وقت الفعل ولكن هذا لا يطيقه لاشتغاله بضده وعدم القدرة المقارنة للفعل ، لا لكونه عاجزاً عنه . واما العاجز عن الفعل كالزمن العاجز عن المشى ، والاعمى العاجز عن النظر ونحو ذلك ، فهؤلاء لم يكلفوا بما يعجزون عنه ، ومثل هذا التكليف لم يكن واقعاً فى الشريعة باتفاق طوائف المسلمين ، الاشرذمة قليلة من المتأخرين ادعوا وقوع مثل هذا التكليف في الشريعة ، ونقلوا ذلك عن الاشعري واكثر اصحابه ، وهو خطأ عليهم .

واما جواز هذا التكليف عقلا فأكثر الامـة نفت جوازه مطلقاً ، وجوزه عقلا طائفة من المثبتة للقدر من اصحاب ابى الحسن الاشعري ، ومن وافقهـم من اصحاب مالـك والشافعى واحمـد ، كابن عقيـل وابن الجوزي وغيرهما .

و « طائفـة ثالثـة » فرقت فى الجواز العقلي : بين الممكن لذاتـه الذي

يتصور وجوده فى الخارج : كالطيران ، وبين الممتنع عقلا كالجمع بين النقيضين .

والذين زعموا وقوع التكليف بالممتنع لذاته ـ كالرازي وغيره ـ احتجوا بان الله كلف أبا لهب بالايمان مع علمه بأنه لايؤمن ، واخباره بانه لايؤمن . فكلفه بالجمع بين النقيضين بأن يفعل الشيء ، وبأن يصدق أنه لا يكون مصدقاً بذلك ؛ وهو صادق فى تصديقه إذا لم يكن ، واحتجوا بأنه كلف خلاف المعلوم ، وخلاف المعلوم محال ، فيكون حقيقة التكليف أنه يجعل علم الله جهلا ؛ وهذا ممتنع لذاته .

وهؤلاء جعلوا لفظ مالا يطاق لفظاً عاماً يدخل فيه كل فعل ، لكون القدرة عندهم لا تكون إلا مع الفعل ؛ ويدخل فيه خلاف المعلوم ؛ ويدخل فيه المعجوز عنه ؛ ويدخل فيه الممتنع لذاته . ثم ذكروا نحو « عشر حجج » يستدلون بها على جواز هذا الجنس ، فاذا فصل الأمر عليهم ثبت ان دعواهم جواز مالا يطاق للعجز عنه ـ سواء كان ممتنعاً لذاته أو ممكناً ـ باطلة لادليل عليها ؛ واما جواز تكليف ما يقدر العبد عليه من العبادة ؛ ويقولون هم : انه لا يكون قادراً عليه إلا حين الفعل ؛ فهذا مما اتفق الناس على جواز التكليف به ؛ لكن ثم نزاع لفظي ومعنوى فى كونه يدخل فيما لا يطاق ؛ فصار ما ادخلوه فى هذا الاسم أنواعاً مختلفة : (منها) ما ينازعون في جوازه أو وقوعه و (منها) ما ينازعون فى اسمه وصفته لا فى وقوعه .

أما تكليف أبي لهب وغيره بالايمان فهذا حق ، وهو إذا أمر ان يصدق الرسول فى كل ما يقوله ، واخبر مع ذلك انه لا يصدقه بل يموت كافراً ، لم يكن هـذا متناقضاً ولا هو مأمور ان يجمع بـين النقيضين ، فانه مأمور بتصديق الرسول فى كل ما بلغ ، وهذا التصديق لا يصدر منه ، فاذا قيل له أمرناك بأمر ونحن نعلم انك لاتفعله لم يكن هذا تكليفاً للجمع بين النقيضين .

فان قال : تصديقكم في كل ما تقولون يقتضىان اكون مؤمناً إذا صدقتكم واذا صدقتكم لم اكن مؤمناً ، لانكم اخبرتم انى لا اؤمن بكل ما اخبر به ، [قيل له] لووقع منك لم يكن فيه هذا الخبر،ولم يكن يخبر انك لاتؤمن فانت قادر على تصديقنا ، وبتقدير وجوده لايحصل هذا الخبر [و] إنما وقع ، لأنك انت لم تفعل ما قدرت عليه من تصديقنا بهذا الخبر ، فوقع بعد تكذيبك وتركك ما كنت قادراً عليه ، لم نقل لك حين امرناك بالتصديق العـام وانت قادر عليه .

ولو قيل لك آمن ونحن نعلم انك لا تؤمن بهـذا الخبر ، فالذي امرت ان تؤمن به هو الأخبار بأن محمداً رسول الله ، وهـذا انت قادر عليـه ولا تفعله ، واذا صدقتنا فى خبرنا انك لاتؤمن لم يكن هنا تناقض ، لكن لا يمكن الجمع بين الايمان والتصديق ، فانه لم يقع ونحن لم نأمرك بهـذا ، بل امرناك بايمان مطلق تقدر عليه ، واخبرنا مع ذلك انك لا تفعل ذلك المقدور عليـه ، ولم نقل لك صدقنا فى هـذا وهذا فى حال واحـدة ، لكن الواجب عليك هو

التصديق المطلق والتصديق بهـذا لايجب عليك حينئذ ، ولو وقـع منك التصديق المطلق امتنع منا هذا الخبر ، بل هذا الخبر إنما وقع لما علمنا انه لايقع منك التصديق المطلق .

وهذا كله لو قدر ان ابا لهب اسمع هذه الآية وامر بالتصديق بهـا ؛ وليس الامر كذلك ؛ لكن لما انزل الله قوله : (سيصلى ناراً ذات لهب) لم يسلم لهم ان الله امر نبيه باسمـاع هـذا الخطاب لابي لهب ، وامر ابا لهب بتصديقه ، بل لا يقدر احد ان ينقل ان النبي صلى الله عليه وسلم أمر ابا لهب ان يصدق بنزول هذه السورة ، فقوله : انه امر ان يصدق بأنه لايؤمن قول باطل لم ينقله احد من علماء المسلمين ، فنقله عن النبي صلى الله عليه وسـلم قول بلا علم ، بل كذب عليه .

فان قيل ؛ فقـد كان الايمان واجباً على ابي لهب ، ومن الايمـان ان يؤمن بهذا ، قيل له : لا نسلم انه بعد نزول هذه السورة وجب على الرسول ان يبلغه إياها ، بل ولا غيرها ، بل حقت عليه كلمة العذاب كما حقت على قوم نوح إذ قيل له : (لن يؤمن من قومك الا من قد آمن فلا تبتئس بمـا كانوا يفعلون) وبعد ذلك لا يبقى الرسول مأمور بتبليغهم الرسالة ؛ فانه قد بلغهم فـكفروا حتى حقت عليهم كلمة العذاب باعيانهم.

وقد يخبر الله الرسول عن معين انه لا يؤمن ، ولكن لا يأمره ان يعلمه

بذلك ، بل هو مأمور بتبليغه وان كان الرسول يعلم انه لايؤمن ، كالذين قال الله فيهم : (ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الاليم) وقوله : (ان الذين كفروا سواءعليهم أأنذرتهم ام لم تنذرهم لايؤمنون)

فهؤلاء قد يعلم بعض الملائكة ، وبعض البشر من الأنبياء وغيرهم فى معين منهم انه لايؤمن ، وان كانوا مأمورين بتبليغه امر الله ونهيه ، وليس فى ذلك تكليفه بالجمع بين النقيضين ، وذلك خلاف المعلوم ، فان الله يفعل ما يشاء بقدرته وما لا يشاء يعلم انه لايفعله وانه قادر عليه لو شاء لفعله، وعلمه انه لا يفعله ، لايمنع ان يكون قادراً عليه .

والعباد الذين علم الله انهم يطيعونه بارادتهم ومشيئتهم وقدرتهم ، وان كان خالقاً لذلك فخلقه لذلك ابلغ فى علمه به قبل ان يكون ، كما قال تعالى : (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) وما لم يفعلوه فما امرهم به يعلم انه لا يكون لعدم ارادتهم له لا لعدم قدرتهم عليه وليس الامر به امراً بما يعجزون عنه بل هو امر بما لو ارادوه لقدروا على فعله لكنهم لايفعلونه لعدم ارادتهم له .

وجهم ومن وافقه من المعتزلة اشتركوا فى ان مشيئة الله ومحبته ورضاه بمعنى واحد ، ثم قالت المعتزلة : وهو لا يحب الكفر والفسوق والعصيان، فلا يشاؤه ، فقالوا : إنه يكون بلا مشيئة ، وقالت الجهمية بل هو يشاء

ذلك ؛ فهو يحبه ويرضاه ، وابو الحسن واكثر اصحابه وافقوا هؤلاء : فذكر ابو المعالي الجويني : ان أبا الحسن اول من خالف السلف في هذه المسألة ولم يفرق بين المشيئة والمحبة والرضا .

واما سلف الامة وائمتها واكابر اهل الفقه والحديث والتصوف ، وكثير من طوائف النظار : كالكلابية ، والكرامية ؛ وغيرهم فيفرقون بين هذا وهذا ؛ ويقولون : ان الله يحب الايمان والعمل الصالح ؛ ويرضى به ، كما لا يأمر ولا يرضى بالكفر والفسوق والعصيان ولا يحبه ؛ كما لا يأمر به وان كان قد شاءه ؛ ولهذا كان حملة الشريعة من الخلف والسلف متفقين على انه لو حلف ليفعلن واجباً او مستحباً : كقضاء دين يضيق وقته ، او عبادة يضيق وقتها ، وقال : ان شاء الله ؛ ثم لم يفعله لم يحنث وهذا يبطل قول القدرية ، ولو قال: ان كان الله يحب ذلك ويرضاه فانه يحنث ، كما لو قال : ان كان يندب الى ذلك ويرغب فيه او يأمر به امر إيجاب او استحباب ، وهذا يرد على الجهمية ومن اتبعهم كأبي الحسن الاشعري ومن وافقه من المتأخرين . وبسط هذه الامور له موضع آخر .

والمقصود هنا جواب هذه « المسألة » : فان هذه الاشكالات المذكورة إنما ترد على قول جهم ومن وافقه من المتأخرين ، من اصحاب ابي الحسن الاشعري وغيرهم وطائفة من متأخري اصحاب مالك والشافعي واحمد .

واما أئمة اصحاب مالك والشافعي واحمد وعامة اصحـاب ابى حنيفة فانهم لا يقولون بقول هؤلاء ، بل يقولون بما اتفق عليه السلف من انه سبحـانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، ويثبتون الفرق بين مشيئته وبين محبته ورضاه فيقولون : ان الكفر والفسوق والعصيان ــ وإن وقع بمشيئته ــ فهو لا يحبه ولا يرضاه ، بل يسخطه ويبغضه . ويقولون : إرادة الله فى كتابه نوعان:

« نوع » بمعنى المشيئة لما خلق ، كقوله : (فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد ان يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنمـا يصعد فى السماء) .

و « نوع » بمعنى محبته ورضاه لما امر به وان لم يخلقه ، كقوله : (يريد الله بـكم اليسر ولا يريد بكم العسر) (ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليـكم لعلـكم تشكرون) (يريد الله ليبين لـكم ويهديـكم سنن الذين من قبلـكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم، والله يريد ان يتوب عليـكم ، ويريد الذين يتبعون الشهوات ان تميلوا ميلا عظيما ، يريد الله ان يخفف عنكم ، وخلق الانسان ضعيفاً)

وبهذا يفصل النزاع في مسألة « الامر » هل هو مستلزم للارادة ام لا ؟ فان القدرية تزعم انه مستلزم للمشيئة ، فيكون قد شاء المأمور به ولم يكن ، والجهمية قالوا : انه غير مستلزم لشيء من الارادة ، لا لحبه له ، ولا رضاه

به إلا إذا وقع ، فانه ماشاء كان وما لم يشأ لم يكن ؛ وكذلك عندهم ما أحبه ورضيه كان ؛ وما لم يحبه ولم يرضه لم يكن ، وتأولوا قوله : (ولا يرضى لعباده الكفر) على ان المراد ممن لم يقع منه الكفر ، او لا يرضاه دينا ، كما يقولون : لم يشأه ممن لم يقع منه ، او لا يشاءه دينا ؛ اذ كانوا موافقين للجهمية والقدرية فى انه لا فرق بين المحبة والمشيئة . وقد قال الله تعالى : (إن تكفروا فان الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وان تشكروا يرضه لكم) فاخبر انه إذا وقع الكفر من عباده لم يرضه لعباده . كما قال : (اذ يبيتون مالا يرضى من القول) وقال : (والله لا يحب الفساد) مع قوله : (ومن يرد ان يضله يجعل صدره ضيقا حرجاً)

و (فصل الخطاب) : أن الأمر ليس مستلزما لمشيئة ان يخلق الرب الآمر الفعل المأمور به . ولا إرادة أن يفعله ، بل قد يأمر بما لا يخلقه ، وذلك مستلزم لمحبة الرب ورضاه من العبد أن يفعله ، بمعنى أنه إذا فعل ذلك أحبه ورضيه ؛ وهو يريده منه إرادة الآمر من المأمور بما أمره به لمصلحته ، وإن لم يرد أن يخلقه وان يعينه عليه؛ لما له فى ترك ذلك من الحكمة ؛ فان له حكمة بالغة فيما خلقه وفيما لم يخلقه .

وفرق بين ان يريد ان يخلق هو الفعل ويجعل غيره فاعلاً يحسن إليه ويتفضل عليه بالاعانة له على مصلحته ، وبين ان يأمر غيره بما يصلحه ويبين له ما ينفعه إذا فعله . وإن كان لا يريد هو — نفسه — ان يعينه لما فى ترك إعانته

من الحكمة ؛ لكون الاعانة قد تستلزم ما يناقض حكمته . والمنهي عنه الذي خلقه هو يبغضه ويمقته ، كما يمقت ما خلقه من الأعيان الخبيثة كالشياطين والخبائث ، ولكنه خلقها لحكمة يحبها ويرضاها .

ونحن نعلم ان العبد يريد ان يفعل ما لا يحبه لافضائه الى ما يحبه . كما يشرب المريض الدواء الكريه لافضائه الى ما يحبه من العافية ، ويفعل مايكرهه من الأعمال لافضائه إلى مطلوبه المحبوب له ، ولا منافاة بين كون الشيء بغيضا إليه مع كونه مخلوقا له لحكمة يحبها . وكذلك لا منافاة بين ان يحبه إذا كان ولا يفعله ؛ لأن فعله قد يستلزم تفويت ما هو احب إليه منه ، او وجود ماهو ابغض إليه من عدمه .

فصــــــل

إذا عرف هذا فنقول :

اما قول القائل كيف يكون العبد مختاراً لأفعاله وهو مجبور عليها ؟ انما يتوجه على الجهمية الذين يقولون : باطلاق الجبر ، ونفي قدرة العبد واختياره ، وتأثير قدرته فى الفعل ، وقد بينا ان اطلاق « الجبر » مما انكره ائمة السنة : كالأوزاعي والزبيدي والثوري وعبد الرحمن بن مهدي ، واحمد بن حنبل

وغيرهم ، وما علمت احداً من الائمة اطلقه ؛ بل ما علمت احداً من الصحابة والتابعين لهم باحسان اطلقوه في « مسائل القدر والجبر » .

ولا قال احد من ائمة المسلمين — لا الائمة الاربعة ولا غيرهم : لا مالك ، ولا ابو حنيفة ، ولا الشافعي ولا احمد بن حنبل ولا الاوزاعي ولا الثوري ولا الليث ولا امثال هؤلاء — ان الله يكلف العباد ما لا يطيقونه ، ولا قال احد منهم : ان العبد ليس بفاعل لفعله حقيقة ، بل هو فاعل مجازاً . ولا قال احد منهم : ان قدرة العبد لا تأثير لها فى فعله ، او لا تأثير لها في كسبه ، ولا قال احد منهم : ان العبد لا يكون قادراً الا حين الفعل ، وان الاستطاعة على الفعل لا تكون الا معه ، وان العبد لا استطاعة له على الفعل قبل ان يفعله .

بل نصوصهم مستفيضة بما دل عليه الكتاب والسنة من اثبات استطاعة لغير الفاعل . كقوله تعالى : (ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلاً) وقوله تعالى : (فمن لم يستطع فاطعام ستين مسكينا) وقول النبي صلى الله عليه وسلم لعمران بن حصين : « صل قائما، فان لم تستطع فقاعداً ، فان لم تستطع فعلى جنب » .

واتفقوا على ان العبادات لا تجب الا على مستطيع ، وان المستطيع يكون مستطيعا مع معصيته وعدم فعله ، كمن استطاع ما امر به من الصلاة والزكاة

والصيام والحج ولم يفعله ، فانه مستطيع باتفاق سلف الامة وأئمتها ، وهو مستحق للعقاب على ترك المأمور الذي استطاعه ولم يفعله · لا على ترك ما لم يستطعه .

وصرحوا بما صرح به ابو حنيفة وابو العباس بن سريج وغيرهما من ان الاستطاعة المتقدمة على الفعل تصلح للضدين ، وان كان العبد حين الفعل مستطيعا ايضا عندهم ، فهو مستطيع عندهم قبل الفعل ومع الفعل ، وهو حين الفعل لا يمكنه ان يكون فاعلاً تاركا ، فلا يقولون : ان الاستطاعة لا تكون الا قبل الفعل . كقول المعتزلة ، ولا بأنها لا تكون الا مع الفعل كقول المجبرة ، بل يكون مستطيعاً قبل الفعل وحين الفعل .

واما قوله : العلماء قد صرحوا بأن العبد يفعلها قسراً .

يقال له : لم يصرح بهذا احد من علماء السلف وأئمة الاسلام المشهورين ، ولا احد من اكابر اتباع الائمة الاربعة ، وانما يصرح بهذا بعض المتأخرين الذين سلكوا مسلك جهم ومن وافقه ، وليس هو لاهل علماء السنة ، بل ولاجمهورهم ولا أئمتهم ، بل هم عند أئمة السلف من اهل البدع المنكرة .

فصل

واما قول الناظم السائل :

لانهم قد صرحوا انه على الارادات لمقسور

فيقال له : القسر على الارادة منه. اذا اريد به انه جعله مريداً فهذا حق ، لكن تسمية مثل هذا قسراً واكراهاً وجبراً تناقض لفظاً ومعنى ، فان المقسور المكره المجبور لا يكون مريداً مختاراً محباً راضياً ، والذي جعل مختاراً محباً راضياً لا يقال انه مقسور مكره مجبور .

واذا قيل : المراد بذلك انه جعل مريداً بمشيئة الله وقدرته بدون ارادة منه متقدمة اختار بها ان يكون مريداً . قيل لهم : هذا المعنى حق سواء سمي قسراً ، او لم يسم . ولكن هذا لايناقض كونه مختاراً ، فان من جعل مريداً مختاراً قد اثبت له الارادة والاختيار ، والشيء لا يناقض ذاته ولا ملازمه ، فلا يجوز ان يقال كيف يكون المختار قد جعل مختاراً ، والمريد جعل مريداً .

واذا قيل : يخير على ان يكون مختاراً . قيل : معنى ذلك ان الله جعله

مختاراً بغير ارادة منه سابقة لان يكون مختاراً ، كما جعله قادراً ، وجعله عالماً ، وجعله حياً ، وجعله اسود وابيض وطويلاً وقصيراً . ومعلوم ان الله اذا جعله موصوفاً بصفة لم يناقض ذلك اتصافه بتلك الصفة ، فان الله اذا جعله على صفة كان كونه على تلك الصفة ؛ لان ما جعل الله له ؛ فانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، واذا كان كونه مختاراً وعالماً وقادراً امرا ملازماً لمشيئة الله وجعله ، والمتلازمان لا يناقض احدهما الآخر ، بل يجامعه ولا يفارقه ، فيكون اختيار العبد مع اطلاق الجبر الذي يعنى به ان الله جعله مختاراً امرين متلازمين ، لا امرين متناقضين ، ولا عجب من اجتماع المتلازمين ، انما العجب من تناقضهما .

فصل

وأما قول السائل :

لانهم قد صرحوا انه ... على الارادات لمقسور

ولم يكن فاعل افعاله ... حقيقة ، والحكم مشهور

فيقال له : المصرح بأنه غير فاعل حقيقة هم الجهمية : اتباع الجهم بن صفوان ومن وافقهم من المتأخرين ، ولم يصرح بهذا احد من الصحابة والتابعين لهم

باحسان ، ولا أئمة المسلمين : لا الأئمة الاربعة ، ولا غيرهم ، بل الذين تكلموا بلفظ الحقيقة والمجاز واتبعوا السلف فى هذا الأصل كلهم يقولون : انه فاعـل حقيقة كما صرح بذلك أئمة اصحاب الأئمة الاربعـة ــ اصحاب ابي حنيفة ، ومالك والشافعي وأحمد بن حنبل ، وغيرهم ــ وكتبهم مشحونة بذلك .

واما الذين قالوا : انه فاعل مجازاً ؛ وقالوا : ان الفعل لايقوم بالفاعـل ، بل الفعل هو المفعول ، فهؤلاء يلزمهم ان لا يكون لأفعال العبـاد فاعل لا الرب ولا العبد اما العبد . فانها وإن قامت به الافعال فانه غير فاعل لها عندهم . واما الرب فعندهم لم يقم به فعل ، لاهذه ولا غيرها ، والفاعل المعقول من قام به الفعل ، كما ان المتكلم المعقول من قام به الكلام والمريد المعقول من قامت به الأرادة ، والحي والعالم والقادر من قامت به الحياة والعـلم والقدرة ، والمتحرك من قامت به الحركة ؛ فاثبات هؤلاء فاعـلا لا يقوم به فعل كاثبات متقدميهم من الجهمية والمعتزلة متكلما لايقوم به كلام ؛ ومريداً لاتقوم به إرادة وعالما لايقوم به علم ؛ وقادراً لاتقوم به قدرة ؛ وهذا كله باطل كما قرروه فى مسألة « كلام الله » ، وإثبات « صفاته » كما قد بسط فى موضعه .

فان الاصل الذي وافقوا به أئمة السنة واحتجوا به على المعتزلة هو : ان المعنى إذا قام بمحل عاد حكمه على ذلك المحل ؛ واشتق لذلك المحل منه اسم ؛ ولم يشتق لغيره منه اسم وعاد حكمه على ذلك المحل ؛ ولم يعد على غـيره ؛ كما ان الحركة والسواد والبياض والحرارة والـبرودة إذا قامت بمحل كان هو

المتحرك الاسود الابيض الحار البارد دون غيره . قالوا : فكذلك الكلام والارادة إذا قاما بمحل كان ذلك المحل هو المتكلم المريد دون غيره . قالوا : فلا يكون المتكلم متكلما إلا بكلام يقوم به ؛ ولا مريدا إلا بارادة تقوم به ؛ وكذلك لايكون حيا عالماً قادراً إلا بحياة وعلم وقدرة تقوم به ؛ وطرد هذا انه لايكون فاعلا إلا بفعل يقوم به .

ولهذا استعاذ النبي صلى الله عليه وسلم بصفات الله تعالى وافعاله وذاته فقال « اللهم ! انى اعوذ برضاك من سخطك ؛ وبمعافاتك من عقوبتك ؛ وبك منك لا احصي ثناء عليك انت كما اثنيت على نفسك » . وهذا مما استدل به الائمة احمد بن حنبل وغيره على ان كلام الله ليس بمخلوق ؛ قالوا : لانه استعاذ به ولا يستعاذ بمخلوق .

فصل

واما قول السائل :

ومن هنا لم يكن للفعل فى ما يلحق الفاعل تأثير

فان اراد بذلك : انه لاتأثير للفعل فيما يلحق الفاعل من المدح والذم والثواب والعقاب ؛ فهذا انما يقوله منكروا الاسباب ؛ كجهم ومن

وافقه ؛ والا فالسلف والائمة متفقون على اثبات الاسباب والحكم : خلقاً وامراً .

ففي « الامر » مثل ما يقول الفقهاء ؛ الاسباب المثبتة للارث « ثلاثة » : نسب ونكاح وولاء عتق ؛ واختلفوا فى المحالفة ؛ والاسلام على يديه وكونهما من اهل الديوان ؛ منهم من يجعل ذلك سببا للارث : كابى حنيفة ومنهم من لا يجعله سببا : كمالك والشافعى . وعن احمد روايتان . ومثل مايقولون : ملك النصاب سبب لوجوب الزكاة والقتل العمد العدوان المحض سبب للقود ؛ والسرقة سبب للقطع .

ومذهب الفقهاء ان السبب له تأثير فى مسببه ، ليس علامة محضة ، وإنما يقول : انه علامة محضة طائفة من اهل الكلام الذين بنوا على قول جهم ؛ وقد يطلق ما يطلقونه طائفة من الفقهاء ، وجمهور من يطلق ذلك من الفقهاء يتناقضون . تارة يقولون : بقول السلف والأئمة ، وتارة يقولون : بقول هؤلاء .

وكذلك الحكمة وشرع الاحكام للحكم مما اتفق عليه الفقهاء مع السلف .

وكذلك الحكمة فى « الخلق » والقرآن مملوء بذلك فى « الخلق ، والامر »

ومملوء بأنه يخلق الأشياء بالاسباب ، لا كما يقوله اتباع جهم ، انه يفعل عندها لا بها ، كقوله تعالى : (انزل من السماء ماء فاحيـا به الارض بعد موتهـا) وقوله : (وانزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقاً للعباد واحيينا به بلدة ميتاً) وقوله : (وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته حتى إذا اقلت سحاباً ثقالاً سقنـاه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات) وقوله : (يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام) وقوله : (قاتلوهم يعـذبهم الله بأيديـكم) ونحو ذلك .

واما دخول لام كي فى الخلق والامر فـكثير جـيداً ، وهذا مبسوط فى موضعه .

وقد بسط حجج نفاة الحكمة والتعليل العقلية والشرعية ، وبين فسادها كما بين فساد حجج المعتزلة والقدرية .

وحينئذ فالافعال سبب للمدح والذم والثواب والعقاب .

والفقهاء المثبتون للاسباب والحـكم قسموا خطاب الشرع واحكامه إلى « قسمين » خطاب تكليف ، وخطاب وضع واخبار ، كجعل الشيء سبباً وشرطاً ومانعاً ، فاعترض عليهم نفاة ذلك : بانكم إن اردتم بكون الشيء

سبباً ان الحكم يوجد إذا وجد فليس هنا حكم آخر ، وإن اردتم معنى آخر فهو ممنوع .

وجوابهم أن المراد ان الاسباب تضمنت صفات مناسبة للحكم ، شرع الحكم لأجلها ، وشرع لافضائه الى الحكمة كما قال تعالى : (ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله اكبر) وقال تعالى : (إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر) الآية .

وكذلك ايضاً الذين قالوا لا تأثير لقدرة العبد فى افعاله هم هؤلاء أتباع جهم نفاة الاسباب ؛ والا فالذي عليه السلف واتباعهم وأئمة أهل السنة وجمهور اهل الاسلام المثبتون للقدر المخالفون للمعتزلة اثبات الأسباب . وان قدرة العبد مع فعله لها تأثير كتأثير سائر الأسباب في مسبباتها ؛ والله تعالى خلق الاسباب والمسببات . والاسباب ليست مستقلة بالمسببات ؛ بل لابد لها من اسباب أخر تعاونها ، ولها ــ مع ذلك ــ اضداد تمانعها ، والمسبب لا يكون حتى يخلق الله جميع أسبابه ، ويدفع عنه اضداده المعارضة له ، وهو سبحانه يخلق جميع ذلك بمشيئته وقدرته كما يخلق سائر المخلوقات . فقدرة العبد سبب من الأسباب ، وفعل العبد لا يكون بها وحدها بل لا بد من الارادة الجازمة مع القدرة .

وإذا أريد بالقدرة القوة القائمة بالانسان فلا بد من إزالة الموانع ، كازالة

القيد والحبس ونحو ذلك ، والصاد عن السبيل كالعدو وغيره .

فصـــــل

وقوله تعالى : (وما تشاؤن إلا ان يشاء الله) لايدل على ان العبـد ليس بفاعل لفعله الاختيارى ، ولا انه ليس بقادر عليه ، ولا انه ليس بمريد ؛ بل يدل على انه لايشاؤه إلا ان يشاء الله ، وهذه الآية رد على الطائفتين : المجبرة الجهمية ، والمعتزلة القدرية ، فانــه تعالى قال : (لمن شاء منكم ان يستقيم) فاثبت للعبد مشيئة وفعـلا ، ثم قال : (وما تشاؤون إلا ان يشاء الله رب العالمين) فبين ان مشيئة العبد معلقة بمشيئة الله.والأولى رد«على الجبرية ، وهذه رد على القدرية ، الذين يقولون : قد يشاء العبد مالا يشاؤه الله كما يقولون : ان الله يشاء مالا يشاؤون .

وإذا قالوا : المراد بالمشيئة هنا الأمر على أصلهم ، والمعنى وما يشاؤون فعل ما امر الله به إن لم يأمر الله به . قيل : سياق الآية يبين انه ليس المراد هـذا ؛ بل المراد وما تشاؤون بعد ان امرتم بالفعل ان تفعلوه الا ان يشاء الله ، فانـه تعالى ذكر الأمر والنهي والوعد والوعيد ثم قال بعد ذلك : (ان هذه تذكرة فمن شاء اتخذ الى ربـه سبيلاً . وما تشاؤون إلا أن يشاء الله) . وقـوله : (وماتشاؤون) نفي لمشيئتهم فى المستقبل . وكذلك قوله : (إلا ان يشاء الله

تعليق لها بمشيئة الرب فى المستقبل ، فان حرف (أن) تخلص الفعل المضارع للاستقبال ، فالمعنى : إلا ان يشاء بعد ذلك ، والأمر متقدم على ذلك ، وهـذا كقول الانسان: لا افعل هذا إلا ان يشاء الله .

وقد اتفق السلف والفقهاء عـلى ان من حلف فقال : لأصلين غداً ان شاء الله ، او لأقضين ديني غداً إن شاء الله ، ومضى الغـد ولم يقضه انه لا لايحنث ، ولو كانت المشيئة هي الامر لحنث ؛ لأن الله امره بذلك ، وهذا مما احتج به على القدرية ، وليس لهم عنه جواب ، ولهـذا خرق بعضهم الاجماع القديم وقال انه يحنث .

و (ايضاً) فقوله : (وما تشاؤون الا ان يشاء الله) سيق لبيان مدح الرب والثناء عليه ببيان قدرته ، وبيان حاجة العباد اليه ، ولو كان المراد لا تفعلون الا أن يأمركم لـكان كل امر بهذه المثابة ، فلم يكن ذلك من خصائص الرب التي يمدح بهـا ، وان اريد انهم لايفعلون الا بأمره كان هـذا مدحا لهم ؛ لا له .

فصـــــل

وقوله :

(وكل شيء) . ثم لو سلمت لم يك للخالق تقـدير

ان اراد به انه لو سلم ان العبد فاعل افعاله حقيقة ونحو ذلك من اقوال السلف لزم نفي التقدير فهذا التلازم ممنوع .

وان أراد انه لو سلم ان يشاء مالم يشأ الله ، لزم انتفاء مشيئة الله عن المحرمات والمباحات باتفاق الناس ، بل يلزم انتفاء مشيئته فى الحقيقة لأفعال العباد كلها ، كما يلزم انتفاء قدرته على افعال العباد كلها ، وانتفاء خلقه لشيء منها وفى ذلك نفي هذا التقدير الذي هو بمعنى المشيئة والقدرة والخلق .

واما التقدير الذي هو بمعنى تقديرها فى نفسه وعلمه بها ، وخبره عنها وكتابته لها ، فهذا انما يلزم لزوماً بينا على قول من ينكر العلم المتقدم ، وجمهور القدرية لا تنكره ، لكن إذا جوزوا حـدوث حوادث كثـيرة بدون مشيئته وقدرته وخلقه ، اثبتوا فى العالم حوادث كثيرة يحدثها غيره ، وهو غير قادر على احداثها وحينئذ فلا يمكنهـم الاستدلال بقوله : (الا يعلم من خلق)

على انه عالم بها، فانه لم يخلقها عندهم : فقد ينازعهم اخوانهم القدرية في علمه بها قبل ان تكون ، ولا يمكنهم الاحتجاج عليهم بهذه الآية ، وقد يقولون علمه بها مع امره بخلاف المعلوم يقتضي تكليف مالا يطاق ، لان خلاف المعلوم ممتنع ، فلا يكون عالما بها ، فيلزمونهم بنفي التقدير السابق .

فصل

وقوله :

او كان فاللازم من كونه ... حدوثه والقول مهجور

كانه يريد – والله اعلم – او كان الله مقدراً لها عالما بها، فيلزم من كونه عالما بها مقدراً لها بعد ان تكون حدوث العلم بها بعد ان كانت ، ويلزم ان لا يكون الرب عالما بافعال العباد ، ولا مقدراً لها حتى فعلت وهذا القول مهجور باطل ، مما اتفق على بطلانه سلف الصحابة والتابعين لهم باحسان ، وسائر علماء المسلمين ، بل كفروا من قاله ، والكتاب والسنة مع الادلة العقلية تبين فساده .

فان الله قد اخبر عما يكون من افعال العباد قبل ان تكون ، بل اعلم بذلك من شاء من ملائكته وغير ملائكته ، قال تعالى : (واذ قال ربك

للملائكة إني جاعل في الارض خليفة . قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها . ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال اني اعلم مالا تعلمون) فالملائكة حكموا بان الآدميين يفسدون ويسفكون الدماء قبل ان يخلق الانس ولا علم لهم الا ماعلمهم الله ؛ كما قالوا : (لا علم لنا الا ماعلمتنا) ثم قال : (انى اعلم ما لاتعلمون) وتضمن هذا مايكون فيها بعد من آدم وابليس وذريتهما وما يترتب على ذلك .

ودلت هذه الآية على انه يعلم ان آدم يخرج من الجنة فانه لولا خروجه من الجنة لم يصر خليفة فى الأرض فانه امره أن يسكن الجنة ولا يأكل من الشجرة بقوله:(وقلنا يا آدم اسكن انت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين) وقال تعالى : (وقلنا : يا آدم ! ان هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ، ان لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى ، وانك لاتظمأ فيها ولا تضحى) نهاه ان يخرجها من الجنة ، وهو نهي عن طاعة ابليس التى هي سبب الخروج ، وقد علم قبل ذلك انه يخرج من الجنة ، وانه انما يخرج منها بسبب طاعته ابليس وأكله من الشجرة ؛ لأنه قال قبل ذلك : (انى جاعل فى الأرض خليفة) .

ولهذا قال من قال من السلف : انه قدر خروجه من الجنة قبل ان يأمره بدخولها بقوله : (اني جاعل فى الأرض خليفة) وقال بعد هذا : (قلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ، ولكم فى الأرض مستقر ومتاع الى حين) وقال

تعالى : (قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الارض مستقر ومتاع الى حين ، قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون) وهذا خبر عما سيكون من عداوة بعضهم بعضا وغير ذلك . وقال تعالى : (ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية) وقال : (ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم ام لم تنذرهم لايؤمنون) وهذا خبر عن المستقبل وأنهم لايؤمنون . وقال تعالى : (لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين) وقال : (ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس اجمعين) وهذا قسم منه على ذلك ، وهو الصادق البار في قسمه ، وصدقه مستلزم لعلمه بما اقسم عليه ؛ وهو دليل على انه قادر على ذلك .

وقد يستدل به على انه خالق افعال العباد ؛ اذ لو كانت افعالهم غير مقدورة له لم يمكنه ان يملأ جهنم ، بل كان ذلك اليهم ان شاؤا عصوه فملأها ؛ وان شاؤا اطاعوه فلم يملأها .

لكن قد يقال : انه علم أنهم يعصونه فأقسم على جزائهم على ذلك . وقد يجاب عن ذلك بأن علمه بالمستقبل قبل ان يكون مستلزم لخلقه له ، فانه سبحانه لايستفيد العلم من غيره كالملائكة والبشر ، ولكن علمه من لوازم نفسه ؛ فلو كانت افعاله خارجة عن مقدوره ومراده لم يجب ان يعلمها كما يعلم مخلوقاته وبسط هذا له موضع آخر .

وقال تعال عن المنافقين : (لو خرجوا فيكم ما زادوكم الا خبالاً ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة) وهذا خبر عما سيكون منهم من الذنوب قبل ان يفعلوها . وقال تعالى : (قل للمخلفين من الأعراب ستدعون الى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون) وهذا خبر عن دعاء من يدعوهم الى جهاد هؤلاء : ودعاؤه لهم من جملة أفعال العباد ، ومثل هذا فى القرآن كثير .

بل العلم بالمستقبل من أفعال العباد يحصل لآحاد المخلوقين من الملائكة والأنبياء وغيرهم ؛ فكيف لايكون حاصلا لرب العالمين ؟ ! وقد اخبر النبي صلى الله عليه وسلم عما سيكون من الأفعال المستقبلة من امته وغير امته مما يطول ذكره ، كاخباره بأن ابنه الحسن يصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين ؛ واخباره بأنه تمرق مارقة على حين فرقة من المسلمين تقتلهم أولى الطائفتين بالحق ، واخباره بان قوما يرتدون بعده على اعقابهم ؛ واخباره بان خلافة النبوة تكون ثلاثين سنة ثم تصير ملكا ؛ واخباره بان الجبل ليس عليه الا نبي وصديق وشهيد ؛ وكان أكثرهم شهداء واخباره يوم بدر بقتل صناديد قريش قبل ان يقتلوا ، واخباره بخروج الدجال ونزول عيسى عليه السلام على المنارة البيضاء شرقي دمشق وقتل عيسى عليه السلام له على باب لد .

واخباره بخروج يأجوج ومأجوج ؛ واخباره بخروج الخوارج الذين قال فيهم : « يخرج من ضئضىء هذا قوم يحقر احدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه

مع صيامهم يقرؤون القرآن لايجاوز حناجرهم يمرقون من الاسـلام كما يمرق السهم من الرمية آيتهم ان فيهم رجلا مخدج اليد على يده مثل البضعة من اللحم تدردر » وكان الأمر كما اخبر به لما قاتلهم علي بن ابى طالب بالنهروان ووجد هذا الشخص كما وصفه النبي صلى الله عليه وسلم . واخباره بقتال الترك وصفتهم حيث قال : « لا تقوم السـاعة حتى تقاتلوا الترك صغـار الأعـين حمر الخدود دلف الأنف ينتعلون الشعر كانوجوههم المجان المطرقة » وقد قاتل المسلمون هؤلآء الترك وغيرهم لما ظهروا ومثل هذا من أخبار نبيه صلى الله عليه وسلم اكثر من ان تذكر وهو انما يعلم ماعلمه الله واذا كان هو يعلم كثيراً مما يكون من اعمال العباد فكيف الذى خلقه وعلمه مالم يكن يعلم .

وهو سبحانه لا يحيط احد من علمه إلا بما شاء ولا يعلم احد ـــ لا نبي ولا غيره ـــ إلا ما علمه الله ، وقال الخضر لموسى : انني على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه ، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا اعلمه ، ولما نقر العصفور فى البحر قال له : ما نقص علمي وعلمك من علم الله الا كما نقص هذا العصفور من هذا البحر ، وهو سبحانه القائل فى حق موسى : (وكتبنا له فى الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لـكل شيء) .

والمقصود ان نفي علم الله بالحوادث أفعال العباد وغيرهاقبل ان تكونباطل، وغلاة القدرية ينفون ذلك .

وأما قوله تعالى : (وما جعلنا القبلة التى كنت عليها الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه) . وقوله : (لنعلم أي الحزبين احصى لما لبثوا امداً) ونحو ذلك فهذا هو العلم الذي يتعلق ، بالمعلوم بعد وجوده . وهو العلم الذي يترتب عليه المدح والذم والثواب والعقاب ، والأول هو العلم بأنه سيكون ، ومجرد ذلك العلم لا يترتب عليه مدح ولا ذم ولا ثواب ولا عقاب ، فان هذا انما يكون بعد وجود الأفعال . وقد روي عن ابن عباس انه قال فى هذا : لنرى. وكذلك المفسرون قالوا: لنعلمه موجوداً بعد ان كنا نعلم انه سيكون،وهذا المتجدد فيه قولان مشهوران للنظار :

منهم من يقول : المتجدد هو نسبة واضافة بين العلم والمعلوم فقط ، وتلك نسبة عدمية .

ومنهم من يقول : بل المتجدد علم بكون الشيء ووجوده ، وهذا العلم غير العلم بأنه سيكون ، وهذا كما فى قوله : (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) فقد اخبر بتجدد الرؤية ، فقيل نسبة عدمية وقيل المتجدد امر ثبوتي . والكلام على القولين ، ومن قال هذا وهذا ، وحجج الفريقين قد قد بسط فى موضع آخر .

وعامة السلف وأئمة السنة والحديث على ان المتجدد امر ثبوتي كما دل عليه النص ، وهذا مما هجر احمد بن حنبل الحارث المحاسبي على نفيه ، فانه كان يقول

بقول ابن كلاب فر من تجـدد امر ثبوتي، وقال بلوازم ذلـك. فخـالف من نصوص الكتاب والسنة وآثار السلف مـا اوجب ظهور بدعة اقتضت ان يهجره الامام احمد ويحذر منه . وقد قيل : ان الحارث رجع عن ذلك .

والمتأخرون من اصحاب مالك والشافعي واحمد بن حنبل وابي حنيفة عـلى قولين : منهم من سلك طريقة ابن كلاب وأتباعه ، ومنهم من سلك طريقة أئمة السنة والحديث ؛ وهذا مبسوط فى موضعه .

والمقصود هنا : ان تقدم علم الله وكتابته لاعمال العباد حق ، والقـول بحدوث ذلك قول مهجور ، كما قاله الناظم ان كان قد اراد ذلك ، وليس فى ذلك ما ينافي امر الله ونهيه ، فان كونه خالقاً لأفعـال العباد لا ينافى الامر والنهي . فكيف العلم المتقدم ، وليس في ذلك ما يقتضي كون العبد مجبوراً لا قدرة له ، ولا فعل كما تقوله الجهمية المجبرة .

فصـــــل

وأما قوله :

ولا يقال علم الله ما يختار فالمختار مسطور

فهو يتضمن ايراد سؤال من القدرية . وجوابه منهم : فانهم قد يقولون : نحن نقول : انه يعلم ، واذا قلنا ذلك لم نكن قد نفينا القدر ، بل اثبتنا القدر بمعنى العلم مع نفي كون الرب تعالى شائياً جميع الحوادث ، خالقاً لأفعال العباد ، قال الناظم فان الذي يختاره العبد مسطور قبل ذلك ، فلا يمكن بغيره فيلزم الجبر .

وقد يعترض على هذا الجواب بأن يقال : اللازم هنا بمنزلة الملزوم . فان علمه بأنه يختاره موافق لما كتبه من انه يختاره ، وتغيير العلم اعظم من تغيير المسطور .

وقد يقال : انه اراد جعل السطر من تمام القول .اي لايقال علم مايختاره وسطر ذلك . اي فتقدم العلم والكتاب كاف فى الايمان بالقدر فان مجرد ذلك لايكفي فى الايمان بالقدر ، وهذا من حجة القائلين بالجبر . قالوا : خلاف المعلوم ممتنع ، فالأمر به امر بممتنع ؛ لأنه لو وقع المأمور للزم انقلاب العلم جهلاً .

وجوابهم ان الممتنع لفظ مجمل ، فان ارادوا ان خلاف المعلوم لا يقع ولا يكون فهذا صحيح ، ولكن التكليف بما لا يكون لا يكون تكليفاً بما يعجز عنه الفاعل ، فان ما لا يفعله الفاعل قد لا يفعله لعجزه عنه وقد لا يفعله لعدم ارادته ، فانما كلف بما يطيقه مع علم الرب

انه لا يكون ، كما يعلم ان ما لا يشاؤه هو لا يكون ، مع انه لو شاء لفعله .

وقول المحتج : لو وقع لا نقلب العلم جهلاً .

قيل : هذا صحيح ، وهو يدل على انه لا يقع ، لكن لا يدل على ان المكلف عاجز عنه لو اراده لم يقدر على فعله ، فانه لا يقع لعدم ارادته له ، لا لعدم قدرته عليه ؛ كالذي لا يقع من مقدورات الرب التى لو شاء لفعلها ، وهو يعلم انه لا يفعلها .

ولا يجوز ان يقال انه غير قادر عليها ، كما قاله بعض غلاة اهل البدع ؛ بل قد قال سبحانه : (أيحسب الانسان ان لن نجمع عظامه بلى قادرين على ان نسوي بنانه) وقال تعالى : (قل هو القادر على ان يبعث عليكم عذاباً من فوقكم او من تحت ارجلكم او يلبسكم شيعاً) مع انه قد ثبت فى الصحيحين عن جابر انه لما نزل قوله : (قل هو القادر على ان يبعث عليكم عذاباً من فوقكم) قال النبي صلى الله عليه وسلم : اعوذ بوجهك ، (او من تحت ارجلكم) قال : اعوذ بوجهك (او يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض) قال : هاتان اهون » . فهذا الذي اخبر انه قادر عليه منه ما لا يكون وهو ارسال عذاب من فوق الأمة، او من تحت ارجلهم . ومنه ما يكون وهو لبسهم شيعاً ، واذاقة بعضهم بأس بعض . كما ثبت فى الصحيح

عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « سألت ربى ثلاثاً ، فأعطانى اثنتين ومنعني واحدة ؛ سألته ان لا يسلط عليهم عدواً من غيرهم فأعطانيهـا ؛ وسألتـه ان لا يهلـكهم بسنة عامة فأعطانيها ؛ وسألته ان لا يجعـل بأسهم بينهم فمنعنيها ».

وقد ذكر فى غير موضع من القرآن مـا لا يكون انه لو شاء لفعـله كقوله : (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها) وقوله : (ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ، ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ؛ ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد) وقوله : (ولو شاء ربك لجعل الناس امة واحدة) وأمثال هذه الآيات ، تبين انه لو شاء ان يفعل اموراً لم تـكن لفعلها ؛ وهذا يدل على انه قادر على ما علم انه لا يكون : فانـه لولا قدرته عليه لـكان اذا شاء لا يفعله ؛ فانه لا يمكن فعله الا بالقدرة عليه ، فلما اخبر وهو الصادق فى خبره انه لو شاء لفعـله ، عـلم انـه قادر عليه ، وان عـلم سبحانه أنه لا يكون ؛ وعلم ايضاً ان خلاف المعـلوم قد يكون مقدوراً .

واذا قيل هو ممتنع فهو من باب الممتنع لعدم مشيئة الرب له ، لا لـكونـه ممتنعاً فى نفسه ، ولا لـكونه معجوزاً عنه .

ولفظ « الممتنع » فيه اجمال كما تقدم ، وما سمي ممتنعاً بمعنى انه لا يكون مع

انه لو شاء العبد لفعله لقدرته عليه فهذا يجوز تكليفه بلا نزاع ؛ وان سماه بعضهم بما لا يطاق فهذا نزاع لفظي ؛ ونزاع في ان القدرة هل يجوز ان تتقدم الفعل ام لا ؟ ؟

فصـــــــل

وأما قوله :

والجبر ان صح يكن مكرهاً وعنـدك المكره معذور

فيقال : قد تقدم بيان معنى « الجبر » ؛ وان الجبر اذا اريد به الاكراه كما يجبر الانسان غيره ، ويكرهه على خلاف مراده ؛ فالله تعالى اجل واعلا واقدر من ان يحتاج الى مثل هذا الجبر والاكراه ؛ فان هذا انما يكون من عاجز يعجز عن جعل غيره مريداً لفعله مختاراً له محباً له راضياً به ، والله سبحانه على كل شيء قدير ، فاذا شاء ان يجعل العبد محباً لما يفعله ؛ مختاراً له جعله كذلك ؛ وان شاء ان يجعله مريداً له بلا محبة بل مع كراهة فيفعله كارهاً له جعله كذلك .

وليس هذا كاكراه المخلوق للمخلوق ؛ فان المخلوق لا يقدر ان يجعل فى قلب غيره لا ارادة وحباً ، ولا كراهة وبغضاً ، بل غايته ان يفعل ما يكون

سبباً لرغبته او رهبته ؛ فاذا أكرهه فعل به من العقاب او الوعيد ما يكون سبباً لرهبته وخوفه ؛ فيفعل ما لا يختار فعله ، ولا يفعله راضياً بفعله ؛ ويكون مراده دفع الشر عنه ؛ فهو مريد للفعل ؛ لكن المقصود دفع الشر عنه ؛ لا نفس الفعل ، ولهذا قد يسمى مختاراً ؛ ويسمى غير مختار باعتبار ، ويسمى مريداً ، ويسمى غير مريد باعتبار .

ولكن اللغة العربية لا يسمى فيها مختاراً بل مكرهاً ؛ وهي لغة الفقهاء . كما ثبت فى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « اذا دعا احدكم فلا يقل : اللهم اغفر لي ان شئت اللهم ارحمني ان شئت ولكن ليعزم المسألة ؛ فان الله لا مكره له » . فبين النبي صلى الله عليه وسلم ان من يفعل بمشيئته لا يكون مكرهاً ، والمكره يفعل بمشيئة غيره ؛ وهو المكره له ، فانه وان كان قاصداً لما يفعله ليس هو بمنزلة المفعول به الذي لا قدرة له ولا ارادة له فى الفعل بحال ، فان مقصوده بالقصد الأول دفع الشيء لا نفس الفعل ، فالمراتب ثلاثة :

(أحدها) من يفعل به الفعل من غير قدرة له على الامتناع ، كالذي يحمل بغير إختياره ويدخل الى مكان أو يضرب به غيره ، أو تضجع المرأة وتفعل بها الفاحشة بغير اختيارها ؛ من غير قدرة على الامتناع ؛ فهذا ليس له فعل اختياري ؛ ولا قدرة ولا إرادة . ومثل هذا الفعل ليس فيه أمر ولا نهي ؛ ولا عقاب باتفاق العقلاء . وإنما يعاقب إذا أمكنه الامتناع فتركه ؛ لأنه إذا لم

يمتنع كان مطاوعا لا مكرهاً ، ولهذا فرق بين المرأة المطاوعة على الزنا والمكرهة عليه .

و (الثانية) أن يكره بضرب أو حبس او غير ذلك حتى يفعل ، فهذا الفعل يتعلق به التكليف فانه يمكنه أن لا يفعل ، وان قتل . ولهذا قال الفقهاء إذا أكره على قتل المعصوم ، لم يحل له قتله . وإن قتل فقد اختلفوا في القود . فقال : اكثرهم كمالك وأحمد والشافعي في احد قوليه يجب القود على المكره والمكره ؛ لأنهما جميعاً يشتركان في القتل . وقال ابو حنيفة ، يجب على المكره الظالم لأن المكره قد صار كالآلة ، وقال زفر: بل على المكره المباشر لأنه مباشر وذاك متسبب ، وقال : لو كان كالآلة لما كان آثماً ، وقد اتفقوا على انه آثم ، وقال ابو يوسف لا تجب على واحد منهما .

واما ان اكره على الشرب للخمر ونحوه من الأفعال ، فاكثرهم يجوز ذلك له ، وهو مذهب ابي حنيفة والشافعي واحمد في المشهور عنه ، لقوله تعالى : (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن اردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يكرهن فان الله من بعد إكراههن غفور رحيم) واما ان اكره الرجل على الزنا ففيه قولان في مذهب احمد وغيره .

(احدهما) : لا يكون مكرها عليه كقول ابي حنيفة وهو منصوص أحمد .

و (الثاني) : قد يكون مكرها عليه كقول الشافعي وطائفة من اصحاب أحمد .

وإذا أكره على كلمة الكفر جاز له التكلم بها مع طمأنينة قلبه بالايمان .

وإذا اكره على « العقود » كالبيع والنكاح والطلاق والظهار والايلاء والعتق ونحو ذلك ، فمذهب الجمهور كمالك والشافعي واحمد ان كل قول اكره عليه بغير حق فهو باطل ، فلا يقع به طلاق ولا عتاق ، ولا يلزمه نذر ولا يمين ولا غير ذلك ، واما ابو حنيفة فيفرق بين ما يقبل الفسخ عنده ، ويثبت فيه الخيار كالبيع ونحوه فلا يلزم مع الاكراه ، وما ليس كذلك كالنكاح والطلاق والعتاق فيلزم مع الاكراه .

واما المكره بحق كالحربي على الاسلام فهذا يلزمه ما اكره عليه باتفاق العلماء .

فقول الناظم :

والجبر ان صح يكن مكرها   وعندك المكره معذور

قول مؤلف من مقدمتين باطلتين :

(الاولى) : ان صح الجبر كان مكرها ، وقد عرف ان لفظ « الجبر» إذا أُريد به الجبر المعروف من اجبار الانسان غيره على ما لا يريده فهذا الجبر لم يصح ، وان اريد بـه ان الله يخلق إرادته فهـذا الجبر اذا صـح لم يكن مكرها .

و (المقدمة الثانية) قوله : والمكره عندك معذور . فليس الأمر كذلك ، بل المكره نوعان :

(نوع)أكرهه المكره بحق ، فهذا ليس بمعذور ، والله تعـالى لا يكره أحداً الا بحق ، سواء قدر الاكراه بخلقه وقدره ، او شرعه وامره ، وانما المكره المعذور هو المظلوم المكره بغير حق ، والله تعالى : لا يظلم أحـداً مثقال ذرة ، بل هو الحكم العدل القائم بالقسط ، كما قال تعالى : (شهد الله انه لا إله الا هـو والملائكة واولو العـلم قائمـاً بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم) .

وقد اتفق المسلمون وغيرهم على ان الله منزه عن الظـلم ، لكن تنـازع الناس فى معنى « الظلم » الذي يجب تنزيه الرب عنـه ، فجعلت القدرية من المعتزلة وغيرهم « الظلم » الذي ينزه عنه الخالق من جنس « الظلم » الذي ينهى عنه المخلوق ، وشبهوا الله تعالى بخلقه ، فأوجبوا عليه من جنس ما يجب على

المخلوق ، وتكلموا فى التعديل والتجويز بكلام متناقض كما هو معروف عنهم وألزموا الناس الزامات كثيرة .

(منها) ان قالوا : ان العبد لو رأى رفقة يظلم بعضهم بعضا وهو يقدر على منعهم من الظلم ولم يمنعهم لكان ظالما ، ومثل هذا ليس ظلماً من الله فقالوا : هو قد نهاهم عن ذلك ، وعرضهم للثواب اذا اطاعوه ، وللعقاب اذا عصوه ، وهم قد ظلموا باختيارهم ، ولم يمكن منعهم من ذلك الا بالجائهم الى الترك ، والالجاء يزيل التكليف الذي عرضهم به للثواب .

فقال لهم الجمهور : الواحد منا لو فعل ذلك مع علمه بأن عباده لا يطيعون امره ولا يمتنعون عن الظلم بل يزدادون عصياناً وظلما لم يكن ذلك حكمة ولا عدلا ، وانما يحمد ذلك من الواحد منا لعدم علمه بالعاقبة . او لعجزه عن المنع ، والله عليم بالعواقب ، وهو على كل شيء قدير ، والا فاذا كان الواحد منا يعلم انه اذا امرهم ليعرضهم للثواب عصوه وظلم بعضهم بعضاً وجب عليه ان يمنعهم من الظلم بالالجاء .

وتمام الكلام فى ذلك مبسوط في موضع آخر . فان هذا الجواب لا يحتمل الا التنبيه .

وقالت طائفة من مثبتة القدر — من المتقدمين ، والمتأخرين من الجهمية

واهل الكلام ، والفقهاء ، واهل الحديث ـــ الظلم منه ممتنع لذاته ، فكل ممكن يدخل تحت القدرة ليس فعله ظلما . وقالوا : الظلم التصرف في ملك الغير ، او الخروج عن طاعة من تجب طاعته ، وكل من هذين ممتنع في حق الله .

وقال كثير من اهل السنة والحديث والنظار : بل الظلم هو وضع الشيء فى غير موضعه ، ومن ذلك ان يبخس المحسن شيئاً من حسناته ، أو يحمل عليه من سيئات غيره ، وهذا من الظلم الذي نزه الله نفسه عنه . كقوله تعالى : (ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما) . قال غير واحد من السلف : « الهضم » ان يهضم من حسناته والظلم ان يزاد فى سيئاته وقد قال تعالى: (أم لم ينبأ بما فى صحف موسى وابراهيم الذي وفى أن لا تزر وازرة وزر اخرى وان ليس للانسان الا ما سعى) وقال : (لا تختصموا لدي وقد قدمت إليكم بالوعيد ؛ ما يبدل القول لدي ، وما أنا بظلام للعبيد)

وفى حديث البطاقة الذي رواه الترمذي وغيره وحسنه . ورواه الحاكم فى صحيحه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « يجاء يوم القيامة برجل من امتي على رؤوس الخلائق فينشر له تسعة وتسعون سجلا ، كل سجل منها مد البصر ، ثم يقول الله تعالى له : أتنكر من هذا شيئاً ؟ فيقول : لا يارب! فيقول الله عز وجل : ألك عذر او حسنة ؟ فيهاب الرجل فيقول : لا يارب ! فيقول الله تعالى : بلى . ان لك عندنا حسنات ، وانه لا ظلم عليك ، فتخرج

له بطاقة فيها : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد ان محمداً رسول الله ، فيقول: يارب ماهذه البطاقة مع هـــذه السجلات ؟ فيقول : انك لا تظلم ، قال : فتوضع السجلات فى كفــة والبطاقة فى كفة فطاشت السجلات ، وثقلت البطاقة »

وقال تعالى : (اليوم تجزى كل نفس بما كسبت ، لا ظلم اليوم ، ان الله سريع الحساب) وقال تعالى : (وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظـالمين) وقال : (وما ظلمناهم ولكن ظلموا انفسهم) ومثل هذه النصوص كثيرة ، ومعلوم ان الله تعالى لم ينف بهـــا الممتنع الذي لايقبل الوجود ، كالجمع بين الضدين ؛ فان هذا لم يتوهم احد وجوده ، وليس فى مجرد نفيه ما يحصل به مقصود الخطاب ، فان المراد بيان عدل الله وانه لا يظلم احداً ، كما قال تعالى: (ووجدوا ماعملوا حاضراً ولا يظلم ربك احـداً) بل يجازيهم بأعمـالهم ، ولا يعاقبهم إلا بعد اقامة الحجة عليهم ، كما قال الله تعالى : (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) وقال ؛ (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للنـاس على الله حجة بعد الرسل) وقال تعالى : (وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى امها رسولا يتلو عليهم آياتنـا وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلهـا ظـالمون) .

وفى الصحيح عن النبي صلى الله عليـه وسلم انه قال : « ما احد احب إليه العذر من الله من اجل ذلك بعث الرسل وانزل الكتب »

ومثل هذه النصوص كثيرة وهي تبين ان الظلم الذي نزه الله نفسه عنه ليس هو ما تقوله القدرية ولا ما تقوله الجبرية ، ومن وافقهم ، وقد بسط الكلام على تحقيق هذا المقام في مواضع آخر وبين فيها حكمة الله وعدله ، فان هذا المقام هو من اعظم المقامات التى اضطرب فيها كثير من الأولين والآخرين . والبسط الكثير الذى ينتهي به إلى تفصيل اقوال الناس ، وحقيقة الأمر فى ذلك ببيان الدلائل والجواب عن المعارضات لايناسب جواب هذا النظم . وهو مذكور فى موضع آخر .

وفى الحديث الصحيح الذي رواه مسلم فى صحيحه عن أبي ذر عن النبى صلى الله عليه وسلم : فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى انه قال : « ياعبادي! انى حرمت الظلم على نفسي ، وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا ، ياعبادي! كلكم ضال إلا من هديته فاستهدونى أهدكم . ياعبادي ! كلكم جائع إلا من اطعمته فاستطعموني اطعمكم ، ياعبادي ! كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني اكسكم ، ياعبادي ! انكم تخطئون بالليل والنهار وانا اغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني اغفر لكم ، ياعبادي ! إنكم لن تبلغوا ضري فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعي فتنفعونى ، ياعبادي ! لو أن اولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على اتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً ، ياعبادي ! لو ان أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على افجر قلب رجل واحد منكم مانقص ذلك من ملكي شيئاياعبادي!لو ان اولكم وآخركم وانسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل انسان منهم مسألته مانقص ذلك مماعندي الا كماينقص المخيط إذا ادخل

البحر ، يا عبادى ! إنما هي اعمالكم احصيها لكم ، ثم اوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن الا نفسه » قال سعيد كان ابو ادريس الخولاني اذا حدث بهذا الحديث جثا على ركبتيه .

فذكر في اول هذا الحديث الالهي الذي قال فيه الامام احمد هو اشرف حديث لأهل الشام ، انه حرم الظلم على نفسه . و « التحريم » ضد الايجاب ، وبين فى القرآن انه كتب على نفسه الرحمة ، وهذا على قول الطائفة الثانية المراد به مجرد خبره بمجرد الوعد والوعيد ؛ وعلى قول الآخرين ، بل هو سبحانه كتب على نفسه الرحمة ، وحرم على نفسه الظلم كما اخبر عن نفسه فقال تعالى : (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) فهو حق احقه سبحانه على نفسه لا ان احداً من الخلق يوجب عليه حقاً ، ولا يحرم عليه شيئاً .

وختم الحديث بقوله : « إنما هي اعمالكم احصيها لكم ثم اوفيكم اياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجدغير ذلك فلا يلومن الأ نفسه » كما ثبت فى الحديث الصحيح الذى رواه البخارى وغيره عن شداد بن اوس عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال : « سيد الاستغفار ان يقول العبد : اللهم انت ربى لا إله الا انت خلقتني ، وانا عبدك وانا على عهدك ووعدك ما استطعت ، اعوذ بك من شر ما صنعت ، ابوء لك بنعمتك علي ، وابوء بذنبي ، فاغفر لي انه لا يغفر الذنوب إلا انت . من قالها اذا اصبح موقناً بها فمات من يومه دخل الجنة ، ومن قالها إذا امسى موقناً بها فمات من ليلته دخل الجنة »

وفى هذا الحديث قوله : « ابوء لك بنعمتك علي ، وابوء بذنبي » ومن نعمه على عبده المؤمن مايبسره له من الايمان والحسنات فانها من فضله واحسانه ورحمته وحكمته ، وسيئات العبد من عدله وحكمته ، اذ كل نعمة منه فضل ، وكل نقمة منه عدل ، وهو لا يسأل عما يفعل لكمال حكمته ورحمته وعدله ، لا لمجرد قهره وقدرته . كما يقوله جهم واتباعه ، وقد بسط الكلام على هذا وبين حقيقة قوله : « والخير بيديك ، والشر ليس إليك » وان كان خالق كل كل شيء . وبين ان الشر لم يضف الى الله فى الكتاب والسنة الا على احد وجوه ثلاثة :

إما بطريق العموم . كقوله : (الله خالق كل شيء) واما بطريقة اضافته الى السبب ، كقوله : (من شر ما خلق)

واما ان يحذف فاعله كقول الجن : (وانا لا ندري اشر اريد بمن فى الأرض ام اراد بهم ربهم رشداً)

وقد جمع في الفاتحة « الأصناف الثلاثة » فقال : (الحمد لله رب العالمين) وهذا عام وقال : (صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم) فحذف فاعل الغضب . وقال : (ولا الضالين) فاضاف الضلال الى المخلوق ، ومن هذا قول الخليل : (وإذا مرضت فهو يشفين)

وقول الخضر : (فاردت ان اعيبها) (فاردنا ان يبدلهما ربهما خيراً منــه زكاة واقرب رحماً) (فاراد ربك ان يبلغا اشدهما)

وقد بسط الكلام على حقائق هذه الأمور . وبين ان الله لم يخلق شيئاً الا لحكمة قال تعالى : (الذي احسن كل شيء خلقــه) وقال : (صنع الله الذي اتقن كل شيء) فالمخلوق باعتبار الحكمة التى خلق لأجلها خير وحكمة وان كان فيه شر من جهة اخرى ، فذلك امر عارض جزئي ليس شراً محضاً ، بل الشر الذي يقصد به الخير الأرجح هو خير من الفاعل الحكيم ، وان كان شراً لمن قام به .

وظن الظان ان الحكمة المطلوبة التامة قد تحصل مع عدمه ، إنما يقوله لعدم علمه بحقائق الأمور ، وارتبــاط بعضها ببعض ، فان الخــالق إذا خلق الشيء فلا بد من خلق لوازمه ، فان وجود الملزوم بدون وجود اللازم ممتنع ولا بد من ترك خلق اضداده التى تنافيه ، فان اجتماع الضدين المتنــافيين فى وقت واحد ممتنع .

وهو سبحانه على كل شيء قدير ، لا يستثنى من هــذا العموم شيء ؛ لكــن مسمى « الشيء » ما تصور وجوده . فأما الممتنع لذاته فليس شيئــاً باتفاق العقلاء .

والقدرة على خلق المتضادات قدرة على خلقها على البدل ، فهو سبحانه اذا شاء ان يجعل العبد متحركا جعله ، وان شـــاء ان يجعله ساكناً جعله ، وكذلك فى الايمان والكفر وغيرهما ؛ لكن لايتصور ان يكون العبد فى الوقت الواحد متصفاً بالمتضادات فيكون مؤمناً صديقـاً من اولياء الله المتقين ، كافراً منافقاً من أعداء الله ، وان كان يمكن ان يجتمع فيه شعبة من الايمان وشعبة من النفاق .

والذي يجب على العبد ان يعلم ان علم الله وقدرته وحكمته ورحمته فى غاية الكمال الذى لا يتصور زيادة عليها ، بل كلما امكن من الكمال الذي لا نقص فيه فهو واجب للرب تعالى ، وقد يعلم بعض العباد بعض حكمته ، وقد يخفى عليهم منها ما يخفى .

والناس يتفاضلون فى العلم بحكمته ورحمته وعدله ، وكلما ازداد العبد علماً بحقائق الأمور ازداد علماً بحكمة الله وعدله ورحمته وقدرته ، وعلم ان الله منعم عليه بالحسنات عملها وثوابهـا ، وان ما يصيبه من عقوبات ذنوبه فبعدل الله تعالى ، وان نفس صدور الذنوب منه ـ وان كان من جملة مقدورات الرب ـ فهو لنقص نفسه وعجزها وجهلها الذي هو من لوازمها ، وان ما فى نفسه من الحسنات فهو من فعل الله واحسانه وجوده ، وان الرب مع انه قـد خلق النفس وسواها ، وألهمها فجورها وتقواها ، فالهام الفجور والتقوى وقـع

بحكمة بالغة ، لو اجتمع الأولون والآخرون من عقلاء الآدميين على ان يروا حكمة ابلغ منها لم يروا حكمة ابلغ منها .

لكن تفصيل حكمة الرب مما يعجز كثير من الناس عن معرفتها ، ومنها ما يعجز عن معرفته جميع الخلق حتى الملائكة ؛ ولهذا قالت الملائكة لما قال الله تعالى لهم : (إني جاعل فى الأرض خليفة قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) قال : (اني اعلم مالا تعلمون) فتكفيهم المعرفة المجملة والايمان العام .

والله سبحانه قد امرهم ان يطلبوا منه جميع مايحتاجون اليه من هدى ورشاد وصلاح فى المعاش والمعاد ؛ ومغفرة ورحمة : وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول فى الحديث الصحيح : « اللهم اني اسألك الهدى والتقى والعفة والغنى » ويقول : « اللهم آت نفسي تقواها ؛ وزكها انت خير من زكاها انت وليها ومولاها » ويقول : « اللهم اصلح لي ديني الذي هو عصمة امري واصلح لي دنياي التى فيها معاشي؛واصلح لي آخرتى التى فيها معادي ، واجعل الحياة زيادة لي فى كل خير ؛ واجعل الموت راحة لي من كل شر » وكل هذا فى الأحاديث التى في الصحيح .

وفي صحيح مسلم انه كان يقول اذا قام من الليل : « اللهم رب جبريل وميكائيل واسرافيل ؛ فاطر السموات والأرض ؛ عالم الغيب والشهادة انت

تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون. إهدنى لما اختلف فيه من الحق باذنك انك تهدي من تشاء الى صراط مستقيم» .

وقـــد امرنا الله تعالى ان نقول فى صلاتنا : (اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) وهـذا افضل الأدعية واوجبها على العباد .

ومن تحقق بهذا الدعاء جعله الله من اهل الهدى والرشـاد ؛ فانه سميع الدعاء لا يخلف الميعاد ، والله اعلم .

وسئل

عن المقتول : هل مات بأجله ؟ أم قطع القاتل أجله ؟

فأجاب : المقتول كغيره من الموتى ، لا يموت أحد قبل اجله ، ولا يتأخر احد عن اجله . بل سائر الحيوان والأشجار لها آجال لا تتقدم ولا تتأخر . فان اجل الشيء هو نهاية عمره وعمره مدة بقائه ، فالعمر مدة البقاء ، والأجل نهاية العمر بالانقضاء .

وقد ثبت فى صحيح مسلم وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « قدر الله مقادير الخلائق قبل ان يخلق السموات والأرض بخمسين الف سنة. وكان عرشه على الماء » وثبت فى صحيح البخاري ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : « كان الله ولم يكن شيء قبله ، وكان عرشه على الماء ، وكتب في الذكر كل شيء وخلق السموات والأرض ، — وفى لفظ — ثم خلق السموات والأرض » . وقد قال تعالى : (فاذا جاء اجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) .

والله يعلم ما كان قبل ان يكون ؛ وقد كتب ذلك ، فهو يعلم ان هذا يموت

بالبطن ، او ذات الجنب ، او الهدم او الغرق او غير ذلك من الأسباب ، وهذا يموت مقتولاً : إما بالسم ، وإما بالسيف وإما بالحجر وإما بغـير ذلك ، من اسباب القتل .

وعلم الله بذلك وكتابته له بل مشيئته لكل شيء وخلقه لكل شيء لا يمنع المدح والذم والثواب والعقاب ؛ بل القاتل : إن قتل قتيلاً امر الله به ورسوله ، كالمجاهد فى سبيل الله اثابه الله على ذلك ، وإن قتـل قتيلاً حرمه الله ورسوله كقتل القطاع والمعتدين ، عاقبه الله على ذلك ، وإن قتل قتيلاً مباحاً ــ كقتيل المقتص ــ لم يثب ولم يعاقب إلا ان يكون له نية حسنة ، او سيئة فى احدهما .

والأجل اجلان « اجل مطلق » يعلمه الله ، « واجل مقيد » وبهـذا يتبين معنى قوله صلى الله عليه وسلم : « من سره ان يبسط له فى رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه » فان الله امر الملك ان يكتب له اجلا وقال : « إن وصل رحمه زدته كذا وكذا » والملك لا يعلم ايزداد ام لا ؛ لكن الله يعلم ما يستقر عليه الأمر فاذا جاء ذلك لا يتقدم ولا يتأخر .

ولو لم يقتل المقتول ، فقد قال بعض القدرية : انه كان يعيش ، وقال بعض نفاة الأسباب : انه يموت ، وكلاهما خطأ ؛ فان الله علم انه يموت بالقتل ، فاذا قدر خلاف معلومه كان تقديراً لما لا يكون لو كان كيف كان يكون ، وهذا قد يعلمه بعض الناس ، وقد لا يعلمه ، فلو فرضنا أن الله علم انه لا يقتل امـكن ان

يكون قدر موته فى هذا الوقت ، وامكن ان يكون قدر حياته الى وقت آخــر فالجزم بأحد هذين على التقدير الذي لا يكون جهل .

وهذا كمن قال : لو لم يأكل هذا ما قدر له من الرزق كـان يموت او يرزق شيئاً آخــر ، وبمــنزلة من قال : لو لم يحبل هذا الرجل لهذه المرأة هل تكون عقيماً او يحبلها رجل آخر ، ولو لم تزدرع هذه الأرض هل كان يزدرعها غيره ، ام كانت تكون مواتاً لا يزرع فيها ، وهذا الذي تعلم القرآن من هذا ، لو لم يعلمه : هل كان يتعلم من غيره ؟ ام لم يكن يتعلم القرآن البتة ، ومثل هذا كثير .

سئل شيخ الاسلام

عن الغلاء والرخص : هل هما من الله تعالى ام لا ؟؟

فأجاب : جميع ما سوى الله من الأعيان وصفاتها وأحوالها مخلوقة لله ، مملوكة لله ، هو ربها وخالقها ومليكها ومدبرها . لا رب لها غيره . ولا إله سواه : له الخلق والأمر . لا شريك له فى شيء من ذلك ، ولا معين ؛ بل هو كما قال سبحانه : (قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير . ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) .

أخبر سبحانه ان ما يدعى من دونه ليس له مثقال ذرة فى السموات ولا في الأرض ، ولا شرك فى ملك ، ولا اعانة على شيء . وهذه الوجوه الثلاثة :هي التى ثبت بها حق الغير : فانه إما أن يكون مالكاً للشيء مستقلا بملكه ، او يكون مشاركاً له فيه نظير ، او لا ذا ولا ذاك ، فيكون معيناً لصاحبه : كالوزير والمشير والمعلم والمنجد والناصر . فبين سبحانه انه ليس لغيره ملك لمثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، ولا لغيره شرك فى ذلك لا قليل ولا كثير ؛ فلا

يملكون شيئاً ؛ ولا لهم شرك فى شيء ؛ ولا له سبحانه ظهير : وهو المظاهر المعاون . فليس له وزير ولا مشير ولا ظهير .

وهذا كما قال سبحانه : (وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ؛ ولم يكن له شريك فى الملك ؛ ولم يكن له ولي من الذل ؛ وكبره تكبيراً) فان المخلوق يوالي المخلوق لذله ؛ فاذا كان له من يواليه عز بوليه ؛ والرب تعالى لا يوالي أحداً لذلته تعالى ، بل هو العزيز بنفسه و(من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً) وانما يوالي عباده المؤمنين لرحمته ونعمته وحكمته ، واحسانه وجوده وفضله وانعامه .

وحينئذ : فالغلاء بارتفاع الأسعار ؛ والرخص بانخفاضها ، هما من جملة الحوادث التى لا خالق لها الا الله وحده ؛ ولا يكون شيء منها الا بمشيئته وقدرته ؛ لكن هو سبحانه قد جعل بعض أفعال العباد سبباً فى بعض الحوادث ، كما جعل قتل القاتل سبباً فى موت المقتول ؛ وجعل ارتفاع الأسعار قد يكون بسبب ظلم العباد ، وانخفاضها قد يكون بسبب احسان بعض الناس ، ولهذا اضاف من اضاف من القدرية المعتزلة وغيرهم الغلاء والرخص الى بعض الناس ، وبنوا على ذلك اصولاً فاسدة :

(احدها) : ان افعال العباد ليست مخلوقة لله تعالى .

و (الثاني) : انما يكون فعل العبد سبباً له يكون العبد هو الذي احدثه .

و (الثالث) : أن الغلاء والرخص انما يكون بهذا السبب .

وهذه الأصول باطلة ؛ فانه قد ثبت ان الله خالق كل شيء من افعال العباد وغيرها ؛ ودلت على ذلك الدلائل الكثيرة السمعية والعقلية ، وهذا متفق عليه بين سلف الأمة وائمتها ؛ وهم مع ذلك يقولون : ان العباد لهم قدرة ومشيئة ، وانهم فاعلون لأفعالهم ؛ ويثبتون ما خلقه الله من الأسباب ، وما خلق الله من الحكم .

و « مسألة القدر » مسألة عظيمة . ظل فيها طائفتان من الناس « طائفة» انكرت ان يكون الله خالقاً لكل شيء ؛ وانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، كما انكرت ذلك المعتزلة . و « طائفة » انكرت ان يكون العبد فاعلا لأفعاله ؛ وان تكون لهم قدرة لها تأثير في مقدورها ؛ او ان يكون في المخلوقات ما هو سبب لغيره ، وان يكون الله خلق شيئاً لحكمة ، كما انكر ذلك الجهم بن صفوان ومن اتبعه من المجبرة الذي نسب كثير منهم الى السنة ؛ والكلام على هذه المسألة مبسوط في مواضع اخر .

و (الأصل الثاني) : وهو انما كان فعل العبد احد أسبابه : كالشبع

الذي يكون بسبب الأكل ، وزهوق النفس الذي يكون بالقتل ، فهذا قد جعله أكثر المعتزلة فعلا للعبد ، والجبرية لم يجعلوا لفعل العبد فيه تأثيراً بل ماتيقنوا انه سبب ، قالوا : انه عنده لا به ، واما السلف والأئمة فلا يجعلون العبد فاعلا لذلك ، كفعله لما قام به من الحركات ، فلا يمنعون ان يكون مشاركا ، فى اسبابه وان يكون الله جعل فعل العبد مع غيره اسباباً فى حصول مثل ذلك .

وقد ذكر الله فى كتابه النوعين بقوله : (ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطؤون موطئا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لايضيع اجر المحسنين . ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون) والانفاق والسير هو نفس أعمالهم القائمة بهم ، فقال فيها : إلا كتب لهم ، ولم يقل الا كتب لهم به عمل صالح ، فانها نفسها عمل،فنفس كتابتها يحصل به المقصود ، بخلاف الظمأ والنصب والجوع الحاصل بغير الجهاد ، بخلاف غيظ الكفار بما نيل منهم ، فان هذه ليست نفس افعالهم ، وانما هي حادثة عن أسباب منها : افعالهم ، فلهذا قال تعالى : (إلا كتب لهم به عمل صالح) .

فتبين انما يحدث من الآثار عن افعال العباد لهم بها عمل ؛ لأن أفعالهم كانت سبباً فيها ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « من دعا إلى هدى كان له من

الاجر مثل أجور من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيء ، ومن دعا الى ضلالة كان عليه من الوزر مثل أوزار من اتبعه من غـير أن ينقص من أوزارهم شيء » .

و (الأصل الثالث) : أن الغلاء والرخص لاتنحصر أسبابه فى ظلم بعض بل قد يكون سببه قلة ما يخلق ، او يجلب من ذلك المـال المطـلوب ، فاذا كثرت الرغبات في الشيء وقل المرغوب فيه : ارتفع سعره ، فاذا كثر وقلت الرغبات فيه انخفض سعره ، والقلة والكثرة قد لاتكون بسبب من العباد وقد تكون بسبب لا ظلم فيه ، وقد تكون بسبب فيه ظلم ، والله تعالى يجعل الرغبات فى القلوب . فهو سبحانه كما جاء فى الأثر : قد تغلوا الاسعار والأهواء غرار وقد ترخص الأسعار والأهواء فقار .

وسئل شيخ الاسلام

احمد بن تيمية قدس الله روحه . عما قاله ابو حامد الغزالي ــ في كتابه المعروف « بمنهاج العابدين » في زاد الآخرة من العقبة الرابعة : وهي العوارض بعد كلام تقدم في التوكل بان الرزق مضمون ــ قال : فان قيل هل يلزم العبد طلب الرزق بحال ، فاعلم ان الرزق المضمون هو الغذاء والقوام . فلا يمكن طلبه إذ هو شيء من فعل الله بالعبد كالحياة والموت ، لايقدر العبد على تحصيله ولا دفعه .

وما المقسوم من الأسباب فلا يلزم العبد طلبه ، اذ لاحاجة للعبد الى ذلك . انما حاجته الى المضمون وهو من الله وفي ضمان الله .

واما قوله تعالى : (وابتغوا من فضل الله) المراد به العلم والثواب وقيل : بل هو رخصة اذ هو امر وارد بعد الحظر ، فيكون بمعنى الاباحة ؛ لا بمعنى الايجاب والالزام .

فان قيل : لكن هذا الرزق المضمون له اسباب هل يلزم منا طلب الاسباب قيل : لايلزم منك طلب ذلك إذ لاحاجة بالعبد اليه ، إذ الله سبحانه يفعل

بالسبب ، وبغير السبب ، فمن اين يلزمنا طلب السبب ، ثم ان الله ضمن ضمانا مطلقا من غير شرط الطلب والكسب ، قال تعالى : (وما من دابة فى الارض الا على الله رزقها) .

ثم كيف يصح ان يأمر العبد بطلب ما لا يعرف مكانه فيطلبه : اذ لا يعرف اي سبب منها رزقه يتناوله لا عرف الذي صير سبب غذائه وتربيته لا غير ، فالواحد منا لا يعرف ذلك السبب بعينه ، من اين حصل له ؟ فلا يصح تكليفه ، فتأمل — راشداً — فانه بين ، ثم حسبك ان الانبياء — صلوات الله وسلامه عليهم — والأولياء المتوكلين لم يطلبوا الرزق في الأكثر والأعم ، وتجردوا للعبادة ، وباجماع انهم لم يكونوا تاركين لأمر الله تعالى ، ولا عاصين له فى ذلك ، فليس لك ان تطلب الرزق واسبابه بامر لازم للعبد .

فما الفرق بين هذا الكلام من هذا الامام والمنصوص عليه في كتب الائمة : كالفقه وغيره ؟ وهو ان العبد يجب عليه طلب الرزق وطلب سببه ، وابلغ من ذلك ان العبد لو احتاج الى الرزق ووجده عند غيره فاضلا عنه وجب عليه طلبه منه ، فان منعه قهره ، وان قتله . فهل هذا الذي نص عليه فى المنهاج يختص باحد دون احد ؟ فاوضحوا لنا ما اشكل علينا من تناقض الكلامين ؛ مثابين ؛ مأجورين ؛ وابسطوا لنا القول .

فاجاب — رضي الله عنه — !

الحمد لله رب العالمين ؛ هذا الذي ذكره ابو حامد قــد ذهب اليه طائفة من الناس . ولكن ائمة المسلمين وجمهورهم على خلاف هذا ؛ وان الكسب يكون واجبا تارة ؛ ومستحبا تارة ؛ ومكروها تارة ومباحا تارة ومحرما تارة. فلايجوز اطلاق القول بانه لم يكن منه شيء واجب ؛ كما انه لا يجوز اطلاق القول بانه ليس منه شيء محرم .

والسبب الذي امر العبد به امر ايجاب او امر استحباب هو عبادة الله وطاعته له ولرسوله . والله فرض على العباد ان يعبدوه ويتوكلوا عليه . كما قال تعالى : (فاعبده وتوكل عليه) وقال : (واذكر اسم ربك وتبتل اليه تبتيلا رب المشرق والمغرب لا اله الا هو فاتخــذه وكيلا) وقال : (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب . ومن يتوكل على الله فهو حسبه) والتقوى تجمع فعل ما امر الله به وترك مانهى الله عنــه . ويروى عن ابى ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « يا ابا ذر ! لو عمل الناس كلهــم بهذه الآية لو سعتهم » .

ولهذا قال بعض السلف : ما احتاج تقى قط. يقول : ان الله ضمن للمتقين ان يجعل لهم مخرجا مما يضيق على الناس ، وان يرزقهم من حيث لا يحتسبون فيدفع عنهم ما يضرهم ويجلب لهم ما يحتاجون اليه . فاذا لم يحصل ذلــك دل على ان فى التقوى خللا ، فليستغفر الله وليتب اليه ، ولهــذا جاء في الحديث المرفوع الى النبي صلى الله عليــه وسلم الذي رواه الترمذي انــه قال : « من

اكثر الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا . ومن كل ضيق مخرجا ورزقه من حيث لا يحتسب » .

و(المقصود): ان الله لم يأمر بالتوكل فقط، بل امر مع التوكل بعبادته وتقواه التى تتضمن فعل ما امر. وترك ما حذر، فمن ظن انه يرضى ربه بالتوكل بدون فعل ما امر به كان ضالا ، كما ان من ظن انه يقوم بما يرضى الله عليه دون التوكل كان ضالاً بل فعل العبادة التى امر الله بها فرض .

واذا اطلق لفظ العبادة دخل فيها التوكل . واذا قرن احدهما بالآخر كان للتوكل اسم يخصه . كما فى نظائر ذلك مثل التقوى وطاعة الرسول فان « التقوى » اذا اطلقت دخل فيها طاعة الرسول . وقد يعطف احدهما على الآخر كقول نوح عليه السلام : (اعبدوا الله) وكذلك قوله : (اتقوا الله وقولوا قولا سديد) وامثال ذلك .

وقد جمع الله بين عبادته والتوكل عليه فى مواضع كقوله تعالى:(قل هو ربي لا اله الا هو عليه توكلت واليه متاب) وقول شعيب : (عليه توكلت واليه انيب) فان الانابة الى الله والمتاب هو الرجوع اليه بعبادته وطاعته وطاعة رسوله ، والعبد لا يكون مطيعاً لله ورسوله ــ فضلا ان يكون من خواص اوليائه المتقين ــ الا بفعل ما امر به وترك ما نهى عنه ، ويدخل فى ذلك التوكل .

واما من ظن ان التوكل يغني عن الأسباب المأمور بها فهو ضال ، وهذا كمن ظن انه يتوكل على ما قدر عليه من السعادة والشقاوة بدون ان يفعل ما أمره الله .

وهذه « المسألة » مما سئل عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم كما في الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم قال : « ما منكم من احد الا وقد كتب مقعده من الجنة والنار ، فقيل يا رسول الله ! أفلا ندع العمل ونتكل على الكتاب ؟ فقال : لا ! اعملوا فكل ميسر لما خلق له » وكذلك فى الصحيحين عنه انه قيل له : « ارأيت ما يعمل الناس فيه ويكدحون ، افيما جفت الأقلام وطويت الصحف ؟ » ولما قيل له : أفلا نتكل على الكتاب ؟ قال : لا ، اعملوا فكل ميسر لما خلق له »

وبين صلى الله عليه وسلم ان الأسباب المخلوقة والمشروعة هي من القدر فقيل له : « أرأيت رقى نسترقى بها ؟ وتقى نتقي بها ؟ وادوية نتداوى بها هل ترد من قدر الله شيئاً ؟ فقال : هي من قدر الله »

فالالتفات الى الأسباب شرك فى التوحيد ، ومحو الأسباب ان تكون اسباباً نقص فى العقل ، والاعراض عن الأسباب المأمور بها قدح فى الشرع ؛ فعلى العبد ان يكون قلبه معتمداً على الله ، لا على سبب من الأسباب ، والله ييسر له من الاسباب ما يصلحه فى الدنيا والآخرة ، فان كانت الاسباب

مقدورة له وهو مأمور بها فعلهـا مع التوكل على الله ، كما يؤدى الفرائض ، وكما يجاهد العدو ، ويحمل السلاح ، ويلبس جنة الحرب ، ولا يكتفى فى دفع العدو على مجرد توكله بدون ان يفعل ما أمر به من الجهاد ، ومن ترك الاسباب المأمور بها ، فهو عاجز مفرط مذموم .

وفي صحيح مسلم عن ابي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى عليه وسلم قال : «المؤمن القوي خير واحب الى الله من المؤمن الضعيف،وفى كل خير احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن ؛ وان اصـابك شيء فلا تقل لو انى فعلت لـكان كذا وكذا ، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل ؛ فان لو تفتح عمل الشيطان » وفى سنن ابي داود « ان رجلين تحا كما الى النبي صلى الله عليه وسلم فقضى على احدهما ، فقال المقضي عليه حسبنا الله ونعم الوكيل ، فقال صلى الله عليـهوسلم :« ان الله يلوم على العجز ولكن عليك بالكيس فان غلبك امر ، فقل حسبنا الله ونعم الوكيل »

وقد تكلم الناس فى حمل الزاد في الحج وغيره من الاسفـار ، فالذي مضت عليه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنة خلفائه الراشدين واصحابه والتابعين لهم باحسان ، وا كابر المشائخ هو حمل الزاد لما في ذلك من طاعة الله ورسوله ، وانتفاع الحامل ونفعه للناس .

وزعمت « طائفة » ان من تمام التوكل ان لايحمل الزاد ، وقـد رد

الا كار هذا القول كما رده الحارث المحاسبي فى (كتاب التوكل) وحكاه عن شقيق البلخي، وبالغ فى الرد على من قال بذلك، وذكر من الحجج عليهم ما يبين به غلطهم وانهم غالطون في معرفة حقيقة التوكل وانهم عاصون لله بما يتركون من طاعته، وقد حكي لاحمد بن حنبل ان بعض الغلاة الجهال بحقيقة التوكل كان اذا وضع له الطعام لم يمد يده حتى يوضع فى فمه، واذا وضع يطبق فمه حتى يفتحوه ويدخلوا فيه الطعام، فانكر ذلك اشد الانكار، ومن هؤلاء من حرم المكاسب.

وهـــذا وامثاله من قلة العلم بسنة الله فى خلقـــه وامره؛ فان الله خلق المخلوقات باسباب، وشرع للعباد اسباباً ينالون بها مغفرته ورحمته وثوابه في الدنيـا والآخرة، فمن ظن انه بمجرد توكله مع تركه ما أمره الله بـه من الأسباب يحصل مطلوبه، وان المطالب لاتتوقف على الأسبـاب التى جعلها الله اسباباً لها. فهو غالط، فالله سبحانه وان كان قد ضمن للعبد رزقه وهو لا بد ان يرزقه ما عمر، فهذا لايمنع ان يكون ذلك الرزق المضمون له اسباب تحصل من فعل العبد وغير فعله.

و «ايضاً» فقد يرزقه حلالاً وحراماً، فاذا فعل ما امره به رزقه حلالاً واذا ترك ما امره به فقد يرزقه من حرام.

ومن هذا الباب الدعاء والتوكل؛ فقد ظن بعض الناس ان ذلك لا تأثير

له فى حصول مطلوب ولا دفع مرهوب ، ولكنه عبـــادة محضة ، ولكن ما حصل به حصل بدونه ، وظن آ خرون ان ذلك مجرد علامة ، والصواب الذي عليه السلف والائمة والجمهور ان ذلك من اعظم الأسبـاب التى تنال بها سعادة الدنيا والآخرة .

وما قدره الله بالدعاء والتوكل والكسب وغير ذلك من الأسبـاب ، إذا قال القائل فلو لم يكن السبب ماذا يكون ، بمنزلة من يقول هذا المقتول لو لم يقتل هل كان يعيش ، وقـد ظـن بعض القـدرية أنـه كان يعيش ، وظـن بعض المنتسبـين الى السنـة انـه كان يموت ، والصواب ان هـذا تقـدير لأمر علم الله انه يكون ، فالله قـدر موته بهذا السبب فلا يموت إلا به كما قدر الله سعادة هذا فى الدنيا والآخرة بعبـادته ودعائه وتوكله وعمله الصـالح وكسبه ، فلا يحصل الا به ، واذا قدر عدم هذا السبب لم يعلم مايكون المقدر ، وبتقدير عدمه فقـد يكون المقدر حينئذ انه يموت وقد يكون المقدر انه يحيى والجزم باحدهما خطأ .

ولو قال القائل : أنا لا آكل ولا اشرب ، فان كان الله قدر حياتي فهو يحيني بدون الأكل والشرب ، كان احمق ، كمن قال : انا لا اطأ امرأتى فان كان الله قدر لي ولداً تحمل من غير ذكر .

فصــــــل

اذا عرف هذا : فالسا لكون طريق الله منهم من يكون مع قيـامه بما امره الله به من الجهاد والعلم والعبادة وغير ذلك عاجزاً عن الكسب ، كالذين ذكرهم الله في قوله : (للفقراء الذين احصروا فى سبيـــل الله لا يستطيعون ضربا في الأرض ، يحسبهم الجـاهل اغنيـــاء من التعفف ، تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس الحافا) والذين ذكرهم الله فى قوله : (للفقراء المهـــاجرين الذين اخرجوا من ديارهم واموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون).

فا« لصنف الاول » اهل صدقات ، و « الصنف الثـانى » اهل الفيء، كما قال تعـالى فى الصنف الاول : (ان تبـدوا الصدقات فنعما هي وان تخفوهـا وتؤتوها الفقراء فهو خير لـكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير. الى قوله: (للفقراء الذين احصروا فى سبيل الله)وقال فى«الصنف الثاني »:(ما افاء الله على رسوله من اهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) الى قوله :(للفقراء المهاجرين)ثم قال: (والذين تبوؤا الدار والايمان من قبلهم) . فذكر المهاجربن والانصار وكان المهـاجرون تغلب

عليهم التجارة ؛ والانصار تغلب عليهم الزراعة ، وقد قال للطائفتين : (انفقوا من طيبات ما كسبتم ومما اخرجنا لكم من الارض) فذكر زكاة التجارة وزكاة الخارج من الارض وهو العشر ، او نصف العشر ، او ربع العشر .

ومن السالكين من يمكنه الكسب مع ذلك وقد قال تعالى لما امرهم بقيام الليل : (علم ان سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون فى الارض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون فى سبيل الله) فجعل المسلمين اربعة اصناف ، صنفاً اهل القرآن والعلم والعبادة ، وصنفاً يضربون فى الارض يبتغون من فضل الله ، وصنفاً يجاهدون فى سبيل الله والرابع المعذورون .

واما قول القائل : ان الغذاء والقوام هو من فعل الله فلا يمكن طلبه كالحياة ، فليس كذلك هو ! بل ما فعل الله باسباب يمكن طلبه بطلب الاسباب كما مثله فى الحياة والموت ؛ فان الموت يمكن طلبه ودفعه بالاسباب التى قدرها الله : فاذا اردنا ان يموت عدو الله سعينا فى قتله ؛ واذا اردنا دفع ذلك عن المؤمنين دفعناه بما شرع الله الدفع به ؛ قال تعالى فى داود عليه السلام : (وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم) وقال تعالى : (سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم) وقال تعالى : (فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم واسلحتهم) وهذا مثل دفع الحر والبرد عنا هو من فعل الله فاللباس والاكتساب ومثل دفع الجوع والعطش هو من فعل الله بالطعام والشراب ،

وهذا كما ان ازهاق الروح هو من فعل الله ، ويمكن طلبه بالقتل وحصول العلم والهدى فى القلب ، هو من فعل الله ويمكن طلبه باسبابه المأمور بها وبالدعاء .

وقول القائل ان الله يفعل بسبب وبغير سبب ، فمن أين يلزمنا طلب السبب .

جوابه ، ان يقال له : ليس الامر كذلك ، بل جميع ما يخلقه الله ويقدره انما يخلقه ويقدره باسباب ؛ لكن من الاسباب ما يخرج عن قدرة العبد ؛ ومنها ما يكون مقدوراً له ، ومن الاسباب ما يفعله العبد ؛ ومنها ما لا يفعله .

والأسباب منها « معتاد » ومنها « نادر » فانه فى بعض الأعوام قد يمسك المطر ويغذي الزرع بريح يرسلها ، وكما يكثر الطعام والشراب بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم ، والرجل الصالح فهو أيضاً سبب من الأسباب . ولا ريب ان الرزق قد يأتي على أيدي الخلق ؛ فمن الناس من يأتيه برزقه جنى او ملك او بعض الطير والبهائم ؛ وهذا نادر ، والجمهور إنما يرزقون بواسطة بني آدم مثل اكثر الذين يعجزون عن الأسباب يرزقون على أيدي من يعطيهم : إما صدقة ، وإما هدية ؛ او نذراً ؛ وإما غير ذلك ، مما يؤتيه الله على أيدي من ييسره لهم .

وقد ثبت فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « يا ابن آدم! ان تنفق الفضل خير لك ، وان تمسك الفضل شر لك ، ولا يلام على كفاف ، واليد العليا خير من اليد السفلى » وفى حديث آخر صحيح « يد الله هي العليا ويد المعطى التى تليها ويد السائل السفلى » .

وبعض الناس يزعم ان يد السائل الآخذ هي العليا : لأن الصدقة تقع بيد الحق ، وهذا خلاف نص رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أخبر : ان يدالله هي العليا ، ويد المعطى التى تليها ، ويد السائل السفلى.

وقول القائل : إن الله ضمن ضماناً مطلقاً .

فيقال له : هذا لا يمنع وجوب الأسباب على ما يجب : فانفيما ضمنه رزق الأطفال والبهائم والزوجات . ومع هذا فيجب على الرجل ان ينفق على ولده وبهائمه وزوجته ، باجماع المسلمين ونفقته على نفسه اوجب عليه .

وقول القائل : كيف يطلب ما لا يعرف مكانه ؟

جوابه : انه يفعل السبب المأمور به ، ويتوكل على الله فيما يخرج عن قدرته ، مثل الذي يشق الأرض ويلقي الحب ويتوكل على الله في انزال المطر وانبات الزرع ودفع المؤذيات ، وكذلك التاجر غاية قدرته تحصيل السلعة ونقلها ، وأما إلقاء الرغبة فى قلب من يطلبها وبذل الثمن الذي يربح به فهذا

ليس مقدوراً للعبد ، ومن فعل ما قدر عليه لم يعاقبه الله بما عجز عنه ، والطلب لا يتوجه الى شيء معين ، بل الى ما يكفيه من الرزق ، كالداعي الذي يطلب من الله رزقه وكفايته من غير تعيين .

فصل

فاذا عرف ذلك : فمن الكسب ما يكون واجباً ، مثل الرجل المحتاج الى نفقته على نفسه أو عياله او قضاء دينه وهو قادر على الكسب ؛ وليس هو مشغولاً بامر أمره الله به ؛ هو افضل عند الله من الكسب ، فهذا يجب عليه الكسب باتفاق العلماء ؛ واذا تركه كان عاصياً آثماً .

ومنه ما يكون مستحباً : مثل هذا اذا اكتسب ما يتصدق به ؛ فقد ثبت فى الصحيحين عن ابي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « على كل مسلم صدقة ، قالوا : يا رسول الله ! فمن لم يجد . قال : يعمل بيده ينفع نفسه ويتصدق . قالوا : فان لم يجد . قال : يعين ذا الحاجة الملهوف . قالوا : فان لم يجد قال : فليأمر بالمعروف وليمسك عن الشر فانها له صدقة » .

فصـــــل

واما قول القائل : ان الأنبياء والأولياء لم يطلبوا رزقاً .

فليس الأمر كذلك ، بل عامة الأنبياء كانوا يفعلون اسباباً يحصل بها الرزق ؛ كما قال نبينا صلى الله عليه وسلم في الحديث الذى رواه احمد فى المسند عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له وجعل رزقى تحت ظل رمحي ؛ وجعل الذل والصغار على من خالف امري ، ومن تشبه بقوم فهو منهم » . وقد ثبت فى الصحيح قوله صلى الله عليه وسلم : « ان افضل ما اكل الرجل من كسبه » ؛ وكان داود يأكل من كسبه . وكان يصنع الدروع ، وكان زكريا نجاراً ، وكان الخليل له ماشية كثيرة حتى انه كان يقدم للضيف الذين لايعرفهم عجلاً سميناً ؛ وهذا انما يكون مع اليسار .

وخيار الأولياء المتوكلين : المهاجرون والأنصار ، وابو بكر الصديق – رضي الله عنه – افضل الأولياء المتوكلين ، بعد الانبياء . وكان عامتهم يرزقهم الله بأسباب يفعلونها ، كان الصديق تاجراً ؛ وكان يأخذ ما يحصل له من المغنم ؛ ولما ولى

الخلافة جعل له من بيت المال كل يوم درهمان، وقد اخرج ماله كله، وقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «ماتركت لأهلك؟ قال: تركت لهم الله ورسوله» ومع هذا فما كان يأخذ من احد شيئاً لا صدقة ولا فتوحا ولا نذراً. بل انما كان يعيش من كسبه.

بخلاف من يدعي التوكل ويخرج ما له كله ظاناً انه يقتدي بالصديق، وهو يأخذ من الناس اما بمسألة وإما بغير مسألة، فان هذه ليست حال ابي بكر الصديق، بل في المسند: «أن الصديق كان اذا وقع من يده سوط ينزل فيأخذه. ولا يقول لأحد ناولني إياه، ويقول ان خليلي امرني ان لا أسأل الناس شيئاً». فأين هذا ممن جعل الكدية وسؤال الناس طريقاً الى الله، حتى انهم يأمرون المريد بالمسألة للخلق.

وقد تواترت الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم بتحريم مسألة الناس، إلا عند الضرورة، وقال: «لا تحل المسألة الا لذي غرم مقطع، او دم موجع او فقر مدقع» وقال تعالى: (فاذا فرغت فانصب والى ربك فارغب) فأمره ان تكون رغبته الى الله وحده.

ومن هؤلاء من يجعل دعاء الله ومسألته نقصاً، وهو مع ذلك يسأل الناس ويكديهم، وسؤال العبد لربه حاجته من أفضل العبادات؛ وهو طريق أنبياء الله، وقد امر العباد بسؤاله فقال: (واسألوا الله من فضله) ومدح

الذين يدعون ربهم رغبة ورهبة . ومن الدعاء ماهو فرض على كل مسلم ، كالدعاء المذكور فى فاتحة الكتاب .

ومن هؤلاء من يحتج بما يروى عن الخليل انه لما ألقي فى النار قال له جبرئيل : هل لك من حاجة ؟ فقال : اما اليك فلا ، قال : سل قال : حسبي من سؤالي علمه بحالي . وأول هذا الحديث معروف ، وهو قوله : أما إليك فلا ؛ وقد ثبت فى صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : حسبنا الله ونعم الوكيل ، أنه قالها : ابراهيم حين ألقي فى النار . وقالها محمد — صلى الله عليه وسلم — حين قال له الناس : ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم .

وأما قوله : حسبي من سؤالي علمه بحالي فكلام باطل ، خلاف ما ذكره الله عن ابراهيم الخليل وغيره من الأنبياء من دعائهم لله ومسألتهم اياه ، وهو خلاف ما أمر الله به عباده من سؤالهم له صلاح الدنيا والآخرة . كقولهم :(ربنا آتنا فى الدنيا حسنة ، وفى الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار) ودعاء الله وسؤاله والتوكل عليه عبادة لله مشروعة بأسباب كما يقدره بها ، فكيف يكون مجرد العلم مسقطاً لما خلقه وأمر به ؟ ! والله اعلم . وصلى الله على محمد وسلم .

سئل شيخ الاسلام

عن الرزق : هـل يزيد او ينقص ؟ وهـل هو ما اكل او ما ملـكه العبد ؟

فأجاب : الرزق نوعان :

(احدهما) : ما علمه الله انه يرزقه فهذا لا يتغير .

و (الثاني) ما كتبه وأعلم به الملائكة فهذا يزيد وينقص بحسب الأسباب ، فان العبد يأمر الله الملائكة ان تكتب له رزقاً ، وإن وصل رحمه زاده الله على ذلك ، كما ثبت فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « من سره ان يبسط له في رزقه. وينسأله فى اثره ، فليصل رحمـه » . وكذلك عمر داود زاد ستين سنة فجعله الله مائة بعد ان كان اربعين . ومن هذا الباب قول عمر : اللهـم ان كنت كتبتني شقيـاً فامحني واكتبني سعيداً فانك تمحو ما تشاء وتثبت .

ومن هذا الباب قوله تعـالى عن نوح : (ان اعبدوا الله واتقوه واطيعون يغفر لـكم من ذنوبكم ويؤخركم الى اجل مسمى) . وشواهده كثيرة .

والأسباب التى يحصل بها الرزق هي من جملة ما قدره الله وكتبـه ، فان كان قد تقدم بأنه يرزق العبد بسعيه واكتسابه الهمه السعي والاكتساب ،

وذلك الذي قدره له بالاكتساب لا يحصل بدون الاكتساب ، وما قدره له بغير اكتساب كموت موروثه يأتيه به بغير اكتساب ، والسعي سعيان : سعي فيما نصب للرزق ؛ كالصناعة والزراعة والتجارة . وسعي بالدعاء والتوكل والأحسان الى الخلق ونحو ذلك ؛ فان الله في عون العبد ما كان العبد فى عون اخيه .

فصل

والرزق يراد به شيئان :

(احدهما) ما ينتفع به العبد .

و (الثانى) : ما يملكه العبد . فهذا الثانى هو المذكور في قوله : (ومما رزقناهم ينفقون) وقوله : (وانفقوا مما رزقناكم) وهذا هو الحلال الذي ملكه الله اياه .

واما الأول : فهو المذكور فى قوله : (وما من دابة فى الأرض الا على الله رزقها) وقوله : « ان نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها » ونحو ذلك .

والعبد قد يأكل الحلال والحرام فهو رزق بهذا الاعتبار ؛ لا بالاعتبار الثاني ، وما اكتسبه ولم ينتفع به هو رزق بالاعتبار الثانى دون الاول . فان هذا فى الحقيقة مال وارثه لا ماله ، والله اعلم .

سئل شيخ الاسلام

مفتى الأنام أوحد عصره فريد دهره : تقي الدين ابو العباس احمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية — رحمه الله ورضي عنه — .

عن الرجل : إذا قطع الطريق وسرق او اكل الحرام ونحو ذلك ، هل هو رزقه الذي ضمنه الله تعالى له أم لا ؟ أفتونا مأجورين .

فأجاب — الحمد لله : ليس هذا هو الرزق الذي اباحه الله له ، ولا يحب ذلك ولا يرضاه . ولا امره ان ينفق منه . كقوله تعالى : (ومما رزقناهم ينفقون) وكقوله تعالى : (وانفقوا مما رزقناكم) ونحو ذلك لم يدخل فيه الحرام ، بل من انفق من الحرام ، فان الله تعالى يذمه ويستحق بذلك العقاب فى الدنيا والآخرة ، بحسب دينه . وقد قال الله : (ولا تأكلوا اموالكم بينكم بالباطل) وهذا اكل المال بالباطل .

ولكن هذا الرزق الذي سبق به علم الله وقدره ، كما فى الحديث الصحيح عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « يجمع خلق احدكم في بطن امه اربعين يوما نطفة . ثم يكون علقة مثل ذلك . ثم يكون مضغة مثل

ذلك . ثم يبعث الله اليه الملك فيؤمر بأربع كلمات فيكتب رزقه وعمله واجله وشقي او سعيد » ، فكما ان الله كتب ما يعمله من خير وشر وهو يثيبه على الخير ويعاقبه على الشر ، فكذلك كتب مايرزقه من حلال وحرام ، مع انه يعاقبه على الرزق الحرام .

ولهذا كل مافى الوجود واقع بمشيئة الله وقدره ، كما تقع سائر الأعمال لكن لاعذر لأحد بالقدر ، بل القدر يؤمن به ، وليس لأحد ان يحتج على الله بالقدر ، بل لله الحجة البالغة ، ومن احتج بالقدر على ركوب المعاصي ، فحجته داحضة ، ومن اعتذر به فعذره غير مقبول ، كالذين قالوا : (لو شاء الله ما اشركنا ولا آباؤنا) والذين قالوا : (لو شاء الرحمن ماعبدناهم) كما قال تعالى : (ان تقول نفس ياحسرتى على مافرطت في جنب الله وان كنت لمن الساخرين او تقول لو ان الله هداني لكنت من المتقين) .

واما الرزق الذي ضمنه الله لعباده ، فهو قد ضمن لمن يتقيه ان يجعل له مخرجا ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ، واما من ليس من المتقين فضمن له ما يناسبه ، بأن يمنحه مايعيش به في الدنيا ، ثم يعاقبه فى الآخرة ، كما قال عن الخليل : (وارزق اهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر — قال الله — : ومن كفر فامتعه قليلا ثم اضطره إلى عذاب النار وبئس المصير) .

والله انما أباح الرزق لمن يستعين به على طاعته ، لم يبحه لمن يستعين به على معصيته ؛ بل هؤلاء وان اكلوا ماضمنه لهم من الرزق فانه يعاقبهم ، كما قال : (ومن كفر فامتعه قليلا ثم اضطره إلى عذاب النار وبئس المصير) وقال تعالى : (احلت لكم بهيمة الانعام إلا مايتلى عليكم غير محلى الصيد وانتم حرم) فانما اباح الانعام لمن يحرم عليه الصيد فى الاحرام .

وقال تعالى : (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين) فكما ان كل حيوان يأكل ما قدر له من الرزق ، فانه يعاقب على اخذ مالم يبح له ، سواء كان محرم الجنس ، او كان مستعينا به على معصية الله ، ولهذا كانت اموال الكفار غير مغصوبة بل مباحة للمؤمنين ، وتسمى فيئاً إذا عادت إلى المؤمنين ؛ لأن الأموال إنما يستحقها من يطيع الله لامن يعصيه بها ، فالمؤمنون يأخذونها بحكم الاستحقاق والكفار يعتدون فى انفاقها ، كما انهم يعتدون فى اعمالهم ، فاذا عادت الى المؤمنين فقد فاءت اليهم كما يفيء المال الى مستحقه .

وسئل

عن الخمر والحرام : هل هو رزق الله للجهال ؟ ام يأكلون ما قدر لهم ؟ .

فأجاب : ان لفظ « الرزق » يراد به ما اباحه الله تعالى للعبد وملكه إياه ، ويراد به مايتغذى به العبد .

(فالاول) كقوله : (وانفقوا مما رزقناكم) (ومما رزقناهم ينفقون) فهذا الرزق هو الحلال . والمملوك لايدخل فيه الخمر والحرام .

و (الثانى) كقوله : (وما من دابة فى الارض إلا على الله رزقها) . والله تعالى يرزق البهائم . ولا توصف بانها تملك . ولا بانه اباح الله ذلك لها إباحة شرعية ؛ فانه لا تكليف على البهائم — وكذلك الاطفال والمجانين — لكن ليس بمملوك لها وليس بمحرم عليها . وإنما المحرم [بعض] الذي يتغذى به العبد وهو من الرزق الذي علم الله انه يغتذى به . وقدر ذلك [بخلاف] ما اباحه وملكه . كما في الصحيحين عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « يجمع خلق احدكم في بطن امه

اربعين يوما نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الملك فيؤمر باربع كلمات فيقال اكتب رزقه واجله وعمله وشقي او سعيد ثم ينفخ فيه الروح . قال : فوالذي نفس بيده ان احدكم ليعمل بعمل اهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها الا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل اهل النار فيدخلها ، وإن احدكم ليعمل بعمل اهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل اهل الجنة فيدخلها » .

والرزق الحرام مما قدره الله ، وكتبته الملائكة ، وهو مما دخل تحت مشيئة الله ، وخلقه ، وهو مع ذلك قد حرمه ونهى عنه . فلفاعله من غضبه وذمه وعقوبته ماهو اهله — والله اعلم .

سئل الشيخ رحمه الله

عن قول الشيخ عبد القادر : نازعت اقدار الحق بالحق للحق .

فأجاب : الحمد لله .. جميع الحوادث كائنة بقضاء الله وقدره . وقد امرنا الله سبحانه ان نزيل الشر بالخير بحسب الامكان . ونزيل الكفر بالايمان والبدعة بالسنة ، والمعصية بالطاعة من انفسنا ومن عندنا ، فكل من كفر او فسق او عصى فعليه ان يتوب وان كان ذلك بقدر الله ، وعليه ان يأمر غيره بالمعروف وينهاه عن المنكر بحسب الامكان ، ويجاهد فى سبيل الله . وان كان ما يعمله من المنكر والكفر والفسوق والعصيان بقدر الله ، ليس للانسان ان يدع السعي فيما ينفعه الله به متكلا على القدر ، بل يفعل ما امر الله ورسوله ، كما روى مسلم فى صحيحه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال: « المؤمن القوي خير واحب الى الله من المؤمن الضعيف . وفى كل خير ، احرص على ماينفعك ، واستعن بالله ولا تعجزن . وان اصابك شيء فلا تقل : لو أني فعلت لكان كذا وكذا ، ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل فان لو تفتح عمل الشيطان » .

فامر النبي صلى الله عليه وسلم ان يحرص على ماينفعه . والذي ينفعه

يحتاج إلى منازعة شياطين الانس والجن ، ودفع ماقدر من الشر بما قدره الله من الخير . وعليه مع ذلك ان يستعين بالله فانه لا حول ولا قوة الا به . وان يكون عمله خالصاً لله ؛ فان الله لايقبل من العمل إلا ما اريد به وجهه وهذا حقيقة قولك : (إياك نعبد) والذي قبـله حقيقة (وإياك نستعين) فعليه ان يعبد الله بفعل المأمور وترك المحظور ، وان يكون مستعينا بالله على ذلك ، وفى عبادة الله وطاعته فيما امر ازالة ماقدر من الشر بما قدر من الخير ودفع ما يريده الشيطان ويسعي فيـه من الشر قبل ان يصل بما يدفعـه الله به من الخير .

قال الله تعالى : (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض) كما يدفع شر الكفار والفجار الذي في نفوسهـم والذي سعوا فيـه بالحق ، كاعداد القوة ورباط الخيل ، وكالدعاء والصدقة الذين يدفعان البلاء كما جاء فى الحديث : « ان الدعاء والبلاء ليلتقيان فيعتلجان بين السماء والارض » فالشر تارة يكون قد انعقد سببه وخيف فيدفـع وصوله ، فيدفـع الكفار اذا قصدوا بلاد الاسلام ، وتارة يكون قد وجد فيزال وتبدل السيئات بالحسنات وكل هذا من باب دفع ماقدر من الشر بما قدر من الخير ، وهذا واجب تارة ومستحب تارة .

فالذي ذكره الشيخ رحمه الله هو الذي امر الله به ورسوله .

والمقصود من ذلك ان كثيراً من أهل السلوك والارادة يشهدون ربوبية الرب ، وما قدره من الأمور التى ينهى عنها فيقفون عند شهود هذه الحقيقة الكونية ، ويظنون ان هذا من باب الرضا بالقضاء والتسليم ،وهذا جهل وضلال قد يؤدي إلى الكفر والانسلاخ من الدين . فان الله لم يأمرنا ان نرضى بما يقع من الكفر والفسوق والعصيان ، بل امرنا ان نكره ذلك وندفعه بحسب الامكان ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك اضعف الايمان » .

والله تعالى قد قال : (ولا يرضى لعباده الكفر) وقال : (والله لايحب الفساد) فكيف يأمرنا أن نرضى لأنفسنا مالا يرضاه لنا ، وهو جعل ما يكون من الشر محنة لنا وابتلاءاً كما قال تعالى : (وجعلنا بعضكم لبعض فتنة اتصبرون) وقال تعالى بعد امره بالقتال : (ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل اعمالهم) وفى صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « والذي نفسي بيده لايقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له . وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ان اصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وان اصابته ضراء صبر فكان خيراً له » .

فالمؤمن إذا كان صبوراً شكوراً يكون مايقضى عليه من المصائب خيراً

له . وإذا كان آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر مجاهداً في سبيله كان ماقدر له من كفر الكفار سبب للخير فى حقه ، وكذلك إذا دعاه الشيطان والهوى كان ذلك سبباً لما حصل له من الخير . فيكون مايقدر من الشر إذا نازعه ودافعه كما امره الله ورسوله سبباً لما يحصل له من البر والتقوى وحصول الخير والثواب وارتفاع الدرجات .

فهذا وامثاله مما يبين معنى هذا الكلام . والله أعلم .

وسئل عن قول الخطيب بن نباتة

ابرأ من الحول والقوة الا إليه : فأنكر بعض الناس عليه وقال ما يصح ذلك الا بحذف الاستثناء بان تقول ابرأ من الحول والقوة إليه ، فاستدل من نصر قول الخطيب بقوله تعالى: (انني براء مما تعبدون الا الذي فطرني فانه سيهدين) فهل اصاب المنكر ام لا ؟

فاجاب : ما ذكر الخطيب صحيح باعتبار المعنى الذي قصده ، وما ذكره الآخر من حذف الاستثناء له معنى آخر صحيح ؛ فانه اذا قال برئت من الحول والقوة اليه كان المعنى برئت اليه من حولي وقوتي : اي من دعوى حولي وقوتي ، كما يقال : برئت الى فلان من الدين ، ذكره ثعلب في فصيحه . والمعنى برئت اليه من هذا ومنه قوله تعالى : (ويوم يناديهم فيقول اين شركائي الذين كنتم تزعمون . قال الذين حق عليهم القول : ربنا هؤلاء الذين اغوينا اغويناهم كما غوينا تبرأنا إليك ما كانوا ايانا يعبدون) ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : « اللهم إني ابرأ إليك مما صنع خالد » وقول الانصاري يوم احد : اللهم اني ابرأ إليك مما صنع هؤلاء يعني المشركين .

وهذا الصنيع يتضمن نفي الدين : المعنى اوصلته اليه ، وفى غيره اعتذرت اليه ، او القيت اليه وضمن معنى القيت اليه البراءة . كما يقال : القى اليه القول ، (والقوا اليهم القول إنكم لكاذبون . والقوا الى الله يومئذ السلم) ومنه قوله تعالى : (وكلمته القاها الى مريم) فالتبري قول ياتى الى المخاطب ، فعلى هذا يكون الجار والمجرور متعلقاً بالبراءة .

والخطيب لم يرد هذا المعنى .بل اراد انه بريء من ان يلجيء ظهره الا الى الله ويفوض امره الا الى الله ، ويتوجه فى امره الا الى الله، ويرغب فى امره الا الى الله . قال النبي صلى الله عليه وسلم للبراء بن عازب : « اذا اويت الى مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ثم قل : اللهم انى اسلمت نفسي اليك ، ووجهت وجهي اليك ، وفوضت امري اليك ، والجأت ظهري اليك ، رغبة ورهبة اليك ، لا ملجأ ولا منجأ منك الا اليك » فمعنى قوله : وابرأ من الحول والقوة الا اليه ، ابرأ من ان اثبت لغيره حولا وقوة التجيء اليه لأجل ذلك ، والمعنى لا اتوكل الا عليه ولا اعتمد الا عليه .

وهنا معنى ثالث : وهو ان يقال : ابرأ من الحول والقوة الا به ، اي ابرأ من ان اتبرأ واعتقد وادعي حولاً او قوة الا بـه ، فانه لا حول ولا قوة الا به ، وهـذا معنى صحيح . لكن الخطيب قصد المعنى الاوسط الذي يدل لفظه [عليه] ، فانه من له حول وقوة يلجأ اليه ويستند اليه . فضمن معنى الحول والقوة معنى الالتجاء ، فصار التقدير ابرأ من الالتجاء الا اليه ، وعلى

هذا الحال فالجار والمجرور متعلق بمعنى الالتجاء الذي دل عليه لفظ الحول والقوة ، لا معنى ابرأ ، ولما ظن المنكر على الخطيب ان الجار والمجرور متعلق بلفظ ابرأ ، انكر الاستثناء ، ولو اراد الخطيب هذا لكان حذف حرف الاستثناء هو الواجب . لكن لم يرده بل اراد مالا يصح الا مع الاستثناء ، والاستثناء مفرغ ، فرغ ما قبل الاستثناء لما بعده ، والمفرغ يكون من غير الموجب لفظاً او معنى .

ولفظ « البراءة » وان كان مثبتاً ففيه معنى السالب ، فهو كقوله : (والذين هم لفروجهم حافظون الاعلى ازواجهم او ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين)

فالحفظ لفظ مثبت لكن تضمن معنى ماسوى المذكور ، فالتقدير لا يكشفونها الا على ازواجهم ، وكذلك لفظ البراءة ، وقول الخليل : (انني براء مما تعبدون الا الذي فطرني) استثناء تام ذكر فيه المستثنى منه ، لكنه يدل على انه تبرأ من شيء لامن لاشيء. والمطابق له ان يقال برئت من الحول والقوة الى كل شيء الا اليه .

لكن المستدل بالآية اخذ قدراً مشتركا . وهو التبري مما سوى الله ، وهذا المعنى الذي قصده المستدل بالآية معنى صحيح باعتبار دلالته على التوحيد ، وهو البراءة مما سوى الله ، وقد ذكر الله هذا المعنى في مواضع . كقوله تعالى : (قد كانت لكم اسوة حسنة فى ابراهيم والذين معه اذ قالوا

لقومهم انا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء ابداً حتى تؤمنوا بالله وحده) وهذا يناسب مقصود الخطيب .

فان مقصوده ان يتبرأ مما سوى الله ليس مقصوده ان يتبرأ إليه ، لكن الخطيب قصد البراءة من الالتجاء الا اليه . والالتجاء إليه داخل فى عبادته . فهو بعض ما دل عليه قول ابراهيم ، فان الواجب ان يتبرؤا من ان يعبدوا الا الله او يتوكلوا الا عليه، وهذا تحقيق التوحيد الذي بعث الله به الرسل وانزل به الكتب ، لكن الانسان قد يكون مقصوده اخلاص العبادة فى مسألته ودعائه والتوكل عليه والالتجاء إليه : وهذا هو المعنى الذي قصده الخطيب ، وهو معنى صحيح يدل عليه لفظه بحقائق دلالات الألفاظ . والمنكر قصد معنى صحيحاً ؛ والمستدل قصد معنى صحيحاً ، لكن الانسان لاينوى كثيراً من نفى ما لا يعلم الا من اثبات ما يعلم ، والله سبحانه وتعالى اعلم .؟

آخر المجلد الثامن

فهرس المجلد الثامن

صفحة	الموضوع
٧ – ٥٨	« فصل في قدرة الرب »

صفحة	الموضوع
٣٤	يفتتح الله خطابه بالحمد ويختم الامور بالحمد
٣٤	التوحيد أول الدين وآخره
٣٥	معرفة آلاء الله وشكره متلازمان وما كان من آلائه فهو من آيـاته ، الشكر والذكر متلازمان
٣٥ ـ ٣٧	كل من خلقه الله فله فيه حكمة والحكمة تتضمن شيئين
٣٧ ـ ٥٨	أقوال الناس فى الحكمة فى الخلق والامر وفى اللام فى قـــوله (الا ليعبدون)
٥٨ ـ ٦٢	« وسئل عن تفصيل الارادة والاذن والكتاب والحكم والقضاء والتحريم وغير ذلك مما هو ديني او كوني » .
٥٨ ـ ٦١	هذه الامور تنقسم الى نوعين
٥٩ ، ٦٠	انقسام الناس فى شهود الحقيقة الكونية والشرعية
٦٢	« سئل عن أقوام يقولون المشيئة مشيئة الله فى المـاضي وفى المستقبل وأقوام يقولون فى المستقبل » .
٦٣ ـ ٦٥	« ما تقول السادة فى جماعة اختلفوا فى قضاء الله وقدره منهم من يرى أن الخير من الله والشر من النفس » .
٦٥ ـ ٦٨	« سئل عن حديث ان الله قبض قبضتين الخ وهل قبضها بنفسه وحديث إن الله لما خلق آدم أراه ذريته الخ » .
٦٥ ـ ٧٠	صحة هذا الحديث ، هذه الاحاديث فيها فصلان (١) القـــدر السابق ، انكاره كفر ، أدلة ذلك
٧٠ ، ٧١	اثبات الاسباب وربطها بالمسببات ، باء السبب فى الآيـــات والاحاديث ، الاعراض عن الاسباب
٧٠ ـ ٧٢	ضل فريقان من الناس فى القدر والاخذ بالاسباب
٧٣ ـ ٧٦	لا بد من الايمان بالشرع والقدر جميعا ، شرح حديث احرص على ما ينفعك
٧٤ ، ٧٥	كل ميسر لما خلق له ، ليس كل من ابتلاه الله فقد أهانه
٧٦ ، ٧٧	للعبد حال قبل القدر وحال بعده ، وكذلك فى الامر

صفحة	الموضوع
٧٨ ــ ٨١	سئل عن الباري هل يضل ويهدي » .
٧٨ ، ٧٩	كل ما فيالوجود مخلوقلله كائن بمشيئته وقدرته ولحكمة وبسبب
٧٩	تفسير والله خلقكم وما تعملون
٨١ ــ ١٥٨	« سئل عن حسن إرادة الله لخلق الخلق ، وهل يخلق لعلة أو لغير علة الخ » أو « أقوم ما قيل فى القضاء والقدر والحكمة والتعليل » .
٨١	هذه المسألة من أجل المسائل واكبرها
٨٢ ، ٨٣	تكلم الناس فى تعليل الاحكام الشرعية والامر والنهى وفى تنزيه الله عن الظلم وفى محبته ورضاه وسخطه وهل يحب ما وقع من المعاصي ونحو ذلك
٨٣ ، ٨٤	لا يخرج أحد من الناس فى هذا الاصل عن أحد تقديرات ثلاثة (١) قول من يقول خلق وأمر لا لعلة ، من قال بهذا ، وحجته
٨٤ ــ ٨٨	التقدير الثانى قول من يجعل العلة الغائية قديمة كما يجعل الفاعلية قديمة أيضا ، من قال بهذا وحجته وردها
٨٨ ــ ٩٠	التقدير الثالث انه فعل وأمر لحكمة محمودة ، من قال بهذا على أقوال (١) من أثبت حكمة مخلوقة منفصلة عنه
٩٠ ــ ٩٣	« مسألة التحسين والتقبيح العقلى » ما يجب على الله وما يحرم عليه عندهم
٩٣ ، ٩٤	ارسال الرسل لعموم الخلق نعمة وحكمة . ان قيل تضرر برسالته طائفة من الناس فعنه جوابان
٩٤ ، ٩٥ ، ١٢٣ ــ ١٢٥	الحكمة فى خلق الشر والامراض والغموم وفى ايلام الحيوان ، لم يجىء فى الكتاب والسنة اضافة الشر وحده الى الله بل لا يذكر الا على أحد وجوه ثلاثة
٩٦	وليس من أسماء الله ما يتضمن الشر ، الشر فى مفعولاته
٩٦	المنتقم ليس من أسماء الله ، الكلام على ما روى فى عدد أسماء الله
٩٧	ما يكفى العبد فى معرفة الحكمة ، وكيف يزداد علما بها وبالرحمة
٩٧ ــ ١٠٣ ، ١٤٠ ــ ١٤٢	مذهب جمهور المسلمين فى باب القدر ومذهب المعتزلة ، قابل هؤلاء من قصر فى الامر والنهى والوعد والوعيد وهم شر الطائفتين
١٠٠	مسالة نكاح نساء المشركين والمجوس وأكل ذبائحهم

صفحة	الموضوع
١٠١ ـ ١٠٣	توحيد أهل الكلام الذى تابعهم فيه بعض المتصوفة هو توحيد المشركين
١٠٣ ـ ١٠٥	القائلون بالجبر يدخلون فى مسمى القدرية فكيف بمن يحتج بالقدر على المعاصى
١٠٥ ـ ١٠٧	بدعة القدرية تشبه بدعة المرجئة ولذلك قرن بينهما ، الاحتجاج بالقدر ممتنع عقلا وشرعا
١٠٧ ـ ١١٥	الناس فى الشرع والقدر على أربعة أنواع وهى ...
١٠٨ ، ١٠٩	احتجاج آدم وموسى
١١٠ ـ ١١٧	تنازع كثير من مثبتى القدر ونفاته فى قوله (أينما تكونوا يدركم الموت الى قوله فمن نفسك) ، الآية حجة على من احتج بالقدر وعلى من كذب به ، تفسير هذه الآية وما قبلها وما فى معناها
١١٦	خص المؤمن بنعمة لم يخص بها الكافر
١١٧ ، ١١٨ ، ١٢١ ـ ١٢٥	مذهب السلف ـ مع اثبات القدر ـ أن العبد فاعل حقيقة وله مشيئة وقدرة
١١٨ ـ ١٢٥ ، ١٢٨	مذهب المعتزلة ومذهب من أثبت الكسب ومال الجبر معنى الكسب عندهم جواب الناس لهم
١٢٢ ـ ١٢٥	الفرق بين الفعل والمفعول والخلق والمخلوق وما يضاف الى الله وما يضاف الى العبد من ذلك ، معنى قبح الافعال وسوءها وضررها
١٢٥	تسلم القدرية أن الله يخلق فى العبد كفرا وفسوقا على سبيل الجزاء
١٢٥ ، ١٢٦	المعتزلة مشبهة فى الافعال معطلة فى الصفات ايضاح ذلك ورده .
١٢٦ ـ ١٣٩	استطالة المعتزلة على الاشاعرة بسبب موافقتهم لهم فى نفى أفعال الله حتى اضطروهم الى أن جعلوا تأثير القدرة هى بمجرد الاقتران اعتصم أهل السنة باثبات الصفات والافعال
١٢٨	سبب تسلط أهل البدع على من انتسب الى السنة واخراجهم من الدين
١٢٩ ، ١٣٠	لفظ التأثير والجبر والرزق ألفاظ مجملة ، بيان أجمالها
١٢٩ ، ١٣٠	لفظ القدرة يتناول معنيين (١) القدرة الشرعية المصححة للفعل (٢) القدرة الموجبة له
١٣٠	النزاع فى مسألة الاستطاعة وتكليف ما لا يطاق
١٣١	هل يأمر الله بما لا يريد أو لا يأمر الا بما يريد ، الارادة ارادتان
١٣١ ـ ١٣٩	ما يراد بلفظ الجبر والرزق والتأثير ، سبب منع الأئمة من اطلاق لفظ الجبر
١٣٣	اثبات الاسباب ، ليس هناك سبب يوجب وجود مسببه
١٣٣ ، ١٣٤	خطأ المتفلسفة فى قولهم الواحد لا يصدر عنه الا واحد واعتبارهم ذلك بالآثار الطبيعية

صفحة	الموضوع
	المشرق الى المغرب ولكل فلك حركة تخصه وليست مستقلة بتحريك هذه الاجسام
١٧١	الحركات اما طبيعية أو ارادية أو قسرية
١٧٤ ، ١٧٥	قوله لا يخاف لا ذنبه
١٧٥ ـ ١٧٩	معنى قولهم محو الاسباب نقص فى العقل وقولهم الاعراض عن الاسباب بالكلية قدح فى الشرع
١٧٦	الدعاء والتوكل من أعظم الاسباب ، غلط من قال ما قدر لى فهو يحصل ان دعوت أو لم أدع
١٧٨	مسالة احتجاج آدم وموسى
١٧٩ ، ١٨٠	من الاخطاء فى فهم الايمان بالقدر غلط الاباحية و ...
١٨١ ـ ١٩٧	« ما تقول السادة فى قوله إنما أمره إذا أراد شيئا الآية . فان كان المخاطب موجوداً فتحصيل الحاصل محال وإن كان معدوماً فكيف يتصور خطاب المعدوم وفى اللام فى قوله (إلا ليعبدون) وفيما ورد فى الرضا بالقضاء وفى قوله جف القلم بما هو كائن وإن كان الدعاء بما هو كائن فما فائدة الأمر به » .
١٨٢ ، ١٨٣	المسألة الاولى مبنية على أصلين (١) الفرق بين خطاب التكوين وخطاب التكليف (٢) أن المعدوم فى حال عدمه هل هو شىء أم لا ؟
١٨٤ ـ ١٨٦	قوله (كن) متوجه الى شىء معلوم مقدر قبل ابداعه ، وهو شىء باعتبار وجوده العلمى لا العينى
١٨٦ ـ ١٩٠	فصل المسألة الثانية قول السائل ان كانت اللام فى ليعبدون للصيرورة فما صار ذلكوان كانتللغرض لزم أن لايختلف أحد...
١٨٧ ـ ١٩٠	الارادة فى كتاب الله على نوعين ، فكانت الاقسام أربعة
١٩٠ ـ ١٩٢	فصل المسألة الثالثة فى الجواب عن قوله ان الاخبار جاءت بالرضا بالقضاء فان كانت المعاصى بغير قضاء الله فمحال وان كانت بقضائه فكراهتها كراهة لقضاء الله
١٩٢ ـ ١٩٦	فصل المسألة الرابعة ما معنى قوله ادعونى استجب لكم مع قوله جف القلم بما أنت لاق وان كان الدعاء لامر كائن فما فائدة الامر به

صحيفة	الموضوع

صفحة | الموضوع

صفحة	الموضوع
	وقد سبقنا وجود الاعمال ، السابق هو تقديرها لانفسها
٢٨٢ ـ ٢٨٧	الغلط فى معنى « متى كنت نبيا » الخ وفى ترك العمل أو الدعاء أو التوكل اعتمادا على القدر
٢٨٦ ، ٢٨٧	سؤال يعرض لبعض الناس وهو اذا كان المكتوب واقعا لا محالة فلو لم يأت العبد بالعمل هل كان المكتوب يتغير ولو لم يقتله هذا لم يمت ؟
٢٨٨ ، ٢٨٩	مذاهب أصناف القدرية وتناقضهم
٢٨٩ ـ ٢٩٣	هل يكون العبد قادرا على غير الفعل الذى فعله وسبق به العلم والكتاب ؟
٢٩٠ ـ ٣٠٢	هل يجب أن تكون الاستطاعة مع الفعل أو يجب أن تتقدمه ومسألة تكليف ما لا يطاق وفصل النزاع فيها
٢٩٢	هل يقدر الله على خلاف ما علم وأخبر أنه لا يكون أم لا يقدر الا على ما وجد
٣٠٣ ـ ٣٧١	« وقال فصل فى قوله فحج آدم موسى » .
٣٠٣ ـ ٣٠٧	ظن بعض الناس أن آدم احتج بالقدر على نفى اللوم على الذنب وصاروا ثلاثة أحزاب
٣٠٧	مذهب بعض الفلاسفة فى القدر ، الرازى جبرى
٣٠٧ ، ٣٠٨	مذهب الاتحادية ، الجمع بين الشرع والقدر
٣٠٨ ـ ٣١١	بحث فى الحسن والقبح هل يعلمان بالعقل أو بالشرع
٣١٠ ـ ٣١٥	الفناء والحال عند المتصوفة وحكم ما قد يتكلمون به أحيانا
٣١٣ ـ ٣١٩	مذهب الحلاج وعلام قتل ؟
٣١٩ ـ ٣٣٢	فصل الصواب فى قصة آدم أن موسى لامه على المصيبة لا على مخالفة الامر ، ما يجب على العبد عند المصيبة والامر والذنب
٣٢٤ ، ٣٢٥	فصل فقد تبين أن آدم حج موسى لما قصد موسى أن يلوم من كان سببا فى مصيبتهم
٣٢٥ ، ٣٢٦	تفسير واصبر لحكم ربك ، حكم الله نوعان ، هل هذه الآية منسوخة بآية السيف ؟
٣٢٦ ـ ٣٣٦	تفسير والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظلموا ، من هو المهاجر ؟
٣٣٠ ، ٣٣١	أفضل الادعية وأوجبها سؤال هداية الصراط المستقيم
٣٣٢ ـ ٣٣٥	أقسام الناس فى الغضب لله أو للنفس والقدر والامر والصبر
٣٣٤ ـ ٣٣٥	الدعاء على المعين فى الصلاة وخارجها ، دعاء نوح وموسى على قومهما كان بعد العلم بأنهم لن يؤمنوا
٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤	فصل الذين يسلكون الى الله محض الارادة

صفحة　　　　　　　　　　الموضوع

صفحة الموضوع

صفحة	الموضوع
٤١٤	من حجج الجهمية قولهم القرآن هو الله أو غير الله الخ ، جـــواب السلف عنها
٤١٦ ــ ٤٢٠	شبه احمد قول حلولية الجهمية بقول النصارى . وبين أن كـــلام الآدميين مخلوق . فضلا عن أعمالهم
٤٢١ ــ ٤٢٢	فصل وأما الاستثناء في الماضي المتيقن فهو بدعة لم يقل بها الا بعض المرازقة ولم يقله شيخهم ولا شيخه أبو يعلى
٤٢٣	منع السلف من اطلاق القول بأن الايمان مخلوق وأن اللفظ بالقرآن مخلوق فجاء أقوام أطلقوا نقيض ذلك وجاء آخرون ففرعوا على ذلك
٤٢٣ ، ٤٢٤	ابتدع أقوام أن حروف القرآن ليست من كلام الله وأن كلام الله معنى قائم بذاته الغلط على ابن كلاب في مذهبه في القرآن
٤٢٥ ــ ٤٢٧	حجة من استثنى في الامور الماضية المجزوم بها ، الوارد في الشرع هو الاستثناء في المستقبل ، الاستثناء المأثور عن السلف والأئمة
٤٢٨ ــ ٤٣٧	« وقال فصل وإما مسألة تحسين العقل وتقبيحه » .
٤٢٨ ــ ٤٣٠	من نازع في هذه المسألة ، لم ينكر القدر السابق الا غلاة القدرية دون مقتصديهم ، مذهب جمهور المسلمين في القدر والاسباب
٤٣١ ، ٤٣٢	لا ملازمة بين مسألة التحسين والتقبيح ، وبين مسألة القدر ، الناس في مسألة التحسين والتقبيح طرفان ووسط ، الاول ...
٤٣١ ، ٤٣٢	اليهود وصفوا الله بالنقائص ، لا تمثل أفعال الله بأفعال المخلوقين
٤٣٢ ــ ٤٣٦	الطرف الآخر يعلم حسن الاشياء بثلاثة أمور ، ما لم يفهمه المعتزلة والاشاعرة من ذلك
٤٣٧ ــ ٤٤٨	« سئل عن العبد هل يقدر أن يفعل الطاعة إذا أراد أم لا وإذا أراد أن يترك المعصية هل يكون قادراً على تركها أم لا وإذا فعل الخير نسبه إلى الله وإذا فعل الشر نسبه إلى نفسه » .
٤٣٧ ــ ٤٣٩	اذا أراد العبد الطاعة ارادة جازمة كان قادرا عليها وكذلك اذا أراد ترك المعصية ، النزاع في ذلك الجبرية واحتجوا بقصة أبي لهب وأجيبوا
٤٣٩ ، ٤٤٠	المتمكن من فعل الطاعة مع الضرر لا يعتبر قادرا في الشرع
٤٤٠ ــ ٤٤٢	الارادة في كتاب الله على نوعين ، نزاع الناس في القدرة هل يجب ان تكون مقارنة للفعل او متقدمة عليه

صفحة	الموضوع

صفحة	الموضوع
٤٧٨ ، ٤٧٩	فصل اذا عرف هذا فنقول : اما قول القائل كيف يكون العبد مختارا لافعاله وهو مجبور عليها
٤٨٠	قوله ان العلماء قد صرحوا بأن العبد يفعلها قسرا
٤٨١ ، ٤٨٢	فصل وأما قول الناظم : لانهم قد صرحوا انه على الارادات لمقسور
٤٨٢ ــ ٤٨٤	فصل وأما قول الناظم : ولم يكن فاعل أفعاله ، حقيقة والحكم مشهور
٤٨٣ ، ٤٨٤	المعنى اذا قام بمحل عاد حكمه على ذلك المحل ...
٤٨٤ ــ ٤٨٦	فصل وأما قول الناظم : ومن هنا لم يكن للفعل في ما يلحق الفاعل تأثير
٤٨٤ ــ ٤٨٧	يراد بلفظ التأثير ... للسبب تأثير في مسببه وليس علامة محضة ، القرآن مملوء بذكر الحكمة في الخلق والامر
٤٨٦	الافعال سبب للمدح والذم والثواب والعقاب
٤٨٦ ، ٤٨٧	الفقهاء المثبتون للاسباب والحكم قسموا خطاب الشرع وأحكامه الى قسمين
٤٨٨	فصل وقوله (وما تشاؤن الا أن يشاء الله) لا يدل على أن العبد ليس بفاعل ولا قادر ولا مريد حقيقة ، هذه الآية رد على الطائفتين
٤٨٨ ، ٤٨٩	ان قالوا المراد وما تشاؤن فعل ما أمر الله به ان لم يأمر الله به
٤٩٠	فصل قول الناظم : (وكل شيء) ثم لو سلمت لم يك للخالق تقدير
٤٩١ ، ٤٩٢	فصل قول الناظم او كان فاللازم من كونه حدوثه والقول مهجور
٤٩١ ــ ٤٩٥	مما يدل على أن الله يعلم الاشياء قبل أن تكون قوله واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الارض خليفة الآية وقوله ... واخبار الرسول ....
٤٩٦ ، ٤٩٧	هل العلم المذكور فى نحو قوله (الا لنعلم) هو تجدد ــ نسبة واضافة بين العلم والمعلوم أو علم بكون الشيء ووجوده وهو غير العلم بأنه سيكون
٤٩٧ ــ ٤٩٩	فصل وأما قوله : ولا يقال علم الله ما يختار فالمختار مسطور
٥٠٠	لو شاء الله أن يفعل أمورا لم تكن لفعلها لقدرته عليها
٥٠١	فصل وأما قوله : والجبر ان صح يكن مكرها وعندك المكره معذور معنى الجبر والاكراه والاختيار

صفحة	الموضوع
٥٢٩ ، ٥٣٠	حمل الزاد فى الحج وغيره من طاعة الله ، زعمت طائفة ان من تمام التوكل أن لا يحمله
٥٣٠	بعض الجهال بالتوكل كان لا يمد يده الى الطعام حتى يوضع فى فمه واذا وضع يطبق فمه حتى يفتح
٥٣٠	ظن بعض الناس أن الدعاء والتوكل لا تاثير له في حصول المطلوب ولكنه عبادة محضة أو مجرد علامة ، والصواب ...
٥٣٢ ، ٥٣٣	فصل من السالكين من يكون مع قيامه بما أمر الله به عاجزا عن الكسب . فالاول أهل الصدقات ، والثانى أهل الفيء ، ومن الصالحين من يمكنه الكسب مع ذلك
٥٣٣	قول القائل : ان الغذاء والقوام هو من فعل الله فلا يمكن طلبه
٥٣٤ ، ٥٣٥	قول القائل ان الله يفعل بسبب وبغير سبب فمن أين لنا طلب السبب ، من اسباب الرزق ما هو معتاد ، ومنها ما هو نادر
٥٣٥ ، ٥٣٦	قول القائل : ان الله ضمن الرزق ضمانا مطلقا وكيف يطلب ما لا يعرف مكانه ؟
٥٣٦	فصل اذا عرف ذلك فمن الكسب ما يكون واجبا ومنه ما يكون مستحبا
٥٣٧	فصل وأما قول القائل ان الانبياء والاولياء لم يطلبوا رزقا
٥٣٨ ، ٥٣٩	زهد الصديق ، خطأ من يدعى التوكل ويخرج ماله كله ظانا انه مقتد به وهو ياخذ من الناس
٥٣٨ ، ٥٣٩	تحرم مسألة الناس الا عند الضرورة ، سؤال العبد حاجته من الله من أفضل الطاعات ، ومنه ما هو واجب
٥٣٩	قد يحتج من لا يرى سؤال الله بما روى « حسبى من سؤالى علمه بحالى »
٥٤٠ ــ ٥٤٢	« سئل عن الرزق هل يزيد أو ينقص ، وهل هو ما أكل او ما ملكه العبد » .
٥٤٠ ، ٥٤١	الرزق نوعان ، قد يزيد الله فى رزق العبد أو عمره عما كتبته الملائكة لاسباب
٥٤١	فصل والرزق يراد به شيئان (١) ما ينتفع به العبد (٢) ما يملكه
٥٤٢ ــ ٥٤٥	« سئل عن الرجل إذا قطع الطريق وسرق او أكل الحرام هل هو رزقه الذي ضمنه الله » .

صفحة	الموضوع
٥٤٢ ـ ٥٤٤	ليس الحرام هو الرزق الذى أباحه الله له وأمره أن ينفق منـــه ، الرزق الذى ضمنه الله لعباده
٥٤٥ ـ ٥٤٦	« سئل عن الخمر والحرام هل هو رزق الله للجهـال أم يأكلون ما قدر لهم » . الرزق نوعان .
٥٤٧ ـ ٥٥١	« سئل عن قول الشيخ عبد القادر نازعت أقدار الحق بالحق للحق » .
٥٤٧ ـ ٥٥٠	جميع الحوادث كائنة بقضاء الله وقدره ، وقد أمرنا الله أن نزيل الشر بالخير ونستعين بالله
٥٤٩	كثير من أهل السلوك والارادة يقفون عند شهود الحقيقة الكونية ، ويظنون أن هذا من باب الرضا بالقضاء
٥٥١ ـ ٥٥٤	« نسئل عن قول الخطيب بن نباتة أبرأ مـن الحول والقوة إلا إليه فأنـكر عليه بعض الناس الخ » .
٥٥١ ـ ٥٥٤	ما ذكر الخطيب صحيح باعتبار المعنى الذى قصده ، مراد الخطيب هنا معنى ثالث

